ألفريدة يلينيك

معلّمة البيانو



رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

طوى
للنشر والإعلام

ألفريدة يلينيك

معلّمة البيانو

روايـة

ترجمة

خالد الجبيلي

طوى
للنشر والاعلام

الفريدة يلينيك

معلّمة البيانو

ولدت ألفريدة يلينيك في ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٦ في مدينة موررزو شلاغ بجنوب النمسا، ودرست الموسيقى والمسرح وتاريخ الفنون في فيينا. حازت على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٤. وتُعتبر يلينيك كاتبة يسارية مثيرة للجدل، وتتسم معظم أعمالها بالسوداوية، وتتطرق إلى مواضيع حساسة وصعبة كالعلاقات الجنسية والسلطة والضغوط الاجتماعية.

Book: Die Klavierspielerin
الكتاب : معلّمة البيانو
Author: Elfriede Jelinek
المؤلف: ألفريدة يلينيك
المترجم : خالد الجبيلي
First Edition: 2013
الطبعة الأولى ٢٠١٣

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع : منشورات الجمل
باب المعظم، مجاور كلية الهندسة - الجامعة المستنصرية
موبايل: ٠٧٩٠١٥٤٤١٨٣ - ٠٧٧٠٣٢٨٨٦٠٢
٠٧٨٠٦٢٣٤٥١٤ - ٠٧٧١٠٣٤٥٧٥٧
بغداد - العراق

Elfriede Jelinek: *Die Klavierspielerin*, roman, 1983

القسم الأول

تندفع معلّمة البيانو، إريكا كوهوت، كزوبعة إلى داخل الشقّة التي تقطنها هي وأمّها، التي يحلو لها أن تطلق على ابنتها «زوبعتها الصغيرة»، لأن الطفلة أشبه بعفريت صغير ذي سرعة مخيفة، وهي لا تكف عن محاولة التهرب من أمّها. وفي حين أن إريكا في أواخر الثلاثينات من عمرها، فإن أمّها في عمر قد يجعلها في عمر جدتها. فقد رأت الطفلة النور بعد سنوات طويلة ومضنية من الزواج، لكن الأب غادر هذه الحياة بسرعة، وسلّم الراية إلى ابنته. فما إن ولجت إريكا من باب الحياة، حتى خرج أبوها منه. وفي نهاية الأمر، تعلّمت إريكا كيف تتحرّك بسرعة شديدة، بل تعين عليها أن تفعل ذلك. أما الآن فهي تندفع إلى الشقّة مثل حفنة من أوراق الشجر الخريفية، تحدوها رغبة في أن تتمكن من الدخول إلى غرفتها دون أن يلحظها أحد. لكن أمّها تلوح أمامها، تقف في مواجهتها. تسند إريكا إلى الحائط، فهي المحقّق والمستنطق والجلاد في آن واحد، بإقرار وإجماع من الدولة والأسرة. تبدأ في التحقيق معها: لماذا تأخرت إريكا كثيراً في العودة إلى البيت؟ فقد صرفت إريكا آخر طالب من صفها منذ ثلاث ساعات، بعد أن أمطرته بوابل من عبارات السخرية والازدراء. أتظنين أني لن أكتشف أين كنتِ يا إريكا. يجب على الطفلة أن تعترف لأمّها

دون أن تُسأل. لكن الأمّ لا تصدقها أبداً لأن إريكا تنحو إلى الكذب. الأمّ تنتظر. تبدأ بالعد إلى ثلاثة.

عندما تصل إلى الرقم اثنين، تعطيها إريكا جواباً يجانف الحقيقة. تنتزع من يدها حقيبتها المليئة بالنوطات الموسيقية، وتجد الأمّ في الحال الجواب الممض عن جميع الأسئلة التي تريد أن تطرحها عليها. فقد انحشر باستياء ثوب جديد بين أربعة مجلدات من سوناتات بيتهوفن. تبدي الأمّ امتعاضها لأنها اشترت ثوباً جديداً. كان الثوب، المثقوب بفعل خطّاف، يبدو شديد الإغراء في المحل، شديد النعومة، أملس، ذا ألوان بهيجة وجميلة. أما الآن فهو ملقى هناك، قطعة قماش متهدلة، تثقبه نظرات الأمّ الحادة. كان من المفترض أن تودع النقود في صندوقهما للتوفير، لكنها أُنفقت قبل الأوان. كان ينبغي رؤية ثمن الثوب مقيداً في دفتر التوفير - وإذا توجهت إلى خزانة الملابس، لرأيت دفتر التوفير يمدّ رأسه خلسة من بين كومة من الشراشف. أما اليوم، فقد خرج دفتر التوفير من مكمنه، وسُحب منه مبلغ، ويمكن تبين نتيجة ذلك الآن. يجب على إريكا أن ترتدي هذا الثوب عندما تتساءلان أين تذهب النقود. تصرخ الأمّ: إنك تبذّرين مستقبلك! فمن الممكن أن يصبح لدينا شقّة جديدة ذات يوم، لكنّك لا تقوين على الانتظار. فكلّ ما تملكينه الآن مجرد خرقة، سرعان ما ستبطل موضتها. إن الأمّ تريد كلّ شيء «ذات يوم». إنها لا تريد شيئاً الآن - إلا الطفلة. وتريد دائماً أن تعرف أين يمكنها أن تجد مكان الطفلة إذا ما حدث طارئ ما، إذا كانت الأمّ على وشك أن تصاب بنوبة قلبية. الأمّ تريد أن توفّر قدراً من المال الآن لتتمتّع به ذات يوم في المستقبل. ورغم ذلك، تذهب إريكا وتشتري ثوباً، من بين كلّ الأشياء! شيء سريع الزوال لا يعدو كونه أكثر من مسحة من المايونيز في شطيرة سردين. فسرعان ما سيصبح هذا

الثوب بالياً تماماً وتبطل موضته - حتى قبل أن تنقضي السنة القادمة، بل في الشهر القادم. أما النقود فلا يمكن أن تبطل موضتها أبداً.

إنهما توفران مبلغاً لشراء شقّة كبيرة خاصة بهما. فالشقّة الضيقة المستأجرة التي تقيمان فيها حالياً قديمة ومتداعية، وينبغي أن تتركاها. وعندما تقرّران شراء شقّة، سيكون بإمكانهما تحديد مكان خزائن الملابس والقواطع الفاصلة. إذ يستخدم حالياً نظام بناء جديد تماماً. كلّ شيء مصمم وفق الطلب، وفق رغباتك الدقيقة. تدفع مالك وتحصل على ما تريد. الأمّ تختار، الأمّ التي لا تملك سوى راتب تقاعدي ضئيل، وإريكا تدفع. وفي الشقّة الجديدة، الحديثة للغاية، سيكون لكلّ من الأمّ وابنتها، عالمها الخاص. إريكا هنا، والأمّ هناك، عالمان منقسمان بعناية شديدة. إلا أنه ستكون لهما غرفة جلوس مشتركة تلتقيان فيها، إن شاءتا. ومن المؤكد أنهما ستفعلان ذلك، لأن الواحدة منهما ترتبط بالأخرى. فحتى هنا، في هذه المزبلة، الآيلة إلى الخراب، يوجد لإريكا عالمها الخاص، مكانها الخاص، الذي تحكمه وتُحكم منه. إنه مجرد عالم مؤقّت، إذ يمكن للأمّ أن تدخله في أي وقت تشاء. فليس ثمة قفل على باب إريكا. طفلة ليس لها أسرار تخبئها عن أمّها.

أما فضاء إريكا الحيّ فيتألف من غرفتها الصغيرة، حيث يمكنها أن تفعل ما تريد. قد لا يتدخل أحد في شأنها. فهذه الغرفة ملكها. أما عالم الأمّ، فهو كلّ ما تبقى من الشقّة: إنها ربّة البيت، المسؤولة عن كلّ شيء. فهي تقوم برعاية البيت، في حين تتمتع إريكا بثمار عمل أمّها. إذ لم تطلب الأمّ من إريكا أبداً أن تقوم بأي عمل منزلي، لأن ماسحات الغبار والمطهّرات تخدش يديّ عازفة البيانو وتتلفهما.

وأثناء فترات الاستراحة التي نادراً ما تحصل الأمّ عليها، ينتابها

القلق بين الحين والآخر بسبب أشيائها الكثيرة والمتنوعة. فهي لا تعرف دائماً أين وضعت الكثير من الأشياء، إلا المكان الذي توجد فيه إريكا، ملكيتها المتململة؟، أين تتجوّل؟، هل هي وحدها أم مع شخص آخر؟ إريكا البالغة الحيوية كالزئبق. لماذا، فلعلها تجري هنا وهناك في هذه اللحظة بالذات، نحو أمور لا تجدي نفعاً. ورغم ذلك، تظهر الفتاة في كلّ يوم في المكان الذي تنتمي إليه: البيت. يعتري الأمّ قلق شديد، لأن أول شيء يتعلمه المالك، وعلى نحو مؤلم هو أن منح الثقة شيء جيد، لكن السيطرة أفضل. وكلّ ما يهمّها هو أن تحافظ على ملكيتها الثابتة، تربطها كي لا تفلت من بين يديها. ولهذا يوجد لديهما جهاز تلفزيون يعدّ ويجمع ويورد صوراً وأعمالاً رائعة إلى البيت. لذلك، فإن إريكا لا تكاد تغادر البيت. وإذا لم تكن في البيت، فإن أمّها تعرف أين تهفهف وترفرف في هذه اللحظة. وكانت إريكا تحضر بين الفينة والأخرى حفلة موسيقية مسائية، إلا أن ذلك بدأ يقلّ شيئاً فشيئاً. وبدأت إريكا تعوض عن ذلك بالجلوس أمام البيانو، وتضرب على المفاتيح بعنف كما يفعل عازفو البيانو في الحفلات الموسيقية. أو أنها تجري تدريبات مع طلابها كروح شرّيرة. ويمكن للأمّ أن تخابرها هناك في الحالات الطارئة. وربما كانت إريكا مع زملاء لها، تستمتع بعزف موسيقى الحجرة بجذل ومرح، لكن أمّها لا تتورع عن قطع متعتها عليها ومخابرتها، ولم تكن إريكا تكف عن التوسل إلى أمّها وتطلب منها ألا تخابرها هناك. لكن الأمّ لا تعير أي اهتمام لتوسلاتها، لأنها هي الشخص الوحيد الذي يقرر ويملي عليها ما يجب أن تفعله، وما يجب ألا تفعله. كما كانت الأمّ هي التي تقرّر من يطلب ابنتها للعزف، حتى بدأ عدد الأشخاص الذين يرغبون في رؤية إريكا، أو حتى التكلّم إليها يتناقص. كانت مهنة إريكا هي

هوايتها: القوّة السماوية المعروفة بالموسيقى. فالموسيقى تملأ وقتها بالكامل. وليس لديها متسع لأي شيء آخر. فلا شيء يسعدها كما يسعدها الأداء الرائع لعازف ماهر.

تزور إريكا أحد المقاهي مرة في كلّ شهر، لكن أمّها تعرف أين يقع ذلك المقهى، ولا تتورع عن مخابرتها هناك أيضاً. كانت أمّها تستخدم هذا الامتياز إلى أبعد درجة، هذه التوليفة المنزلية من الأمن والألفة.

* * *

بدأ الزمن المحيط بإريكا يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى قالب من الجص. يتفتت ما إن تلمسه أمّها. كانت إريكا في تلك اللحظات، تجلس هناك مع بقايا الزمن الملتف حول رقبتها الرفيعة كأنشوطة. تخابرها الأمّ، فتجعلها موضع سخرية الآخرين، فتضطر إريكا إلى القول: يجب أن أذهب إلى البيت الآن. البيت. إذا حدث أن صادفتَ إريكا في الشارع، فلا بد أنها في طريق عودتها إلى البيت.

تقول الأمّ: إني أحبّ إريكا كما هي عليه الآن. فهي لا تتوقع أن تكون أكثر من ذلك. إنها فتاة موهوبة للغاية، ومن الممكن أن تصبح بسهولة عازفة بيانو مشهورة في البلاد - لو تركت كلّ شيء عليّ، أنا أمّها. لكن إريكا تتجاهل رغبات أمّها، وتستسلم أحياناً لتأثيرات أخرى. إن حبّ رجل أناني لها يهدّد دراستها، وقد تشرئب الأشياء السطحية كالمساحيق والملابس أحياناً برؤوسها القبيحة، فتضع حداً لمهنتها قبل أن تبدأ. ومع ذلك فهي بحاجة إلى نوع من الأمان: مكانة معلّمة البيانو في معهد الموسيقى في فيينا. ولم يكن عليها حتى أن تعلّم في مدرسة موسيقى في الحيّ، حيث يمضي العديد من الناس سنوات

شبابهم، فتحدودب ظهورهم، ويغزو الشيب رؤوسهم. جموع غفيرة تعبر مسرعة، حتى لا يكاد المدير يلاحظها.

* * *

لكن كبرياءها، تلك الكبرياء اللعينة. فغرور إريكا يعتبر مشكلة رئيسية لأمّها، تنخز لحمها كما الأشواك. والشيء الوحيد الذي يجب أن تتعلّمه إريكا هو أن تتخلى عن زهوها. اليوم أفضل من الغد. لأن الزهو في الشيخوخة، التي أصبحت على الأبواب يشكّل عبئاً ثقيلاً. فألا يكفي المرء أن يتحمل عناء الشيخوخة. أوه، هكذا إذاً يا إريكا! هل الموسيقيون العظماء متكبّرون؟ لا. الشيء الوحيد الذي يجب على إريكا أن تتخلّى عنه هو عجرفتها. وإذا دعت الضرورة، يمكن لأمّها أن تملّس وتصقل الحواف القاسية، كي لا يبقى ثمة شيء خشن وقاس في شخصية إريكا.

لذلك تحاول أمّها أن تنتزع الثوب الجديد من بين أصابع إريكا المتشنّجة المتشبثة به. لكن تلك الأصابع مدرّبة جيداً. اتركيه، تصرخ الأم، أعطني إياه! يجب أن تنالي عقاباً لأنك تبدين اهتماماً كبيراً بالأشياء التافهة. لقد عاقبتك الحياة بتجاهلك، والآن ستعاقبك أمّك بالطريقة ذاتها، بإهمالك، بتجاهلك، حتى لو تأنقتِ، وتبرجت وطليت وجهك بالمساحيق كمهرّجةٍ في سيرك. أعطني إياه!

تندفع إريكا بسرعة إلى الخزانة. لقد تأكدت شكوكها المظلمة مرات عديدة في الماضي. أما اليوم، فهي تفتقد شيئاً آخر - الطقم الخريفي الرمادي الداكن. ماذا حدث؟

عندما تدرك إريكا أنها تفتقد شيئاً ما، فهي تعرف على الفور من هو الملام في ذلك: المذنب المحتمل الوحيد. أيتها الكلبة، أيتها

الكلبة! تصرخ إريكا بشراسة في وجه السلطة العليا. تمسك شعر أمّها الأشقر الداكن من جذوره الرمادية. إن تصفيف الشعر في صالون للحلاقة يكلف غالياً، لذلك تقوم إريكا بصبغ شعر أمّها بفرشاة مرة كلّ شهر. أما الآن، فتقتلع إريكا الشعر الذي قامت هي نفسها بصبغه. تشده بشراسة. أمّها تبكي. وعندما تتوقّف إريكا عن شد شعرها، تكون يداها ممتلئتين بخصلات الشعر. تحدّق فيها، مصعوقة. لقد أضعفت المواد الكيميائية مقاومة هذا الشعر، الذي لم يكن قوياً جداً بطبيعته في الأصل. لم تكن إريكا تعرف ماذا تفعل بخصلات الشعر الشقراء الداكنة التي حال لونها. تهرع إلى المطبخ وترميها في صندوق القمامة.

* * *

تقف الأمّ، التي خفّ شعر رأسها كثيراً، وتجهش بالبكاء في غرفة الجلوس، التي غالباً ما تقدم فيها ابنتها إريكا حفلات موسيقية. إنها أفضل عازفة تعزف في غرفة الجلوس، لأن لا أحد غيرها يعزف في هذا المكان البتة. كانت يدا الأم المرتعشتان لا تزالان متشبثتين بالثوب الجديد. فإذا أرادت أن تبيعه، يجب عليها أن تفعل ذلك بسرعة. إذ لا يمكن ارتداء هذا التصميم، الموشى بزهرات الخشخاش الكبيرة كالملفوف، إلا لسنة واحدة فقط - وبعدها لن يعود بالإمكان ارتداؤه أبداً. تشعر الأمّ بألم في رأسها في الأماكن التي اجتُث منها الشعر.

تعود الفتاة، مكدّرة، تعيسة، تبكي. تلعن أمّها، تدعوها كلبة شريرة، لكنها تأمل أن تصالحها الأمّ في الحال. قبلات ومشاعر مودّة. تحلف الأمّ أغلظ الأيمان أنّ يد إريكا ستبلى لأنها ضربت أمّها واجتثت شعرها. إريكا تبكي ويعلو نشيجها. يعتريها الندم. وكما جرت العادة، تشعر إريكا بالندم بعد أن تقدم على عمل أي شيء، لأنها تحبها. والأمّ

تعرف ذلك منذ أن كانت طفلة. في النهاية، تلين إريكا ويرقّ قلبها، كما هو متوقّع، وتصرخ بمرارة. تنتاب الأمّ رغبة شديدة في أن تذعن، فهي لا تستطيع أن تغضب من ابنتها حقاً. دعيني أعدّ شيئاً من القهوة لنحتسيها معاً. أثناء احتسائهما القهوة، تشعر إريكا بأسف شديد لما فعلته لأمّها، لكن آخر آثار غضبها تتلاشى فيما تتناول قطعة الكاتو. تتفحّص البقع العارية في رأس أمّها، لكنّها لا تعرف ماذا ستقول لها، تماماً كما لا تعرف ماذا ستفعل بخصلات الشعر تلك. تذرف مزيداً من الدموع، لأن أمها مسنة ولن تعيش إلى الأبد، ولأن شباب إريكا قد ولّى. أو بتعبير أدق، لأن كلّ شيء يمضي، ولا يعود إلا النذر القليل.

تشرح لها الأمّ لماذا يجب على الفتاة الجميلة ألا تتأنق وتتبهرج كثيراً. توافقها إريكا على ذلك. صحيح أن لديها أشياء كثيرة معلّقة في خزانتها، لكن لماذا كلّ هذه الجلبة؟، فهي لا ترتدي أياً منها. فثيابها معلّقة هناك بلا فائدة، تزيّن الخزانة. ولا يمكن للأمّ دائماً أن تمنع إريكا من شراء ثوب جديد، لكنّها تستطيع أن تملي عليها ما يجب أن ترتديه. الأمّ حاكمة مستبدة. هي التي تقرّر ما يجب على إريكا أن ترتديه خارج البيت. لا يمكنكِ أن تخرجي في هذا الثوب، تفرض الأمّ عليها، لأنها تخشى من عواقب ما يمكن أن يحدث إن دخلت إريكا بيوتاً غريبة فيها رجال غرباء. وقد عزمت إريكا على ألا ترتدي ثيابها. فمن واجب الأمّ أن توجه طفلتها وأن تمنعها من اتخاذ قرارات خاطئة، وذلك بعدم تهيئة ظروف تساعد في حدوث الضرر، كي لا تضطر الأمّ إلى تضميد الجراح في ما بعد. لكن أمّ إريكا تفضّل أن تسبب لها الضرر هي بنفسها، ثم تشرف هي على علاجها.

يزداد حديثهما حدّة: توجّه الأمّ والابنة ملاحظات لاذعة للتلاميذ الذين يتفوقون على إريكا، أو يهدّدون بالتفوق عليها. يجب ألا ترخي

لهم العنان، يجب ألا تفعلي ذلك. يجب أن توقفيهم عند حدهم. لكنكِ تدعيهم يفلتون من الجريمة بدون عقاب! إنك لستِ ذكية كما يجب يا إريكا. فلو وجّهت المعلّمة اهتمامها جيداً إلى ذلك، لما نجح أي من طلابها. يجب ألا تخرج شابّة من قاعة دروسها وتتمكن من متابعة عملها الموسيقي، الأمر الذي يخالف رغبات إريكا. لماذا يجب على الآخرين أن يصلوا إلى القمة التي لم تبلغيها أنتِ؟

إريكا التي لا تزال تبكي وتتذمر، تأخذ الرداء المسكين بين ذراعيها. وبصمت وأسى، تعلّقه في الخزانة، بين فساتينها، وبدلاتها، ومعاطفها، وأرديتها الأخرى، التي لا ترتدي أياً منها على الإطلاق، والتي تنتظرها فقط حتى تعود إلى البيت مساء. وبعد أن تفرشها أمامها، تضعها أمام جسدها وتتطلع إلى نفسها في المرآة. فهذه الثياب ثيابها! وبإمكان الأمّ أن تأخذها وتبيعها، لكنّها لا تستطيع أن ترتديها هي نفسها، لأن الأمّ، للأسف، بدينة جداً ولا تلائمها هذه الثياب الضيّقة. فكلّ هذه الفساتين لإريكا. إنها لها. لها. والثوب لا يدرك أن عمله قد توقف، وأنه رُكن جانباً بدون استعمال، ولم يعد أحد يرتديه. إريكا تريد أن يكون ملكاً لها فقط وأن لا تتوقف عن التحديق فيه. تنظر إليه من بعيد، بل حتى أنها لا ترغب في أن تجرّبه. يكفيها أن تمسك بهذه القصيدة المصنوعة من القماش والألوان، وتحرّكها أمامها برقة وأناقة، كما لو أن نسمة ربيعية تهبّ عليها. لقد جربت إريكا الثوب في المحل، لكنها لن ترتديه ثانية. نسيت إريكا السحر الذي بدا عليه في المحل. أما الآن فقد أصبح مجرد جثّة أخرى تركنه في خزانتها، لكنه أصبح ملكها. وفي الليل، عندما يخلد الجميع إلى النوم، تظل إريكا مستيقظة ووحيدة، فيما يغط النصف الآخر من هذا الثنائي (إنهما مقيّدتان معاً بصلة الدمّ) في النوم كطفلة، تحلم بأساليب تعذيب

جديدة. وفي بعض الأحيان، ولكن نادراً جداً، كانت إريكا تنهض، وتفتح باب الخزانة، وتأخذ في مداعبة وتمسيد الشهود على رغباتها السرّية. لكن في واقع الأمر، ليست هذه الرغبات هي كلّ الأسرار التي تخبئها. إنها تزعق، تصرخ: لكن لماذا تجشمت إريكا كلّ هذا العناء؟ تصرخ الألوان في صوت واحد كجوقة. أين يمكنكِ أن ترتدي شيئاً كهذا دون أن تلقي الشرطة القبض عليك؟ (فقد درجت إريكا على ارتداء تنورة وكنزة صوفية فقط، أو بلوزة في الصيف)، وفي بعض الأحيان، كانت الأم تهبّ فزعة من نومها، إذ كانت تعرف بالغريزة أن إريكا تمعن النظر في ثيابها من حين لآخر. تلك القطع العقيمة من أمتعتها! الأمّ واثقة من ذلك، لأن أبواب الخزانة لا تصدر صريراً.

والأسوأ من كلّ هذا، يبقى شراء الشقّة الجديدة أمراً بعيد المنال، لأن إريكا معرّضة دائماً لخطر السقوط، الوقوع في الحبّ. إذ يمكن أن يصبح في بيتهما وعلى حين غرة بيضة طائر الوقواق، ذكر في عشّهما. وغداً، عند الإفطار، قد تتوقع إريكا أن تسمع توبيخاً عنيفاً لتهورها وطيشها. لماذا، لأنه كان من الممكن أن تموت الأمّ البارحة بسبب الإصابة التي أحدثتها في شعرها، نتيجة الصدمة. ستحدد إريكا موعداً نهائياً لتسديد القسط القادم للشقّة، لذلك يجب عليها أن تعطي مزيداً من الدروس الخصوصية.

لحسن الحظ، كان ثوب الزفاف هو الشيء الوحيد الذي تفتقده خزانتها الكئيبة. فالأمّ لا تتمنى أن تصبح حماة، بل تفضّل أن تبقى أمّاً طبيعية. إنها تشعر بالرضاء التام بوضعها الحالي.

لكن اليوم هو اليوم. لقد حان وقت النوم! هذا ما تطلبه الأمّ في سريرها الزوجي. أما إريكا فلا تزال تحوم وتدور أمام مرآتها. أوامر أمها تنهال على ظهرها كالفؤوس وتحطمه. تتلمّس إريكا بسرعة فستان

كوكتيل وردياً مزهراً جميلاً، ولا تكاد تلمس حاشيته. فلم يتح لهذه الأزهار أن تتنشق هواء نقياً، وأن تسقيها بالماء. فالفستان، كما تؤكد إريكا لأمّها، يأتي من أرقى دور الأزياء في قلب فيينا. وستجعلها نوعيته والحرفية التي صنع بها سعيدة ومبتهجة إلى الأبد. إنه يلائم إريكا مثل قفاز (لا مثل معظم الأطعمة الرخيصة!). فما إن وقعت عينا إريكا على الثوب، حتى قالت لنفسها: يمكنني أن أرتديه لسنوات عديدة، وسيتصدر دائماً قائمة الموضة. إنه لن يسقط من ذلك الرقي ولا حتى قيد أنملة. إن الحديث مع أمّها مضيعة للوقت. يجب على الأمّ أن تغوص في الروح قليلاً، فألم ترتدي هي نفسها فستاناً مثله عندما كانت شابة؟ لكنّها تنكر ذلك من حيث المبدأ. ومع ذلك، تخلص إريكا إلى أن شراء هذا الفستان ليس بالأمر السيّئ. فلن تبطل موضته، بل سيظل بوسع إريكا أن ترتديه حتى بعد عشرين سنة.

الموضة تتغير بسرعة، ويظل الفستان وحيداً دون أن يرتديه أحد، مع أنه في حالة ممتازة. لكن لا أحد يطلب أن يراه. لقد ولّت أمجاده، أو أنه أُهمل، ولن تعود مرة أخرى - أو أنها ستعود، في أحسن الأحوال، بعد عشرين سنة.

* * *

يحتج بعض الطلاب على معلّمة البيانو التي تدرّسهم، لكنّ آباءهم يرغمونهم على مزاولة الفنّ، لذلك بوسع المعلمة كوهوت أن تستعمل القوة أيضاً. بيد أن معظم عازفي البيانو، يتصرفون جيداً ويهتمون بالفنّ الذي يفترض أنهم يتقنونه. إنهم يبدون اهتماماً به، حتّى عندما يناصره آخرون، سواء كان ذلك في حلقة للتدريب أم في حفلة موسيقية. الطلاب يقارنون، يزنون، يقيسون، يعدّون. يأتي العديد من الغرباء إلى

إريكا، ويتزايد عددهم سنة بعد أخرى. فيينا، مدينة الموسيقى! الأشياء التي أثبتت جدارتها وحدها هي التي ستستمر في هذه المدينة. أزرارها تكاد تتفزر من بطنها البيضاء الممتلئة بالثقافة، التي مثل أيّ جثّة غارقة لم تنتشل من الماء، ستزداد انتفاخاً.

الخزانة تستقبل الفستان الجديد. فستان آخر! لا تحبّ الأمّ أن ترى إريكا تغادر الشقّة. ثيابها شديدة البهرجة وصارخة الألوان، إنها لا تناسب الطفلة. الأمّ تقول إنه يجب أن يكون هناك حد لذلك. إريكا لا تعرف ماذا تقصد بذلك. ثمة وقت ومكان لكلّ شيء، هذا ما تقصده الأمّ.

الأمّ تقول إن إريكا ليست مجرد وجه من الوجوه في وسط جمهرة من الناس: إنها واحدة من مليون. لا تكفّ الأمّ عن إثارة هذا الأمر. تقول إن إريكا أنانية، فريدة من نوعها في سلوكها. تدّعي أنها لا تذعن لأحد أو لأيّ شيء. إنها تواجه صعوبة في التأقلم. ففتاة مثل إريكا لا تأتي إلا مرة واحدة، ولن تأتي بعدها فتاة مثلها بعد ذلك على الإطلاق. إذا كان ثمة أحد لا يمكن أن يحل مكانه أحد، فهو إريكا. وإذا كان ثمة شيء تكرهه، فهو التعميم في جميع أشكاله، مثل إصلاح المدارس الذي يتجاهل الصفات الفردية. لا يمكن أن تقارن إريكا بالآخرين، مهما كانوا قريبين منها، لأنها ستبرز في الحال. إنها ببساطة هي. هي نفسها، ولا يمكنها أن تفعل شيئاً حيال ذلك. وإذا لم تكن الأمّ ترى الآثار السيئة، فهي تشعر بها على أقل تقدير. بل إنها تسعى لمنع أي رجل من أن يعيد تشكيل إريكا. لأن إريكا إنسان متميّز، رغم امتلائها بالتناقضات. وهذه التناقضات هي التي تجعل إريكا تحتج بشدّة على أيّ نوع من التعميم. فإريكا شخص فريد من نوعه، إنها شخصية متميزة. إنها تقف وحيدة أمام هذه المجموعة الواسعة من طلابها،

واحدة من بين الجميع، وهي تدير عجلة سفينة الفنّ. لا يمكن لنبذة سريعة ومختصرة عنها أن تفيها حقها. عندما يسألها أحد الطلاب عن هدفها من ذلك، فإنها تجيب: «الإنسانية»، وبهذا تلخّص وصيّة هيليجينستادت بيتهوفن لتلاميذها - وتضع نفسها في مصاف بطل الموسيقى، وتحشر نفسها تحت عباءته.

تدخل إريكا إلى قلب الاعتبارات الفنية والفردية: فهي لن تستسلم لرجل بعد أن استسلمت لأمّها لسنوات كثيرة. الأمّ تعارض فكرة زواج إريكا في المستقبل، لأن «ابنتي لا تستطيع أن تتوافق مع أي شخص أو تذعن له». هكذا هي. إنها لم تعد شتلة. إنها لا تستسلم. ولذلك يجب ألا تتزوّج. فإذا لم يذعن أحد الزوجين، فالزواج محكوم عليه بالفشل. كوني نفسك فقط، تقول الأمّ لإريكا. ومع ذلك، فإن أمّ إريكا هي التي جعلتها على ما هي عليه. أما زلتِ عازبة يا آنسة إريكا؟ تسألها بائعة الحليب، وكذلك الجزّار. كما تعرفون فلم أجد بعد الرجل الذي أحبّه، يأتي جواب إريكا.

تنتمي إريكا إلى عائلة متميزة في الريف فريدة من نوعها. لم يعد سوى القليل من تلك العائلات. عائلة يتربى أفراد أسرتها على الحرص والخمول، وبهذه الطريقة يتعاملون مع الحياة بشكل عام. فلم تر إريكا ضوء النهار حتى السنة العشرين من زواج أبويها - زواج دفع أباها إلى الجنون وجعله يقبع بين جدران مشفى للمجانين، حيث لم يعد يشكّل أي خطر على العالم.

تشتري إريكا قطعة من الزبدة وهي محافظة على صمتها النبيل. فهي لديها أمّها، وليست بحاجة إلى رجل. فبمجرد أن يدخل شخص جديد إلى هذه العائلة، سيُرفض ويُنبذ في الحال. ستتخلى عنه في اللحظة التي يثبت فيها أنه عديم الفائدة وعديم القيمة. تفرز الأم أفراد

العائلة بمطرقة، تفصلهم، الواحد تلو الآخر. إنها تصنّف وتفرز وترفض. تختبر وتقذف. وبهذه الطريقة، لن يعود للطفيليين من وجود، أولئك الذين يريدون أن يأخذوا دائماً الأشياء التي تريد أن تحافظ عليها. يجب أن نتقوقع على نفسينا، أليس كذلك يا إريكا؟ إننا لسنا بحاجة إلى أي شخص آخر.

الزمن يمضي، ونحن نمضي مع الزمن. ترتبط كل من المرأتين ببعضهما مثل جرة: إريكا، القشرة الرقيقة، وأمّها. ولا يمكن رفع الجرّة إلا إذا أمسك أحدهم بها من الذراع الزجاجي في الأعلى. إن إريكا حشرة تغلّفها أبدية خالدة من الكهرمان. لا تاريخ لها، ولا تتأفف. وقد فقدت هذه الحشرة قدرتها على الزحف والحبو منذ فترة طويلة. لقد طُهيت إريكا في مقلاة الخلود. وهي سعيدة لأنها تشارك كبار العازفين الذين تحبهم في هذا الخلود، لكنها لا تستطيع أن ترقى إلى مصافهم عندما يتعلق الأمر بأن تصبح محبوبة. تسعى إريكا جاهدة لأن تتبوأ مكاناً صغيراً جداً في دائرة عظماء المبدعين الموسيقيين. في هذا المكان «الذي يُكافح من أجله بضراوة»، تريد فيينا كلها أن تقيم كوخاً صغيراً. إريكا تجازف بقدرها، تكريماً لكفاءتها، وتبدأ في وضع حجر الأساس. فها هي قد بلغت المكانة التي تستحقها، بالدراسة والعزف! ومع ذلك، فإن العزف شكل ليس إلا. فالعازف المبدع يضيف من عنده إلى معزوفته على الدوام، شيئاً شخصياً. يقطّر دم قلبه فيها. أما العازف المقلّد فلديه هدف بسيط وهو أن يجيد العزف. وعليه أن يذعن لخالق العمل، تقول إريكا. إنها تعترف بأن هذه مشكلة بالنسبة لها. إنها ببساطة لا تستطيع أن تذعن. ومع ذلك، فلدى إريكا هدف واحد شأن جميع العازفين المقلدين الآخرين: أن تكون أفضل من الجميع!

* * *

إن ما يجذبها إلى ركوب حافلة الترامواي هو ثقل الآلات الموسيقية، التي تتدلى من جسدها، من الأمام والخلف، بالإضافة إلى الحقائب المحشوة. فراشة مثقلة بالأحمال. إن هذه المخلوقة تشعر بأن في داخلها قوّة كامنة لا تكفيها الموسيقى وحدها. تحكم هذه المخلوقة قبضتها على مقابض آلات الكمان والفيولا والناي. إنها تحبّ أن تستخدم طاقتها بطريقة سلبية، رغم عدم وجود خيار أمامها. تعرض الأمّ عليها الاختيار: عدد كبير من الحلمات في ضرع البقرة التي تُعرف بالموسيقى.

ترتطم بالناس من الأمام والخلف بآلاتها الوترية، وآلاتها الهوائية، ونوطها الموسيقية الثقيلة الكبيرة. أسلحتها ترتطم بهؤلاء الناس، الذين يشكلون حاجزاً من المطاط. وإذا عنّ لها أحياناً، كانت تحمل الآلة الموسيقية في حقيبتها بيد، وتدفع بخبث يدها الأخرى نحو معطف شتوي لأحدهم، أو معطف مشمّع ذي قبعة، أو سترة صوفية سميكة. إنها تلعن الزيّ الوطني النمساوي، الذي تحاول أن تتزلف إليه، تبتسم ابتسامة عريضة لجميع الأزرار المصنوعة من قرن الأيل. تحاكي طياري الكاميكاز الانتحاريين، تستخدم نفسها سلاحاً. ولكنها، وبطرف الآلة المستدق الطرف (أحياناً الكمان، وأحياناً الفيولا الأثقل وزناً)، ترتطم بأناس متعبين من العمل. فإذا كانت الحافلة مليئة بالناس، في حوالى الساعة السادسة مساء، فقد تسبب جروحاً لعدد من الأشخاص بسبب تأرجحها. إذ لا يوجد في المكان متسع لتتأرجح فيه بحرية. إنها الاستثناء للقاعدة التي تحيط بها على نحو بغيض. وتحب أمّها أن تشرح لها بدقة شديدة أنها نسيج وحدها، لأنها طفلة أمها الوحيدة، ويجب أن تتمسّك بالاستقامة والتشدد. ففي كلّ يوم، ترى في الحافلة الناس الذين لا تريد أن تصبح مثلهم. تشق طريقها عبر السيل الجارف الرمادي من

المسافرين ممن يحملون أو لا يحملون تذاكر، الذين صعدوا للتو، أو الذين على وشك النزول، أولئك الذين لم يحققوا شيئاً في حياتهم وبقوا في أماكنهم، والذين لا يعرفون إلى أين سيتوجهون. إنهم يمثلون أيّ شيء سوى الأناقة. وبعضهم ينزل من الحافلة حتى قبل أن يستقر بهم المقام فيها.

وإذا أدى بها غضب الجماهير إلى مغادرة الحافلة، حتى لو كانت لا تزال بعيدة عن البيت، يتلاشى غضبها المركّز في قبضتها، فتتقهقر طوعاً، وتترك الحافلة في الواقع - ولكن لتنتظر بأناةٍ الحافلةَ القادمة، التي تثق بأنها قادمة مثل كلمة آمين في نهاية كلّ صلاة. هذه السلاسل لا تنكسر أبداً. وبعد أن تشحن طاقتها، تشن هجوماً جديداً. تحفّ بها الآلات، تترنح وهي تشق طريقها بصعوبة بين جموع العمّال العائدين إلى بيوتهم، تنفجر بينهم مثل قنبلة انشطارية. وإذا دعت الضرورة، تخفي مشاعرها الحقيقية وتقول: «آسفة سأنزل هنا»، وتكون الموافقة بالإجماع. يجب أن تترك العربة العامّة النظيفة في الحال! فهي ليست لأشخاص من أمثالها.

يحدقون في طالبة الموسيقى، ويظنون أن الموسيقى قد جعلت روحها تسمو، لكن الشيء الوحيد الذي سما وارتفع فيها هو قبضتها. أحياناً، يُتّهم شابّ أشيب الشعر ويحمل وعاء مهترئاً يضع فيه زاده ظلماً بأنه هو من ارتكب الأشياء البغيضة، لأنه على الأرجح مذنب. من الأفضل له أن يخرج ويعود إلى أصدقائه قبل أن يمسك بها بذراعه القوية.

الجموع الغاضبة التي هي دائماً على حقّ بسبب الشلنات الثلاثة التي يدفعونها، ويمكنهم أن يثبتوا ذلك إذا ما صعد المفتش. وفي أثناء التفتيش المباغت، تبرز الجماهير الغاضبة تذاكرها التي وسمت بافتخار،

وتغدو الحافلة كلها لها. وبهذه الطريقة، توفر على نفسها أسابيع من العذاب الممض، وهي تتساءل عن إمكانية صعود مفتش على نحو مباغت.

إحدى السيدات، التي تحسّ بألم بذات العمق الذي تشعره أنت، تصرخ فجأة. فقد ركلها أحدهم في ساقها، ذلك الجزء الحيوي الذي يرتكز عليه بدنها. في وسط هذا الدفع والتدافع الخطر، لا يمكن تحديد من هو المذنب، الصادق مع مبدأ الذنب. وتمطر الحشد بوابل من الشتائم واللعنات والإهانات والشكاوى والتوسلات والاتهامات. يخرج ذلك العويل من الأفواه التي تنفّس عن غيظها، توجه التهم إلى الآخرين. الركاب محشورون مثل سمك السردين، بفارق أنهم لم يُغمروا بالزيت. لكنهم سيُطلون بالزيت في ما بعد.

تركل بشراسة عظمة صلبة، إنها عظمة رجل. كانت ذات يوم برفقة طالبة زميلة لها، تنتعل حذاء ذا كعب عال رائع، يشتعل كلهب أبدي، وترتدي معطفاً جديداً مبطّناً بالفراء من آخر طراز. تسأل الفتاة إريكا بلطف: ماذا تسحبين وراءك، ما اسمه؟ أقصد هذه العلبة هنا، لا رأسك في الأعلى هناك. إنها آلة الفيولا، تجيب بأدب. الفيولا؟ يا لها من كلمة غريبة، لم أسمع بها من قبل، تقول الشفتان المطليتان بأحمر الشفاه ببهجة. إن إحداهن تحمل شيئاً يدعى الفيولا، لا يؤدّي أيّ غرض ملحوظ. وعلى الجميع أن يفسح لها الطريق لأن الفيولا هذا يأخذ حيزاً كبيراً. إحداهن تسير وتحمله علناً، ولا يمكن لأحد أن يقبض عليها بالجرم المشهود.

يمسك الناس بإحكام المقابض الجلدية المدلاة، وأولئك الشياطين القلائل المحظوظين الذين وجدوا مقاعد لهم - تشرئب أعناقهم فتبرز من أبدانهم المنهكة، لكن بدون جدوى، فهم لا يرون أحداً. وليس

ثمة أحد يمكن مهاجمته لأنه يعامل سيقانهم بخشونة بجسم صلب. «أحدهم داس أصابع قدمي»، وينهال سيل من الكلمات النابية من أحد الأفواه. من فعلها؟ لقد عقدت محكمة فينيسي ترويلي الأولى، ذات الصيت السيئ في العالم، جلستها لتصدر تحذيراً وتتخذ حكماً. في جميع الأفلام الحربية، ترى دائماً شخصاً واحداً على الأقل يتطوّع لتنفيذ أي مهمة، حتى لو كانت مهمّة انتحارية. لكن هذا الكلب الجبان، يتوارى وراء ظهورنا الحليمة. حفنة من العمّال المهلهلين، على وشك التقاعد، يحملون حقائب عدتهم على أكتافهم، يتدافعون ويتراكلون للنزول من الحافلة. يمشون الهوينى إلى الموقف التالي! عندما يعكّر كبش السلام والهدوء صفوف جميع الخراف في الحافلة، فستحتاج يائساً إلى تنشق هواء نقي، ولن تجده إلا خارج الحافلة. وإن كنت ذاهباً لتوبخ زوجتك في البيت، فعليك أن تتنشق الأوكسجين أولاً، وإلا فلن تتمكن من تقريعها. شيء ذو لون وشكل مبهم، يبدأ يتمايل وينزلق. يصرخ أحدهم كما لو كان قد طُعن في ظهره. سحابة كثيفة مشبّعة بالبخار من سموم فيينا تخيم فوق هذا المرج العامّ. بل إن أحداً ينادي الجلاد لأن مساءه عُكِّر قبل الأوان. عجباً، لكنّهم غاضبون. لم تبدأ راحتهم المسائية بعد، التي يجب أن تكون قد بدأت منذ عشرين دقيقة. أم أنها بُترت على حين غرة، كتلك المجموعة الملوّنة التي تصور حياة الضحيّة (التي توجد فيها تعليمات أيضاً)، ولا يمكن إعادتها إلى الرفّ. (لا يمكنه أن يحصل على مجموعة سليمة جديدة، وإلا لاعتقله موظف المبيعات بتهمة السرقة. اتبعني بهدوء! لكن الباب الذي يفضي، أو يبدو أنه يفضي إلى مكتب المدير، باب زائف، ولا توجد إعلانات عن أشياء أسبوعية خاصة ملصقة على نوافذ السوبر ماركت الجديد. لا يوجد شيء، لا شيء على الإطلاق، مجرد

ظلام، ويغوص الزبون في حفرة عميقة الأغوار). يقول أحدهم إن هذا الشيء مألوف في المركبات العامة في لغة الدواوين: يجب أن تغادر هذه الحافلة على الفور. خصلة من شعر الشاموا تنمو بغزارة فوق إحدى الجماجم. الرجل متنكّر بهيئة صيّاد.

لكنها تنحني في الوقت المناسب، تخطّط للقيام بلعبة فاحشة جديدة. فأولاً، يجب أن تنزل قمامة آلتها الضخمة. إنها تشكّل سياجاً حولها. تتظاهر بأنها تعقد رباط حذائها لتهيّئ أنشوطة للراكب التالي. يكاد يكون الأمر عَرَضاً، تقرص بشدة ربلة ساق الأنثى على يسارها أو على يمينها (تشبه تلك النساء إحداهن الأخرى شبهاً كبيراً). كدمة تنتظر الضحيّة. الراكبة المشوّهة، أرملة، تشبّ، نافورة منيرة متألقة تتلألأ في الليل - قد تصبح النافورة مركز الاهتمام في نهاية الأمر. الأرملة تلخص ارتباطاتها العائلية باقتضاب وبدقة، وتتوقّع أن تثار تلك الارتباطات وعلى نحو ينذر بالشر (لا سيما زوجها المتوفى) من معذّبها على نحو مرعب. تطلب الشرطة، لكن الشرطة لا تأتي، فليس بمقدروها أن تهتم بكل شاردة وواردة.

تبدو على وجهها قسمات لطيفة كتلك التي تظهر عادة على وجه موسيقار. تتصرّف وكأنها تذعن لقوى الرومانسية الموسيقية الغامضة، القوى التي تتصاعد إلى قمم عاطفية أكثر ارتفاعاً - تتصرّف كأنها لا تستطيع أن تفكّر في شيء آخر في العالم. عندها يتكلم عامة الناس كما لو كانوا يتكلمون بصوت واحد: لا يمكن أن تكون الفتاة تحمل مدفعاً رشاشاً. العامة مخطئون مرة أخرى، كما هو شأنهم غالباً.

يفكّر المرء بين الحين والآخر، ثم يشير في نهاية الأمر إلى المجرم الحقيقي: «إنه أنتِ!». تُسأل باسم كلّ ما هو مقدس ما يجب أن تقوله لنفسها. إنها لا تتكلّم. فالسدادة الرصاصية التي أدخلها مدربوها في

عملية جراحية خلف حلقها الطري تمنعها من الكلام، من أن تتهم نفسها بدون قصد. إنها لا تدافع عن نفسها. يتبادل الأشخاص الشتائم لأنهم اتهموا شخصاً أخرس أصمّ. لكن صوت العقل يقول إن المرء الذي يعزف على الكمان لا يمكن أن يكون أصم. ربما كانت مجرد فتاة خرساء، أو أنها توصل الكمان إلى شخص آخر. إن عدم التوصل إلى اتفاق، جعلهم يتخلّون عن خطتهم. عقولهم مسكونة بفكرة قدح من النبيذ، قادر على أن يزيل عدّة أرطال من الأفكار الأخرى. أما النبيذ الحقيقي، فيمكنه أن يقضي على ما تبقى من أفكار. هذه أرض النبيذ. هذه مدينة الموسيقى. تنظر الفتاة إلى العوالم البعيدة للعواطف العميقة، ويمكن لمن وجّه إليها التهمة أن يُغرق حزنه، في أحسن الأحوال، في قدح من النبيذ. لذلك يلوذ بالصمت بتأثير نظراتها.

إنها تترفع عن التدافع الذي ينال من كرامتها: الغوغاء يتدافعون، لكن ليس عازفة الكمان والفيولا. ففي سبيل المتع الصغيرة تلك التي تحصل عليها في حافلة الترامواي، تتحمّل عناء العودة إلى البيت في وقت متأخر - لتجد أمّها تقف لها بالمرصاد، تحمل ساعة توقيت وتحذيراً. إنها تتحمّل مثل هذه الآلام، رغم أنها كانت تعزف طوال العصر، تركّز أفكارها، تنحني، وتسخر من التلاميذ الذين عزفوا أسوأ مما عزفت هي. إنها تريد أن تعلم الناس كيف يكونوا خائفين، كيف يرتعشون. تسود هذه المشاعر في برامج الحفلات الموسيقية المخصصة لمحبّي الموسيقى.

يقرأ أحد أفراد جمهور محبّي الموسيقى البرنامج، ويحس بنفسه مدفوعاً ليخبر شخصاً آخر عن إحساسه بألم هذه الموسيقى من الأعماق. لقد قرأ كلّ شيء عنها. معاناة بيتهوفن، معاناة موزارت، معاناة شومان، معاناة بروكنر، معاناة فاغنر. تنتابه هذه الآلام الآن

وحده، هو الذي يملك مصنع بوشل لصناعة الأحذية، أو شركة كوزلير لمواد البناء بالجملة. يتلاعب بيتهوفن بنياط الخوف، ويجعل أصحاب المصانع هؤلاء عمّالهم يقفزون خوفاً. وثمة شخص أيضاً من حملة شهادة الدكتوراه يظن أنه على علاقة حميمة مع الألم منذ أمد بعيد. إنها تحاول منذ السنوات العشر الماضية، أن تفهم السرّ النهائي للقدّاس الجنائزي لموزارت. لكنها لم تصل إلى نتيجة حتى الآن، لأنه لا يمكن إدراك غور ما ألّفه من معزوفات. إنه يتجاوز إدراكنا: تسميه المرأة أروع الأعمال التي شهدها العالم في تاريخ الموسيقى. وهو أمر غير قابل للجدال بالنسبة لها، ولبضعة أشخاص آخرين. وحامل الدكتوراه أحد المختارين القلائل الذين يعرفون أنه لا يمكن سبر أغوار بعض الأشياء وفهمها، مهما بذلت من جهد. ما نفع التفسيرات؟ فلا توجد إمكانية لتفسير كيف ظهرت مثل تلك الأعمال إلى سطح الوجود. (وينسحب الشيء ذاته على بعض القصائد، التي يجب ألا تحلل وتفسر كذلك). شخص غريب، غامض، يرتدي معطف حوذي أسود، يخرج ويسدد القسط الأول من القدّاس الجنائزي. حامل الدكتوراه والآخرون الذين شاهدوا فيلم موزارت، يعرفون أن الغريب الغامض هو - الموت نفسه! ولدى التفكير بذلك، تنفتح فتحة في جسد أحد العباقرة العظماء، وتشق طريقها إلى الداخل. وفي حالات نادرة، ينمو المرء مع العبقري.

لا تتوقف الجموع المحتشدة القبيحة عن التحلق حولها. يشق الناس طريقهم باستمرار إلى حقل إدراكها. لا يمسك الدهماء قبضة الفنّ دون أن يكونوا مؤهلين لذلك فقط، بل يدخلون إلى أعماق الفنان أيضاً. يقيمون داخل الفنان ويفتحون عنوة بضع فتحات في الجدار، نوافذ إلى العالم الخارجي: الدهماء يريدون أن يروا، ويكونوا مرئيين. وبأصابع ينز منها العرق ينقرون: ودون أن يطلب منهم أحد، ومن تلقاء

أنفسهم، يغنّون ألحاناً جميلة. يبللون سبّاباتهم، يواصلون الترنيمة، يبحثون عن ترنيمة ثانوية، لكنهم لا يجدونها. وبذلك، تتمايل رؤوسهم. إنهم سعداء بإعادة اكتشاف الترنيمة الرئيسية وتكرارها. وعندما يعرفونها، يهزّون أذيالهم. ويرى معظمهم أن سحر الفنّ الرئيسي هو أن يدركوا شيئاً يظنون أنهم يعرفونه. قدر كبير من الأحاسيس يغمر أحد الجزارين. لا يتمالك نفسه، مع أنه معتاد على مهنته الدامية. تشلّه الدهشة. إنه لا يبذر، لا يحصد، إنه لا يسمع جيداً. لكنه إذا ذهب إلى حفلة موسيقية عامة، فقد يراه الناس. وتجلس إلى جانبه نصفه الأفضل. لقد أرادت أن ترافقه. إنها تركل الكعب الأيمن لامرأة عجوز. إنها قادرة على وضع كلّ عبارة في مكانها الصحيح. إنها وحدها التي يمكنها أن تأخذ كلّ صوت من الأصوات، وتضعه في مكانه الصحيح، في موقعه الصحيح. إنها تحتقر جهل تلك الحملان التي لا تتوقف عن الثغاء، تستخدمها لمعاقبتهم. جسدها ثلاجة كبيرة، مخزّن فيها الفنّ جيداً.

غريزتها للنظافة حسّاسة إلى حد يثير الدهشة. الأجساد القذرة تشكّل غابة من الراتنج حولها. لا وسخ الأجساد فقط، بل أكثر أنواع القذارة قوة التي تنسرب من الآباط وأسفل البطن، رائحة البول الكريهة المنبعثة من المرأة العجوز، النيكوتين يتدفّق من شبكة عروق الرجل العجوز ومساماته، تلك الأكوام التي لا تعد ولا تحصى من أردأ أنواع الطعام التي تُطهى في المعدة. لا رائحة الشمع الكريهة الضعيفة التي تصدرها قشرة الرأس، وقشور الجروح فقط، لا نتانة ذرات الغائط تحت الأظافر - إنها رائحة ضعيفة جداً، جداً، لكن بوسع الخبير أن يشتمّها بسهولة. تلك البقايا المتبقية من طعام عديم اللون يحترق، رمادي، مسرّات جلدية (إذا أمكن للمرء أن يسمّيها مسرّات). إنها

تعذّب إحساسها بالرائحة، حليمات ذوقها. إن ما يزعجها أكثر من أي شيء آخر، هو الطريقة التي يسكن فيها هؤلاء الناس أحدهم الآخر، الطريقة التي يتملكون فيها بوقاحة أحدهم الآخر. الجميع يشقّ طريقه إلى العقول الأخرى، إلى أكثر اهتماماتهم عمقاً.

لا بد من إنزال العقاب بهم. وهي التي ستعاقبهم. لكنها لا تستطيع أن تتخلّص منهم. إنها تهزّهم، تقطّعهم إرباً، مثل كلب ينهش ويهرس فريسته. ومع ذلك، ودون أن يُطلب منهم، ينبشون وينقبّون فيها، يلاحظون باطن أفكارها، ثم يتجاسرون على القول إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بهذه الأفكار، بل حتى إنها لا تعجبهم. لماذا يذهبون إلى هذا الحدّ ليقولوا إنهم لا يحبون فيبيرن أو شونبيرغ.

الأمّ، وبدون سابق إنذار، تحلّ براغي رأسها من الأعلى، تدس يدها في داخله، بثقة، ثم تنبش وتفتّش. تعبث الأم في كلّ شيء، لكنها لا تعيد شيئاً إلى مكانه. وتتخذ خيارات سريعة، فتقتلع بضعة أشياء، تفحصها عن كثب بدقة، وترميها بعيداً. ثم تعيد ترتيب أشياء أخرى، وتفركها بقوة بفرشاة واسفنجة وخرقة لمسح الغبار. ثم تجففها بشدة وتعيد البراغي إلى أماكنها، كما تفتل سكيناً داخل مطحنة للحم.

تصعد امرأة عجوز الحافلة، لكن قاطع التذاكر لا يشعر بوجودها. تظن أنها تستطيع أن تفلت منه. في واقع الحال، لقد خرجت من كلّ شيء منذ عهد بعيد، وهي تعرف أنها فعلت ذلك. التدافع مشكلة كبيرة. لقد اشترت تذكرتها إلى الخلود وهي في حقيبة يدها. يجب أن تكون التذكرة سارية في الترامواي أيضاً.

تسألها امرأة الآن عن الطريق، لكنّها لا تجيب. لا تجيب رغم أنها تعرف الطريق. المرأة لا تستسلم، تشقّ طريقها في العربة كلها، تدفع الناس جانباً كي تنظر تحت المقاعد وتجد المحطة التي تبحث عنها.

تجوب ممرات الغابة متجهّمة الوجه، وتستخدم قصبتها الرفيعة لغرسها في كثبان النمل وإيقاظه من سباته التأمّلي. تجعل المخلوقات القلقة تنفث حقداً. إنها من أولئك الناس الذين لا يتوانون عن البحث في أي مكان، حتى أنهم لا يتركون صخرة دون أن ينبشوها، فلعلها تجد تحتها أفعى. تتم كلّ عملية بحث، مهما كانت صغيرة، بوعي بحثاً عن الفطر أو التوت. هذا هو معدن أولئك الناس. إنهم يعتصرون كلّ عمل فني حتى آخر نقطة فيه، ويشرحونه بصخب للآخرين. في الحدائق العامة، يستخدمون مناديلهم لنفض الغبار عن المقعد قبل أن يجلسوا عليه. في المطاعم، يلمّعون الملاعق والسكاكين والأشواك بمنديل. يمررون مشطاً ذا أسنان رفيعة في بدلة أحد الأقارب بحثاً عن شعرة، عن رسالة، عن بقع دهنية.

وتتذمر الآن هذه السيدة بصوت مرتفع مدعية أن لا أحد يساعدها في تقديم المعلومات التي تحتاج إليها. تقول أن لا أحد يريد أن يعطيها إياها. هذه السيدة تمثّل الأغلبية الجاهلة، التي تمتلك شيئاً واحداً بوفرة كثيرة: إنها تتوق للشجار. إنها مستعدة لتحدي أي شخص إن أرادت.

تترجل في الشارع ذاته الذي سألت المرأة عنه، وفيما تضع قدمها خارج الحافلة، تسخر منها.

الجاموسة تفهم، وهي في حالة من الغضب الشديد إلى درجة أن مكابس حلبها قد توقفت عن العمل. بعد فترة قصيرة من الآن، ستصف هذه اللحظات من حياتها إلى صديق وهو يلتهم لحماً مشوياً بالفاصولياء. إنها ستطيل حياتها بطول قصّتها، رغم أن الزمن سيمضي بعناد فيما تروي قصتها، وبذلك يحرمها من فرصة أن تصبح لديها تجربة جديدة.

تتلفت إلى الوراء عدّة مرات إلى المرأة المحتارة تماماً، التي ضلّت

طريقها قبل أن تسير في طريقها المعتاد إلى بيتها المألوف. تبتسم بتكلّف للمرأة، ناسية أنها بعد بضع دقائق من الآن، ستشعر بقذائف اللهب الحارة تنطلق من أمّها، وأنها ستحترق وتصبح كومة من الرماد لأنها وصلت متأخرة إلى البيت. إذاً لا يوجد فنّ يمكن أن يريحها، رغم أن للفنّ فوائد كثيرة، وخاصة قدرته على منح العزاء والسلوان. وهو في بعض الأحيان يخلق فنّ المعاناة في المقام الأول.

* * *

إريكا، زهرة المرج. وقد أُطلق عليها هذا الاسم: لأن أمّها الحامل رأت في منامها كائناً خجولاً رقيقاً. ثم، عندما رأت كتلة الطين التي انبثقت من جسدها، بدأت على الفور، وبدأب شديد في قولبتها لكي تبقيها نقية جميلة. أزيلي قليلاً هنا، وقليلاً هناك. فكلّ طفل ينجذب غريزياً إلى الأوساخ والقذارة ما لم تبعده عنها. لقد اختارت الأمّ مهنة لإريكا عندما كانت ابنتها لا تزال صغيرة. كان يجب أن تكون مهنة فنية، كي تتمكن من الحصول على المال، الكمال المنجز بصعوبة بالغة، بينما تقف الأنواع المتوسطة حول الفنانة، معجبة بها، تصفّق لها. الآن، وبعد أن وصلت إريكا أخيراً إلى الكمال، لم يكن مقدراً لهذه الفتاة أن تفعل أشياء غير راقية، أعمالاً يدوية ثقيلة، أعمالاً منزلية. بل كان مقدراً لها أن تتقن الرقص الكلاسيكي والغناء والموسيقى. أن تصبح عازفة بيانو مشهورة عالمياً - أي المثل الأعلى للأمّ. ولكي تضمن أن تتلمس الطفلة طريقها في خضم هذه الصعوبات، وضعت لها الأمّ شواخص على طول الطريق، وكانت تصفع إريكا بقوة إن هي رفضت أن تعزف. ولم تكفّ الأمّ عن تحذير إريكا من الحسّاد الذين يسعون إلى تدمير إنجازات الآخرين - والذين يكاد يكون جميعهم من

الرجال. لا تتلهي! لم يكن يُسمح لإريكا أن ترتاح أبداً عند أي مرحلة فنية تبلغها، ولم يكن يُسمح لها أن تلتقط أنفاسها، وأن تأخذ قسطاً من الراحة. لأنها يجب ألا تتوقف عن الصعود والارتقاء إلى المستويات الأعلى. فلا يحصل على الراحة إلا حيوانات الغابة؛ إنهم يريدون أن تتحول إريكا إلى حيوان. يحاول المنافسون جذب إريكا إلى الهاوية، مدّعين أنهم سيرونها مشهداً جميلاً. لكن كم من السهل أن يهوي المرء إلى القاع! الأمّ تصف الهوّة بدقة شديدة، كي تنتبه طفلتها. القمّة تتيح لها شهرة عالمية، لا يبلغها معظم المتسلقين. رياح باردة تهبّ هناك، والفنان يلبث وحيداً ويتقبل عزلته برحابة صدر. وما دامت الأم على قيد الحياة وتخطط لمستقبل إريكا، فلا يوجد أمام الطفلة سوى احتمال واحد لا غير، وهو بلوغ قمة الكون.

الأمّ ترفعها من الأسفل، لأن قدميها مثبتتان في الأرض بصلابة. ولكن إريكا لن تقف على أرض الوطن الموروث، بل ستمتطي ظهر شخص آخر، شخص تزيحه من طريقها بطعنه في الظهر. يا لها من أرض متقلقلة! إريكا تقف على أطراف أصابعها على كتفَي أمّها. تقبض بأصابعها المتدربة بإحكام على القمّة، التي، للأسف، سرعان ما يتبين أنها مجرد صخرة. إنها تشبه القمّة. تجهد عضلات ذراعها العليا، ترفع إريكا وترتفع هي نفسها إلى الأعلى. يصبح أنفها فوق الحافة الآن، لكن كلّ ما تراه صخرة جديدة، أشد صلابة وأكثر حدّة من الأولى. إلا أنه يوجد هنا فرع لمصنع ثلج الشهرة، الذي يخزّن كتلاً ضخمة، ولهذا فهي تضطر لأن تخفض رأسها. إريكا المراهقة تلعق من إحدى كتل الثلج تلك، وتتخيّل أنها تقدم حفلة موسيقية تنافس شوبان. تتخيّل أنّ القمّة لا تبعد سوى بضع بوصات!

الأم تعنّف إريكا لشدة تواضعها. إنكِ تحلّين دائماً في المرتبة

الأخيرة! أن يضبط النبيل نفسه أمر عديم الفائدة. يجب على المرء أن يأتي دوماً في المرتبة الثالثة على الأقل؛ أيّ شيء أقل من ذلك، فهو زبالة. هذا ما تقوله الأمّ. إنها تعرف أكثر. إنها تريد أفضل شيء لطفلتها. لن تدعها تبقى في الشارع: ومع ذلك، يجب ألا تدخل في المسابقات الرياضية وتهمل التدريب.

إريكا لا تحبّ أن تكون بارزة. إنها تتراجع بوقار (إنها حيوان - الأمّ المهانة تندب وتبكي)، وتتوقع أن يقوم الآخرون بعمل الأشياء عنها. الأمّ تتذمر بمرارة بأنها يجب أن تفعل كل شيء للطفلة بنفسها، تغوص ببهجة في حومة الوغى. تبذل إريكا جهدها، لكن جهودها لا تجلب لها سوى بنسات قليلة لا تكاد تكفي لشراء جوارب نسائية أو سراويل داخلية.

الأمّ لا تني تخبر الأصدقاء والأقارب (الذين لم يتبق منهم سوى عدد ضئيل جداً، لأنها ابتعدت عنهم منذ أمد بعيد؛ كي تُبقي إريكا بعيدة عن تأثيرهم)، بأنّ إريكا عبقرية. تقول إن ذلك يتضح يوماً بعد يوم. إريكا عبقرية حقاً في العزف على البيانو، لكنّها لم تُكتشف جيداً حتى الآن، وإلا لحلّقت فوق الجبال منذ زمن بعيد، كنجم مذنّب. وبالمقارنة معها، لم تكن ولادة المسيح سوى شيء تافه.

يهز الجيران رؤوسهم موافقين. فهم يجدون متعة كبيرة في الإصغاء عندما تعزف الفتاة. إنها كالمذياع، لكنك لست بحاجة لأن يكون عندك مذياع. كلّ ما يجب أن تفعله هو أن تشرع النوافذ، وربما الأبواب، حتى تتدفق الموسيقى. تنتشر وتتغلغل في أنحاء المكان كالغازات السامة. أما أولئك الساخطون الذين يحتجون من الضوضاء فكانوا يوقفون إريكا عندما يصادفونها في الطريق، ويطلبون منها أن تلزم السكينة والهدوء. ولا تفتأ الأمّ تقول لإريكا إن الجيران في غاية

الحماسة لأنها تجيد العزف. تُحمل إريكا مثل رذاذ من البصاق فوق جدول رقيق من الحماس الأمومي. لكنها تفاجأ بعد كل ذلك، بتذمر أحد الجيران منها. لم تخبرها أمّها شيئاً عن هذه الشكاوى!

وفي النهاية، تبزّ إريكا أمّها في ما يتعلق باحتقار الناس وازدرائهم. فمن ذا الذي يبالي بهؤلاء الرجال العاديين يا أمي. إذ إن قدرتهم على الحكم على الأمور ضعيفة، وهم أجلاف وأحاسيسهم فظة. لا يهمها إلا المحترفين فقط، لكن أمها تردّ عليها على الفور: لا تستخفي بالثناء الذي يسبغه عليك الناس البسطاء. فهم ينصتون إلى الموسيقى بقلوبهم، ويتمتّعون بها أكثر من أولئك المدللين المتعبين. الأمّ لا تعرف شيئاً عن الموسيقى، لكنّها تجبر طفلتها على حمل نيرها. ويبرز نوع طفيف من التنافس الحقود بين الأمّ وابنتها، لأن الطفلة سرعان ما تدرك أنها أصبحت تفوق أمّها في الموسيقى. الفتاة معبودة الأمّ، ولا تطلب الأمّ سوى قدر قليل من التقدير: حياة إريكا. فالأمّ تريد أن تستخدم حياة الطفلة بنفسها.

لم يكن يسمح لإريكا أن ترتبط بأناس عاديين، لكنها كان يُسمح لها أن تصغي إلى ثنائهم. ولسوء الحظ، لم يمتدح حتى الآن أحد من الخبراء إريكا. المصير السطحي غير الموسيقي يكتنف الآخرين، لكنه يتجاوز إريكا، وهي تتحاشى رؤية وجهه. لكن هذا القدر لا يريد أن يُخدع بقناع جذّاب. إن إريكا ليست جميلة، ولو أرادت أن تكون جميلة، لطلبت منها أمّها أن تنسى ذلك على الفور. تفتح إريكا ذراعيها لذلك القدر. لكن عبثاً، فالقدر لن يجعلها عازفة بيانو ممتازة. تتناثر إريكا على الأرض مثل نشارة الخشب. إريكا لا تفهم ما الذي يحدث لها، لأنها أصبحت عازفة جيدة شأن كبار الأساتذة.

وفي أحد الأيام، في حفلة موسيقية هامة أقيمت في أكاديمية

الموسيقى، أخفقت إريكا إخفاقاً تاماً. أخفقت أمام أصدقاء وأقرباء منافسيها، وأمام أمّها القابعة هناك وحدها. فقد كانت الأم قد أنفقت آخر قرش تملكه على ثوب إريكا الذي ارتدته لهذه الحفلة. ثم توجه الأمّ صفعة على وجه إريكا، لأنه كان بوسع جميع الرجال، حتى من غير المتخصّصين في الموسيقى، قراءة فشل إريكا في وجهها، إن لم يكن في يديها. كما أن إريكا لم تشأ أن تختار مقطوعة تحبها الجماهير العريضة، بل قرّرت أن تعزف ميسياين، رغم تحذير أمّها لها. إذ لم يكن ميسياين الوسيلة التي يمكن لطفلة أن تدخل عن طريقها قلوب الجماهير، التي ما فتئت الأمّ وطفلتها تحتقرانها: الأمّ لأنها لم تكن سوى جزء بسيط وضئيل من الجماهير، والطفلة لأنها لم تكن تريد أن تصبح جزءاً بسيطاً من الجماهير.

إريكا تترنّح من فوق المنصّة، يعتريها الخجل. يستقبلها جمهورها الوحيد: الأمّ على نحو مخزٍ. أما معلّم إريكا، الذي كان عازف بيانو شهيراً، فيوبّخها بشدة لأنها لم تكن تركز. لقد أهدرت فرصة رائعة، والحظ لا يأتي إلا مرة واحدة. وفي يوم قريب، لن يحسد إريكا أحد، ولن تصبح مثالاً يحتذى لأحد.

أي شيء آخر يمكن أن تكونه سوى أن تصبح معلّمة؟ خطوة صعبة بالنسبة لعازف بيانو بارع، يعلّم فجأة المبتدئين المترددين والمسنين الذين تخلو نفوسهم من أية روح. المعاهد الموسيقية والأكاديميات، وكذلك المعلمون الخاصّون، يقبلون بنفاد صبر الكثير من الطلاب، الذين مكانهم الحقيقي مقلب النفايات، أو في أحسن الأحوال، ساحة كرة قدم. فلا يزال العديد من الشبان يندفعون نحو الفنّ، كما في الأزمان السابقة. ومعظمهم يأتي بدفع وإلحاح من آبائهم الذين لا يعرفون شيئاً عن الفنّ - فلا يوجد شيء سواه. وهم في سعادة بالغة

لأنه موجود! وبالطبع، فإن الفنّ يردّ الكثير من الناس على أعقابهم، لأنه يجب أن يكون هناك حدّ. الحدّ الذي يفصل بين الموهوبين وغير الموهوبين. وكان من دواعي سرور إريكا، بصفتها معلّمة، أن ترسم تلك الحدود. فالاختيار والرفض يعوضان الكثير. ومع ذلك، فقد عُوملت هي ذات مرة كعنزة ثم فُصلت عن باقي الخراف. أما طلاب إريكا فهم مزيج متنوع جداً، ولم يختبر أحد أو يتذوق عزفهم. فقلما عثرت على وردة حمراء بينهم. وكانت إريكا بين الحين والآخر، وخلال السنة الأولى، تتمكن من انتزاع سوناتة كليمينتي من طالب أو طالبين، فيما لا يزال الآخرون يرتعون في عزف مقطوعات تشيرني الموسيقية البدائية. وكان هؤلاء الطلاب يرسبون بعد الاختبار المتوسط، لأنهم يعجزون عن التمييز بين الغث والسمين، رغم أنّ آباءهم على قناعة تامة بأنّ أطفالهم سيُدعون في وقت قريب إلى الولائم التي تعج بكل ما لذ وطاب.

أما إريكا فكانت تستمد متعتها من الطلاب المتقدّمين الجيدين الذين يبذلون جهداً ملحوظاً. الذين كانت تستطيع أن تنتزع منهم أشياء كثيرة: سوناتات شوبير، وكريسليريانا لشومان، وسوناتات بيتهوفن. تلك هي النقاط العالية في حياة طالب البيانو. ويفرز بوزيندورفر مزيجاً معقّداً. ويقف إلى جانبه أستاذ بوزيندورفر، الذي لا يستطيع أحد أن يعزفه سوى إريكا، ما لم يقم طالبان اثنان بعزف مقطوعة على آلتي بيانو.

بعد انقضاء ثلاث سنوات، يتعين على طالب البيانو أن ينتقل إلى المستوى الأعلى. ولكي يفعل ذلك، كان عليه أن يجتاز الامتحان. وكان يقع معظم أعباء التحضير لهذا الامتحان على عاتق إريكا. إذ كان عليها أن تشغّل محرّك الطالب الخامد، وتضغط على الدواسة بقوة لتزيد

من سرعته. لكن هذا المحرّك لم يكن يقدح أحياناً، وكان يفضّل أن يفعل شيئاً آخر، شيئاً لا علاقة له كثيراً بالموسيقى - مثل أن يصبّ كلماته الرخيمة في أذن إحدى الفتيات. لكن إريكا لم تكن تبدي اهتماماً بهذا الضرب من السلوك، وتحاول أن توقفه إن أمكنها ذلك. وكانت إريكا غالباً ما تعظ طلابها قبل الامتحان فتقول: إن النوطة التافهة تعادل من السوء عزف مقطوعة بروح خاطئة، روح لا تمنحها حقها. لكن كلامها كان يصبّ في آذان صمّاء، أغلقها الخوف. فقد كانت الموسيقى تعني الصعود من أعماق الطبقة العاملة والارتقاء إلى قمة النظافة الفنية، بالنسبة للعديد من طلابها، الذين سيصبحون بدورهم معلمي بيانو. وكانوا يخشون أن تنزلق أصابعهم المبللة بالعرق، والممتلئة بالخوف، التي تحفزها ضربات سريعة على المفاتيح الخاطئة عندما يعزفون في الامتحان. وكان بوسع إريكا أن تناقش عملية العزف بسرعة، لكن ما كان يتمناه الطلاب هو أن يتمكنوا من عزف المقطوعة بشكل صحيح حتى النهاية.

كان يحلو لإريكا أن تفكر في والتر كليمر، ذلك الفتى الأشقر، الوسيم، الجميل المحيا، الذي كان أول من يصل إلى المدرسة من التلاميذ في الصباح وآخر من يغادرها في المساء. وتقرّ إريكا أنه شاب دؤوب، كثير الحركة مثل كلب البحر. وكان طالباً في كلية الهندسة، يدرس كلّ شيء يتعلق بالكهرباء ومزاياها المفيدة. وكان قد بدأ مؤخراً يستمع إلى جميع طلاب الموسيقى وهم يعزفون، بدءاً من النقرات والضربات المترددة الأولى، وانتهاء بالفصل الأخير والفانتازيا (عمل رقم ٤٩) لشوبان. وكان يبدو أن لديه متسعاً كبيراً من الوقت، الذي لا يمكن أن يتوفر لطالب مثله في المرحلة النهائية من الدراسة. سألته إريكا ذات يوم إن كان يفضّل أن يتدرب على عزف شونبيرغ، بدلاً من

إمضاء وقته هكذا بدون فائدة. ألا توجد لديه دراسة؟ لا محاضرات، لا واجبات، لا شيء؟ قال إنه يمضي عطلة الفصل الدراسي الآن، الأمر الذي لم يخطر ببال إريكا، رغم أنها درّست الكثير من الطلاب. فالعطلة في أكاديمية الموسيقى لا تتزامن مع العطلة في الجامعة. وبتعبير أدق، لا توجد عطل للفنّ. فالفنّ يلاحقك في كل مكان، ولا يجد الفنان ضيراً في ذلك.

تتملك إريكا الدهشة: كيف يمكنك أن تأتي دائماً في مثل هذا الوقت المبكّر يا سيد كليمر؟ فإذا كان الطالب مهتماً بمقطوعة شونبيرغ ٣٣، كما تفعل هي، فلا يمكن أن يكون مهتماً بصغائر الأمور. فلماذا إذاً تستمع إلى الآخرين؟ الطالب المجدّ يكذب. يقول إنه بوسعه أن يستفيد من أيّ شيء، ومن كلّ شيء، مهما بلغ من الصغر. يمكنه أن يستقي عبرة من أيّ شيء، يقول هذا الرجل المخادع، الذي لا يوجد لديه شيء أفضل يفعله. يدّعي أن بوسعه أن يحصل على كل شيء، ما دام يظلّ فضولياً ومتعطشاً للمعرفة. لكن يجب عليك أن تتغلّب على هذه الأشياء البسيطة، كي تحرز مزيداً من التقدم. فلا يمكن للطالب أن يبقى مع الفاشلين، وإلاّ اضطر من هم أعلى منه للتدخل.

ويحبّ الشابّ كذلك أن يستمع إلى معلّمته وهي تعزف، حتى لو كانت مجرد دندنة، أو وهي تعزف السلم الموسيقي باء. لا تبدأ بتملق معلّمتك التي تكبرك سناً يا سيد كليمر. لكنّه يجيبها بأنّها ليست مسنة، وأنه لا «يتملقها». إني أعني حقاً كلّ كلمة أقولها، فهي تصدر من أعماق قلبي! وكان هذا الفتى الجميل يطلب منها في بعض الأحيان أن تصنع له معروفاً، أن تعطيه واجباً بيتياً إضافياً، لأنه يريد أن يتدرب أكثر. فأليس هو في غاية الحماسة. يحدّق في معلّمته مستبشراً، متأملاً منها إيماءة، منتظراً منها إلماعة. معلّمته تصر على أن تُعامل بما تستحق

من احترام، فتضع الشابّ في حجمه الطبيعي عندما تقول ساخرة: إنك لا تزال لا تعرف شونبيرغ جيداً. لكن الطالب يجد متعة كبيرة لأنه يتلمذ على يدَي معلمته هذه، حتّى لو ازدرته وأحكمت عليه الخناق.

يبدو أن هذا الشابّ الجريء مغرم بك، قالت لها الأمّ بمرارة، بمزاج متكدر، عندما أتت لزيارة إريكا في المعهد الموسيقي. كانت ترغب في أن تتمشى مع إريكا. امرأتان، تشبك إحداهما يدها في يد الأخرى. وكان الطقس جميلاً ملائماً لمواصلة النزهة سيراً على الأقدام. هناك الكثير من الأشياء التي يمكن رؤيتها في واجهات المحلات - أحذية أنيقة، دفاتر جيب، قبعات، مجوهرات - لكن يجب على إريكا ألا تراها بأي شكل من الأشكال. ولهذا السبب جاءت الأمّ لاصطحابها. تأخذ الأمّ إريكا من طريق دائري، وتقول لها إنها تريد أن تطيل الطريق بسبب جمال الطقس. الحدائق العامة تزخر بالأزهار والورود والزنابق التي بدأت تتبرعم وتزهر، لكن من المؤكد لا يمكن للأزهار أن تشتري الثياب لهما. تحدّث الأمّ إريكا عن الجمال الطبيعي، الذي لا يحتاج إلى أيّ زينة اصطناعية. فالجمال الطبيعي جميل بحد ذاته، مثلك تماماً يا إريكا. فلماذا كلّ هذه الزينة والبهرجة؟

أطراف المدينة تومئ بنداءات الطبيعة الدافئة، ذات القش الطازج في الإسطبلات. تطلق الأمّ تنهيدة الفرج، وتدفع ابنتها بعيداً عن المحلات. يغمر الأمّ شعور بالبهجة لأن هذه الجولة لم تكلّفها اهتراء جلد الحذاء سوى بقدر قليل. فمن الأفضل على المرء أن ينتعل حذاء بالياً من أن يلمّع حذاء صاحب أحد تلك المحلات.

إنّ معظم سكان فيينا مسنون. إذ يمكنك أن ترى فيها الكثير من النساء العجائز. ومن حسن حظ هذه المرأة العجوز، الأمّ كوهوت، أن لها طفلة عالة عليها - التي قد تفخر بها، والتي ستقوم برعايتها حتى

يفرقهما الموت. فلا شيء يمكن أن يفرقهما سوى الموت، وقد كُتب على حقيبة إريكا عبارة الموت الغاية النهائية. وكانت تقع بين الحين والآخر في هذه المنطقة سلسلة من جرائم القتل. امرأتان عجوزان تموتان في عرينيهما، المليئين بأوراق النفايات. ولا يعرف إلا الله أين هي دفاتر حساباتهما المصرفية. لكن القاتل الجبان كان يعرف مكان مخبئها أيضاً، فنبّش تحت الفراش. ورغم قلة المجوهرات، فقد اختفت هي أيضاً. ولم يحصل الابن الوحيد، بائع الفضيّات، على شيء. أحياء فيينا الفقيرة مرتع لجرائم القتل. وليس من الصعب تبين أين تعيش إحدى هاتين العجوزين. ففي كلّ بناية تقريباً، توجد واحدة منهن على الأقل - أضحوكة المستأجرين الآخرين. وعندما يقرع رجل الباب ويقول إنه قارئ عدّاد الكهرباء، ولا يبرز بطاقة هوية تثبت ذلك، كن يسمحن له بالدخول. كن يُحذّرن بين الحين والآخر، لكنهن كن لا يزلن يفتحن قلوبهن وأبوابهن، لأنهن وحيدات. هذا ما تقوله السيدة كوهوت المسنّة للآنسة كوهوت، محاولة أن تثنيها عن ترك أمّها وحدها.

أما السكّان الآخرون الذين يعيشون في هذه المنطقة، فكانوا من الموظفين وصغار الكتبة الهادئين. فضلاً عن عدد قليل من الأطفال. وكانت أشجار الكستناء على وشك أن تزهر، والأشجار في منتزه براتر تتفتّح. وبدأ لون العنب في غابة فيينا يزداد اخضراراً. لكن لسوء الحظ، لم يكن لدى السيدتين كوهوت أي أمل في أن تذهبا إلى هناك لإلقاء نظرة، لأنهما لا تملكان سيارة تقلهما.

إلا أنهما غالباً ما كانتا تستقلان حافلة الترمواي حتى آخر محطة، حيث تترجلان مع باقي الركاب وتمشيان بحبور. الأمّ وابنتها، تبحثان عن العالم كلّه مثل «عمّات تشارلي فرانكشتاين الطائشات»، تحملان

جعبتيهما على كتفيهما، لا، بل الفتاة وحدها هي التي تحمل الجعبة، التي تحمي أغراض الأم القليلة، التي تخفيها عن العيون الفضولية. أحذية «بروغ» المتينة ذات النعال الصلبة. ولم تنسيا الوقاية من المطر (اقرأ دليل السائح المتجول). أُعذر من أنذر، وإلا فسترتعد فرائصك من البرد.

تسير المرأتان اللتان تنعمان بصحة جيدة. إنهما لا تغنيان أبداً، لأن معرفة شيء أو شيئين عن الموسيقى يجعلهما تحجمان عن انتهاك حرمة الموسيقى بالغناء. إنها تشبه أيام آيتشيندورف، الأمّ تزقزق، المهم هي روحك، موقفك من الطبيعة! الطبيعة نفسها شيء ثانوي! المرأتان تتمتعان بروح حقيقية، لأنهما قادرتان على الاستمتاع بما تشاهدانه في الطبيعة. فإذا رأيتا ساقية تصدر خريراً، شربتا منها على الفور ماء عذباً قراحاً. ولنأمل أن لا تكون ظبية قد بالت فيها. وإذا شاهدتا جذع شجرة غليظاً أو شجيرة كثيفة، يمكن أن تبولا هما نفسيهما تحتها، في حين تقف المرأة التي لا تبول تحرس المرأة الأخرى من أعين متلصص صفيق.

وبعد أن تنهيا جولتهما، تكون السيدتان كوهوت قد اختزنتا طاقة تكفيهما لأسبوع عمل جديد، لا يوجد فيه للأمّ أعمال كثيرة يمكن أن تقوم بها، في حين سيمتص الطلاب دم إريكا. وكانت الأمّ لا تني تعيد وتكرر السؤال ذاته في كلّ مساء: هل أزعجوك؟ فتجيب عازفة البيانو المحبطة لا، فقد كان كل شيء على ما يرام، والأمل لا يزال يعمر قلبها، إلا أن الأمّ تسحبها جانباً في طريقها المتعرج الطويل. وتعترض الأمّ على افتقار إريكا إلى الطموح. ولم تفتأ تصبّ هذه الملاحظات الخاطئة في أذن الطفلة منذ أكثر من ثلاثين عاماً. اختلاق الأمل. وتدرك الفتاة أنّ الشيء الوحيد الذي يمكنها أن تتطلّع إليه هو الحصول

على وظيفة: لقب أستاذة، الذي تستخدمه والذي يمنحه رئيس النمسا. وسيأتي يوم سيجري فيه الاحتفال بمرور عدة سنوات على خدمتها. ففي ذات يوم - وهو ليس بالبعيد - ستحال إلى التقاعد. صحيح أن فيينا سخية في رواتبها التقاعدية، لكن التقاعد الرسمي يصيب المهنة الفنية في صميمها كسهم من البرق، فإن أصابك، فلا بد أنك ستشعر به. وتضع مدينة فيينا حداً لانتقال الفنّ من جيل إلى جيل بعنف. تتحدّث المرأتان عن ترقبهما بلهفة اليوم الذي تحال فيه إريكا إلى التقاعد! فلديهما كلّ أنواع الخطط للمستقبل. عندئذ، ستكون الشقّة قد رُتبت، وسُدّد القرض بكامله. وستصبح لديهما كذلك قطعة أرض في الريف، تشيدان عليها كوخاً لهما هما الاثنتين، لا لأحد آخر. التخطيط للمستقبل. من الأفضل أن تكون نملة من أن تكون جندباً. في ذلك الوقت، ستكون الأمّ قد بلغت من العمر مئة عام، لكنها ستبقى تتمتع بالحيوية والنشاط.

تشعل أشعة الشمس أوراق الأشجار في غابة فيينا، فتحترق عند المنحدر.

هنا وهناك، تتفتح براعم أزهار الربيع. تقتلع الأمّ وابنتها الأزهار وتخبئانها. إنهما تقدمان خدمة جليلة للأزهار.

يجب أن تعاقب الوقاحة، وتدوسها السيدة كوهوت بقدمها.

الأزهار تناسب المزهرية الخضراء الفاتحة اللون، المستديرة الشكل من غموندين، أليس كذلك يا إريكا؟

* * *

تعيش الفتاة المراهقة في ملجأ، لا يُسمح لأحد أن يضايقها فيه. إنها محصنة من التأثيرات الخارجية، وهي لا تتعرض للإغراءات أبداً.

وسياسة عدم التدخّل هذه لا تنطبق إلا على المتعة، لا على العمل. الأمّ والجدة، الكتيبة الأنثوية، تقومان بحراستها، تحملان بندقية في يديهما لتحميا إريكا من الصيّاد الذكر المتربص في الخارج. بل يمكنهما توجيه تحذير طبيعي لذاك المتطفل. المرأتان العجوزان، بمهبليهما الجافين المغلقين، تلقيان بنفسيهما أمام كلّ رجل، لإبعاده عن ظبيتهما. يجب ألا يزعج الأنثى الشابة الحبّ أو المتعة. وقد تحولت شفاه مهبلي المرأتين العجوزين إلى حجارة غنية بفلزّ الصوان. يقعقعان بجفاف. يطبق فرجاهما مثل فكّي حنطب يحتضر، لكنه لا يتمكن من اصطياد شيء. ولذلك تتمسّك كل من المرأتين بلحم ابنتهما وحفيدتهما الشابة، تقطعانها وتشوهانها بإمعان وببطء، فيما يواصل جلدهما القاسي المراقبة للتأكد من أن لا أحد يقترب، ويبث السمّ في هذا الدم الجديد. وكانتا قد زرعتا جاسوسات لمسافة أميال لمراقبة الفتاة خارج البيت. وكانت أولئك الجاسوسات يأتين لاحتساء فنجان من القهوة ويدلين بما شاهدنه وعرفنه بحبور للمرأتين المسؤولتين عن تربية الطفلة. وبعد أن تحلّ قطعة الكاتو المصنوعة في البيت ألسنتهن وتطلقها، تنقل الجاسوسات ما رأينه عن الطفلة الغالية، وما كانت تفعله مع أحد الطلاب عند السدّ. ولا يطلق سراح الطفلة من سجنها المنزلي إلا بعد أن تفتح صفحة جديدة، وتقسم بأغلظ الأيمان بأن لا تلتقي ذلك الشاب ثانية.

وكان بيتهن الريفي يطل على الوادي حيث تعيش الجاسوسات، اللاتي دأبن على رفع رؤوسهن والتحديق في البيت بواسطة منظار. ولم تكن تنتابهن الرغبة في ترتيب أوضاع بيوتهن أولاً، بل كن في الحقيقة يهملن بيوتهن إهمالاً تاماً، عندما يبدأ المصطافون يتقاطرون أخيراً من المدينة، بسبب حلول الصيف. ساقية تجري عبر أحد المروج، لكن أجمة كبيرة من أشجار البندق تقطع عليك بغتة أيّ مشهد آخر من

الساقية التي تتدفّق خفية، وتجري باتجاه المرج الذي يملكه المزارع في البيت المجاور. وإلى يسار البيت، يصعد مرج جبلي عالياً، لينتهي به المقام في غابة، يعتبر جزء منها أملاكاً خاصة، وما تبقى منها من أملاك الدولة. ورغم أن أشجار الصنوبر الكثيفة تحيط بالمكان، يمكنك أن ترى بوضوح ماذا يفعل جارك، ويمكنه أن يرى ماذا تفعل أنت. وتسير الأبقار بتثاقل على امتداد الممر الجبلي باتجاه المراعي. وفي الخلف، وإلى اليسار، توجد كومة من الفحم في العراء، وإلى اليسار توجد قطعة أرض خالية، وقطعة أرض مزروعة بالفريز. وفي الأعلى، السماء مكسوة بالغيوم، والطيور تحلق فيها، بما فيها الصقور وصقر الباز.

وتصدر الأمّ الصقر، والجدة الباز، أمريهما إلى الطفلة القابعة تحت أجنحتهما، بعدم مغادرتها الوكر. إنهما تقطعان حياتها إلى شرائح سميكة، ويلوك الجيران سيرتها. ويقال عن كلّ طبقة لا تزال تنبض بالحياة، ولو قليلاً، إنها متعفنة، ويوجّه إليها نقداً عنيفاً. إن كثرة التجول والتنزه ليس جيداً من أجل دراستك. وقد كان هناك، عند السدّ، شبان يخوضون في المياه. تشعر بانجذاب نحوهم. وتتعالى ضحكاتهم ويغوصون تحت الماء. بوسعها أن تشع بهجة هناك، بين الريفيين السذج. فقد دُرِّبت على أن تكون متألقة ومشعة. لقد دربتاها وعلمتاها أنها هي الشمس، وأنها مركز جميع الأفلاك، وما عليها إلا أن تلبث ثابتة في مكانها، لا تتحرك ، فتأتي الكواكب السيّارة إليها وتعبدها. إنها تدرك أنها الأفضل لأن هذا ما يتردد دائماً على مسامعها، لكن من الأفضل عدم سبر ظنونها.

بتردّد، يتحرّك الكمان أخيراً تحت ذقنها، ترفعه ذراع بدون رغبة. وفي الخارج، تبتسم الشمس، ويلوّح لها الماء. الشمس تغريك بأن تنزع ثيابك أمام الآخرين، وهو شيء أمرتها السيدتان المسنتان في البيت

بأن لا تفعله. أصابعها تضغط على الخيوط الفولاذية المؤلمة أسفل لوحة الأصابع. روح موزارت المعذّبة، تتنهد وتختنق، تخرج بقوة من الآلة الرنانة. روح موزارت تصرخ من مثواها الجهنمي لأن عازفة الكمان لا تحسّ شيئاً، لكنها يجب أن تستمرّ في استمالة النوطات. النوطات تزعق وتئن، وتتلوّى ثم تخرج من الآلة. إنها لا تخشى أن يُوجه إليها النقد، ما دام يمكن سماع شيء، لأن الأصوات تشير إلى أن الطفلة ارتقت السلم الموسيقي، وبلغت مصاف أعلى، فيما تترك جسدها في الأسفل كهيكل ميت. وما زالت بقايا الفتاة الجسدية، التي انتُزعت من عليائها، تبحث عن أية آثار قد يكون ذكر ما قد تركها عليها فتأخذ في الارتعاش كلها. وبعد أن تنهي عزفها، كان بإمكانها أن تعود إلى جسدها الفاني، الذي جفّ وأصبح هشاً متفتتاً. وأضحى هيكلها الآن عديم الشعور، ولم يعد أحد يمتلك حقّ لمسه.

الأم تبدي ملاحظة جارحة: إذا تُركت وشأنها، فربما أبدت حماسةً لأحد الشبان أكثر مما تبديه للعزف على البيانو. وكان يجب دوزنة البيانو مرة في كلّ سنة، لأن المناخ الجبلي البدائي هذا سرعان ما يفسد أجود أنواع الدوزنة. يصل مدوزن البيانو في القطار من فيينا. يشق طريقه صاعداً الجبل لاهثاً، حيث يدّعي بعض المخبولين أن لديهم بيانو كبيراً، ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر! المدوزن يتنبأ أنه قد تتوقف هذه الآلة عن العزف بعد سنة أو سنتين، وبعدها سينهشها الصدأ والعفن. الأمّ تحرص على المثابرة في دوزنة البيانو بشكل صحيح، وتستمرّ في ليّ فقرات ابنتها أيضاً، غير عابئة بمزاج الطفلة، لا يهمها سوى تأثيرها على هذه الآلة العنيدة، التي قد تتلف بسرعة.

تصرّ الأمّ على إبقاء النوافذ مشرعة عندما تعزف الطفلة إحدى المقطوعات، (مكافأة لها على عزفها الجميل)، وليتمكن الجيران أيضاً

من التمتع بهذه الأنغام الشجية. وتقف الأمّ والجدة، مسلّحتان بمنظاريهما، من موقعيهما المرتفع، لتتأكدا إن كانت زوجة المزارع في الجوار، وجميع أقربائها وقريباتها جالسين بهدوء وانضباط أمام الكوخ، ينصتون بوجل واحترام. زوجة المزارع تريد أن تبيع الحليب، والجبن الأبيض، والزبدة، والبيض، والخضروات، لذلك ينبغي لها أن تجلس أمام بيتها وتنصت جيداً. وترى الجدة أنه يجدر بالجارة المسنة أن تجلس وترخي يديها المطويتين في حضنها وتنصت إلى الموسيقى. فزوجة المزارع تنتظر هذه الفرصة طوال حياتها، وقد جاءتها في شيخوختها. يا للروعة! إذ يبدو أن المصطافين كذلك قابعون هناك، يستمعون باهتمام إلى برامز. تنعق الأمّ فرحة بأنّهم يستمعون إلى موسيقى جديدة من الطراز الأول، تُقدم لهم مع حليبهم الطازج الفاخر، الذي لا يزال دافئاً كما كان في ضرع البقرة. أما اليوم، فستعزف مقطوعة لشوبان، كانت قد تعلمتها الطفلة مؤخراً، لزوجة المزارع وضيوفها. تنبّه الأم الطفلة بأن تعزف عزفاً جميلاً وبصوت عالٍ، لأن الطرش بدأ يدبّ في الجارة شيئاً فشيئاً. وهكذا راح الجيران يستمعون إلى لحن جديد، لم يسمعوه من قبل. بل سيسمعونه مراراً وتكراراً، إلى أن يتمكنوا من معرفته وهم في الظلام. لنفتح الباب أيضاً، كي يسمعوا بشكل أفضل. وتخترق موجة الموسيقى الكلاسيكية جميع فتحات البيت، ثم تهبط إلى المنحدرات، وبعدها إلى الوادي. سيشعر الجيران كأنهم يقفون إلى جانب البيانو مباشرة. وكلّ ما عليهم أن يفعلوه هو أن يقفوا فاغرين أفواههم، ليتدفق حليب شوبان الدافئ إلى حناجرهم. ومن بعده برامز، موسيقار المحبطين، وخاصة النساء.

تستجمع كلّ طاقتها، تنشر جناحيها، ثم تنحني إلى الأمام نحو المفاتيح، التي تصعد إليها كما تصعد الأرض نحو طائرة تتحطم. وإذا

لم تتمكن من الوصول إلى نغمة منذ الانقضاض الأول، تتركها وشأنها. تهمل بعض النغمات انتقاماً من معذّبيها الذين لم تُدرَّب آذانهم على الموسيقى، وهو أمر كان يمنحها شعوراً بالإثارة وإحساساً بالرضا. إذ لا يمكن لشخص عادي أن يلاحظ حذف نغمة هنا وهناك، أما اللحن النشاز فسيجعل المصطافين يغادرون كراسيهم القابلة للطيّ. ما هذا الشيء الذي يهبط عليهم من علٍ؟ فهم يدفعون كلّ سنة مبالغ طائلة لزوجة المزارع لينعموا بهدوء الريف وسكينته، أما الآن، فتهبط عليهم موسيقى صاخبة من أعلى التلّ.

أما المرأتان الحقودتان الساخطتان، ذلك الزوج من العناكب، فكانتا تستمعان إلى ضحيّتهما التي كادتا تمتصانها حتى النهاية. وكانتا بثيابهما الوردية، تراعيان ملابسهما أكثر مما تراعيان مشاعر سجينتهما. كانتا تتمتعان بكبريائهما: إلى متى ستبقى الطفلة متواضعة، رغم أنها ستنعم بالشهرة العالمية والثروة. ولأنهما تحتجزان الطفلة والحفيدة الآن، فقد كانتا تبعدانها عن العالم، حتى لا تعود ملكاً للأمّ والجدة ذات يوم، بل ملكاً للعالم برمّته. وستقولان للعالم كم كانت صبورة، الأمر الذي سيجعل الطفلة تصل إلى مبتغاها في نهاية المطاف.

لديكِ جمهور كبير اليوم! انظري فقط: لا يقل عن سبعة أشخاص جالسين في تلك الكراسي الملوّنة. إنه اختبار. لكن بعد أن ينتهي برامز، ماذا سيسمعون رغماً عنهم؟ ويدوّي أخيراً صدى غير مهذب: نوبة ضحك صاخبة من المصطافين هناك. على ماذا يضحك هؤلاء المغفلون؟ كيف يمكنهم أن يكونوا عديمي الاحترام إلى هذه الدرجة؟ تتجه الأمّ وابنتها، مسلّحتان بعلب الحليب، إلى الوادي بالنيابة عن برامز: هجوم انتقامي من السخرية. يتذمر المصطافون من الضوضاء، إنه تشويش للطبيعة. فتردّ الأمّ بحقد شديد بأنّ سوناتات شوبيرت

تنطوي على هدوء الغابة أكثر من الغابة نفسها. إنهم ببساطة لا يفهمون. وبزبدة الريف، وفاكهة رحمها، تعود الأمّ شامخة وتصعد الجبل الوحيد. وتمشي ابنتها مزهوة، تمسك علبة الحليب. ولا تظهران كلتاهما في الأماكن العامة مرة أخرى حتى يحل مساء اليوم التالي. لا يكفّ المصطافون عن التحدث عن هوايتهم: احتساء النبيذ حتى الثمالة في الريف.

ينتابها إحساس بأن كلّ شيء قد هجرها، وأنها تُركت وحدها. ويذهب الآخرون شأواً أبعد من ذلك، بل حتى أنهم يتسلقون على كتفيها. إنها تبدو أشبه بعائق بسيط. السابلة يخطون نحوها، لكنّها تغذ الخطى وتتابع السير في طريقها، مثل غلاف شطيرة مليئة بالدهون. ربما كانت تهفهف قليلاً مع هبات النسيم. لا تستطيع الورقة أن تبتعد كثيراً، إنها تتعفّن هناك. التعفّن يستغرق سنوات، سنوات رتيبة.

ولتغيير رتابة الحياة، يأتي ابن خالتها لزيارتهم، ويملأ البيت بحيويته ونشاطه. ليس حياته فقط، بل يجلب كذلك حيوات أخرى، يجذبها معه كما يجذب ضوء الشارع الهوام والحشرات الطائرة. ابن الخالة، طالب الطبّ، يجذب معه الشباب إلى هذا المكان بحيويته المغرورة ومهارته الرياضية العالية. وعندما يريد، كان يلقي نكتة جيدة. إنه يعرف أنه شاب لطيف يتمتع بروح مرحة. يلوح مثل صخرة من الجيشان المزبد أمام الريفيين السذج، الذين يريدون أن يقلدوه في كلّ شيء. وفجأة، تدب الحياة في البيت لأن الرجل يجلب معه دائماً الحياة إلى أي بيت. تحدّق سيدات البيت بافتخار، وابتسامات رقيقة ترتسم على وجوههن، في الشابّ الذي يجب أن ينفّس عما يجيش في داخله من مشاعر فائرة. ويحذّرنه من الأفاعي الإناث، اللاتي قد يحاولن خداعه واستمالته إلى الزواج. يفضّل هذا الشابّ أن ينفّس عن

نفسه علناً، فهو يحتاج إلى جمهور، ويحصل عليه. حتى أمّها الصارمة المتجهمة تبتسم. وفي النهاية، يخرج الشابّ إلى العالم العدواني، في حين يجب على الفتاة أن تكافح وتجهد نفسها في عالم الموسيقى.

ويفضّل الفتى أن يلبس مايوهاً ضيقاً ولصيقاً. ويحبّ كذلك أن ترتدي الفتاة مايوه بكيني في غاية الصغر، الذي درجت موضته الآن. وكان يستخدم مسطرة يقيس بها ما يجب على الفتاة أن تعرضه، ويسخر مما لا تعرضه. وكان يلعب الريشة الطائرة مع الفتيات الريفيات، وبذل جهداً في إقناعهن بلعب هذه الرياضة التي تتطلّب تركيزاً أكثر من أي شيء آخر. يمسك بيد الفتاة التي تحمل المضرب. كانت تشعر بالحرج الشديد وهي في المايوه البكيني المتناهي في الصغر. إنها تعمل بائعة، وكانت قد وفّرت بعض النقود لتشتري بها هذا البكيني. وهي ترغب في أن تتزوّج طبيباً، وتريد أن تعرض قوامها، لكي يعرف طبيب المستقبل ما سيحصل عليه. إذ لا أحد يشتري سمكاً في البحر. وتكاد تكون أعضاء الفتى التناسلية محشورة في كيس مربوط بخيطين اثنين. وكان هذان الخيطان يتدليان فوق ردفيه، معقودان من كلّ جانب، من اليسار واليمين. وكانا معقودين بإهمال، إذ لم يكن هو من النوع المتزمت. وكانت العقدة تنحل أحياناً، فكان يضطر إلى عقدها ثانية. لقد كان المايوه صغيراً للغاية.

والأهم من كل ذلك، فقد كان الشابّ يتباهى بإجادته حركات المصارعة التي أخذ يمارسها هنا، في الجبل، حيث حصد إعجاباً شديداً. وكان يتقن كذلك بضع حركات معقّدة من الجودو. وكان غالباً ما يؤدّي حركات بهلوانية تثير الإعجاب. وإذا لم يكن الشخص العادي يعرف شيئاً عن هذه الرياضة، فلن يكون بوسعه أن يقاوم هذه الحركة، ولن يتمكن من التملص من قبضته. وكنت تسمع صيحات المرح

والحبور تنطلق من أفواه المشاهدين المتحلقين حوله، حتى الخاسر كان يشارك في الضحك بمرح، في محاولة لأن يبدو أنه خاسر جيد. وكانت الفتيات يثبن حول الفتى كالثمار الناضجة التي حان قطافها. ولم يكن على الشاب الرياضي إلا أن يقطفها ويلتهمها. وكانت الفتيات يصحن ويزعقن، وهنّ يحاولن أن يقتربن منه أكثر. وكنّ ينزلقن من فوق التلال وهنّ يضحكن، ويقعن على الحصى أو فوق الأشواك وهن يصرخن، بينما يقف الشابّ فوقهن، منتصراً. وكان يمسك برسغي إحدى الفتيات ويضغطهما بقوة. كان يستخدم قبضة سرية، إذ لم يكن من السهل تبين ماذا يفعل بدقة، أما فأرة الاختبار تلك، التي لا تعود تحتمل قوّته المهيمنة وحركاته الخبيثة، فتجثو على ركبتيها، وتنحني على قدمَي الشاب. من بوسعه أن يقاوم هذا الطالب الشاب؟ فإذا كان في مزاج رائق حقاً، كان يسمح للفتاة، التي تزحف على الأرض، أن تقبّل قدميه، وإلا فلا يتركها تنهض وتقف على قدميها. فتقبّل الضحيّة قدميه، وتأمل في الحصول على مزيد من القبل، التي ستكون ألذ وأحلى، لأنها ستعطى وتؤخذ خلسة.

تداعب أشعة الشمس رؤوسهم. ويندفع الماء من الأحواض الصغيرة ويتلألأ تحت أشعة الشمس. الطفلة تعزف على البيانو، متجاهلة سيل الضحكات التي تنطلق على نحو متقطع. وتسرع أمّها لتطلب منها ألا تعير ذلك أي اهتمام. تقف الأمّ على درجات الرواق تضحك. تضحك وتحمل في يدها صحناً من الكاتو. الأمّ تقول إن الشباب لا يأتي إلا مرة واحدة فقط، لكن لا أحد يسمعها في وسط هذه الجلبة.

كانت لديها دائماً أذن واحدة تتناغم مع الضوضاء في الخارج، الضوضاء التي يحدثها ابن خالتها والفتيات الأخريات. إنها تنصت

باهتمام، بينما يغرز هو أسنانه السليمة في الزمن، ينهشه بشراهة وتلذذ. تبدأ تدرك الزمن مع كلّ ثانية تمرّ على نحو أشد إيلاماً. وكعقارب الساعة، تنقر أصابعها على لوحة المفاتيح. نوافذ الغرفة التي تعزف فيها مغلقة بالقضبان، التي تشكّل صليباً منتصباً في وجه الضوضاء الوحشية في الخارج، كما لو كانت مصّاص دماء يبحث عن دم لامتصاصه.

يقفز الشابّ الآن إلى البركة. إنه يستحقّ أن يتبرّد من الحرارة التي تعتمل في داخله. يغوص في الماء العذب، الماء البارد المثلّج. الجَسور وحده الذي يتربع على قمة العالم، ويمتلك الشجاعة ليقفز إلى الماء. ينخر ويتنفس بمرح كالحوت، ثم يعود ويطفو على سطح الماء. إنها تلاحظ ذلك دون أن تراه. وسط الهتافات الصاخبة، تسرع الصديقات الموعودات بمستقبل الطبيب ويلقين بأنفسهن في البركة الصغيرة ويملأنها. يتراشش بالماء ويتحلّقن حوله! إنهن يقلّدن كلّ شيء يقوم به، تقول الأمّ ضاحكة. إنها متساهلة. الجدة العجوز، التي تشاطرها ابن الخالة، تهرع لكي تتفرج. الجدة العجوز تشاركهم في رش الماء أيضاً، لأن الشاب لا يعتبر أن أي شيء مصون، حتى المسنين. لكنهن يضحكن من الحفيد الممتلئ رجولة وحيوية. وتطلق الأم تعليقاً سديداً: يجب على الفتى أن يبرّد جوف معدته ببطء أولاً. لكنها في النهاية، تضحك بصوت أعلى من صوت الأخريات، رغماً عنها. جسدها يهتزّ ويرتجّ بالضحك عندما يقوم الشاب بتقليد فقمة، كأنه فقمة حقيقية، حيّة. الأم تهتزّ وترتجّ كما لو كانت تتقاذف في داخلها قطع زجاجية. لكن الشاب يذهب شأواً أبعد من ذلك، إذ يلقي كرة قديمة في الهواء ويلتقطها فوق أرنبة أنفه. لكن حتى ألعاب الخفة يجب التدرب عليها: الجميع يتلوّى من الضحك. أجساد تهتزّ من الضحك. الدموع تفيض من العيون. ثمة شخص يغنّي بصوت مرتفع،

يصيح مبتهجاً، كما يفعل الناس في الجبال. حان وقت الغداء. لقد أطفأ حرارته الآن، وهو أفضل مما لو تبرّد بعد الغداء، فعندها سيكون الأمر خطيراً.

تتلاشى الملاحظة النهائية، تبهت. أوتار عضلاتها تسترخي. ينطلق صوت ساعة المنبّه التي كانت الأم قد عيّرتها. تهب واقفة في وسط جملة موسيقية وتقفز إلى الخارج، مشحونة بالعواطف المراهقة المعقّدة، لتلحق بآخر جزء من الغناء والرقص. لقد حظيت بالترحيب، هي ابنة خالته. هل كان يتعين عليكِ أن تمضي طوال هذا الوقت في العزف؟ ويجب على أمّها أن تدعها وشأنها، فأليسوا هم في إجازة. تطلب الأمّ منه أن لا يؤثر على عقل طفلتها. تنغرز أسنان الشاب، الذي لا يدخّن ولا يشرب الكحول، في الشطيرة. ورغم اقتراب موعد الغداء، لم يكن بإمكان نساء البيت أن يرفضن تقديم شيء يأكله، ذلك العزيز على قلوبهن. ثمّ صبّ الشاب عصير التوت بسخاء (الذي كن قد جمعنه بأنفسهن) في كأس زجاجي طويل، وملأ الكأس بماء البئر، وأخذ يجرع الشراب. لقد استمد قوّة جديدة. وراح الآن يصفع بطنه ذات العضلات براحة يده بطريقة شهوانية. يصفع عضلات أخرى أيضاً. أصبح بوسع الأمّ والجدة أن تتحدّثا عن شهية الشاب الرائعة لساعات طوال. إحداهما تبزّ الأخرى في سرد تفاصيل الطبخ المبتدعة، تتجادلان طوال اليوم فيما إذا كان الشاب يفضّل أن يتناول ضلع لحم العجل أو قطعاً من لحم الخنزير. الأمّ تسأل ابن أختها عن دراسته، فيجيب أنه لا يريد أن يتحدث عن الدراسة لفترة من الزمن. إنه يريد أن يكون شاباً، يريد أن يتمتّع بوقته. فسيأتي يوم يقول فيه إن شبابه قد ولّى منذ زمن بعيد.

الشاب ينظر في عينيها مباشرة ويقول لها إنها يجب أن تضحك

قليلاً. لماذا هي جدّية إلى هذه الدرجة؟ يطلب منها أن تحاول وتمارس بعض التمارين الرياضية، فذلك سيجعلها تضحك، وسيمنحها إحساساً عاماً جيداً. فابن الخالة يستمتع كثيراً بالألعاب الرياضية، ويضحك عالياً، وتتطاير قطع من الشطيرة من فمه المفتوح. يتنهد بسعادة. يتمطى على نحو يبعث على البهجة. يدور مثل طبق ثم يلقي بنفسه على العشب، كما لو كان ميتاً. لكنه يثب واقفاً مرة أخرى، لا تخافي. لقد آن الأوان لإدخال المتعة إلى نفس ابنة خالته الصغيرة، وسيريها حركة المصارعة تلك. ابنة خالته تشعر بالسعادة، لكن خالته منزعجة.

تهبط إلى أسفل التلّ، المسافة طويلة. رحلة في اتجاه واحد. تتهاوى على محورها الطولي. تنطلق، تنحدر إلى الأسفل. الأشجار، الدرج الصغير المحاط بسياج من الورد البرّي، يندفع الناس من جانبها، يختفون من مجال رؤيتها. يصعدون إلى الأعلى. تنسحق أضلاعها. شعرُ صدرِ الشاب يختفي فوق رأسها، تنزاح حافة المايوه الذي يرتديه. الخيوط تتدلى. تظهر خصيتاه للعيان. وبلا هوادة، يظهر جبل إفريست الأحمر الصغير، وما تحته. صورة مقرّبة: الشعيرات الطويلة، الشقراء، الزغبية التي تكسو أعلى فخذيه. ثم يتوقف الهبوط فجأة. تصل إلى الطابق الأرضي. في بقعة ما من ظهرها، تتصدّع عظامها بهمجية، تُهرس المفصلات: يهتصرها بقوة. تجثو أمامه الآن. يا للفرحة! لقد نجح الشاب مرة أخرى في الإمساك بالفتاة في غفلة منها. إنها تجثو أمام ابن خالتها الذي يقضي عطلته معهم، طفل واحد يقضي عطلته أمام الآخرين: مسحة رقيقة من الدموع تلمع على وجهها وهي تنظر إلى الأعلى، إلى قناع من المرح، الذي يكاد ينبلج. لقد فعلها هذا الشاب الذي لا يصلح لشيء حقاً، ويشعر بنشوة نصره. لقد دُفعت إلى أرض جبال الألب. تنتاب الأمّ الصدمة لسوء المعاملة التي يعامل فيها

المراهقون المحليّون طفلتها - هذه الفتاة الموهوبة، التي يبدي الجميع إعجابهم بها، واحترامهم لها.

الكيس التناسلي الأحمر يتذبذب ويتدلى، يتأرجح على نحو مغرٍ أمام عينيها. إنهما خصيتا مغو الفتاة وفاتنها، ولا يمكن لأحد أن يقاومه. تسند خدّها إليه لبرهة سريعة. إنها لا تعرف ماذا ستفعل بدقة. تعتريها رغبة جامحة في لمسه. إنها تريد أن تلمس حلية شجرة عيد الميلاد المتألّقة تلك بشفتيها، لمرة واحدة فقط. للحظة واحدة. هل لمسته بشفتيها أم بذقنها؟ لم يكن ذلك متعمداً. لا يدرك الشاب أنه أحدث انهياراً أرضياً في ابنة خالته. إنها تحملق وتحدق فيه. لقد رُتّبت الرزمة لها، مثل شريحة زجاجية تحت مجهر. دعي هذه اللحظة تمر ببطء، إنها رائعة.

لم يلحظ أحد شيئاً، إذ كان جميعهم منهمك في تناول طعام الغداء. يقذفها الشاب، وعلى الفور يتراجع خطوة إلى الوراء. ومن باب اللياقة، يكتفي بقبلة القدم، التي تكون عادة خاتمة هذه اللعبة. يتحرك يميناً ويساراً قليلاً، ثم يهب واقفاً بقفزة واحدة ويجري. يبتلعه المرج. تدعوه النساء لتناول طعام الغداء. طار الشاب بعيداً. قفز خارج العشّ. لبث صامتاً. سرعان ما سيختفي تماماً. ينطلق وراءه صديقان. ينقضّان عليه. توجّه له الأمّ عتاباً خفيفاً بسبب طيشه: فقد تجشمت عناء إعداد طعام الغداء. ووقفت الآن تحمل الكيس في يدها.

عاد الشاب بعد فترة طويلة. كان سكون الليل قد خيم على جميع الأماكن. لم يكن يُسمع صوت سوى تغريد العندليب عند الساقية. كانت النساء يلعبن الورق في الشرفة. وكانت الفراشات، شبه الدائخة، تدور حول الفانوس. لم تجذبها دائرة براقة. كانت تجلس وحيدة في غرفتها معزولة، وقد نسيها الجميع لأنها خفيفة الوزن. إنها لا تنافس

أحداً. تفتح رزمة، وتخرج منها شفرة حلاقة بعناية. إنها تصحبها دائماً في حلها وترحالها. النصل يبتسم لها مثل عريس في حفلة زفاف. تختبر الحافة بحذر. إنها حادّة للغاية. ثمّ تضغط النصل على مؤخرة يدها عدّة مرات، ولكن ليس بالعمق الذي يجعلها تقطع أوتارها. إنها لا تشعر بالألم على الإطلاق. يقطع المعدن يدها مثل الزبدة. ولوهلة يفغر شقّ في النسيج الذي كان سليماً منذ لحظات، ويبدأ الدمّ المروّض يتدفق بصعوبة خارج الحاجز. تجرح نفسها أربعة جروح. هذا يكفي، وإلا لنزفت حتى الموت. تنظف الشفرة دائماً قبل أن تعيدها ثانية إلى الرزمة. يقطر الدم الأحمر الناصع ويسيل من الجروح، يلطّخ كلّ شيء وهو يتدفّق. ينزّ، دافئاً، صامتاً. لقد استعذبت هذا الإحساس. إنه سائل جداً. لا يتوقف عن الجريان. يجعل كلّ شيء أحمر. أربعة شقوق تنزّ بلا توقف على الأرض، وعلى الفراش، وتتجمع السواقي الصغيرة الأربع وتشكل سيلاً هادراً. «استمري في ذرف دموعك، وستجرفك الساقية معها». تتشكّل بركة صغيرة. والدم لا يزال يتدفق من دون توقّف. إنه يجري ويجري ويجري ويجري.

* * *

غادرت إريكا، المعلّمة الأنيقة، المدرسة كعادتها لا تلوي على شيء، بعد أن أنهت عملها الموسيقي لهذا اليوم. وقد رافق مغادرتها المدرسة التي لم تلفت الأنظار، أصوات أبواق ومزامير سيارات تصمّ الآذان، وعويل آلة كمان ينبعث من النوافذ المشرعة. تهبط إريكا درجات السلم بخفة، إلى حد أن الدرجات لم تكد تشعر بوقع قدميها. لم تكن الأمّ تنتظرها اليوم. وعلى الفور، وبتصميم شديد أخذت إريكا تسير في الاتجاه الذي كانت قد طرقته عدة مرات في الماضي. وهو

الطريق الذي لا يؤدي إلى البيت مباشرة. ربما كان هناك ذئب كبير متوحش يستند إلى عمود كهرباء، يزيل من بين أسنانه بقايا ضحيّته الأخيرة. ترغب إريكا في أن تثبّت معالم رئيسية في حياتها الرتيبة، وتدعو خفية الذئب بنظراتها. إنها تراه من مسافة بعيدة، ويتناهى إليها صوت الجلد وهو يُمزّق ويُقطّع. سيحلّ المساء بعد قليل. وستلوح من بين الضباب أنصاف حقائق موسيقية. تسير إريكا رابطة الجأش، عاقدة العزم.

تنبلج أمامها فجوات الشوارع، ثم تنغلق ثانية لأن إريكا عاجزة عن اتخاذ قرار إن كانت ستلج تلك الفجوات أم لا. تحدّق أمامها مباشرة عندما تشعر برجل يغمزها. إنه ليس الذئب، ولا يرفرف مهبلها بجناحيه وينفتح، بل يغلق مثبطاً، بشدّة كالفولاذ. تهز إريكا رأسها مثل حمامة ضخمة، لتطرد الرجل شر طردة. يعتريه فزع شديد بسبب الانهيار الأرضي الذي أحدثه، ويفقد كلّ رغبة في الاقتراب من هذه المرأة أو نيلها. تشحذ إريكا وجهها بشكل متغطرس. أنفها، فمها، كلّ شيء يصبح سهماً يشير في اتجاه واحد. تشق طريقها في المنطقة كما لو كانت تقول: تابعي طريقك. ثلة من المراهقين توجه تعليقات تزدري إريكا وتتهكم بها، إريكا تلك السيدة المحترمة. إنهم لا يعرفون أنهم يوجهون تعليقاتهم اللاذعة إلى أستاذة، ولا يبدون لها أي احترام. تنورة إريكا ذات المربعات والثنيات تغطّي ركبتيها، لا ميليمتر واحد أعلى ولا ميليمتر أقل. ترتدي كذلك قميصاً فضفاضاً حريرياً يغطّي جذعها تماماً. وكعادتها، كانت تتأبط حقيبتها، وقد حرصت على إغلاق السحاب بإحكام. لقد حرصت إريكا على إغلاق كلّ شيء فيها يمكن أن يُفتح.

لنأخذ حافلة الترامواي. تتجه إلى الضواحي التي تسكنها الطبقة العاملة. بطاقة اشتراكها الشهري غير سارية على هذا الخطّ، لذلك

يتعين عليها أن تشتري تذكرة أخرى: وهي عادة لا تأتي إلى هذه المنطقة. إذ إنك لا تأتي إلى مثل هذه المناطق إلا إذ كنت مضطراً إلى ذلك. قلة قليلة من طلابها يأتون من هذه المناطق. الموسيقى هنا لا تدوم أكثر من الوقت الذي تستغرقه أغنية في صندوق للموسيقى.

مطاعم صغيرة ذات أرضيات زلقة بسبب الدهون تنفث بأنوارها على الرصيف. وفي الجزر المضاءة بأنوار الشارع، ثمة أشخاص يتشاجرون، لأن أحدهم قال شيئاً غير لائق. على إريكا أن تنظر إلى أشياء غريبة كثيرة. هنا وهناك تتناثر عربات تتحرّك بأصواتها المجلجلة التي تهدر في الهواء. ثمّ تتلاشى بسرعة كما لو أن أحداً ينتظرها في مكان ما - في منزل كاهن الأبرشية، حيث تقام حفلة، يتمنى الكاهن أن يتخلّص من سائقي العربات في الحال لأنهم يعكرون صفو السلام والهدوء. وعادة ما ترى شخصين محشورين في دراجة مهلهلة لاستغلال كل نقطة من الفضاء المتاح فيها. لا يمكن لأي شخص أن يستأجر دراجة. سيارات صغيرة عادة ما تكون مكتظة حتى آخرها هنا. غالباً ما تُحشر جدّة هرمة في سيارة وسط أقربائها الذين يأخذونها في جولة ممتعة إلى المقبرة.

تترجل إريكا من الحافلة وتواصل السير على قدميها. لا تلتفت يميناً أو يساراً. عاملون يقفلون ويوصدون أبواب سوبر ماركت. في المقدمة، يمكنك أن تسمع هدير محركات آخر دردشة لإحدى ربات البيوت. صوت سوبرانو يهيمن على صوت باريتون: عناقيد عنب متعفنة. أسوأها يقبع في قعر السلة البلاستيكية. لذلك لم يشتر منها أحد اليوم. كلّ ما يتحدث عنه المرء بصوت مرتفع مجلجل أمام الآخرين - لا يعدو كونه كومة قمامة من الشكاوى والغضب. وراء الأبواب الزجاجية الموصدة، أمينة صندوق تحاول فتح صندوق النقد عنوة. لا

تستطيع أن تعرف أين المشكلة. طفل يقود درّاجة صغيرة وطفل آخر يجري إلى جانبه، باكياً متذمراً، يطلب من رفيقه أن يعطيه دوراً، والطفل الآخر يعده بذلك. الراكب يتجاهل إلحاح رفيقه الأقل شأناً. لم تعد ترى مثل هذه الدرّاجات الصغيرة في الأحياء الأخرى، تقول إريكا لنفسها. ذات مرة حصلت على واحدة منها كهدية، وغمرتها آنئذ سعادة بالغة. لكنها لم تتمكن، لسوء الحظ، من ركوبها لأن الشارع يقتل الأطفال.

ينفتل رأس طفلة في الرابعة من عمرها من جراء صفعة تهوي على وجهها كالإعصار من يد أمها. لوهلة، يدور الرأس عاجزاً، مثل كعكة ملفوفة فقدت توازنها ووجدت صعوبة في العودة إلى مكانها. وفي النهاية، يستقيم رأس الطفلة مرة أخرى ويعود إلى مكانه الصحيح. إلا أنها تطلق الآن أصواتاً مروّعة، فتنهال الأمّ الضجرة عليها بلطمة، ويخرج الرأس من شاقوله على الفور. القدر السيئ مكتوب على جبين الطفلة بحبر سري. وتحمل الأمّ أكياساً ثقيلة تجاهد في حملها، وتفضّل لو ترى ابنتها الصغيرة وقد ابتلعتها المجاري. وكما ترى، فلكي تؤدب الأمّ ابنتها، يتعين عليها أن تضع الأكياس التي تزيد من معاناتها على الأرض. ومع ذلك يبدو أن الجهد الزائد كان يستحق هذا الجهد الإضافي. الطفلة تتعلّم لغة العنف، ولكن رغماً عنها. أما في المدرسة، فهي لا تفهم سوى القليل أيضاً. إنها تعرف بضع كلمات، الأشياء الأكثر ضرورة، رغم أنك قلما تفهمها بين بكائها ودموعها.

سرعان ما تتسع المسافة التي تفصل المرأة والطفلة الصاخبة خلف إريكا. فقد كانتا تتوقفان باستمرار! ولم يكن بوسعهما مجاراة سرعة الزمن. إريكا تغذ الخطى. هذا حيّ سكني، لكنه ليس من الأحياء الراقية، حيث يعود الآباء إلى بيوتهم في وقت متأخر من الليل، يدلفون

إلى مداخل العمارات، متوفزين ومستعدين للانقضاض على عائلاتهم مثل مطارق خفية. وتصفق أبواب آخر العربات وهي تغلق، فخورة وواثقة من نفسها، لأن هذه العربات الصغيرة يمكن أن تفلت من أيّ شيء، وهي عزيزة على قلوب أصحابها. وتُركن بألق شديد عند حافة الرصيف، ويهرع أصحابها لتناول طعام العشاء. وقد يتمنى أي شخص لا يملك بيتاً - جميلاً - أن يملك واحداً منها، لكنه لن يتمكن من أن يبني بيتاً، حتى لو حصل على قرض عقاري كبير. فأي شخص يملك بيتاً في هذه المنطقة، من بين جميع الأماكن، يفضل أن يمضي جلّ وقته في مكان آخر. يجتاز عدد أكبر وأكبر من الرجال طريق إريكا. أما النساء، كما لو كانت قد كتبت لهن صيغة سحرية، فقد اختفين في الثقوب التي تدعى «شققاً» هنا. ولا يجرؤن على الخروج بمفردهن في هذا الوقت من الليل، دون صحبة أحد من أفراد أسرتهن الكبار لاحتساء كأس من البيرة أو زيارة أحد الأقارب. نشاطاتهن غير المرئية والضرورية منتشرة في كل مكان. تنبعث روائح من المطابخ. ويُسمع أحياناً صوت قرقعة القدور واحتكاك الشوك والسكاكين. تتسرّب أول ملهاة من ملاهي العائلات في هذا المساء المبكر من إحدى النوافذ، ثمّ من نافذة أخرى، ثمّ من العديد منها. الكريستالاتِ المتلألئة ترصّع الليل الذي بدأ يخيم. وتتحول واجهات المباني إلى ستارة خلف المسرح. فربما لا يدور شيء وراءها: وجميع هؤلاء الناس من طينة واحدة. أصوات التلفزيون وحدها هي الحقيقية، إنها الأحداث الفعلية. ويواجه الناس جميعهم في هذه المنطقة الأشياء ذاتها في الوقت نفسه، باستثناء شخص يحب العزلة، يشاهد قناة تربوية. ويطلع هذا الشخص الانعزالي على المؤتمر القرباني، مجهّزاً بالحقائق والأرقام. أما اليوم، فإذا أردت أن تكون مختلفاً، فيجب أن تسدد ما عليك.

يمكنك أن تسمع خوار الأحرف الصوتية التركية. وسرعان ما يتناهى إليك صوت كرواتي صربي على الفور. ثلل من الرجال، متأهبين انتظاراً وتحسباً، مجموعات صغيرة، تنطلق مسرعة بأعداد قليلة غير منتظمة، تتجه يساراً الآن إلى أسفل جسر القطار حيث أقيم مكان للفرجة على عروض للإغراء الجنسي (بيب شو) تحت أحد أقواس الجسر. لقد استُغل المكان استغلالاً رائعاً، كلّ زاوية وكلّ شقّ فيه، لم يُهدر ولا سنتيمتر واحد. ولا شكّ أن الأتراك يعرفون جيداً شكل القوس من مساجدهم. لعل الشيء كله يذكرهم بالحريم. فقد تم تجويف القوس تحت الجسر وأصبح مليئاً بالنساء العاريات، حيث تنال كلّ امرأة منهن فرصتها، تباعاً. إنه جبل فينوس مصغّر. تانهاوسر يأتي، يضرب بعصاه. في هذا القوس المبني من الآجر، يقوم الرجال بالتحديق في النساء الجميلات. في هذا المحل الصغير الذي يضم عاهرات، تتمدد وتنبطح النساء العاريات، وهو شيء يلائم تماماً شكل القوس، روح واحدة في جسدين. تتناوب النساء فيما بينهن. يتبادلن أماكنهن في سلسلة كاملة من محلات الفرجة على عروض الإغراء الجنسي، وفق مبدأ عدم الرضا، كي يتمكن الزبائن الدائمون من رؤية لحم جديد بصورة مستمرة بين الفينة والأخرى. وإلا لتوقف الزبائن الدائمون عن المجيء. ورغم كل ذلك، فهم يجلبون معهم قدراً كبيراً من المال، ويُدخلون قطعة معدنية إثر أخرى، في شقّ يفغر فمه بنهم. وما إن تبدأ حرارة الأشياء بالارتفاع، حتى يضطر المتفرج إلى إدخال قطعة معدنية أخرى. يد تلقم النقود، واليد الأخرى تخض بعنف لتفرغ شحنة الرجولة. ففي البيت يأكل الرجل ما يكفي لثلاثة أشخاص، أما هنا فإنه يهدر طاقته بطيش ويذروها في الرياح.

وكان كلّ عشر دقائق، ينبعث صوت كهزيم الرعد عندما يمر قطار

بلدية فيينا من فوق، فيهتزّ القوس بأكمله، لكن الفتيات لا يتوقفن عن الاستدارة والتلوي بعزيمة لا تفتر. فهنّ يعرفن المكان حق المعرفة، وتعوّدن على الضجيج. وما إن تُدخل قطعة العملة المعدنية، حتى ترتفع النافذة، ويبرز لحم وردي - يا لها من معجزة تقنية. ويجب عليك ألا تلمس هذا اللحم. لا يمكنك ذلك بسبب الجدار. وقد كسيت النافذة الخارجية بورق أسود، وزينت بزخارف صفراء رائعة. وقد ثبتت مرآة صغيرة على الورق الأسود، كي تتمكن من أن تنظر إلى نفسك. من يعرف لماذا. ربّما لتتمكن من تمشيط شعرك بعد ذلك.

ويتصل بمحل الفرجة محل صغير لبيع الأشياء الجنسية، حيث يمكنك شراء ما كان قد أثارك. لا توجد نساء هنا. وللتعويض عن عدم وجودهن، يمكنك أن تجد سروالاً داخلياً صغيراً جداً من النايلون ذي عدة فتحات، من الأمام أو من الخلف. ويمكنك أن تجعل زوجتك ترتديه في البيت ثم تلجها دون الحاجة إلى أن تخلعه. وثمة قميص يلائمه ذو فتحتين مستديرتين. ويمكن للمرأة أن تخرج ثدييها من هاتين الفتحتين، فيما يظل باقي جذعها مكسواً بالقماش الشفّاف. والقميص مطرز من جانبيه. يمكنك أن تختار بين الأحمر الداكن والأسود. فالأسود يبدو أفضل على الشقراء، بينما الأحمر يناسب ذات الشعر الأسود.

ويمكنك أن تجد هنا أيضاً كتباً ومجلات وأشرطة فيديو وأفلام ٨ مليمتر يعلوها الغبار. فهذه المواد لا تتزحزح من مكانها على الإطلاق. فالزبائن لا يملكون أجهزة فيديو أو أجهزة عرض. ويباع هنا مختلف أنواع الأصناف المطاطية الصحية ذوات السطوح المضلّعة؛ بالإضافة إلى دمى النساء القابلة للنفخ. ففي البداية، ينظر الزبائن إلى الأشياء الأصلية، ثمّ يشترون التقليد. ولسوء الحظ، لا يستطيع الزبون أن

يصحب معه النساء العاريات الجميلات ليمارس معهن في غرفته الصغيرة المحمية. ولو كانت تلك النساء قد شهدن شيئاً مهماً في حياتهن، لما رأيتهن يتباهين بأجسادهن هنا. فهن يأتين إلى هذا المكان ويتظاهرن أمام الآخرين بأنهن لا يأتين. وهذا ليس من شأن المرأة. وسيأخذ الزبون أياً من تلك الفتيات بسرور عظيم، لا يهمه من، فكلهن متشابهات. ولا يمكنك أن تميّز الواحدة عن الأخرى إلا بشق النفس، فمن لون شعرهن على الأغلب. أما الرجال، فهم على عكس ذلك تماماً، فلكل منهم شخصية مميزة: إذ يحب بعض الرجال شيئاً، والبعض الآخر يحب شيئاً آخر. ومن الناحية الأخرى، ليس للعاهرة الشبقة القابعة وراء النافذة، وراء الحاجز، إلا رغبة واحدة عاجلة فقط: أن يستمر ذاك المتسكّع القابع وراء النافذة الزجاجية في الاستمناء حتى يسقط قضيبه. وبهذه الطريقة، يحصل كل من الرجل والمرأة على شيء، ويصبح الجوّ جميلاً ومريحاً. فلكلّ شيء ثمنه. تدفع مالك وتحصل على ما تختاره.

محفظة إريكا، التي تحملها مع حقيبتها الموسيقية، محشوة بقطع العملة المعدنية. ولا توجد نساء كثيرات يفعلن ذلك، لكن إريكا تريد أن تكون لها طريقتها الخاصة. وهكذا هي. فإذا فعل الناس شيئاً، فستفعل العكس تماماً. وإذا قال أحدهم اذهب، فإن إريكا وحدها ستقول توقّف، وهي فخورة بذلك. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلهم يلاحظونها. أما الآن فهي تريد أن تأتي إلى هذا المكان.

يفسح الأتراك واليوغوسلاف الطريق عندما يقترب هذا المخلوق القادم من عالم آخر. وفجأة يصيبهم عجز تام؛ فلو كان أمامهم خيار لاغتصبوا أيّ امرأة إذا أمكنهم ذلك. يتفوهون بأشياء لإريكا لكنها، ولحسن الحظ، لا تفهم ما يقولونه. تظل شامخة مرفوعة الرأس. لا

أحد يلمس إريكا، حتى السكارى. إلى جانبها، ثمة رجل مسن يتفرج. هل هو صاحب المحل، المالك؟ النمساويون القلائل يعانقون الحائط. لا يوجد ثمة شيء يقوّي من شكيمة أنانيتهم، كما أنهم يلامسون لمساً خفيفاً الأشخاص الذين يتحاشونهم عادة. يقومون بالملامسة الطبيعية غير المرغوبة، بينما لا يحدث الاتصال الطبيعي على الإطلاق، لسوء الحظ، لعدم وجود الحافز الذكوري القوي. ولا يملك هؤلاء الرجال قدراً كافياً من المال لشراء نبيذ أصلي ممزوج بماء فوار، فقد شارف الأسبوع على نهايته. النمساويون يمشون بتثاقل وتردد على طول جدار الجسر. وقبل مكان العرض الكبير بقوس واحد، يوجد محل لبيع أدوات التزلج، ومخزن لبيع الدراجات. هذه الأماكن تغط في سبات عميق الآن، وهي في الداخل سوداء قاتمة. أما هنا، فثمة مصباح ودّي يشع نوره إلى الشارع، يجذب حشرات العثّ الجريئة تلك، مخلوقات الليل. إنهم يريدون شيئا لقاء المال الذي يدفعونه. كلّ زبون منعزل تماماً عن الزبون التالي. المقصورات المصنوعة من الخشب المعاكس مصممة لتلبية حاجاتهم. هذه المقصورات صغيرة وضيّقة، وشاغلوها المؤقتون أناس صغار. بالإضافة إلى ذلك، كلما كانت المقصورة أصغر، كان بوسعهم حشر أكبر عدد من المقصورات معاً. كي يتمكن عدد أكبر من الرجال من التنفيس عن أنفسهم خلال فترة قصيرة نسبياً.

يُفرغ الزبائن همومهم، لكنهم يخلّفون وراءهم سائلهم الثمين. وتحرص النساء اللاتي يقمن بالتنظيف على أن لا تنبت تلك البذور، رغم أنه لو سئل كلّ زبون، لأكّد أنه يتمتع بخصوبة زائدة. وعادة ما تكون جميع المقصورات مشغولة. هذه التجارة كنز دفين، منجم ذهب. يصطف العمال الأجانب بصبر في مجموعات صغيرة. ويقتلون الوقت بتبادل النكات عن النساء. ويتناسب حيّز المقصورة الصغير

مباشرة مع الحيّز الصغير في بيوتهم، التي لا تتجاوز أحياناً ربع غرفة. إنهم معتادون على الغرف المكتظة، المحشورة، بل يمكنهم أن ينعموا بين الحواجز بالسرية بعيداً عن أعين الرقباء. رجل واحد فقط في كلّ مقصورة. هنا، يكون وحيداً مع نفسه. وما إن يلقم الآلة بقطعة نقوده المعدنية حتى تظهر له امرأة جميلة في شقّ الفرجة. تكاد الغرفتان الفرديتان اللتان تقدمان خدمات فردية للرجال أن تكونا فارغتين بشكل دائم تقريباً. وبوسع عدد قليل من الزبائن هنا أن يطلبوا خدمات خاصة.

تدخل إريكا، الأستاذة، إلى المبنى.

يدٌ تمتدّ إليها بتردد، لكنها سرعان ما تنسحب إلى مكانها. إنها لا تدخل إلى القسم الخاص بالعاملين، بل تدخل إلى القسم المخصص للزبائن، القسم الأكثر أهميّة. هذه المرأة تريد أن تتفرج إلى شيء يمكنها أن تراه في مرآتها في البيت دون أن تدفع شيئاً. يبدي الرجال دهشتهم: فعليهم أن يقتروا على أنفسهم لادخار كلّ قرش ينفقونه خفية هنا وهم يجرون وراء النساء. الصيادون ينظرون من خلال ثقوب الفرجة، وتذهب النقود التي كان عليهم أن ينفقونه على بيوتهم في البالوعة. لا شيء يمكن أن يصرف اهتمام هؤلاء الرجال عندما يحدّقون.

كلّ ما تبغيه إريكا هو الفرجة. وهنا، في هذه المقصورة، تصبح نكرة. لا شيء يلائم إريكا، لكنها تلائم تماماً هذه الحجيرة. إن إريكا أداة مضغوطة في شكل إنسان. ويبدو أن الطبيعة لم تترك فيها أية فتحات. تشعر إريكا بوجود قطعة خشب صلبة في المكان الذي ثقب فيه النجار فتحة في أية أنثى حقيقية. لكن قطعة إريكا الخشبية اسفنجية، مهترئة، تنتصب وحيدة في غابة من الأخشاب، وقد بدأ التعفن ينهشها.

لا تزال إريكا تتهادى مثل ملكة. وفي الداخل، فهي تبلى وتتفسخ، لكنها تحدّق بقوة في الأتراك فتثبط همتهم. يريد الأتراك أن يعيدوها إلى الحياة، لكنّهم يجفلون من غطرستها. إريكا، الملكة في كلّ ذرة فيها، تسير باتجاه كهف فينوس. لا يبدي الأتراك حرارة أو مودة، ولا حتى فتوراً. بل يتركون إريكا تسير وهي تحمل حقيبتها المليئة بالنوطات الموسيقية الكبيرة. يمكنها أن تتجاوز رتل الرجال، دون أن يبدي أحد أي اعتراض. إنها ترتدي قفازات أيضاً. يخاطبها الرجل الواقف عند المدخل بشجاعة ويقول لها مرحباً «مدام» تفضلي ادخلي، حيث تصب المصابيح الصغيرة أنوارها بهدوء على الأثداء والفروج، وترسم مثلثات كثيفة الشعر، لأن هذا هو أول شيء ينظر إليه الرجل، هذا هو القانون. الرجل لا ينظر إلى شيء، إنه ينظر إلى العدم الصافي. وبعد أن ينظر إلى هذا اللا شيء، يعود وينظر إلى كلّ شيء آخر.

تُخصص لإريكا مقصورة فاخرة. ليس عليها أن تنتظر، فهي سيدة. ويجب على الآخرين أن ينتظروا فترة أطول. تمسك بنقودها جاهزة بالطريقة التي تمسك بها الكمان. في أثناء النهار، تحسب أحياناً كم مرة يمكنها أن تتفرج بالقطع المعدنية التي وفرتها. فهي توفرها بتقليل طعامها أثناء الاستراحة. والآن، يغمر ضوء أزرق اللحم. حتى الألوان مختارة بعناية. ترفع إريكا منديلاً ورقياً من الأرض، يكسوه سائل منوي. ترفعه إلى أنفها. تستنشق الرائحة بعمق، ثمار كدّ شخص آخر. إنها تتنفّس وتنظر، إنها تستهلك فترة صغيرة من حياتها. ثمة نوادٍ يمكنك أن تلتقط فيها صوراً للفتيات. يختار كلّ زبون الفتاة التي يريد، حسب مزاجه وذوقه. لكن إريكا لا تريد أن تفعل، بل تريد أن تتفرج فقط. بكل بساطة فهي تريد أن تجلس هناك وتتفرج. تمعن النظر. إريكا، تتفرج لكنها لا تلمس. إريكا لا تشعر بشيء، ولا تتاح لها

فرصة مداعبة نفسها. إذ إن أمّها تنام بجانبها وتحرس يدَي إريكا. إذ يفترض بهاتين اليدين أن تعزفا، لا أن تندسا تحت البطانية كالنمل يهرع إلى مرطبان المربّى. حتّى عندما تجرح إريكا أو تخز نفسها، فإنها لا تكاد تشعر بشيء. لكن عندما يتعلق الأمر بعينيها، فإنها تبلغ عندئذ قمّة الإحساس.

تعبق من المقصورة رائحة مطهّر. إنّ عمال النظافة جميعهم من النساء، لكنّهن لا يبدين كالنساء. إذ يلقين بسائل هؤلاء الصيادين المغسول بالماء بدون مبالاة في صندوق القمامة.

وتجد الآن مناديل ورقية مجعّدة ومتصلبة كالخرسانة مرمية هناك. بالنسبة لإريكا، يمكن أن تحصل عاملات التنظيف على استراحة ليرحن عظامهن المنهكة. إذ يتعين عليهن أن ينحنين عدداً لانهائياً من المرات. إريكا تجلس وتتفرج. حتى أنها لا تخلع قفازيها، لذلك يجب ألا تمسّ شيئاً في هذه المقصورة الصغيرة التي تفوح منها رائحة كريهة. ربما ظلت ترتدي قفازيها كي لا يرى أحد أصفادها.

ترتفع الستارة أمام إريكا، حتى يصبح بالإمكان رؤيتها وهي تشد الخيوط وراء الكواليس. لقد أقيم العرض كله من أجلها! لا يُسمح لامرأة مشوّهة أن تعمل هنا. الوسامة وحسن القوام مطلبان أساسيان. فكلّ فتاة تتقدم للعمل هنا تخضع لفحص جسدي دقيق وشامل: فصاحب المحل لا يشتري سمكاً في البحر. لم يسبق لإريكا أن فعلت ذلك على خشبة حفلة موسيقية، لكن نساء أخريات يقمن بذلك عوضاً عنها. إنهن يُقيّمن وفق استدارات أجسادهن وأعطافهن. تواصل إريكا الفرجة. وما إن تلقي نظرة واحدة، حتى تكون قد ألقت قطعتين نقديتين.

تتخذ امرأة ذات شعر أسود وضعية مبتكرة كي يتمكن المتفرج من

رؤيتها. إنها تدور على شيء أشبه بعجلة الخزّاف. لكن من يدوّرها؟ في البداية تضم فخذيها معاً وتعتصرهما. لا يمكنك أن ترى شيئاً؛ لكن الريق يجف في الأفواه ترقباً. ثمّ تفتح ساقيها ببطء، وهي تستعرض فتحات عديدة. وفي بعض الأحيان، ورغم حرص الفتاة على أن تكون عادلة في عرض نفسها بالتساوي على جميع المتفرجين، فإن نافذة محددة تحظى بحظ أوفر من نافذة أخرى لأن العجلة لا تتوقف عن الدوران. ينبعث صوت نقرات عصبية من فتحات الفرجة. ما فاز باللذة إلا الجسور. ومن غامر مرة أخرى، ربما فاز بنصيب أكبر.

الجمهور المحيط يفرك ويدلّك بحماسة شديدة، ويختلط بشكل آني بآلة عجن هائلة لكن مخفية. عشر مضخات صغيرة تعمل بأقصى قدرة لها. وفي الخارج، يبدأ بعض الزبائن العملية التي تسبق عملية الحلب خفية، كي ينفقوا قدراً أقل من المال. سيكون لكلّ رجل امرأة ترافقه.

وفي المقصورات المجاورة، تفرغ المضخات التي لا تتوقف عن الهز والدفع شحناتها الثمينة. وسرعان ما تعود وتمتلئ مرة أخرى، يجب بلوغ حالة الرضا ثانية. وإذا حدث احتقان، يجب أن تدفع أكثر حتى تفرغ. خاصة إذا كنت منهمكاً في الفرجة إلى درجة تنسى معها أن تشغّل مضختك. ولهذا فهم يحضرون فتيات جديدات غالباً، كوسيلة لتشتيت الانتباه. الأحمق يحدّق لكنه لا يفعل شيئاً.

إريكا تتفرج. ما تراه يجعلها تدفع يدها بين فخذيها مظهرة متعتها برسم دائرة صغيرة بشفتيها. تشعر بالمتعة لأن عيوناً عديدة تراقبها، تغمض عينيها وتفتحهما ثانية، وترتفعان إلى أعلى نقطة في رأسها. ترفع ذراعيها وتدلك حلمتيها، حتى تنتصبا. ثم تجلس في وضع مريح وتباعد بين ساقيها إلى أبعد درجة. الآن يمكنك أن تنظر إلى عمق

المرأة. تداعب شعر عانتها. تلعق شفتيها بشكل حسي، بينما يقوم أحدهم، ثم آخر، بمداعبة دودته المطاطية. يظهر وجهها كم سيكون رائعاً لو كانت معك. لكن للأسف، فهذا أمر بعيد المنال لأن الطلب شديد. وبهذه الطريقة، يمكن لكلّ شخص، لا لرجل واحد فقط، أن يحصل على شيء ما.

إريكا تتفرج بإمعان شديد. لا لتتعلم. لا شيء يتحرك في داخلها. ومع ذلك يجب أن تتفرج. لمتعتها. وعندما تشعر بالرغبة في مغادرة المكان، تشعر بشيء يضغط بقوة على رأسها ذي الشعر المصفف جيداً، ويعيده إلى اللوح الزجاجي، وتواصل الفرجة. يواصل القرص الدوّار الذي تجثم فوقه المرأة الجميلة دورانه. لا تستطيع إريكا أن تتمالك نفسها. عليها أن تواصل النظر. فهي محرّمة على نفسها.

إلى يمينها ويسارها، تسمع تأوهات وأنات بهيجة. أنا شخصياً لا أستطيع مجاراة ذلك، تجيب إريكا كوهوت، لقد توقّعت المزيد. شيء يتدفّق ويتطاير على الجدار المصنوع من الخشب المضغوط. الجدران سهلة التنظيف، فسطوحها ملساء. وإلى يمينها، كتب أحدهم بضع كلمات بمودّة على الجدار، «ماري، الفاسقة الملعونة»، بلغة ألمانية صحيحة. الرجال لا يخربشون الكثير من هذه الأشياء هنا، فلديهم أشياء أخرى يقومون بها. على أية حال، فهم ليسوا كلّهم جيدين عندما يتعلق الأمر بالكتابة. إذ لديهم يد حرة واحدة فقط، لأنهم يجب ألا يتوقفوا عن إدخال القطع النقدية.

امرأة سوقية ذات شعر أحمر مصبوغ تدفع ظهرها الممتلئ الآن ليصبح في مرمى النظر. ولم يتوقف المدلّكون الرخيصون منذ سنوات عن ضغط أصابعهم على العظام لإزالة طبقات الشحم المزعومة. على أية حال، فهي تُري المتفرجين المزيد لتحصل على قدر أكبر من مالهم.

المقصورات من جهة اليمين ترى المرأة من الأمام، وأتيح الآن للمقصورات في الجهة اليسرى رؤيتها. ثمة رجال يرغبون في تقييم المرأة من الأمام، وآخرون يقيّمونها من الخلف. ذات الشعر الأحمر تحرّك العضلات التي تستخدمها عادة للمشي أو للجلوس. أما اليوم، فهي تكسب قوتها باستخدامها. تدلّك نفسها بيدها اليمنى، ذات المخالب الحمراء القانية. وبيدها اليسرى تخدش حول صدرها. وتشد بأظافرها الاصطناعية الحادّة حلمتها. كما لو كانت قطعة من المطاط، ثم تتركها لتثب وتعود إلى مكانها. تبدو حلمتها غريبة عن جسدها. ذات الشعر الأحمر تفعل ذلك عدة مرات حتى تتأكد أن الشخص المرشّح على وشك أن يفعلها! من لا يستطيع الآن، لن يستطيع بعد ذلك. وأيّ رجل يقبع وحيداً الآن لا يلوم إلا نفسه. أأراد أم لم يرد، فسيبقى وحيداً لفترة طويلة.

وصلت إريكا إلى درجة الإشباع. يجب أن تعرف متى يجب أن تتوقف. إن الأمر زاد عن حده، قالت ذلك في أحيان كثيرة من قبل. تستوي واقفة. لقد وضعت إريكا حدوداً لها منذ عهد بعيد، وقد كفلتها بتعهدات لا تقبل النقض. إنها ترى كلّ شيء من موقع عال ممتاز، يتيح لها أن تنظر بعيداً عبر الريف. الرؤية الجيدة مطلوبة. لكن مرة أخرى، لا تكترث إريكا للنظر إلى أبعد من ذلك. تغادر المكان.

نظرتها وحدها تكفي لإزاحة الزبائن من طريقها. يأخذ رجل مكانها بطمع. ينشق طريق أمامها عبر الزبائن. تخطو إريكا وتبتعد. تمشي وتمشي بطريقة آلية، كما كانت تنظر وتنظر في السابق. أيّ شيء تفعله إريكا، تفعله بإخلاص وحماسة. لا تفعل شيئاً بفتور وضعف همة، كانت أمها تقول لها دائماً. لا شيء بشكل مبهم. إذ لا يوجد فنان يمكنه أن يتحمّل عملاً ناقصاً أو غير مكتمل. أحياناً لا يكتمل العمل

لأن الفنان يموت قبل الأوان. تواصل إريكا سيرها. لم يتهتك شيء، لم يبهت لون شيء. لم تبلغ شيئاً. لم تحقق شيئاً.

في البيت، توجّه الأمّ عتاباً خفيفاً للحاضنة الدافئة التي تقبع فيها هما الاثنتان. أرجو ألا تكون إريكا قد أصيبت بالبرد أثناء رحلتها (فقد كذبت على أمها أين كانت). ترتدي الفتاة رداء حمّام دافئاً. تأكل هي وأمّها بطّة محشوة بالكستناء وأشياء لذيذة أخرى. إنها مأدبة. الكستناء يتفجر داخل البطّة؛ أسرفت الأمّ في إعداد الطعام، كما هو دأبها. الممالح والمباهر مطلية بالفضّة، أما الأواني الفضية فهي من الفضة الخالصة. وجنتا الطفلة ورديتان اليوم، والأمّ مسرورة لذلك. أرجو ألا يكون تورّد الوجنتين هذا بسبب الحمّى. تجس الأمّ جبهة إريكا بشفتيها. ومع طبق الحلوى ستقيس الأم حرارة إريكا بميزان الحرارة. لحسن الحظ، فقد استبعدت الحمّى كأحد الأسباب المحتملة. إريكا تتمتع بصحة جيدة - سمكة جيدة التغذية تعوم في السائل الرحمي للأم.

* * *

جداول متجمّدة من أضواء النيون المنبعثة من صالات بيع المثلجات ومن قاعات الرقص تزأر. وتنبعث أصوات همهمة من أعمدة مصابيح معلقة في هيئة سياط فوق ملاعب غولف صغيرة. سيل مترجرج من البرودة. الناس من عمرها، يتمتّعون بسكينة وهدوء بال رائعين، ويطوفون حول مناضد في شكل كلى. أقداح طويلة فيها ملاعق طويلة، تبدو كأزهار باردة: بنية، صفراء، وردية؛ شوكولاته، فانيلا، توت العليق. تكاد قطع الآيس كريم الملوّنة تصبح رمادية اللون بتأثير النور الهابط من السقف. المغارف الصغيرة المتلألئة في حاويات الماء، وخيوط الآيس كريم تطفو على السطح. وفي مرح ظاهر تجلس

تلك الوجوه مسترخية أمام أبراج الآيس كريم التي يلتهمونها. مظلّات مبهرجة صغيرة جداً تبرز من الكؤوس، تخفي بقايا قطع الكرز الخمرية، وقطع الأناناس، ورقائق الشوكولاته المتجمّدة. ولا يكفّ هؤلاء المتسكعون عن تناول قطع من البرودة وحشرها في كهوفهم الثلجية، مضيفين برودة إلى برودة؛ أو يتركونها تذوب، فيما يقص أحدهم للآخر عن أشياء أكثر أهميّة من الآيس كريم اللذيذة المتجمّدة.

تضطر لرؤية هذا المشهد، فترتسم على وجهها على الفور علامات الاستهجان. تعتبر مشاعرها فريدة عندما تنظر إلى شجرة. إنها ترى الكون رائعاً، في صنوبرة. وباستعمال مطرقة صغيرة، نعرف معنى الحقيقة؛ إنها طبيبة أسنان متحمّسة للغة. بالنسبة لها تتحوّل قمم أشجار التنوب البسيطة إلى قمم وحيدة ثلجية. ويغشى الأفق طيف من ألوان متعددة. وفي البعد، تنساب طائرات ضخمة لا يمكن تبيّنها، يكاد هديرها الناعم يكون مسموعاً. إنها عمالقة الموسيقى وعمالقة الشعر، مموهة على نحو هائل. مئات الآلاف من البيانات تومض في عقلها المدرّب جيداً. ينبعث منها عمود من الدخان المنتشي، المجنون، ثم، بحركة أشبه بالقيء، تنحدر ببطء وتحط على الأرض. غبار رمادي رفيع يغطّي كلّ الأجهزة بسرعة، كلّ أنابيب الاختبار والأنابيب الشعرية، كلّ القوارير والمكثّفات الحلزونية. غرفتها تصبح صخرة صلبة. رمادية. لا باردة ولا دافئة. بين بين. ستارة وردية من النايلون تصدر طقطقة عند النافذة، لا تحركها أيّ نسمة من الريح. الغرفة مؤثثة بأناقة من الداخل. لا مؤجرة، ولا مملوكة.

تبدأ مفاتيح البيانو تصدح تحت الأصابع. ذيل قمامة الثقافة الهائل يتقدّم إلى الأمام، يصدر حفيفاً هادئاً وهو يلتف، وينغلق حتى يصبح دائرة محكمة، ملليمتر لصق الملليمتر. صحائف قصدير قذرة، صحون

دهنية لا يزال فيها بقايا طعام، فضيات وسخة، بقايا فواكه وقطع خبز يعلوها العفن، أسطوانات مهشمة، أوراق ممزّقة، مجعّدة. وفي بيوت أخرى، يُصدر الماء المغلي الذي يتصاعد البخار منه هسيساً وهو يندلق في أحواض الحمامات. فتاة تحاول تصفيفة شعر جديدة دون تفكير. فتاة أخرى تختار البلوزة المناسبة للتنورة الملائمة. وتوجد هنا أحذية جديدة مدبّبة جداً، ستُنتعل للمرة الأولى. جرس هاتف يرن. أحدهم يرفع السماعة. ثمة شخص يضحك. أحدهم يقول شيئاً.

القمامة، كتلة هائلة، تفصل بينها وبين الآخرين. إحداهن تجعّد شعرها بتسريحة جديدة. وأخرى تطابق طلاء أظافر جديداً بأحمر الشفاه. رقائق المعدن تلمع في الشمس. شعاع من الشمس يلامس أحد أسنان شوكة طعام، وكذلك حافة سكين. إنّ الشوكة شوكة. والسكين سكين. نسمة هواء لطيفة، تجعل قشرة بصل تتطاير، منديل ورقي يتطاير، دبق عصير توت العليق الحلو. الطبقات المتعفنة في الأسفل، متربة ومتحلّلة، هي البطانة الداخلية لقشور الجبن النتنة وقشر البطيخ، قطع زجاج مهشمة ومساحات أرض قطنية حال لونها إلى الأسود، جميعها تواجه المصير ذاته.

وتشد الأمّ في حبال توجيهاتها. يدان تمتدان وتعزفان برامز مرة أخرى، هذا المرة أفضل. فبرامز شديد البرودة عندما يرث الكلاسيكيين، أما عندما يحزن أو يتدفّق فيصبح في غاية التأثير. لكن برامز لا يحرك شيئاً في الأمّ.

ملعقة معدنية تُترك في كوب الآيس كريم التي ذابت، لأن الفتاة اضطرت لأن تقول شيئاً يضحك فتاة أخرى. الفتاة الأخرى تثبت من جديد الدبوس البلاستيكي الكبير في شعرها، الذي يلمع كلؤلؤة، في تصفيفة شعرها المرفوع إلى الأعلى. الفتاتان كلتاهما تجيدان الحركات

الأنثوية! الأنوثة تتدفق من جسديهما مثل سواقي نظيفة صغيرة. تُفتح علبة بودرة بلاستيكية؛ وفي لمعان المرآة، ينتعش شيء في شيء وردي متجمد، شيء يصبح أسود كثيفاً.

إنها دولفين مرهق، تتهيأ بفتور لتنفذ حيلتها الأخيرة. تنظر بتكاسل إلى الكرة المتعددة الألوان التي يدفعها الحيوان فوق خطمه - حركة أصبحت عادة قديمة. يأخذ الحيوان نَفَساً عميقاً ثم يجعل الكرة تفتل مثل دوامة. في معزوفة بدويل «كلب أندلسي»، يمكنك أن ترى جهازي بيانو ضخمين، ثم الحمارين، شبه المتفسخين. رؤوس دامية تتدلى فوق لوحة المفاتيح. ميتان. متعفنان. خارج كلّ شيء. في غرفة خالية من الهواء تماماً.

سلسلة من الرموش الزائفة ملصقة فوق رموش طبيعية. الدموع تنهمر. حاجب مصبوغ بشدّة. قلم تخطيط الحواجب نفسه يرسم نقطة سوداء فوق شامة عند الذقن تماماً. جذع مشط يُقحم إقحاماً مرات عديدة في كتلة في أعلى الشعر، لحلّ كومة التبن. ومشبك يثبت الشعر بقوة. تُشد جوارب نسائية إلى الأعلى، تُسوّى الدرزات. تتأرجح محفظة جيب جلدية من ماركة مشهورة. القمصان التحتية تحفّ تحت التنورات القصيرة من قماش التفتا. تدفع الفتيات الحساب، ويغادرن.

ينفتح أمامها عالم، عالم لا يشك أحد آخر في وجوده. ليغولاند، مينيموندوس، عالم مصغر من بلاط بلاستيكي أحمر، وأزرق، وأبيض. البثور التي يمكن أن تجمع العالم معاً تطلق كذلك عالماً صغيراً من الموسيقى. مخالب يدها اليسرى المتصلّبة مشلولة في حماقة لا براء منها - تخدش برفق مفاتيح كثيرة. إنها تريد أن تحلّق في آفاق غريبة، تخدّر الأحاسيس، تبلبلُ العقل. حتى أنها لا تتمكن من الوصول إلى محطة البنزين. إنها ليست سوى أداة خرقاء. مثقلة بعقل ثقيل بطيء.

ثِقَلٌ رصاصي مصمت. عائق! يتجه مسدس إليها، لا يطلق أبداً. مشبك براغي من الصفيح.

أوركسترا تتألف فقط من مئة ناي تقريباً، تبدأ بالعواء والعويل. نايات بأحجام وأنواع مختلفة. لحم الأطفال منفوخ فيها. النوطات الموسيقية يدوّنها نَفَس الأطفال. وهي لا تحتاج إلى آلات بلوحات مفاتيح. تخيط الأمهات أكياساً لهذه النايات، التي تضم كذلك فراشيَ مستديرة صغيرة لتنظيفها. يغطي جسد النايات بكثافة النَفس الدافئ. لقد استحدث الأطفال الصغار الكثير من النوطات الموسيقية بأنفاسهم. دون أي مساعدة من البيانو!

* * *

تقام حفلة خاصة لموسيقى الحجرة لمن يرغب في الحضور والاستماع في شقّة أرستقراطي قديمة تقبع على قناة الدانوب. عائلة بولندية لاجئة، تعيش في فيينا منذ أربعة أجيال، وقد فُتح البيانو الذي يضم لوحتَي مفاتيح مع مجموعة كبيرة من النوطات الموسيقية التي تملكها. ويوجد لدى هذه الأسرة في بقعة يركن فيها الآخرون سياراتهم (قريبة من القلب)، مجموعة من الآلات القديمة. والعائلة لا تملك سيارة، بل تملك عدداً قليلاً من آلات الكمان والفيولا الرائعة كان يملكها موزارت، بالإضافة إلى آلة فيولا دامور الرائعة، معلقة على الحائط، يقوم أحد أفراد العائلة بحراستها باستمرار عندما تقام حفلة موسيقى الحجرة في بيتهم، وتُرفع عن الحائط لأغراض الدراسة فقط، أو في حالات الحريق. هؤلاء الناس يعشقون الموسيقى، ويريدون أن يستمع إليها الآخرون أيضاً. بصبر جميل، وإن دعت الضرورة، بالقوة. وهم يتمنّون أن يتمكنوا من إيصال الموسيقى إلى المراهقين، لأن

التسكع في المروج فقط، ليس المتعة الوحيدة. ومثل السكارى أو الحشّاشين، يحبون كثيراً أن يشاطروا هوايتهم مع أكبر عدد ممكن من الناس. وينجذب الأطفال نحوهم بذكاء. الحفيد الصغير البدين، المعروف لدى الجميع، الذي يلتصق شعره الندي برأسه، لا يكف عن الصراخ طلباً للمساعدة من أحدهم في أقل مناسبة. الطفل المزود بمفتاح (بسبب غياب الوالدين)، يقاوم بشدة، لكنه يستسلم أخيراً. ولا تُقدم وجبات خفيفة أثناء العزف. بل ولا يمكنك أن تقضم لقمة واحدة في هذا الصمت المقدّس. لا فتات خبز، لا بقع دهون على السجادة، لا لطخ من النبيذ الأحمر على غطاء البيانو الأول أو البيانو الثاني، وبالتأكيد لا توجد علكة ملتصقة عليه! إذ يُفتش الأطفال للتأكد من عدم جلبهم أوساخاً من الخارج. أما من كان فظاً من الأطفال فيبقى تحت المراقبة، ولا ينجز شيئاً على آلته.

ولا تنفق هذه العائلة مصاريف غير ضرورية إلا على الموسيقى. إذ يجب ألا يسود شيء هنا سوى الموسيقى، الموسيقى وحدها ولا شيء سواها.

يجب أن تشق الموسيقى طريقها إلى قلوب المستمعين هنا. وكانت إريكا قد طلبت أن تجلب معها جميع طلابها من عازفي البيانو. ما على الأستاذة إلا أن تلوّح بخنصرها، إذ إن طلباتها كلها مستجابة. ويجلب كل طفل أماً فخورة، أباً فخوراً، أو كليهما، وتملأ تلك الأسر الصغيرة المعافاة البيت. ويدرك التلاميذ جيداً أنهم سيحصلون على درجات متدنية إن هم لم يأتوا. ولا يشفع عدم حضور الفنّ إلا الموت وحده. وبالطبع فإن محب الفنّ المحترف لا يفهم أسباباً أخرى. من المؤكد أن إريكا كوهوت فتاة خارقة الذكاء.

كبداية، عُزفت مقطوعة باخ الثانية على آلتَي بيانو. يقوم رجل

عجوز، كان قد عزف ذات مرة في قاعة برامز على بيانو منفرد وحده، بالعزف على البيانو الثاني. كان ذلك في الماضي، لكن الناس الأكبر سناً لا يزالون يتذكّرون ذلك. ولا يبدو أن حاصد الأرواح المقترب قد تمكّن من حفز هذا الرجل المحترم، الذي يدعى الدكتور هابيركورن، على تكرار الأعاجيب، حاصد الأرواح، الذي عزف ذات مرة مع موزارت وبيتهوفن، وكذلك مع شوبيرت. . وبالتأكيد لم يكن لدى شوبيرت الكثير من الوقت. وقبل أن نبدأ، يرحب الرجل العجوز، رغم سنه ، بالأستاذة إريكا كوهوت، شريكته على البيانو الثاني، بتقبيل يدها باحترام شديد - العادة الوطنية المتبعة.

محبو الموسيقى الأعزاء والضيوف الأكارم. يهرع الضيوف إلى المائدة ويتلمظون بشفاههم يخني الباروكي. يفرك التلاميذ أقدامهم منذ البداية، ورؤوسهم مليئة بالرغبات الشريّرة، لكنهم يفتقرون إلى الشجاعة لتنفيذها. لا يمكنهم أن يفلتوا من قفص الدجاج هذا، من الولاء الفني رغم رقة الألواح. ترتدي إريكا بلوزة حريرية وتنورة مخملية سوداء بسيطة تصل إلى الأرض. وكانت قلما تهزّ رأسها، تراقب بعض تلاميذها بنظرات يمكنها أن تشطر الزجاج إلى شطرين (النظرة ذاتها التي وجهتها أمّها إلى جمجمة ابنتها بعد أن فشلت إريكا في حفلتها الموسيقية الكبيرة). تلميذان يتكلّمان، فيبدي المضيف امتعاضه. وهو لن يحذرهما مرة أخرى. أما في الصف الأمامي، وإلى جانب المضيفة، فكانت تجلس أمّ إريكا على كرسي خاص ذي مسند، منهمكة في التهام صندوق من الحلوى (الوحيدة المسموح لها أن تفعل ذلك) وهي تحظى بالاهتمام الذي تحظى به ابنتها.

خُفّتت الأنوار كثيراً عندما وضع مسند بالقرب من مصباح البيانو. المسند يغلف العازفين بوهج أحمر شيطاني. ينطلق باخ بقوة. يرتدي

التلاميذ أفضل ما عندهم من ثياب يوم الأحد، أو ما يعتبره آباؤهم أفضل ما عندهم من ثياب يوم الأحد. وحشرت الأمّهات والآباء أولادهم في هذا البهو البولندي كي يتمتعوا بشيء من راحة البال، وحتى يتمكن الأطفال من تعلم شيء من الهدوء. البهو البولندي مزيّن بمرآة هائلة من طراز الفنّ الحديث تصوّر عذراء عارية وزنابق الماء يقف عليها أولاد لا يتحركون إلى الأبد. وفي وقت لاحق، وفي غرفة الموسيقى، سيجلس الأطفال في المقدمة، والبالغون في المؤخرة، لأنهم أعلى مقاماً. ويقدم الحاضرون الأكبر سناً للمضيف والمضيفة يد المساعدة، عندما يلزم الطلب من زميل أصغر سناً أن يتوقف فجأة.

لم يفوّت والتر كليمر ولا أمسية واحدة هنا منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره، عندما بدأ يعزف بجدية على البيانو. فهنا يأتيه الإلهام في العزف - حوافز نقدية.

تنتقل معزوفة باخ الآن إلى الحركة السريعة، وبجوع تلقائي، يفحص كليمر، بدقّة، مؤخرة معلّمته على البيانو، التي كان نصف جسدها محجوباً عنه بسبب الكرسي الجالسة عليه. كان هذا كلّ ما كان بوسعه أن يراه من قوامها، كلّ ما كان بإمكانه أن يحكم عليها. ولم يكن يستطيع أن يرى جزءها الأمامي لأن أماً بدينة كانت تحجب رؤيتها عنه. (كان مقعده المفضّل مشغولاً اليوم). فقد دأبت على أن تجلس على البيانو الثاني خلال الدروس. أما الفرقاطة الأمومية، فكانت محاطة بقارب نجاة صغير، ابنها، المبتدئ، يرتدي بنطالاً أسود، وقميصاً أبيض، وربطة عنق حمراء منقطة. الفتى يجلس في مقعده باسترخاء، مثل راكب في طائرة يشعر بالقيء ولا يريد شيئاً إلا أن تهبط الطائرة على الأرض. الفنّ يجعل إريكا تحلّق في المسارب الجوية العليا، يكاد يرفعها إلى الأثير. يرمقها والتر كليمر بقلق، لأنها تحلّق بعيداً عنه. لكنه

ليس الشخص الوحيد الذي يمدّ يده إليها تلقائياً. وأمّها تمسك كذلك بخيط هذه الطائرة الورقية المعروفة بإريكا. إنها تتشبث بالخيط ولا تتركه! ويبدأ الخيط ينسحب بعيداً بقوة إلى درجة أن تضطر الأمّ إلى الوقوف على أطراف أصابعها بحذر. والريح تعوي بعنف حول الطائرة الورقية كما تفعل دائماً عند هذا الارتفاع الشاهق.

أثناء حركة باخ النهائية، يمسك السيد كليمر، الذي توردت وجنتاه، بيده وردة حمراء لكي يقدمها لها في ما بعد. إنه معجب بأثيرية أسلوب إريكا، معجب بالطريقة التي يتحرك فيها ظهرها متناغماً مع الإيقاع، الطريقة التي يتمايل فيها رأسها، ويزن بتعقّل الفروق الدقيقة التي تصدرها. إنه يرى تشنجات العضلات في أعلى ذراعها، يشعر بالإثارة نتيجة اصطدام الحركة باللحم. إذ إن اللحم يطيع حركة داخلية تحدثها الموسيقى، ويأمل كليمر أن تطيعه معلّمته ذات يوم. إنه يستمني في مقعده. إحدى يديه تختلج تلقائياً فوق سلاح عورته المخيف. ويواجه الطالب صعوبة في السيطرة على نفسه وهو يقيس أبعاد إريكا العامة في عقله. فهو يقارن جزءها العلوي بجزئها السفلي، الذي قد يكون مكتنزاً بعض الشيء، لكنه يجد متعة فائقة في ذلك. إنه يوازن الجزء العلوي بالجزء السفلي. الجزء العلوي: نحيف بعض الشيء. أما الجزء السفلي: ففيه فائض. غير أن كليمر يحبّ شكل إريكا بشكل عام. ويجد شخصياً أن الآنسة كوهوت امرأة جميلة المظهر، تُدخل السرور إلى النفس. وأنها إذا رفعت وزنها الزائد قليلاً من جزئها السفلي إلى جزئها العلوي، لغدت في غاية الجاذبية. وقد تكون العملية العكسية محتملة أيضاً، بالطبع، لكن كليمر لا يحبّ ذلك بالقدر نفسه. فإذا ما كشطت وملّست ونعّمت شيئاً في الأسفل، لأصبح جسدها كله في غاية التناسق. لكنها ستصبح نحيفة جداً! هذا العيب البسيط يجعل إريكا

محبوبة، مرغوبة لدى ذلك الطالب البالغ. يمكنك أن تنال أيّ امرأة إذا ما استغللت إدراكها بالخلل الطبيعي في جسدها. فضلاً عن أن هذه المرأة تتقدم في السن، فيما لا يزال هو في ريعان الصبا. ولكليمر هدف ثان، يتعلق بالموسيقى، فهو الآن يقلّب الأمر على جميع وجوهه. وهو مغرم كذلك بمعلّمته سراً. وأقرّ في نفسه أن الآنسة كوهوت هي المرأة التي يرغبها أيّ شابّ في مطلع حياته. يبدأ الشاب شيئاً فشيئاً، ثم يصعد إلى الأعلى بسرعة. فعلى كلّ امرئ أن يبدأ مشواره إن عاجلاً أم آجلاً. وسرعان ما سيتمكن من اجتياز مستوى المبتدئ، تماماً مثل سائق جديد، يشتري سيارة صغيرة مستعملة في البداية، ثمّ يستبدلها بموديل جديد وأكبر ما إن يصبح سائقاً ماهراً.

الآنسة إريكا كتلة من الموسيقى، وهي ليست هرمة إلى تلك الدرجة. هكذا يقيّمها طالبها النموذجي. بل يبدأ كليمر من أعلى مستوى: لا من موديل فولكس فاغن، بل من موديل أوبيل كاديت. وراح والتر كليمر، العاشق سراً، يقضم بأسنانه ما تبقى من أحد أظافره. وجهه أحمر. نجيمات وردية تنتشر على خديه، وشعره الأشقر الداكن الذي يصل إلى كتفيه. كان شاباً متوسط الوسامة، متوسط الذكاء، لا شيء بارز فيه، لا شيء مفرط عن الحد فيه. وكان قد أطلق شعره قليلاً، كي لا يبدو عصرياً جداً، وفي الوقت نفسه، لكي لا يبدو أنه ينتمي إلى الطراز القديم. لكنه لم يطلق لحيته، مع أن رغبة شديدة في ذلك كانت تنتابه في أحيان كثيرة. كان يقاوم دوماً هذا الإغراء. وكان يتمنى أن يحظى بقبلة طويلة من معلّمته وأن يتمكن من تحسس جسدها. كان يريد أن يواجهها بغرائزه الحيوانية. يريد أن يحتك بها، عرضاً تقريباً، كأن يدفعه شخص أحمق من خلفها، عندها سيلتصق جسده بجسدها بقوة، وعندها سيعتذر منها. ثم سيضغط عليها بجسده

عامداً متعمداً، بل وربما تحسسها بقوة إن هي تركته يفعل ذلك. إنه سيفعل كل ما ستطلبه منه، إنه يريد أن يستغلها، ثم يطبّق تجاربه على عشاق أكثر جديّة فيما بعد. إنه يريد أن يتعلّم من امرأة تكبره سناً - فليس من الضروري أن تكون شديد الحرص معها. يريد أن يتعلّم كيف يتعامل مع الفتيات الشابات، اللواتي لا يتحمّلن القدر ذاته من السخف. هل لهذا علاقة بالحضارة؟ فعلى الشابّ أولاً أن يرسم حدوده، ثم يتمكن من اجتيازها بنجاح. ويأمل أن يتمكن قريباً من تقبيل معلّمته حتى تكاد تختنق. سيمتصّ كلّ بقعة في جسدها، حيثما أمكنه ذلك. سيعضّها في الأماكن التي ستدعه يفعل ذلك. وبعدها، سينخرط معها في أكثر العلاقات الحميمية توهجاً. سيبدأ بيدها ويصعد إلى الأعلى. سيعلّمها كيف تحبّ، أو على الأقل، كيف تقبل الجسد الذي تنكره دائماً. سيعلّمها بحرص شديد كلّ شيء تحتاج إليه في الحبّ، لكنه سيتّجه بعد ذلك إلى أهداف أكثر جدوى، ومهام أكثر صعوبة في ما يتعلق باللغز الأنثوي. اللغز الأبدي. وسيغدو ذات يوم معلّمها. إنه لا يحبّ تلك التنورات الزرقاء الداكنة ذات الثنيات التي ترتديها على الدوام، والفساتين ذات الأزرار من المقدمة. يجب أن تكون ثيابها أكثر شبابية وملوّنة. الألوان! سيوضّح لها ما يقصده بالألوان. سيريها ماذا يعني أن يكون المرء شاباً حقاً، ويرتدي ثياباً ملونة، وأن تتمتّع بها حقاً. وعندما تعرف كم هي شابة حقاً، ستصبح امرأة أكثر شباباً. لديّ شعور بأنكِ تكرهين جسدك، وأنكِ لا تقيمين وزناً إلا للفنّ، يا أستاذة كوهوت، يقول كليمر. إنكِ لا تقيّمين إلا حاجاتك العاجلة الآنية، لكن الأكل والنوم لا يكفيان! يا آنسة كوهوت، يخيّل إليكِ إن مظهرك هو عدوك، وأن صديقك الوحيد هو الموسيقى. تطلعي فقط في المرآة، انظري إلى صورتك فيها، فلن تجدي صديقاً أفضل من نفسك، لذلك

جمّلي نفسك أكثر يا أنسة كوهوت. إذا جاز لي أن أدعوك هكذا.

يحبّ السيد كليمر أن يصبح صديقاً لإريكا. ومع ذلك، فإن صاحبة هذا الجسد الميت الذي لا شكل له، معلّمة البيانو تلك، يمكنها أن تطور مهنتها العادية والبسيطة تماماً كما يمكنها أن تحسن أنفها القابع في وجهها. وهذا الكيس من الأنسجة المترهلة ليس شائخاً على الإطلاق. فهي لا تزال شابة نسبياً، بالمقارنة مع أمّها. هذه النكتة الملتوية مرضياً، تلك البلهاء المتحمسة، المتشبثة بمثالياتها، لا تعيش إلا روحياً. لكن هذا الشاب سيحولها من امرأة زاهدة في الدنيا إلى امرأة تحب الدنيا. ستتمتّع بمباهج الحبّ، انتظري فقط! وكان والتر كليمر يمارس رياضة التجذيف في الصيف، بل وحتى في الربيع. وكان يقوم بحركات التفافية بمهارة شديدة.

إنه واثق من أنه سيهزم غريمته. وسيُخضع معلّمته بالطريقة ذاتها، إريكا كوهوت، التي سيريها ذات يوم جميل الزورق، ثم سيعلّمها كيف تحافظ عليه طافياً على سطح الماء. عندها سيناديها باسمها الأول: إريكا! وستشعر هذه الحمامة بأن أجنحتها تكبر؛ وسيعتني الرجل بذلك.

بعض الرجال يحبون شيئاً واحداً، والسيد كليمر يحبّ هذا.

باخ يأخذ استراحة. انتهت مقطوعته. العازفان كلاهما، السيد والعشيقة، ينهضان من مقعديهما ويحنيان رأسيهما. إنهما فرسان صبوران يلصقان أنفيهما في كيس علف الحياة العادية، التي أفاقت ثانية. يقولان إنهما يحنيان برأسيهما للعبقري باخ لا لهذا الجمهور الصغير الذي يصفق، الذي لا يفقه شيئاً، والغبي إلى درجة أنه لا يعرف كيف يطرح أسئلة. تواصل أمّ إريكا وحدها التصفيق حتى تؤلمها يداها، وتصيح، برافو! برافو! ويحظى تقديرها هذا بابتسامة المضيفة.

يتفحص المستمعون المخدوعون بكتلة الروث التي ترتدي مثل هذه الألوان القبيحة، إريكا تحديداً. عيونهم ترمش تحت الضوء. يبعد أحدهم المسند عن المصباح، ويشع نور المصباح دون أن يعوقه شيء. هذا هو جمهور إريكا إذاً. إذا لم تكن تعرف أنه يفترض أن يكون هؤلاء بشراً، فلن تصدّق عينيك إلا بصعوبة. إريكا أنحف شخص بينهم، لكنهم يتحلقون حولها، يقتربون منها، يتحدثون عن أشياء سخيفة. لقد ربّت هذا الجمهور الصغير في حاضنتها. وباتباع أساليب خادعة، كالإكراه، والابتزاز، والتخويف، أمرت هؤلاء الأطفال أن يأتوا إلى هنا. ربما كان الشخص الوحيد الذي لم يأتِ بالإكراه هو السيد كليمر، الطالب المجدّ. أما الآخرون فكانوا يفضلون مشاهدة التلفزيون، أو لعب كرة المضرب، أو قراءة كتاب، أو القيام بشيء غبي آخر. كان عليهم جميعاً أن يأتوا. يبدو أنهم مبتهجون لضآلتهم! ومع ذلك فهم يتجرأون ويعزفون موزارت، شوبيرت! إنهم يملأون الغرفة: جزر مكتنزة تطوف في سائل النوطات الجنيني. يشربون مؤقتاً، لكنهم لا يفقهون ماذا يشربون. لكن مع ذلك، فإن الأشخاص ذوي غريزة القطيع يحترمون الضآلة ويجلّونها. يمتدحونها على أنها ذات قيمة عظيمة. يظنون أنهم أقوياء لأنهم الأغلبية. لا يوجد ثمة رعب أو قلق في الوسط. إنهم يتكوّمون معاً، ينغمسون في وهم الدفء. فإذا كنت في الوسط، فأنت وحدك! لا تملك شيئاً، وبالتأكيد فأنت لست نفسك. كم هم قانعون بهذا الوضع! فلا يوجد ثمة شيء في وجودهم يلومهم، ولا يمكن لأحد أن ينتقدهم على وجودهم، رغم أن إريكا تقول إن عزفاً فاشلاً كان يرتد من هذا الجدار الصبور الناعم. لأن إريكا، كما ترى، تقف وحيدة على الجانب الآخر، وبدلاً من أن تفتخر بنفسها، فهي تثأر. ففي كلّ ثلاثة أشهر، ترغم الآخرين على اجتياز البوابة التي

تبقيها مفتوحة، كي تتمكن تلك الخراف من الاستماع إليها وهي تعزف. تعزف نغماً من الرضا الذاتي إلى السأم، يخربشون الآن، يدقون، يتدافعون، يتساقط أحدهم فوق الآخر، عندما يعوقهم فرد غير معقول لأنه علّق معطفه في الطابق الأسفل، ولا يجده الآن. يريد جميعهم الدخول في البداية، ثم يتدافعون للخروج بأسرع ما بوسعهم.

وهم دائماً متحدون متضامنون. ويخيّل إليهم أنهم كلّما وصلوا إلى المرعى الآخر بسرعة، مرعى الموسيقى، غادروه على نحو أسرع. أما الآن فها هو برامز يأتي بقضه وقضيضه، بعد استراحة قصيرة، أيها السيدات والسادة. أيها الطلاب الأعزاء. اليوم، ليست مكانة إريكا المتميّزة عيباً، بل إنها ميزة تُحسب لها. لأنهم يقفون جميعهم فاغرين أفواههم، ويحدقون فيها رغم أنهم يكنون لها كراهية في سريرتهم.

السيد كليمر يتجه نحوها، مبتسماً بعينيه الزرقاوين البهيتين. يداه تمتدان إلى يدها التي تعزف البيانو، ويهنئها، ويضيف إن الكلمات تعجز عن التعبير عما يجيش في نفسه تجاه الأستاذة. أمّ إريكا تقاطعهما، وتمنع بقوة حدوث مصافحة أو أية ملامسة. يجب ألا تكون هناك إشارة تدل على وجود صداقة لأنها يمكن أن تلوي أوتار العضلات وتتدخّل في عزفها. يجب أن تبقى اليد في مكانها الطبيعي، من فضلك. حسناً، ليس من الضروري أن نبدو خاصين أمام الجمهور من الدرجة الثالثة، أليس كذلك، يا سيد كليمر؟ يجب على المرء أن يستبدّ بهم، يجب على المرء أن يقمعهم ويضطهدهم، كي يصل إليهم. يجب على المرء أن يستخدم الهراوات عليهم! إنهم يريدون أن يُضربوا بالسياط. إنهم يريدون أن تزعق وتصيح فيهم، وإلا لما كفّوا عن الصراخ والصياح. من باب السأم. إن الألوان الرمادية، والفروق الدقيقة الرفيعة، والامتيازات الحساسة بعيدة عن مداركهم. ومع ذلك ففي

الموسيقى، كما هو الحال في أيّ عالم من عوالم الفنّ، من السهولة بمكان أن تضع مقارنات قاسية، متناقضات صارخة. لكن هذا كله هراء، لا شيء أكثر! إنك لا تعرف تلك الحملان. إنها لا تعرف شيئاً. إريكا تمسك بذراع كليمر. هذه البادرة الحميمة تجعله يرتعش. لا يمكن أن يكون مصاباً بالزكام في وسط هؤلاء المراهقين الذين ينعمون بصحة جيدة، بتوزيعاتهم الرائعة. هؤلاء البرابرة الذين أكلوا حتى التخمة، في بلاد يحكم ثقافتها برابرة. انظر فقط إلى الصحف: إنها أكثر بربرية من الأشياء التي يتحدثون عنها. فالرجل الذي يقطّع بدقة شديدة زوجته وأطفاله إلى شرائح ثم يضعهم في الثلاجة حتى يأكلهم لاحقاً، ليس أكثر بربرية من الصحيفة التي تنشر هذا الخبر. ثم تتنابذ الصحف بالألقاب، وتطلق كل صحيفة على الصحيفة الأخرى أقذع الأسماء والألقاب. كليمر، تخيّل! والآن عليّ أن أرحب بالأستاذ فيورال، إن لم يكن لديك مانع. سأراك فيما بعد، يا سيد كليمر!

تمسك الأمّ بسترة أنغورا ذات لون أزرق فاتح، كانت قد حاكتها لنفسها ووضعتها على كتفي إريكا. يجب ألا يتجمّد زيت التشحيم فجأة في هذه المفاصل، بل يجب أن يقاوم الاحتكاك. السترة الصغيرة تشيع الدفء. أشياء مفيدة أحياناً مثل بكرات ورق التواليت عليها أغطية منزلية الصنع، بشرابة ملونة. إنهم يزيّنون النوافذ الخلفية للسيارات. في الوسط تماماً. شرابة إريكا هي رأسها، الذي يلوح بزهو. تتعثّر في كعبي حذائها العاليين فوق الأرضية الجليدية الملساء المطعّمة. تتوجّه إريكا إلى زميل أكبر سنّاً لتلقي التهاني من شفتين خبيرتين. الأمّ تدفعها بلطف إلى الأمام. تضع الأمّ يداً على ظهر إريكا، على عظم الكتف مباشرة، فوق سترة الأنغورا.

والتر كليمر لا يزال لا يشرب ولا يدخّن، وهو يتمتع بقدر مدهش

من الطاقة. يسير خلف معلّمته مباشرة كما لو كان ملتصقاً بها مثل كاسات الهواء. يشق طريقه وسط الحشد الذي يصدر قأقأة وصأصأة. إنه يلتصق بها. إذا احتاجت إليه، فهو طوع بنانها. إذا كانت بحاجة إلى حماية ذكر. فما عليها إلا أن تلتفت وستجده أمامها. إنه في الحقيقة يبحث عن هذا الجسد. الاستراحة القصيرة على وشك الانتهاء. إنه يتنشق وجود إريكا بخياشيم منفتحة كما لو كان فوق أحد المروج في قمة جبل الألب الذي قلما يرتاده المرء، لذلك يتعين عليه أن يأخذ نفساً عميقاً، لكي يعيد قدراً من الأوكسجين إلى المدينة. يزيل شعرة ضالة من كمّ السترة الفاتحة الزرقاء، ويتلقى كلمة شكر، أوه، يا إلهي. أمّ إريكا تحسّ بشيء ضبابي، لكنّها لا تستطيع أن لا تقدر حسن السلوك والشعور بالواجب. سلوكه يتناقض كثيراً مع كلّ شيء مألوف في أيامنا هذه بين الجنسين. السيد كليمر لا يزال شاباً بالنسبة لأمّ إريكا، لكنه رجل من الطراز القديم.

لندردش الآن قليلاً قبل أن نصل إلى الجولة النهائية.

كليمر يريد أن يعرف السبب، ويأسف لذلك، فمثل هذه الحفلات الموسيقية التي تقام في البيوت أخذت تنقرض شيئاً فشيئاً. فقد مات أساطين الموسيقى وسادتها أولاً، وأخذت موسيقاهم تموت الآن، لأن الناس لم يعودوا يرغبون في الاستماع إلا إلى موسيقى البوب، والروك، والبانكي. ولم تعد توجد عائلات من أمثال عائلة مضيفنا ومضيفتنا في الوجود. ففي الماضي، كان هناك العديد من أمثال تلك العائلات. أجيال من اختصاصيي الحنجرة شبعت من رباعيات بيتهوفن الأخيرة، هذا إن لم تكن قد أتخمت بها. ففي أثناء النهار، كانوا يطلون حناجرهم الملتهبة، وفي المساء، يحصلون على مكافأتهم لدى منادمتهم بيتهوفن. أما اليوم فالأكاديميون لا يفعلون شيئاً سوى أن

يخبطوا بأقدامهم مع أنغام أبواق بروكنير الصاخبة التي تصدر أصواتاً كأصوات الفيل، ويكيلوا المديح على صانع الأنغام القروي ذاك. وما احتقار بروكنير إلا هفوة من هفوات الشباب التي وقع الكثير من الناس فيها، يا سيد كليمر. فالمرء لا يفهمه إلا بعد فترة طويلة، صدقني. لا تستمع إلى الأحكام العصرية حتى تصبح أكثر تمكناً، يا زميلي العزيز. يشعر كليمر بالسعادة لسماعه كلمة «زميل» من شفتي شخص مؤهل وكفؤ. ثمّ ينطلق في رطانة محزنة ويتحدث عن دخول شوبيرت وشومان في مجاهل الجنون. يتحدّث عن ظلالهما التي يصعب ملاحظتها والفروق الدقيقة بينهما، فيما يستخدم أصباغاً عثية باللون الرمادي في الرمادي.

ثم يأتي ثنائي كوهوت - كليمر، في لون أصفر ليموني سامّ، عن الحفلة الموسيقية المحلية. حركة سريعة مفعمة بالحيوية. وكانا قد تدربا جيداً. لا يوجد أي دور لأيّ من الموسيقيين في هذا الأمر. ولا يسمح لهما بالمشاركة إلا كمستهلكين، رغم أن مؤهلاتهما أعلى من ذلك بكثير! ومع ذلك، فهما ليسا إلا مستمعين، يضلّلان نفسيهما بما يعرفانه. كان بوسع أحد طرفي هذا الثنائي أن يشارك: إريكا. لكنّ ذلك لم يحدث.

أما الآن فهما يطوفان برفق فوق غبار النغمات المتوسطة، والعوالم المتوسطة، والدنيا المتوسطة الطليقة، لأن هذا ما تشعر به الطبقة المتوسطة في البيت. إن جنوح شوبيرت إلى الجنون يفتح مجالاً راقصاً، مظلماً، كما يصفه أدورنو، في فانتازيا شومان من السلم الموسيقي سي. إنها تتدفق في المسافات البعيدة، إلى العدم، ولكن بدون إلباس رداء الألوهية للوعي المتقهقر! إنه يظلم دون أن يدرك ذلك، ودون أن يشير إلى ذلك! يخيم الصمت على الثنائي لحظة ليتمتّعا بالأشياء التي وضعاها

في مكانها الملائم. ويعتقد كلّ منهما أنه يفهم أكثر من الآخر؛ فهو يعتقد ذلك بسبب صباه، وهي ترى ذلك بسبب نضجها. يتسابقان في أن يبزّ أحدهما الآخر بغضب في إظهار جهل الكثيرين - الذين يجتمع الكثير منهم هنا. انظري إليهم فقط يا أستاذة! ألقِ نظرة فاحصة عليهم يا سيد كليمر! رابطة الازدراء تجمع بين المدرّبة والمتدرب. وما خبوّ نور حياة شوبيرت وشومان، إلا النقيض الفاضح لما تعنيه الجماهير عندما تطلق على تقليد ما أنه شيء صحّي ويتمرّغون فيه بسعادة. الصحة - يا لها من شيء مقرف. الصحة تجلٌ للوضع الراهن. المأجورون الذين يملأون برامج الحفلات الموسيقية لمحبي الموسيقى هم أكثر الموافقين بغضاً. تخيّل: إنهم يجعلون شيئاً مثل الصحة المعيار الرئيسي للموسيقى الهامة. حسناً، الصحة تقف دائماً إلى جانب المنتصرين. تتلاشى الطقوس. ومع ذلك فإن روّاد حمأم السونا هؤلاء والمبولين السعيدين يستحقون الفشل. وهم يعتبرون أن بيتهوفن، الأستاذ الكبير، كان يتمتع بصحة ممتازة - رغم أنه كان أصمّ، للأسف. وأن برامز يتمتع بصحة رائعة كذلك. يلقي كليمر شيئاً اعتباطاً (ويصيب الهدف): كان يظن دائماً أن بروكنير يتمتع بصحة رائعة. كليمر يتكلم بحدّة. وتشرح له إريكا بتواضع الجرح الذي أصابها بسبب تجاربها الشخصية في الموسيقى في فيينا والأقاليم الأخرى، إلى أن أذعنت واستسلمت. الشخص الحسّاس يحترق، مثل عثّ رقيق. وتقول إريكا كوهوت إن هذين الموسيقيين العليلين، شومان وشوبيرت (يشتركان في المقطع الأول من اسميهما)، هما أقرب إلى قلبي المكدوم. لا شومان الذي هربت منه أفكاره، بل شومان الذي جاء قبله مباشرة، اللذان لم يكن يفصل بينهما إلا قيد أنملة! شومان الذي كان يعتقد أن عقله سيفلت منه، كان يعاني من أفكاره، حتى من أدق عروقه. كان يستأذن حياته الواعية وهو يدخل

جوقات الملائكة والشياطين، ومع ذلك فقد تمسك بتلك الحياة الواعية مرة واحدة وأخيرة، مع أنه لم يعد يعي نفسه تماماً. لقد حاول أن يلتقط الأصداء الباهتة بشوق، ويرثي فقدان أكثر الأشياء قيمة: نفسه. هذه هي المرحلة التي يدرك فيها المرء كم هو عظيم أن يخسر المرء نفسه قبل أن يستسلم تماماً.

تخبر إريكا بصوت موسيقي ناعم، كليمر، أن أباها فقد عقله ومات في مستشفى شتاينهوف للمجانين. ولهذا يجب على الآخرين أن يراعوا شعور إريكا، فهي قد عانت الكثير. وفي خضم هذه الصحة الموفورة والمتألقة، لا تريد إريكا أن تضيف المزيد، لكنها تعطي بضع إشارات وتلميحات، بأمل أن تنتزع من كليمر بعض مشاعر العطف. إنها تُعمل الإزميل بدون رحمة. وبسبب معاناتها، فإن هذه المرأة تستحق كلّ ذرة من اهتمام الذكر يمكنها أن تحصل عليها. لذلك صحا اهتمام الشابّ بقوة مرة أخرى.

انتهت الاستراحة. تفضّلوا واجلسوا في مقاعدكم. الآن جاء دور أغنية الليد لبرامز، التي غناها طالب سوبرانو شاب. ثم انتهت المعزوفة. لم يكن يعلو على الثنائي كوهوت وهابيركورن شيء. كانت حدّة التصفيق أشد مما كانت قبل الاستراحة، لأن الجميع شعروا بالراحة لأن الأمسية انتهت. بل كنت تسمع عدداً أكبر من كلمة «برافو»، لا من أمّ إريكا فحسب، بل من أفضل تلاميذ إريكا كذلك. الأمّ وأفضل تلميذ لإريكا يتفحص أحدهما الآخر بدقّة شديدة من طرف عينيهما، ويصيح كلاهما بأعلى صوته ويزداد أحدهما ريبة بالآخر. أحدهما يريد شيئاً، بينما لا يأبه الآخر بالتخلي عنه. تضاء الأنوار إلى أعلى طاقة لها، وكذلك الثريات، إذ لا يمكن تفويت شيء في هذه اللحظة الجميلة. تترقرق الدموع في عينَي المضيف. تعزف إريكا

معزوفة أخرى لشوبان، ويتذكر المضيف بولندا في الليل، أرض أسلافه. يتلقى السوبرانو وإريكا، مرافقها الساحر، باقات ضخمة من الورود. تتقدم أمّان وأب، ويقدّمون باقات زهور بالطريقة ذاتها إلى الأستاذة، التي تساعد أطفالهم. أما المطرب الشاب الموهوب، فلم يحصل إلا على باقة واحدة فقط. وتقوم أمّ إريكا بتحنيط باقات الزهور برفق في منديل ورقي حتى تصل بأمان وسلام إلى البيت. ما علينا إلا أن نحمل هذه الزهور الرائعة حتى موقف الحافلة التي ستقلنا بارتياح حتى باب بيتنا تقريباً. تبدأ بالتوفير بعدم أخذك سيارة أجرة، وينتهي بك المطاف بشراء شقّة. ومن باب أداء الواجب، يعرض الأصدقاء والمساعدون أن يوصلاهما في سياراتهم، لكن الأمّ ترفض عروضهم. شكراً، لكن لا شكراً. إنها لا تقبل معروفاً من أحد، ونحن لا نصنع معروفاً مع أحد.

تقدم والتر كليمر وساعد معلّمة البيانو على ارتداء معطفها الشتوي ذي الياقة المبطنة بفرو الثعلب. كان يعرف معطفها الذي ترتديه خلال إعطائها الدروس لهم حق المعرفة. فله حزام وياقة من الفراء الفاخر. أما الأمّ فكانت ترتدي معطفاً من جلد الحمل الفارسي الأسود. كان يريد أن يواصل الحديث الذي كان قد انقطع. يقول على الفور شيئاً عن الفنّ والأدب، في حال استنزفت الآنسة كوهوت كلّ موسيقاها بعد الانتصار الذي حققته. يلتصق بها، يغرس أسنانه فيها. يساعدها على ارتداء معطفها، وكان من الجرأة إلى حد أنه أخرج شعرها الذي يصل إلى كتفيها من تحت الياقة ورتّبه بمهارة فوق الفراء. وعرض أن يرافق السيدتين حتى موقف الحافلة.

انتاب الأم شعور لا يمكن الإفصاح عنه. وكانت تعتري إريكا عادة مشاعر متباينة بأيّ اهتمام يبديه أحدهم بها. لنأمل أنه لن يتحوّل إلى

حبات بَرَد بحجم بيض الدجاج، إذ يمكن أن يصيب البَرَد الفتحات فيها! وكان قد قُدمت لها أيضاً علبة ضخمة من الحلوى. أخذها والتر كليمر منها عنوة وحملها. كان يحمل كذلك باقة من الزنبق البرتقالي أو شيئاً من هذا القبيل. يسير ثلاثتهم بتثاقل (بعد توديع مضيفنا ومضيفتنا) حتى موقف حافلة الترامواي، وهو يحمل هذه الأشياء كلها، ليس أقلها الموسيقى. يسير الشابان في المقدمة، لأن الأمّ لا تستطيع أن تجاري تلك الأقدام الشابة. بالإضافة إلى ذلك، بوسع الأمّ أن ترى وتسمع على نحو أفضل بكثير وهي خلفهما. تتردّد إريكا، لأن الأمّ المسكينة تمشي بتثاقل وحدها وراءهما. فقد جرت العادة على أن تسير السيدتان كوهوت بمتعة تمسك إحداهما بيد الأخرى، تناقشان إنجازات إريكا وتمتدحها بلا خجل. أما اليوم، فقد حلّ شاب ذكر حديث النعمة محل الأمّ المسنة المخلصة، التي اضطرت للمشي وحدها في المؤخرة بإهمال. خيوط المئزر تسحب إريكا وتشدها إلى الخلف. تقرصها لأن الأمّ تمشي في الخلف. ومما زاد الطين بلة أنها هي التي عرضت أن تفعل ذلك. لو لم تكن هناك حاجة للسيد كليمر، لكانت إريكا تمشي الآن بارتياح إلى جانب أمّها. وكان بوسع المرأتين أن تجترّا عن الحفلة، وربما التهمتا صندوق الحلوى. تذوق مسبق للدفء الجميل الذي ينتظرهم في صالة الاستقبال في بيتهما. ربما تمكنتا من مشاهدة العرض المتأخّر في التلفزيون. وسيكون ذلك أجمل تتويج لتلك الأمسية الموسيقية. ولا يني ذلك الطالب عن الاقتراب والالتصاق بها أكثر وأكثر. ألا يمكنه أن يحافظ على مسافة بينه وبينها؟ فهي تشعر بالحرج الشديد عندما تحس بجسد شاب دافئ، فائر إلى جانبها. ويبدو أن هذا الشابّ كان موفور الصحة وهانئاً إلى درجة كبيرة إلى حد جعل إريكا تضطرب. لم يكن ينوي أن يرهقها بصحته، أليس كذلك؟ يبدو

أن الثنائي في البيت، الذي لا يمكن لأحد أن يشاركهما فيه، أصبح مهدّداً. من يمكن غير الأمّ أن يضمن السكينة والهدوء، النظام والأمن داخل جدرانهما الأربعة؟ فكلّ ذرة في جسد إريكا تشتاق إلى الكرسي الناعم الذي تجلس عليه أمام جهاز التلفزيون خلف باب موصد. فلها كرسيها الخاص، وللأمّ كرسيها ذو الحشية الفارسية لتمدّ قدميها المتورمتين في معظم الأحيان. وستنحرف حياتهما العائلية بسبب عدم مفارقة كليمر لهما. إنه لا ينوى أن يشقّ طريقه عنوة إلى بيتهم، أليس كذلك؟ تفضّل إريكا كثيراً أن تحبو نحو أمّها وتهزها برفق في سائل رحمها الدافئ. دافئ ورطب في الخارج كما هو في الداخل. إنها تتشنج أمام أمّها عندما يقترب كليمر كثيراً منها.

أما كليمر فلم يكف عن الثرثرة، في حين لزمت إريكا الصمت. وراحت تومض في رأسها تجاربها النادرة مع الجنس الآخر، لكن الذكريات لم تكن جيدة. ولم يكن الواقع أفضل. ففي إحدى المرات تعرفت إلى مسؤول مبيعات في أحد المقاهي وألح على اصطحابها، فاستسلمت له أخيراً لإسكاته فقط. وقد اكتملت المجموعة التعيسة من محبي الإقامة في البيت من ذوي البشرة البيضاء بطالب حقوق شاب ومعلّم مدرسة ثانوية شاب. ومنذ ذلك الحين، مرت السنون وتوالت. وبعد إحدى الحفلات الموسيقية، رفع أكاديميان كمّي معطفها مثل أسطوانتي مدفع رشاش، وبذلك جرداها من سلاحها: فقد كان لديهما أسلحة أكثر خطورة. وبعد كلّ تجربة من هذه التجارب، كانت إريكا تشعر بالرغبة في أن تعود إلى أمّها بأسرع ما يمكنها. ولم تكن الأمّ تشكّ في شيء. وبهذه الطريقة، رعت إريكا في بيوت شابين أو ثلاثة من العزاب، ذات مطابخ صغيرة وحمّامات ذات مغاطس. لم تكن هذه المراعي حلوة بالنسبة لذوّاقة الفنّ.

في بادئ الأمر، كانت شديدة الزهو بنفسها: عازفة البيانو تلك، مع أنها كانت قد توقفت عن العزف مؤقتاً. فلم يكن أيّ من هؤلاء الرجال قد حظي بفرصة أن تجلس عازفة بيانو على أريكته. وكان ثمة شخص يعاملها باحترام شديد، وكانت تبادله الاحترام. لكنها ما إن تبدأ في ممارسة الجنس، حتى سرعان ما يزول احترامها وهيبتها. وتمادى الشاب معها، داخل البيت وخارجه. ولم يعد يفتح لها باب السيارة، وتحول المرح إلى تفاهة. ثم بدأ الكذب والخيانة، والتعذيب، ولم يعد يتصل بها في أغلب الأحيان. لقد تعمّد أن يرميها في العراء. ولم يجب على رسالة أو رسالتين، وانتظرت المرأة وانتظرت، لكن دون جدوى. ولم تسأل نفسها لماذا كانت تنتظر، لأنها كانت تخاف من الجواب أكثر من خوفها من الانتظار. وفي هذه الأثناء، بدأ الرجل يتعامل مع نساء أخريات في حياة أخرى.

كان ذلك الشاب يمارس الجنس مع إريكا، ثم توقف فجأة. لقد أغلق صمام الغاز، تاركاً نفحة واحدة منه فقط. وحاولت إريكا أن تحافظ عليه بعواطفها. كانت تدق بقبضتيها على الجسد الميت المترنح فوقها. كانت تصل إلى درجة من الإثارة لا تتمالك معها نفسها عن الصراخ. وكانت أظافرها المدببة تخدش ظهر خصمها. لم تكن تحسّ شيئاً. كانت تتظاهر بالمتعة الغامرة إلى أن يتوقّف الرجل أخيراً. وكان الرجل يتوقف، لكنه كان يعود إليها. لم تكن إريكا تشعر بشيء، لم تكن تحسّ بشيء على الإطلاق. كانت عديمة الشعور مثل قطعة ورق مطلية بالقار تتقاذفها الرياح تحت المطر.

وسرعان ما هجر جميع الرجال إريكا، ولم تعد هي تبالي بمصاحبة الرجال. ينبثق سحر خفيف من أحد الرجال، لكنه لا يبذل جهداً كبيراً للتقرب منها. فالرجال لا يكلفون أنفسهم عناء الجري وراء

امرأة غير عادية مثل إريكا، مع أنهم لن يلتقوا بامرأة مثلها ثانية، لأنها بكلّ بساطة فريدة من نوعها. وسيعتريهم الندم على ما فعلوه، لكنهم يغادرونها في جميع الأحوال. كانوا ينظرون إلى إريكا، ثم يديرون ظهورهم ويغادرون. ولم يكونوا يكلفون أنفسهم عناء التعرف على مزاياها الفنية الفريدة حقاً، بل كانوا يفضّلون التعامل مع النساء اللاتي يعرفونهن جيداً. إذ كان يبدو أن هذه المرأة كبيرة جداً على سكاكينهم الصغيرة المملّة. ويقنعون بالحقيقة بأنّ هذه المرأة سرعان ما ستذوي وتضمحل. ولم يخب ظنهم، إذ بدأت إريكا تنكمش وتذوي حتى أصبحت أشبه بالمومياء، وواصلو سلوكهم الكئيب معها كما لو كانت زهرة نادرة لا تحتاج إلى سقاية.

وكان السيد كليمر، الذي لم يكن يعرف ذلك، يمشي بخيلاء، مثل باقة ورد تنبض بالحياة، إلى جانب الآنسة كوهوت، بينما كانت تسير السيدة كوهوت وراءهما. كان في ريعان الشباب، ولم يكن يدرك كم هو شاب. وكان يجازف ويلقي بنظرة ملؤها التبجيل بطرف عينه إلى معلّمته. فقد كان يشاطرها سرّ تفهمه للفن. وكان واثقاً من أن المرأة التي تسير إلى جانبه تتساءل، كما كان يتساءل هو، كيف السبيل إلى عدم جرح مشاعر الأمّ. فكيف يجرؤ على دعوة إريكا إلى احتساء كأس من النبيذ حتى يتوج اليوم بسلم موسيقي بهيج؟ لم تتجاوز أفكار كليمر أكثر من ذلك. فقد كان شعور المعلّمة تجاهه إيجابياً. فما إن يوصل الأمّ إلى البيت، حتى يصطحب إريكا إلى مكان آخر. إريكا! يلفظ اسمها. تتظاهر بأنها لم تسمعه، وتغذّ الخطى، كي يسرعا ولا يعود الشاب إلى التفكير في نزوة غريبة. يجب عليه أن يبتعد عنهما! فهناك شوارع عديدة يمكنه أن يسلكها ويختفي فيها. فما إن يدير ظهره، وتصبح هي وأمها وحدهما، حتى تبدأ المرأتان التحدث

عن وقوع هذا الطالب في غرامها سراً. هل سترى فيلم فريد أستير الليلة؟ نعم، حقاً. لن أفوّته. وهنا يفهم السيد كليمر أنه يجب ألا يتوقع شيئاً.

وفي الطريق المظلم، جازف كليمر وأقدم على محاولة طائشة، إذ أمسك بيد الأستاذة بسرعة. دعيني أمسك يدك يا إريكا. هذه اليد التي تعزف على البيانو على نحو رائع. تنزلق اليد الآن ببرود في شبكته وتمضي. هبّت نفحة من الهواء، ثم عاد الهواء وأصبح ساكناً مرة أخرى. تجاهلت إريكا المحاولة. الفشل الأول. لقد ثار عصب اليد لأن أمّ إريكا كانت تسير إلى جانبهما على مسافة قصيرة. الأمّ التي تراقب الخطّ الأمامي للشاب والصبية.

كان الشارع قد خلا من السيارات الآن، والرصيف ضيّق عند هذه النقطة. تستشعر إريكا بالخطر فتجذب أمّها المتهورة إلى الرصيف بسرعة. فتعود يد كليمر إلى مكانها.

يطلق كليمر فمه، الذي يخلو من تلك التجاعيد الرفيعة التي تدل على تقدم العمر، في هذه الجولة المتّقدة. إنه يفتح ويغلق بسهولة. يريد أن يتحدث مع إريكا عن رواية لنورمان مايلر، الذي يكنّ له كليمر إعجاباً شديداً كرجل وكفنان.

يرى كليمر كذا وكذا في الكتاب. ولعل إريكا ترى شيئاً مختلفاً تماماً؟ تقول إريكا إنها لم تقرأ الكتاب، وهنا يتوقف الحديث. لا يمكن أن يتم تبادل أي حديث بهذه الطريقة. وإريكا على استعداد لأن تقايض أيّ شئ مقابل شبابها المفقود، أما كليمر فيريد أن يقايض شبابه لقاء تجربة. وجه الشاب النضر يتوهج برقة تحت أضواء الشارع وواجهات المحلات المنارة، وإلى جانبه تنكمش عازفة البيانو، قطعة ورق تحترق في أتون الشهوة. لا تملك الجرأة على النظر إليه. ومن المؤكد أن الأمّ

ستحاول أن تبعد أحدهما عن الآخر إذا دعت الضرورة. إريكا تقول كلمات أحادية المقطع بدون اهتمام. إنهم يزدادون اقتراباً من موقف حافلة الترامواي. وتبذل الأمّ كل ما بوسعها لتمنع حدوث أي اتفاق بين الشابين عندما يتحدثان عن خطر الإصابة بالزكام وعن القدر المغري بتفصيل شديد. إريكا توافقها.

يجب على المرء أن يتخذ كلّ أسباب الحيطة كي لا يصاب بالزكام الآن، وقد يفوت الآوان كثيراً بالانتظار إلى الغد. يبذل السيد كليمر محاولة مستميتة أخيرة لكي ينشر جناحيه، فراح يصدح زاعماً أنه يعرف طريقة جيدة للوقاية من الإصابة بالزكام: إذ يجب على المرء أن يقوّي جسمه من البداية. كما نصح بارتياد حمام البخار، والسباحة. وأوصى بالرياضة بشكل عام، وخاصة التجذيف في المياه البيضاء. لكن في الشتاء، الآن، يصبح الثلج عائقاً، لذلك يجب على المرء أن يتدبر أمره بممارسة ألعاب رياضية أخرى في هذا الوقت من السنة. لكن الربيع على الأبواب، وسيكون ذلك أفضل وقت للتجذيف في المياه البيضاء، لأن الأنهار ستمتلئ بالثلج والجليد الذائبين، وستسحب كلّ شيء معها. وشدد كليمر على ارتياد حمام البخار. وأوصى كذلك بالجري لمسافات بعيدة، والجري في الريف، الجري عموماً. لم تكن إريكا تصغي إليه، لكن عينيها كانتا تغمرانه، لكنهما سرعان ما كانتا تشعران بالحرج وتنزلقان بعيداً عنه على الفور. ودون قصد تقريباً، كانت تخرج من سجن جسدها القديم. إنها لن تقترب من القضبان، لأن أمها لن تدعها تمسّ قضبانها. ولن يتمكن كليمر من المضي في ذلك، مهما قالت إريكا. يخطو هذا المحارب المتحمس خطوة جريئة أخرى إلى الأمام، ثور شابّ، يحوم حول السياج. هل يحاول الوصول إلى البقرة، أم أنه لا يريد إلا الوصول إلى مرج جديد؟ من يمكنه أن يعرف؟ إنه ينصح

بممارسة الرياضة من أجل المتعة والمرح، وعندها ستشعرين بجسدك بشكل عام، عن طريق جسدك. لا تتصورين يا أستاذة كيف يمكن للشخص أن يتمتّع بجسده! اسألي جسدك ماذا يريد وهو سيقول لك. في البداية قد يبدو جسدك بسيطاً وسمجاً، لكن بعد ذلك، أوه، يا إلهي! ستدب فيه الحياة، وتنمو العضلات. سيتمدد في الهواء الطلق. لكنه يعرف حدوده أيضاً. ويستطيع كليمر أن يجني كلّ هذه الفوائد من رياضته المفضّلة، التجذيف في المياه البيضاء. تلمع في ذهن إريكا ذكريات واهية، فهي تذكر أنها رأت ذات مرة شيئاً شبيهاً بهذا في التلفزيون: قوارب المياه البيضاء، التي ظهرت في بانوراما رياضة نهاية الأسبوع، قبل عرض الفيلم. كان الجذافون يرتدون سترات برتقالية وخوذاً. وكانوا محشورين في مراكب صغيرة جداً، أو أشياء من هذا القبيل، وكانوا كثيراً ما يسقطون في المياه. إريكا تبتسم. تتذكّر أحد الرجال، الذي راح يهتف بصوت مرتفع، ثم نسيته على الفور. كلّ ما تبقى آثار رغبة واهية، تنساها كذلك في الحال. حسناً، لقد وصلنا تقريباً!

الكلمات تتجمّد في فم السيد كليمر. يدمدم بصعوبة كلاماً غير مفهوم عن التزلج، فالموسم على وشك أن يبدأ. ليس من الضروري أن تقطع كل تلك المسافة من المدينة كي تصل إلى أجمل المنحدرات، بل يمكنك أن تفعل ذلك في أيّ زاوية تحبّ. أليس هذا عظيماً؟ لماذا لا تأتي أحياناً، يا أستاذة، فجميع الشباب يذهبون إلى هناك. سنجد أصدقاء في عمري هناك، وسيقومون برعايتك بشكل رائع، يا أستاذة. تنهي الأمّ الحديث: إننا لسنا من هواة الرياضة. فهي لم تر أية ألعاب رياضية إلا من خلال ذلك الصندوق العجيب. وفي الشتاء، فإننا نفضّل أن نشاهد فيلماً بوليسياً جيداً. إننا نفضل أن نعتكف، كما تعرف، على

أن نفعل أيّ شيء آخر. إننا نعرف ما نفعله، ولا نفضّل أن نذهب إلى هناك، فقد يكسر المرء إحدى ساقيه.

يقول السيد كليمر إنه يمكنه أن يستعير سيارة أبيه في أيّ وقت تقريباً إن أعلمه بذلك مسبقاً. تنسرب يده في الظلام وتظهر فارغة تماماً.

ينتاب إريكا شعور متزايد بالنفور. كم تتمنى أن يذهب! وأن يأخذ يده معه. اذهب! إنه تحد فظيع قذفته الحياة إليها، والتحدي الوحيد الذي تقبله عادة هو أن تعزف معزوفة بإخلاص. وأخيراً، ها هو موقف الحافلة يلوح أمامهم، موقف تنيره الأضواء ومغطى بالبليكسي غلاس، وفيه مقعد صغير. لا يوجد سارق أو قاتل على مرمى البصر، وبوسع المرأتين التعامل مع كليمر بسهولة. نور مصباح مضيء. شخصان آخران ينتظران، امرأتان، بدون مرافق يحميهما. ففي هذه الساعة المتأخرة من الليل، يقلّ عدد الحافلات، ولسوء الحظ، لم يتركهما كليمر وشأنهما بعد. قد لا يقترب القاتل خلسة، بل يمكن أن يظهر فجأة، وعندها ستكونان بحاجة إلى كليمر. تعتري إريكا رعدة. يجب أن يكفّ عن محاولة أن ينالها. ها هي الحافلة تقترب! قريباً سيكون بإمكانها أن تناقش كلّ هذا الأمر بالتفصيل مع الأمّ، لكن يجب على كليمر أن يتركهما. وعندها سيكون موضوعاً للمناقشة بينهما. إنه لا يعدو كونه أكثر من دغدغة ريشة على جلدك. تصل الحافلة التي تستقلانها السيدتان كوهوت. السيد كليمر يلوّح، لكن السيدتين مشغولتين بمحفظتيهما وتذاكرهما.

* * *

تسقط الطفلة التي تناقش المرأتان موهبتها وهما تمشيان أميالاً

عديدة. إنها طفلة خرقاء. فهي تتحرّك عادة كما لو أنها كانت داخل كيس يصل حتى رقبتها، تتعثّر وهي تمشي فوق الأشياء، ذراعاها وساقاها تلوح. تتذمر بصوت عال بأنّ أسلاكاً معدنية توضع في وسط الطريق ولا ينتبه إليها الناس الآخرون. ولا ذنب لها في كل ذلك. الأساتذة الذين يلاحظون ذلك يحيّون الفتاة التي تمشي على أنغام الموسيقى ويطيبون خاطرها. فهي تضحّي من ناحية بوقت فراغها كله من أجل الموسيقى؛ ومن الناحية الأخرى، تجعل نفسها سخرية في أعين الناس الآخرين. ورغم ملاحظاتهم، كان المعلمون يظهرون نفوراً غامضاً عندما يذكرون أنها المعلّمة الوحيدة التي تفكر بهذا الهراء بعد المدرسة. وتزن تلك الإهانات الغبية في عقلها، وتحاول أن تتخلص من عبئها في البيت، مع أمّها. وتهرع الأمّ إلى المدرسة، وتتذمر بصوت عالٍ من التلاميذ الآخرين، الذين لا يكفون عن محاولة تدمير نسلها العظيم. ثم يلهب الغضب البيت. هناك حلقة مفرغة من الشكاوى، وأسباب أكثر عنفاً للشكاوى. تبرز صناديق معدنية مليئة بزجاجات الحليب الفارغة في غرفة الطعام في المدرسة أمامها، لكنها لا تحظى بالاهتمام المطلوب من إريكا. ويتركز جلّ اهتمامها سراً على الفتية في المدرسة. فكانت تنظر إليهم خلسة بطرف عينها، بينما يتجه رأسها، الشامخ، إلى اتجاه مختلف تماماً. إنها لا تلتفت إلى رجال المستقبل أولئك - أو الفتية الذين يحاولون ممارسة الرجولة.

تتربص العقبات بها في قاعات الدروس التي تفوح منها روائح كريهة. ففي كلّ صباح، تمتلئ برائحة عرق الطلاب العاديين الذين يمرون أمامها، فيما تتغلغل فيهم أصابع الآباء على نحو محموم حتى العظم، تعبث بلوحة مفاتيح عقولهم، في محاولة يائسة لتمكينهم من اجتياز دروسهم على أقل تقدير. أما في فترة الظهيرة، فتنبثق حياة

جديدة في قاعة الدروس، على يد طلاب موهوبين موسيقياً يحضرون مدرسة الموسيقى المؤقتة هنا. فتتقافز البدع الصاخبة كالجراد فوق فراغات التفكير الصامتة. وأثناء النهار، تفيض المدرسة بقيم المعرفة والموسيقى الدائمة. إذ يأتي التلاميذ هؤلاء لتعلم الموسيقى من جميع الأحجام، والأشكال، والهيئات، بل وحتى خريجو المدارس الثانوية وطلاب الجامعة! فقد تضافرت جهودهم لإصدار أصوات، سواء كانوا وحدهم أم في مجموعات.

تنهش بأسنانها بعنف فقاعات هواء الحياة الداخلية، التي لا يعرف عنها الآخرون شيئاً. وفي صميم وجودها، فهي جميلة كشيء أثيري، وقد تركّز هذا الصميم في عقلها فقط. لا يرى أحد هذا الجمال. وهي تعتقد أنها جميلة وتشبّه وجهها بوجه عارضة أزياء، كلّ ذلك يدور في مخيلتها. الأمّ تطلب منها أن تكفّ عن ذلك. إنها تستطيع أن تغيّر تلك الوجوه وفق مشيئتها، فهي أحياناً امرأة شقراء، وأحياناً أخرى سمراء - وتفضّل الرجال كذلك. وتمضي في هذه التخيلات، لأنها ترغب في أن يحبها الرجال. إنها كلّ شيء ما عدا أنها جميلة. إنها موهوبة - فمن الممتع الاستماع إليها، لكن ليس من الممتع النظر إليها. إنها بسيطة، وهذا ما تدأب أمّها على ترديده في أذنيها، لكي لا تدخل في روع الطفلة أنها جميلة. تهددها الأمّ بأكثر السبل وضاعة: السبيل الوحيد الذي يمكنها أن تفتن أحداً من خلاله هو معرفتها وقدرتها. الأمّ تهدد الطفلة بأنها ستقتلها إن هي رأتها مع رجل. تبقي الأمّ عينيها مفتوحتين، يقظتين. إنها تراقب، تدقّق، تطارد، تحسب، تستنتج، تعاقب.

ترتبط بواجباتها اليومية مثل مومياء مصرية، لكن لا أحد يستميت في النظر إليها. ولمدة ثلاث سنوات طويلة، كانت تتوق بإصرار شديد لشراء حذاء بكعب عالٍ. إنها لا تيأس ولا تنسى. إنها بحاجة إلى

الإصرار كي تحقق أمنيتها. وإلى أن تحقق أمنيتها وتشتري الحذاء، كان بوسعها أن تصبّ كلّ إصرارها على سوناتات باخ المنفردة، لأن الأمّ تتحايل عليها وتعدها بأن تجلب لها الحذاء إن هي أتقنت عزف باخ. لكنها لن تحصل على الحذاء أبداً. يمكنها أن تشتريه بنفسها ذات يوم عندما تكسب مالها بعرق جبينها. يتراءى الحذاء أمامها دائماً كطعم. وبهذه الطريقة، تستمر الأمّ في إغراء الطفلة بقطعة حلوى أخرى وأخرى. إن الأمّ تحبّ الطفلة أكثر مما تحبّ الطفلة الحذاء.

إنها أرفع مقاماً من الآخرين. أمّها تضعها في مستوى أعلى منهم. فهي تترك الآخرين وراءها أو أدنى منها إلى درجة كبيرة.

مع مرور السنين، تتبدّل رغباتها البريئة لتصبح طعماً مدمراً، رغبة في الإبادة. فإذا كان الآخرون يملكون شيئاً، فهي تريد أن تمتلكه أيضاً. وإذا لم تتمكن من الحصول عليه، فستحطمه. تبدأ تسرق أشياء. إذ بدأت أشياء عديدة تختفي من الأستوديو في الغرفة العليا، حيث تُعطى دروس الرسم: جيوش من الألوان المائية، وأقلام الرصاص، والفراشي والمساطر. كما كانت تختفي نظارات شمسية بلاستيكية ذات عدسات قزحية الألوان (اختراع أنيق!). وكان يعتريها خوف شديد إلى درجة أنها كانت ترمي غنائمها، التي لن تستفيد منها على الإطلاق، في أول صندوق للقمامة لكي لا تُكتشف بحوزتها. ولا تني الأمّ تبحث وتجد دائماً دليلاً على وجود قطعة من الشوكولاتة أو مخروط من الآيس كريم كانت قد اشترته خلسة، ووفّرت ثمنه سراً من ثمن تذكرة الترامواي.

وبدلاً من النظارات الشمسية، كانت تفضّل كثيراً رداء الفانيلا الرمادي الجديد الذي كانت ترتديه إحدى الفتيات. لكن يصعب سرقة الثياب التي يرتديها المرء طوال الوقت. وللتعويض عن ذلك، تتقصى

وتكتشف أن الطفلة جمعت ثمن الرداء من أساليب غير شريفة. لا تبرح صورة الفتاة التي ترتدي الرداء الرمادي مخيلتها لأيام عديدة. معهد الموسيقى، وحانة بريستول - مع رجل أعمال متوسط العمر - التي تقع في المنطقة ذاتها. وترد تقارير عن قيام تلك الفتاة، التي لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، بارتكاب جنحة (في القانون والنظام!). تشير لأمّها أي رداء تريد، وأين يمكنها أن تحصل على المال بنفسها. الكلمات تتدفق من بين شفتيها ببراءة طفولة مصطنعة، فتبتهج الأمّ بجهل الطفلة السعيدة وتثني عليها. وفي الحال تربط الأمّ المهمازات في حذائها، وترغي وتزبد، وترمي برأسها إلى الوراء، وتنطلق مباشرة إلى المدرسة لطرد الآثمة! وهكذا يغادر الرداء الرمادي هو والفتاة التي ترتديه. لقد ابتعدت الآن عن الأنظار، لكنها لم تخرج من العقل الذي لزمه منذ وقت طويل، محدثاً أخاديد وشقوقاً دامية. وهكذا تُعاقب صاحبة الرداء لتصبح عاملة مبيعات في مخزن لمستحضرات التجميل. يجب أن تعاني بقية حياتها وأن لا تستفيد من التعليم العام. فهي لن تصبح ما تتمنى أن تكون.

وفي الوقت نفسه، كوفئت هي لأنها أبلغت عن الفتاة الجانحة. سُمح لها أن تملأ حقيبة مدرسية من البقايا الجلدية الرخيصة. وهكذا تتأكد الأمّ من أنها تستفيد من أوقات فراغها، الذي لا تملك منه شيئاً. كانت تستغرق وقتاً طويلاً لكي تملأ الحقيبة المدرسية. أما الآن، فلم يعد أحد يدّعي أنها له. فهي الوحيدة التي تملك هذه الحقيبة الاستثنائية، وأصبح لديها الشجاعة كي تحملها إلى الخارج!

يثير رجال المستقبل وتلاميذ الموسيقى الذين تعزف معهم موسيقى الحجرة، وتضطر للعزف معهم في الأوركسترا، ألماً في داخلها، حنيناً، بدا أنه يخامرها دائماً. لذلك كان ينتابها إحساس بالفخر

والزهو، لكن ما سبب زهوها إلى هذه الدرجة؟ تناشدها الأمّ بأن لا تنسى شيئاً، لأنها لن تغفر لنفسها. إنها لا تستطيع أن تتغاضى عن أي خطأ مهما كان صغيراً، فهي تلسعها وتطعنها منذ أشهر طويلة. وكانت غالباً ما تفكر ملياً في ما يمكن أن تكون قد فعلته، لكن الأوان قد فات الآن! فالأوركسترا الصغيرة المنتظرة لا يعزف فيها إلا معلّم الكمان. إذ يجسد الكمان الأول سلطة مطلقة هنا. إنها تريد أن تقف إلى جانب الأقوياء، لكي يرفعوها معهم. إنها تقف دائماً إلى جانب الأقوياء، حتى منذ اللحظة الأولى التي رأت أمّها فيها. وكان الشابّ، الذي تتوجه إليه الكمانات الأخرى مثل دليل اتجاه الريح، يقرأ كتباً مهمة خلال فترات الاستراحة، تحضيراً لامتحان شهادته القادمة. وكان يردد أن الحياة سرعان ما ستصبح جدية بالنسبة له، وهو يعني بهذا أنه سيبدأ الإعداد لدخول الجامعة. إنه يضع خططاً ويتحدّث عنها بشجاعة. وكان أحياناً يحدّق فيها سارحاً وهو يكرر معادلة رياضية، أو ربما معادلة عالمية. لا يستطيع أن يلفت انتباهها لأنها لم تكف عن النظر إلى السقف. إنها لا ترى الشخص فيه، بل كلّ ما تراه هو الموسيقار. إنها لا تنظر إليه، ويدرك هو أنه لا يعني لها شيئاً. لكنها كانت من الداخل، تكاد تستجديه. إذ إن فتيلة عجيزتها أكثر لمعاناً وإشراقاً من ألف شمس، تركّز على الجرذ النتن الذي يُعرف بعضوها التناسلي. ففي ذات يوم، ولكي تجعل الشابّ ينظر إليها، تغلق غطاء صندوق الكمان الخشبي بقوة، تطبقه على يدها اليسرى، التي تحتاج إليها لتحريك أصابعها. الألم يجعلها تصرخ. لعله يرميها بنظرة. لربما تصرّف معها بشهامة. لكنه لا يفعل ذلك. إنه يريد أن يلتحق بالجيش، لينتهي من كلّ ذلك. إنه يريد أن يدرّس علوم الطبيعة، واللغة الألمانية، والموسيقى في إحدى المدارس الثانوية. ومن بين المواضيع الثلاثة، لم يكن يتقن إلا

الموسيقى. ولكي يدركها كامرأة ويسجلها في دفتر ملاحظاته العقلي «كأنثى»، تأخذ تعزف البيانو له وحده أثناء فترات الاستراحة. إنها ماهرة في العزف على لوحة المفاتيح، لكنه يحكم عليها مما تفعله في حياتها اليومية - خلوها من الرشاقة وتصرفاتها الخرقاء التي تحول دون دخولها إلى قلبه.

تحسم أمرها: فهي لا تثق بحافة وجودها العليا والنهائية، القطعة الأخيرة من ذاتها! وهي تريد أن تحافظ على كلّ شيء، وإن أمكنها، أن تضيف إليها. إنك ما تملك. إنها تكدّس جبالاً شديدة الوعورة، وقد شكّلت معرفتها وقدراتها قمّة رقيقة يغشاها الثلج. ولن يصل إلى القمة إلا المتزلّج الذي يتحلى بأكبر قدر من الشجاعة. إذ يمكن للشابّ أن ينزلق على منحدراتها في أي وقت، أن ينزلق عبر شقّ في الجليد، ويغوص في حفرة عميقة الأغوار. فقد كانت قد سلمت أحدهم المفتاح إلى قلبها الثمين، إلى عقلها الذي يشبه رقاقة الثلج المتلألئة، كي تتمكن من استعادة المفتاح في أي وقت.

تنتظر على أحرّ من الجمر أن ترتفع قيمتها في سوق بورصة الحياة كنجمة في المستقبل. تنتظر بصمت، وبصمت أشد وأشد، حتى يختارها أحد، وعندها ستختاره على الفور. لا بد أنه سيكون رجلاً استثنائياً، موسيقياً موهوباً، لكن ليس مغروراً. إلا أن هذا الرجل قد اختار للتو: إنه يريد أن يتخصّص في اللغة الإنكليزية أو الألمانية. إن كبرياءه مبرّرة.

في الخارج، ثمة شيء يلوح لها، لكنها تتعمد أن ترفض المشاركة، لذلك فهي تستطيع أن تفاخر بعدم مشاركتها. إنها ترغب في الحصول على أوسمة، نياشين تكمل عدم مشاركتها بنجاح، حتى لا تضطر لأن تُقاس، أو أن توزن. حيوان ذو شبكات مليئة بالثغور بين

مخالبه الغبية، يعوم بين الحين والآخر بشكل أخرق من خلال الإفرازات الأمومية الدافئة. يلوح رأسه قلقاً. وعند الشاطئ يختفي؟ يصعب عليه أن يشقّ طريقه إلى الشاطئ الذي يغشاه الضباب، تعود وتغوص عند السد الصقيل، الأملس.

إنها تتوق إلى رجل واسع الاطلاع، ويمكنه أن يعزف الكمان. تلك العنزة الجبلية، المستعدة دائماً للهرب، تتسلّق الجبل الوعر، لكنه لا يملك قوة ليلاحظ أنوثتها، المدفونة بين الحطام. إنه يرى أن المرأة امرأة. ثم يلقي نكتة خفيفة عن جنس الأنثى، الذي يُعرف بتقلبه باستمرار: يا للمرأة! وعندما يدعوها للعزف، ينظر إليها دون أن يدرك وجودها حقاً. إنه لا يقرّر شيئاً ضدها، بل يقرّر من دونها.

تقرّر ألا تدخل في حالة قد تبدو فيها ضعيفة، دون مستواها بكثير. ولذلك تمكث حيث هي. إنها تمرّ في المراحل المألوفة من التعلّم والطاعة فقط. إنها لا تبحث عن مجالات جديدة على الإطلاق. التروس تئنّ في المعصرة التي تعصر الدم وتقذفه إلى الخارج من تحت أظافرها. فالتعليم يتطلب منها أن تكون عاقلة: فقد قيل لها إنها لن تحرز شيئاً بدون معاناة. أمّها تطالبها بالطاعة. إذا جازفتِ، كان الهلاك نصيبك. هذه النصيحة تأتي من الأمّ أيضاً. وعندما تكون في البيت وحدها، تجرح نفسها، تقطع أنفها نكاية بوجوه الناس الآخرين. إنها دائماً تنتظر اللحظة التي يمكنها أن تجرح فيها نفسها دون أن يلاحظها أحد. فما إن تسمع صوت إغلاق الباب حتى تأخذ تعويذتها الصغيرة، الموسى المتعددة الأغراض. تخرج الموسى من معطفها الذي ترتديه يوم الأحد ذي الطبقات البلاستيكية العذرية الخمس. إنها تجيد استخدام الموسى. فألم تكن تحلق شعر أبيها، تحلق خدّ أبيها الناعم تحت حاجبه الفارغ تماماً، الذي لا تخفيه أية فكرة، لا تغضنه أية

رغبة. هذه الموسى تتجه نحو لحمها. هذا الشريط الفولاذي الرقيق المائل للزرقة، المرن، المطواع، الرائع. تجلس أمام الجانب المكبّر من مرآة الحلاقة. تباعد بين ساقيها. تحدث جرحاً، تضخم الفتحة التي هي المدخل إلى جسدها. إنها تعرف من التجربة أن هذا الجرح الذي تحدثه الموسى لا يؤلم، لأن ذراعيها ويديها وساقيها بمثابة حقل للتجارب في معظم الأحيان. إنها تريد أن تحدث جروحاً في جسدها.

ومثل التجويف في الفم، لا يمكن اعتبار هذه الفتحة جميلة جداً، لكنها ضرورية. إنها تقع تحت رحمتها الآن، وهذا أفضل من أن تكون تحت رحمة شخص آخر. إنها لا تزال في يدها، ولليد أحاسيس أيضاً. فهي تعرف تماماً كم مرة يجب أن تجرح نفسها ومدى عمق الجرح. تعلّق المرآة. يجب أن تنتهز الفرصة لتجرح نفسها. بسرعة، قبل أن يأتي أحد. وبمعلومات قليلة عن التشريح وبدرجة أقل من الحظّ، يلامس الفولاذ البارد جسدها، حيث تظن أنه يجب أن تكون هناك فتحة. الفتحة تفغر، والدم يتدفق. يفزعها هذا التغيير. لكن مشهد الدم ليس غير عادي بالنسبة لها. غير أن الوجود لا يجعل القلب أشد ولعاً. وكالعادة، لا يوجد ألم. لكنها تجرح في المكان الخاطئ، فاصلة ما جمعه الإله والأم الطبيعة في وحدة غير عادية. لا يجب على المرء أن يفصل، والثأر سريع. إنها لا تشعر بشيء. ولوهلة، يحدق نصفا اللحم، المقطوعين على حدة، أحدهما في الآخر، مندهشين بهذه الفجوة المفاجئة، التي لم تكن من قبل. لقد اشتركا في البهجة والحزن منذ سنوات عديدة، أما الآن فقد انفصلا! في المرآة، ينظر كلّ نصف إلى النصف الآخر أيضاً، معكوسين بشكل جانبي، إلى حد أن النصف لا يعرف أي نصف هو. ثم يتدفق الدم بقوة وإصرار. القطرات تنزّ، تجري، تختلط برفيقاتها، وتتحوّل إلى بقعة حمراء

صغيرة، ثم إلى جدول أحمر يجري بهدوء عندما تتحد القطرات بعضها مع بعض. الدم يمنعها من رؤية الجرح الفاغر. كان جسدها هي، لكنّه أصبح غريباً عنها الآن. إنها تدرك أن المرء لا يستطيع أن يتحكم بمسرب الجرح، بخلاف الثقب في الثوب، حيث يمكنك أن تمرر مكواة صغيرة على طول الخطوط المنقّطة أو غير المنقّطة والخطوط المتباعدة، لتسويته والتحكم به. بادئ ذي بدء، يجب أن توقف النزف. إنها خائفة. منطقتها السفلى وخوفها حليفان من حلفائها، يظهران عادة معاً. وإذا سقط أحد هذين الصديقين دون أن يسقط رأسها، يمكنها أن تطمئن عندئذ: فلن يكون الآخر بعيداً. يمكن أن تدقّق الأمّ إن كانت يداها موضوعتين خارج الأغطية في الليل، لكن إذا أرادت الأم أن تتحكم بخوفها، فيجب عليها أن تفتح جمجمة طفلتها وتزيل عنها الخوف.

ولكي توقف الدم المتدفق، تُخرج رزمة من ورق السليلوز الذي تعرف ميزاته وتقدّره كلّ امرأة، وخاصة اللاتي يمارسن ألعاباً رياضية وأيّ نوع من أنواع الحركة. وبسرعة تحل الرزمة محل التاج الذهبي المصنوع من الكرتون الذي تضعه الفتيات الصغيرات عندما يذهبن كأميرات إلى حفلة تنكرية للأطفال. لكنها، لم تذهب في حياتها إلى حفلة للأطفال، ولا تعرف ما هو التاج. وفجأة ينزلق تاج الملكة إلى سروالها الداخلي، وتتعرف المرأة على مكانها في الحياة. فالشيء الذي أشرق ذات مرة على الرأس في كبرياء طفولية، هبط الآن إلى حيث تنتظر غابة الأنثى الفأس. وقد كبرت الأميرة الآن، رغم أن هذه مسألة تختلف فيها الآراء. إذ يرغب رجل ما في قطعة أثاث مبهرجة، فيما يرغب رجل آخر في مجموعة كاملة من الأثاث المصنوع من خشب الجوز القوقازي الأصلي. في حين لا يريد رجل ثالث، للأسف، إلا

أن يكدّس أكواماً ضخمة من الحطب. ومع ذلك يمكنه أن يبرع هو أيضاً: فبإمكانه أن يرتّب أكوام الحطب بكفاءة ليوفّر حيزاً. وقد يكون أحد الأقبية ملائماً للوقود أكثر من القبو الذي يلقى فيه الحطب كيفما اتفق. إذ تدوم إحدى النارين فترة أطول من الأخرى، بسبب وجود كمية أكبر من الحطب.

* * *

خارج باب بنايتها تماماً، كان العالم الخارجي ينتظر إريكا ك. الذي أصرّ على مرافقتها. وكانت إريكا كلما دفعت العالم جانباً، أصبح أكثر دفعاً وإلحاحاً. عاصفة ربيعية هوجاء تدفعها بقوة. تندفع تحت تنورتها المتموجة، وبانكسار، تدعها تسقط. الهواء المشبع بدخان عوادم السيارات، صفقها، ولطمها، وخمش رئتيها. وراحت الأشياء تتساقط وترتطم على أحد الجدران.

أما في المحلات الصغيرة، فقد جفلت الأمهات العصريات، اللاتي كن يرتدين ثياباً ملوّنة ويمضين إلى عملهن بتجهم بادٍ، وكن ينحنين فوق إحدى السلع، من وراء جدار الريح. أما جماح الأطفال فكان يُكبح باستمرار، بينا تطبّق الشابات المعارف التي اطلعن عليها من مجلات الأطباق الشهية، فيختبرن الباذنجان البري وأطعمة غريبة أخرى. وكانت الأنواع الرديئة تجعل تلك النساء ينكمشن، كما لو أن ثعباناً يرفع رأسه القبيح من بين أكوام الكوسا. وفي هذا الوقت من النهار، لا ترى رجلاً سليماً في الشارع، فليس له عمل هنا. وأمام مداخل مخازنهم، كوّم بائعو الخضار الصناديق التي تعتبر مصدراً للفيتامينات الملوّنة في جميع مراحل التعفن والتفسخ. يا لها من ذوّاقة، تلك المرأة التي تنبش في هذه الأكوام. وتثبّت نفسها في وجه العاصفة.

إنها مفتش بغيض، تنقر كلّ شيء، تدقّق في طراوته وفي قساوته. وما يثير فزع الأمّ الشابة المتعلمة وجود آثار متبقية من ذخيرة مبيدات الحشرات على سطوح هذه الخضراوات. إذ يمكنك أن ترى على عنقود العنب ذاك، طبقة من الفطر الأخضر، الذي لعله كان ساماً. إذ كان قد رُشّ العنب بهمجية وهو لا يزال معلقاً في عريشته. تتجه إلى زوجة صاحب المخزن، التي ترتدي مئزراً أزرق داكناً، تريها الزبونة المشمئزة عنقود العنب كبرهان على غزو الكيمياء للطبيعة مرة أخرى، وعلى أن بذرة السرطان قد تكون قد زرعت في طفلة الأمّ الشابة. فقد أظهرت دراسة استطلاعية أجريت مؤخراً أن الناس يدركون بلا ريب أنه يتعين عليهم اختبار الأطعمة للتأكد من خلوها من المواد السامة. وفي الواقع، يعرف عدد كبير من الناس ذلك أكثر مما يعرفون اسم مستشار النمسا السامّ الطاعن في السن. وحتى ربّة البيت المتوسطة العمر فهي تحرص على معرفة نوعية التربة التي زرعت فيها البطاطا. أما هذه الزبونة، ولسوء الحظ، فهي معرضة لخطر أكبر بسبب عمرها. لكن الخطر الماثل ازداد بشدّة أكبر الآن. وأخيراً، تقرر شراء البرتقال، لأنه بوسعها أن تقشّره، وبذلك تقلل الضرر البيئي إلى درجة كبيرة. وكانت ربّة البيت تلك قد حاولت أن تلفت الانتباه إلى أنها تعرف عن السمّ، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً، لأن إريكا سارت من أمامها، متجاهلة إياها. كما أن زوج المرأة سيتجاهلها أيضاً في هذا المساء، وسيقرأ اليوم صحيفة الغد، التي ابتاعها وهو في طريق عودته إلى البيت، لذلك فقد يتجاوز عصره. كما أن أطفالهما لن يقدّروا طعام الغداء الذي أُعد بحبّ ومودّة: فقد كبروا الآن وأصبحوا لا يقيمون في البيت. فقد تزوّجوا منذ عهد بعيد وبدأوا الآن يشترون خضراواتهم المصابة بالسموم بأنفسهم. وسيقفون ذات يوم أمام قبر هذه المرأة، ويبكون بحرقة، ثم سيطالهم

الزمن هم كذلك. ولم يعد عليهم أن يقلقوا على أمّهم، إذ بدأ أطفالهم يقلقون عليهم الآن.

هكذا كانت إريكا تفكر.

وفي طريقها إلى المدرسة، كانت إريكا ترى رغماً عنها الناس والطعام يموتون في كل مكان. وكانت نادراً ما ترى شيئاً ينمو ويزدهر - على الأغلب في حديقة دار البلدية أو في فولكسجارتين، الحديقة الشاسعة حيث تتفتح الورود وتزهر الزنابق. لكن بهجة هذه الأزهار ليست في أوانها، لأنها تتضمن زمن الذبول فيها. هكذا كانت إريكا تفكر، وكلّ شيء يؤكّد ذلك. وتقرّ أن الفنّ وحده هو الذي يمكن أن يعيش فترة أطول. فقد زرعت إريكا الفن، وقلّمته، وشذبته، وأزالت عنه الأعشاب الضارة، ثم حصدته. لكن من يمكنه أن يعرف كم عدد الأشياء التي أدينت وقُتلت بدون مبرر. ففي كلّ يوم، تموت معزوفة موسيقية، قصة قصيرة، أو قصيدة، لأن وجودها لم يعد مبرراً في زمننا. وهلكت كذلك الأشياء التي كانت تعتبر ذات يوم خالدة، ولم يعد أحد يعرف بها. مع أنها تستحقّ أن تبقى. إذ يأخذ الأطفال الذين يتعلمون البيانو في صف إريكا يعزفون موزارت وهايدن. أما التلاميذ الذين يتقدمونهم، فهم يعزفون برامز وشومان بدون إحساس، ويغطّون تربة غابة أدب البيانو بأوحالهم المليئة بالدود البزّاق.

تشقّ إريكا ك. طريقها بتصميم وعزم وسط العاصفة الربيعية، آملة أن تصل بخير وسلام إلى الطرف الآخر. فقد كان يتعين عليها أن تعبر هذه الساحة المفتوحة أمام دار البلدية. وكان ثمة كلب يقف بجانبها يتحسّس أول نفس من أنفاس الربيع. إن إريكا تمقت كلّ شيء يمتّ بصلة إلى الأجساد والحيوانات، التي تعتبرها عوائق مستمرة في طريقها المستقيم والضيّق. فقد لا تكون معوقة مثل كسيح، لكن حريتها في

الحركة محدودة. وكما ترى، فإن أكثر الناس يتحرّكون بعطف ومحبة نحو شخص آخر، شريك، أو صديق. وهذا كلّ ما يصبون إليه. فإذا أمسكت إحدى الزميلات ذراع إريكا في المعهد الموسيقي، نفرت إريكا وجفلت من صلفها في الحال. إذ لا يسمح لأحد أن يلمس إريكا. ولا يسمح إلا للفن من وزن الريشة أن يجثم فوق إريكا، لكنه معرض دائماً لخطر أن يطير من أقل نسمة هواء ويحط في مكان آخر. تضغط إريكا بذراعها بقوة على أضلاعها، حتى تتراجع ذراع زميلتها، التي لا تستطيع أن تقحم نفسها بين إريكا وذراع إريكا، فتعود إلى مكانها محبطة. ومثل هؤلاء الأشخاص يدعون عادة «الأشخاص الذين لا يمكن التواصل معهم». فلا يقترب منها أحد. يلف الناس ويدورون. إنهم يفضّلون الانتظار، يتحمّلون المماطلة، ما دامت لا توجد ثمة ضرورة للقيام بأيّ محاولة للتواصل مع إريكا. وفي حين يجذب بعض الناس الاهتمام إليهم على نحو صاخب، فإن إريكا ليست من هذا النوع. بعض الناس يلوحون، أما إريكا فلا تفعل ذلك. إنها تتخذ جميع الأنواع والأشكال. بعض الناس يتقافزون، يغنّون، يصرخون. هؤلاء الناس يعرفون ماذا يريدون، أما إريكا فلا تعرف ما تريد.

تقترب منها طالبتان أو متدربتان، تضحكان بصوت عال، تتشابك أيديهما، تلصقان رأسيهما معاً كحبتَي خرز بلاستيكيتين. تتعلقان ببعضهما، كتفاحتين. وسينفضّ التقاؤهما ما إن يقترب أحد صديقَي الفتاتين. ستبتعد إحداهما على الفور وتتوقف عن عناق الأخرى بشكل ودّي ودافئ، وتسدد مصّاصها نحو الشاب وتغرسه تحت جلده كالألغام المضادة للدبابات. وبعد ذلك، سينفجر الغضب بقوة، وستغادر الزوجة زوجها كي تطوّر موهبة مدفونة في أرض بور.

وقلما استطاع الناس عمل ذلك وحدهم، بل يجب عليهم أن

يتحرّكوا كمجموعات، كما لو أن كلّ شخص لم يكن يشكل عرقاً أو سلالة بحد ذاته على سطح الأرض. هذه هي أفكار إريكا، الوحيدة، المنعزلة. دودة البزّاق الليلية، اللافقرية، الطائشة، التي لا شكل لها ولا قوام! لم يمسها أو يغمرها أيّ سحر، أو تعويذة الموسيقى. أحدهما يتمسّك بالآخر بواسطة جلديهما، اللذين لم تجعلهما أي هبّة من الهواء يتطايران.

تنفض إريكا الغبار عنها بضربات خفيفة، ثم تمرر يديها فوق تنورتها وسترتها. كان الجو العاصف قد جعل ذرات من الغبار تتغلغل في طيات ثيابها. تتحاشى إريكا المارة قبل أن يقتربوا منها ويصبحوا ضمن مدى بصرها.

كان يوماً ربيعياً متقلباً سيئاً، عندما قامت السيدتان كوهوت بتسليم الأب المعتوه المشوّش عقله تماماً إلى المصحّة في جنوب النمسا. كان ذلك قبل أن يرحب به مستشفى المجانين العام أم شتاينهوف (المعروف على نطاق واسع في الأغاني الشعبية المتجهّمة) ويدعوه للبقاء فيه، بقدر ما يشاء! من بوسعه أن يطلب أكثر من ذلك!

أما بائع المقانق الذي تشتري منه العائلة، الجزّار العصامي المشهور، فقد تبرع بأن ينقل المريض في شاحنته الرمادية من طراز دبليو (التي تحتوي عادة على أنصاف جثث العجول المعلقة). ومضى الأب في طريقه عبر المشاهد الطبيعية الربيعية، يتنشق الهواء النقي. كانت ترافقه أمتعته، التي كتب على كلّ قطعة منها الحرف الأول من اسمه بمهارة، وطرّز على كلّ جورب من جواربه حرف ك. وهو عمل يدوي مضن لم يستطع أن يبدي إعجابه به منذ فترة طويلة، بل حتى لم يتمكن من إبداء تقديرهُ له، رغم استفادته البالغة من هذه المهارة اليدوية. إذ إن هذه الأحرف الأولى ستحول دون قيام السيد نوفومي أو

السيد فيتفار المعتوهين أيضاً، من العبث بجوارب الأب، حتى ولو عن حسن نية. إذ ستكون الأحرف الأولى من أسمائهم مختلفة - لكن ماذا عن السيد كيلير الخرف ذاك، الذي لا يفارق سريره؟ حسناً، فقد كان يقيم في غرفة أخرى، كما علمت إريكا وأمّها بسرور.

انطلقوا. سيصلون إلى هناك قريباً. سيصلون في أية لحظة! وكانوا قد اجتازوا بالسيارة رودولفشو وفيويرشتاين، ثم بحيرة غابة فيينا وجبل كيسيربرانين، ثم جبل غوتشغرابن وجبل كوهلريت، الذي اعتادتا أن تتسلقاه مع الأب في الماضي وهو شيء لم يكن جيداً. وكانوا على وشك أن يجتازوا جبل بوتش بعد أن ينعطفوا أول انعطافة. من المؤكد أن سنو وايت نفسها كانت تنتظر وراء الجبال، بعظمة مرهفة، تضحك بسعادة لأن شخصاً جديداً قد دخل مجالها - بيت ضخم بطابقين تملكه عائلة ريفية تتجنب دفع ضريبة الدخل. هذا القصر الذي أعيد تصميمه وتخصيصه لغرض إنساني نبيل وهو إيواء البشر المعتلين عقلياً والمقتدرين مالياً. وبهذه الطريقة، لم تكن تقوم على خدمة المبنى عائلتان، بل الكثير والكثير من المرضى، الذي يوفر لهم ملاذاً وحماية من أنفسهم ومن الآخرين. وكان بوسع النزلاء الاختيار بين التريض سيراً على الأقدام أو مزاولة حرفة ما. وكان يتم الإشراف على كلا الخيارين. وكانت توجد في الورشة قطع من الخردة المؤذية. أما في التريض، فكانت هناك أخطار، (الهرب، التعرض للإصابات، التعرض لعضات الحيوانات ولسعات الحشرات)، بالإضافة إلى هواء الريف النقي الذي كان يقدم مجاناً. إذ كان بوسع أي شخص منهم أن يتنشقه، بقدر ما يشاء وما يحتاج. وكان كلّ نزيل يدفع مبلغاً كبيراً من المال بواسطة وليّ أمره القانوني، لكي يُقبل في هذا النزل. ولكي يظل مقبولاً، كان يتعين عليه دفع مبالغ إضافية عديدة، وهذا يتوقف على

خطورة الحالة، وعدم نظافة المريض. وكانت النساء يقمن في الطابق الثالث، وفي الغرفة العليا، أما الرجال فكانوا يقيمون في الطابق الثاني وفي الجناح الجانبي، الذي تخلى عن هويته السابقة رسمياً كمرآب إضافي، لأنه تحوّل إلى كوخ صغير حقيقي، فيه ماء جار بارد وسقف يرشح منه الماء. ولم يكن يتوقع أن تصاب سيارات المصحّة بالصدأ، لذلك كانت تُركن في الخارج. أما في المطبخ، فكان ثمة أحد يجلس ويقرأ تحت ضوء مصباح كاشف. وكان المرآب السابق قد بني ليتسع لسيارة أوبل كاديت، أما سيارة أوبل كومودور فكانت تكاد تحشر حشراً في الباب، ولا تستطيع أن تتقدم أو ترجع إلى الوراء. وكانت المنطقة محاطة بسياج من الأسلاك المتينة على مد البصر. ومع ذلك، فلم يكن بإمكان العائلة أن تعيد مريضاً بعد أن تتجشم كلّ هذا العناء لتحضره إلى هذا المكان، وبعد أن تدفع هذا المبلغ الضخم من المال لتحظى بهذا الامتياز. أما القائمون على هذا النزل، فقد حققوا أرباحاً كبيرة من نزلائهم واشتروا شاليه لكي لا يصابوا بالبله هم أيضاً. وربما أقاموا هناك وحدهم لكي يبرأوا من جميع أعمالهم الخيرية.

يصاب الأب بالعمى، لكنه يقع بين أيدي أمينة، ونقل إلى بيته المستقبلي بعد أن غادر بيته الوراثي. وكانت قد خُصّصت له غرفة جميلة. إنها بانتظاره. وثمة شخص آخر يجب أن يموت موتاً بطيئاً قبل قبول مريض جديد، الذي سيفسح المجال يوماً لمريض آخر. فالمختلون عقلياً بحاجة إلى مكان أكبر مما يحتاج إليه الابن العادي، ولا يمكن تأجيل ذلك بأي عذر كان. فهم بحاجة على الأقل إلى فضاء بحجم كلب راعٍ متوسط الحجم ليركضوا حوله. والنزل يعلن: المكان ممتلئ دائماً عن بكرة أبيه، ومع ذلك فبإمكاننا أن نزيد عدد الأسرّة! إلا أن النزيل الفرد، الذي يجب أن يظل عادة مستلقياً، لأنه بهذه الطريقة

يوسّخ بقدر أقل، ويُخزّن بطريقة تسمح بإتاحة حيز آخر. ولسوء الحظ، لا يستطيع النزل أن يضاعف أجوره فجأة، وإلا لفعل ذلك. فأي شخص ملقى هنا يبقى هنا - ويدفع ثمناً باهظاً، كي يربح القائمون على النزل. وأي شخص ملقى هنا يبقى هنا، لأن هذا ما تريده أسرته. وإذا حدث الأسوأ، إذ يمكن أن تسوء حالته، فينتهي به الأمر في مستشفى للمجانين!

الغرفة مقسمة بعناية إلى أسرّة مفردة، ولكلّ نزيل سريره الصغير الخاصّ، هذه الأسرّة الصغيرة صغيرة، لكي يمكن حشر أكبر عدد ممكن من الأسرّة. وبين الأسرّة، تبقى مسافة خالية تتسع لقدم واحدة، كي يتمكن النزيل، إذا دعت الضرورة، من النهوض والتغوط، وهو شيء لا يستطيع أن يفعله في سريره، وإلا لاحتاج إلى عناية مركّزة. وهذا سيكلّف أكثر مما يساوي وجوده في الحياة، وسيُنقل إلى مكان أكثر شناعة. وفي معظم الأحيان، يكون لدى المرء سبب جيد لأن يسأل من كان يستلقي في سريره، من أكل من صحنه، أو عبث في خزانته. هؤلاء الأقزام! وعندما يرن الجرس معلناً موعد طعام الغداء (الذي كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر)، يشكّل الأقزام مجموعات غير منتظمة ويهرعون ويتدافعون نحو غرفة الطعام، حيث تنتظرهم سنو وايت برقة. إنها تحبهم جميعهم دون استثناء، وتعانقهم واحداً واحداً - هذه الأنوثة المنسية منذ زمن بعيد، ذات البشرة البيضاء كالثلج، والشعر الأسود كالأبنوس. إلا أنه لا توجد هنا سوى طاولة طعام ضخمة، مكسوة بغطاء بلاستيكي لا يتشرب المواد الحمضية، وقابل للغسيل، لأن هذه الخنازير لا تعرف كيف تتصرّف أثناء تناول الطعام. والصحون مصنوعة من البلاستيك لكي لا يضرب أيّ أبله منهم نفسه به، أو يضرب به أي شخص آخر، كما لا توجد سكاكين أو شوكات، بل

ملاعق فقط، ألا تعرف ذلك. وإذا قُدِّم لهم اللحم، الذي لا يُقدَّم لهم على الإطلاق، فكان يُقطَّع إلى قطع صغيرة سلفاً. كانوا يتدافعون ويرتمون بلحمهم بعضهم فوق بعض، يقرص بعضهم بعضاً، يضغطون، ويتزاحمون، دفاعاً عن أماكنهم القزمية الصغيرة جداً.

لا يفهم الأب سبب وجوده هنا، لأنه لم يشعر بالراحة قط كما كان يشعر بها في بيته. فالكثير من الأشياء ممنوعة ومحرّمة هنا. وكلّ شئ يفعله خطأ، لكنه كان معتاداً على ذلك مع زوجته. فلا يتعين عليه أن يلمس بيده شيئاً أو حتى يحركه من مكانه، ولكي يقضي على قلقه واضطرابه كان يطلب منه أن يلبث مستلقياً. وكان يتعين عليه ألا يوسّخ أو يلمس أياً من ممتلكات المصحّة. فمن الضروري عدم الخلط بين الخارج والداخل، وكلّ شيء يجب أن يبقى في مكانه. وإذ أراد أن يبدل ثيابه أو يرتدي شيئاً آخر عند الخروج، يكون الرجل القابع في السرير المجاور قد سرقها ليجهض خطط الأب في مهدها. ورغم ذلك، لم يكن الأب يتوقف عن محاولة التملص ما إن يضعوه في السرير، لكنهم كانوا يحكمون وثاقه ويثبتونه على السرير ويرغمونه على المكوث فيه. كيف كان بوسع العائلة أن تتخلص من مثير المتاعب هذا الذي لا يني يقلق راحتها إلا بهذه الطريقة. وكيف يمكن للقائمين على المصحة أن يستولوا على ماله بغير هذه الطريقة؟ فالعائلة تريد غيابه، والآخرون يرغبون في وجوده. أحدهم يرتزق من قدومه، والآخر يعيش من فراقه وعدم عودته إلى البيت أبداً.

تشرفنا بمعرفتك. ولكن لكل شيء جميل نهاية. فعندما كانت السيدتان تأتيان لزيارته، كان يفترض بالأب الذي يساعده في السير مساعد غير متطوع يرتدي جلباباً أبيض، أن يلوّح لهم. لكنه بدلاً من أن يلوّح لهما بيده، كان يحدّق فيهما ويتوسل إلى الرجل ألا يضربه. وهذا

يلقي ضوءاً قاسياً على الأثر الذي غادر العائلة، لأن الأب لم يضرب أحداً قط في حياته، بالتأكيد لا. فكيف يمكنه أن يقول شيئاً كهذا؟ هذا السؤال موجه إلى الهواء النقي الساكن. لكن الهواء لا يجيب. تاجر المقانق يقود سيارته بسرعة أكبر. فقد أحس بالراحة لأنه تخلص من شخص خطير. واليوم يوم الأحد، ويريد أن يصطحب أولاده إلى ملعب كرة القدم.

إنه يوم استراحته. ينتقي كلماته بعناية، ويحاول أن يواسي السيدتين. يعزّيهما، مختاراً كلماته بعناية. رجال الأعمال يعرفون جيداً كيف يختارون كلماتهم. الجزّار يتكلّم كما لو كان يناقش الفرق بين شريحة من الصدر وشريحة من الردف. كان يستخدم رطانته الجزّارية، مع أن اليوم كان يوم أحد، يوم لغة التسلية والترفيه. ومع أن المحل مغلق، لكن الجزّار الجيد لا يتوقف عن العمل أبداً. السيدتان كوهوت تتقيّآن سيلاً من الأحشاء . ويجد الخبير أن هذه الأحشاء مناسبة تماماً، في أحسن الأحوال، لغذاء قطة. السيدتان تثرثران: إنه لعمل مؤسف، لكنه ضروري - وفي الحقيقة فقد جاء متأخراً جداً! فقد كان من الصعب عليهما أن تتخذا قرارهما أخيراً! إنهما تبالغان في الأمر. وكان مورّدو اللحوم عادة ما يتنافسون في تخفيض أسعارهم. أما هذا الجزّار فأسعاره ثابتة لا تتغير، وهو يعرف قيمة بضاعته. فذيل الثور يكلّف كذا، ولحم الخنزير كذا، وثمن شرائح الستيك أغلى. ويمكن للسيدتين أن تقللا من تدفقهما. ويجب أن تكونا أكثر كرماً عندما تشتريان المقانق واللحوم المدخّنة، فهما مدينتان الآن للجزّار، الذي لا يوصل أحداً في يوم الأحد بدون مقابل. الموت فقط هو المجّاني، بل وحتى الموت يكلفك حياتك. ولكلّ شيء نهاية، أما المقانق فلها نهايتان، كما يبيّن التاجر الذي قدم لهما يد المساعدة، ويطلق ضحكة مجلجلة. وتوافق

السيدتان ك. بشيء من الحزن لأنهما فقدتا أحد أفراد أسرتهما، لكنهما تعرفان مكانتيهما كزبونتين منذ سنوات عديدة. ويتشجع الجزّار، الذي يعتبرهما زبونتين هامتين، ويقول: «إنك لا تستطيعين أن تلدي حيواناً، لكن يمكنك أن تعجلي في موته». لقد أصبح الآن في غاية الجدية، هذا الرجل ذو المهنة الدموية. وتوافق السيدتان ك. على جملته الأخيرة أيضاً. لكنه يجب أن يبقي عينيه على الطريق، وإلا فإن ما قاله سيكون صحيحاً قبل أن تدركا ما سيحدث. فالشوارع تعجّ بسائقين لا يتمتعون بالخبرة في عطلة نهاية الأسبوع. ويجيب الجزّار أن القيادة أصبحت طبيعة مكتسبة لديه، وهي تسري في عروقه. ولم تجد السيدتان ك. ما تردان عليه إلا بلحمهما ودمهما، وهما لا تريدان أن تفقدا أياً منها. فقد وضعتا قطعة من لحمهما ودمهما الغالي في مأوى مكتظ جداً، أنفقتا من أجله مالاً كثيراً. ويجب ألا يظن الجزّار أن ذلك كان أمراً سهلاً بالنسبة لهما. فقد ذهبت منهما قطعة وبقيت في البيت. أيّ قطعة، يسأل الجزّار.

بعد قليل تدخل السيدتان إلى شقّتهما الخاوية. إذ يصبح لهما في هذا الكهف الذي ينغلق ليحميهما، مجال أكبر الآن لممارسة هواياتهما. فالشقّة لا ترحب بأيّ شخص، إلا بالأشخاص الذين ينتمون إلى هذا المكان!

موجة غضب جديدة - إذ ترتفع يد ناعمة ضخمة لعملاق - وتندفع الآنسة كوهوت أمام نافذة عرض محل لبيع النظارات، مليئة بنظارات متلألئة. نظارات ضخمة فيها عدسات بنفسجية معلقة في أرجاء المحل، ترتعش تحت لسعات الرياح، وهو شيء خطر على عابري السبيل. ثم يسكن الهواء فجأة، كما لو كان يمسك أنفاسه. وفي هذه اللحظة بالذات، لا بد أن تكون الأمّ تبحث عن شيء في المطبخ، تقلي

شيئاً بالدهن لتناوله في المساء، يُقدم بارداً. ثم سيكون بانتظارها قليل من أعمال التطريز، مفرش أبيض مزركش.

وتكسو السماء غيوم ذات خطوط وردية قاسية، يبدو أنها لا تعرف إلى أين تتجه، لذلك فقد كانت تتسابق، فالآن هنا، والآن هناك. وكانت إريكا تعرف دوماً قبل عدة أيام ما ينتظرها بعد عدة أيام، فهي ستقدم فناً في المعهد الموسيقي. وإذا لم تقدم هذا الفن، فستعمل شيئاً آخر بالموسيقى، مصاص الدماء تلك، التي تقدمها إريكا في حالات وظروف مختلفة: معلّبة أو مشوية حديثاً، كالعصيدة أو كوجبة مفضلة لذيذة، فهي وحدها المسؤولة عن الآخرين.

وعلى مسافة ليست ببعيدة عن المعهد الموسيقي، تبدأ إريكا تتقصى وتشمشم، كعادتها. كلب صيد خبير، تلتقط الرائحة. هل ستعثر على تلميذ لم يؤد واجبه المنزلي، ولديه الكثير من الوقت، ويعيش حياته الخاصة؟ إريكا تريد أن تدخل، تريد أن تلج هذه المجالات الواسعة، التي، رغم أنها لا تقع ضمن مجال إشرافها، تقوم بتوسيعها وتقسيمها إلى إقطاعات صغيرة. جبال دامية، مروج الحياة، التي يجب أن تصك أسنانها من أجلها. ويحق للمعلّمة أن تفعل ذلك، لأن المعلّمة تعمل بالنيابة عن الآباء. يتعين عليها أن تعرف ماذا يجري في الحياة الأخرى. فما إن يغيب طالب عن أنظارها، ويلقي بنفسه في حاوية فترة استراحته المتنقلة، حيث يخيّل إليه أن أحداً لا يراقبه، حتى تكون الآنسة ك. له بالمرصاد، ترتعش، وتكون مستعدة لمشاركته سرّاً، دون أن يُسأل: تقفز حول الزوايا، تظهر بشكل مفاجئ بين الممرات، تبرز في المصاعد - تتمتع بطاقة جنّي خارج من القنينة. لتوسّع ذوقها الموسيقي وترغم طلابها عليه، وتحضر حفلات موسيقية أحياناً، تقارن بين عازف وآخر، تبيد الطلاب بمقاييسها، التي لا يمكن إلا لكبار

الموسيقيين أن يقيسوا بها. تلاحقهم، دائماً خارج مدى بصر الطلاب، لكن دائماً ضمن مدى بصرها. تراقب نفسها في واجهات العرض. ويقول معظم الناس إنها دقيقة الملاحظة، لكن إريكا نفسها ليست معظم الناس. بل هي واحدة من أولئك الناس الذين يقودون معظم الناس ويوجّهونهم. تُمتصّ إلى داخل فراغ القصور الذاتي المطلق لجسدها، وما إن تُفتح القنينة حتى تنطلق إلى الخارج، وتُلقى في مكان غريب منتقى أو في مكان غير متوقع. لا يمكن لأحد أن يثبت أنها تتعمد التجسّس على الآخرين. ومع ذلك، يبدو أن الشكوك تبدأ تحوم حولها في مختلف الأماكن. إنها تظهر فجأة في الوقت الذي لا يريد فيه المرء أن يكون لديه شهود. فكلّ تصفيفة شعر جديدة لأي طالبة تسفر عن ثلاثين دقيقة من الجدال العنيف في البيت. إذ تتّهم إريكا أمّها بأنها تحرص دائماً على أن تبقيها حبيسة في البيت عن سوء نية، كي لا تذهب إلى أي مكان وتقابل أحداً. ومع ذلك، فقد كبرت على عمل تصفيفة شعر جديدة. أما الأمّ، التي لا تجرؤ على أن تفعل ما تودّ أن تفعله، فتتشبث بإريكا بطريق العدوى، مثل نبات شوكي متطفل أو علقة. إن الأمّ تمتصّ النخاع من عظام إريكا. فما تعرفه إريكا نتيجة مراقباتها السرية، تعرفه الأمّ، وليست إريكا في الواقع عبقرية - ولا أحد يعرف ذلك أفضل من أمّها، التي تعرف الطفلة معرفة تامة. ابحث وستجد الأشياء البغيضة التي تتمنّى هي أن تجدها سرّاً.

وتكتشف إريكا خارج مسرح سينما مترو كنوزاً مخفية على مدى ثلاثة أيام ربيعية بهيجة، منذ أن غيّروا البرنامج. وبما أن الطالب مهووس بنفسه وبمجونه العقلي، فهو يخفي الشكوك التي تدور حوله منذ فترة طويلة. أحاسيسه مركّزة على نقاط مركزية جديدة: لقطات من فيلم. إذ تقوم دار السينما بعرض فيلم خلاعي خفيف، رغم مرور

الأطفال من أمام الدار وهم في طريقهم إلى المعهد الموسيقي. يقف أحد الطلاب أمام دار السينما يدرس بتمعن كل وضعية مبينة في الصور. وطالب ثان يبدي اهتماماً أكبر بجمال النساء، في حين يتوق طالب ثالث بعناد إلى رؤية ما لا يرى: ما يوجد داخل جسد الأنثى. شابان من شباب المستقبل منهمكان في جدال مثمر عن حجم صدر الأنثى. ثم فجأة، تلقيها العاصفة، وتنفجر معلّمة البيانو في وسطهما مثل قنبلة يدوية. وارتسمت على وجهها قسمات تأديبية هادئة، نظرات مشفقة بعض الشيء. ولا يمكن للمرء أن يصدّق أنها هي والنساء في الصور ينتمين إلى الجنس نفسه، أي الجنس الجميل. بل في الواقع، يمكن لشخص أقل حنكة أن يخلص، من مظهرها الخارجي فقط، إلى أن معلّمة البيانو تنتمي إلى فئة ثانوية مختلفة تماماً عن النوع البشري. لكن الصورة لا تظهر الحياة الداخلية، لذلك فإن أيّ مقارنة لن تكون عادلة للآنسة كوهوت، التي أخذت حياتها الداخلية تتفتح في الظل. وتواصل سيرها دون أن تنبس بكلمة. ليس ثمة تبادل في أية أفكار، لكن الطالب يعرف أنه لم يعزف جيداً لأن عقله كان مركزاً على شيء غير البيانو.

وفي الواجهات الزجاجية، ترى رجالاً ونساء منكبّين على عملهم من دون توقف، معلّقين بالشهوة الأبدية - رقصة باليه شاقة. عملهم يجعلهم يتصببون عرقاً. الرجل منهمك في العمل في أجزاء مختلفة من لحم المرأة، ويمكنه أن يعرض ثمرة عمله على الملأ: عندما يقذف عصيره ويسقط فوق جسدها. أما في الحياة الواقعية، فيتعين على الرجل عادة أن يقوم بإعالة المرأة ويوفر لها الطعام، ويُقيَّم حسب قدرته على القيام بذلك. وهنا أيضاً، فهو يوفر للمرأة طعاماً ساخناً، طهته أحشاؤه في موقده الأمامي. والمرأة تتأوه مجازياً، لكن يكاد المرء أن يسمع الصراخ. فهي تتمتع بهذا العطاء. إنها تشعر بالسعادة تجاه

المانح، ولا تتوقف صيحاتها. وبالطبع فإن الصور صامتة، لكن الموسيقى التصويرية تنتظر داخل المسرح، حيث ستصرخ المرأة تعبيراً عن امتنانها لجهد الرجل في اللحظة التي يشتري فيها رواد السينما تذاكرهم.

يسير الطالب الذي قُبض عليه متلبساً في غفلة منه، وراء الأستاذة كوهوت، محافظاً على مسافة بينهما. يوبّخ نفسه لأنه جرح كبرياءها الأنثوية بتحديقه في صور النساء العاريات. لعلها تعتبر نفسها امرأة، ويبدو أنها جُرحت جرحاً قاتلاً. في المرة التالية، يجب أن تدقّ ساعته الداخلية بصوت عالٍ عندما تتسلل المعلّمة وراءه خلسة. وخلال درس البيانو، تتعمد المعلّمة أن تتحاشى النظر إلى الطالب، ذلك المصاب بداء جذام الشبق. وما إن يصلوا إلى معزوفة باخ، بعد تمارين الأصابع والسلم الموسيقي مباشرة، يطغى على الطالب شعور بعدم الأمان الذي يخيم على المكان. وهذا القوام الموسيقي المعقّد لا يمكن أن يتحمّل إلا يد عازف بيانو بارع، يبطئ الحركة برفق. فقد شوهت الترنيمة الرئيسية، وأضحت الأصوات الأخرى مزعجة إلى درجة كبيرة، وكان بوسعك أن تطلق على المعزوفة كلها أيّ شيء سوى أنها شفّافة. نافذة سيارة ملطّخة بالزيت. إريكا تسخر من طالب باخ. إنه جدول مليء بالوحل، يتعثّر في عقبات عديدة كالصخور والتلال الصغيرة، على طول قعره القذر. إريكا توضّح الآن عمل باخ بمزيد من التفصيل. شغفها ضخم كالعملاق. إنه كذلك خندق معد جيداً للآلات ذات لوحات المفاتيح. وبغية إذلال الطالب، تمتدح إريكا عمل باخ كثيراً. وتزعم أنه عندما تُعزف موسيقاه فإن باخ يعيد تشييد الكاتدرائيات القوطية. تشعر إريكا بوخز خفيف بينْ ساقيها، وخز لا يشعر به أحد سوى الذين يختارهم الفنّ ويعيشون من أجل الفنّ، عندما يتحدثون عن الفنّ.

وتتعمد أن تكذب وتقول إن رغبة فاوست وتوقه إلى الله أدى إلى تشييد كاتدرائية ستراسبورغ والجوقة الاستهلالية لكنيسة سانت موهيو باخن. ثم تخاطب طالبها قائلة: إن الموسيقى التي كان يعزفها لم تكن موسيقى الكاتدرائية تماماً. ولا تتمالك إريكا نفسها فتشير إلى أن الله خلق المرأة أيضاً، وتضيف الدعابة الذكورية القديمة بأن الله خلقها لأنه لم يكن عنده شيء أفضل يفعله. لكنها تناقض هذه الدعابة الصغيرة بسؤالها الطالب بكلّ جدية إن كان يعرف كيف يجب على المرء أن ينظر إلى صورة المرأة. بكل الاحترام، لأن أمّه التي حملته وولدته، كانت امرأة، كذلك، لا أقل ولا أكثر. ولا يني الطالب يعد أستاذته بتنفيذ كلّ ما تطلبه منه. وتردّ إريكا على هذا الجميل بأن توضح له أن إجادة عزف باخ يعد انتصاراً للمهنة في أشكالها وتقنياتها المتخصصة الشديدة التنوع. إريكا تعرف كلّ شيء عن المهنة: ولو اعتمدت على الممارسة فقط، لفازت بالنقاط أو حتى بالضربة القاضية! لكنها تنتصر، لأن باخ بالإضافة إلى ذلك، التزام بالله، حتى أن المجلد الأول من آخر طبعة من موسوعة الموسيقى، يتفوق على إريكا بالنعيق بأنّ أعمال باخ هي التزام للرجل في أوروبا الشمالية الذي يناضل للحصول على بركة الله.

ويصمم الطالب بعزم أنه لن يدع نفسه يُضبط ثانية وهو يقف أمام صورة امرأة عارية. تختلج أصابع إريكا مثل مخالب صقر مدرّب جيداً. فعندما تقوم بتعليم الطلاب، فإنها تحطم الإرادة تلو الأخرى. لكنها في أعماقها، تحسّ برغبة جامحة في أن تطيع. ولهذا السبب توجد أمّها في البيت. لكن المرأة العجوز لا تزال تتقدم في العمر. فماذا سيحدث عندما تتهاوى وتصبح مخلوقاً كئيباً يحتاج إلى رعاية، عندما يجب أن تطيع إريكا؟ غير أن إريكا تضعف أمام المهام الصعبة، التي تقوم بها بعد ذلك على نحو أخرق. يجب أن تُعاقب على ذلك. إن هذا

الشاب، الذي يغطيه دمه، ليس منافساً جديراً. لماذا، لأنه هُزم أمام موسيقى باخ الإعجازية. تصوّر هزيمته عندما يتعين عليه أن يؤدي دور كائن بشري! فلن يمتلك الشجاعة حتى لأن يعزف، فهو يشعر بحرج شديد أمام جميع النوطات التي كان يزدهي بها. عبارة واحدة منها، نظرة عادية منها، ويخرّ على ركبتيه، خجلاً، يتخذ جميع أنواع القرارات، التي لن يكون قادراً على تنفيذها على الإطلاق. فمن يمكنه أن يجعلها تطيع أمراً (يجب أن يكون هناك شخص يصدر أوامر بالإضافة إلى أمها، يحدث أثلاماً متقدة في إرادة إريكا)، يمكنه أن يحصل على أيّ شيء، وعلى كلّ شيء من إريكا: إذ تحتاج إريكا أن تتكئ على جدار صلب لا يلين ولا ينهار. شيء يجذبها، يشدّها من مرفقها، يسحب حاشية تنورتها: كرة رصاصية صغيرة، ثقالة صغيرة. ولا يوجد لديها أدنى فكرة عن الضرر الذي يمكن أن تحدثه، ما إن تنطلق من عقالها. هذا الكلب العنيف، الذي يكشّر عن أنيابه وهو يطوف الحانات، فراؤه الذي ينتصب في مؤخرة رقبته، وهو لا يبعد إلا مسافة سنتيمتر واحد عن ضحيته، يصدر زمجرة مخنوقة من حنجرته، ويلتمع ضوء أحمر في حدقتيه.

إنها تنتظر هذا! لأن تلك الحفرة الصفراء التي ينطلق منها البخار في كتلة الثلج الواسعة، مقدار كأس صغير من البول. البول لا يزال دافئاً، لكن الفتحة سرعان ما تتجمّد، وتصبح خطاً رفيعاً أصفر في الجبل، نقطة علاّم للمتزلّجين، للسفن، والمتجولين، مظهرة أن الوجود الإنساني يصبح بين الحين والآخر تهديداً قصيراً.

إنها تعرف شكل السوناتة وتركيب فقدان الذاكرة. تلك هي وظيفتها ، فأليست هي معلّمة. ومع ذلك يتلمس كفّيها بحماسة الطاعة النهائية. التلال الثلجية النهائية، المرتفعات - شاخصات في الأرض

اليباب - تنسحب تدريجياً، تضحى سهولاً ممهدة في البعد، تتحوّل إلى سطوح مجمّدة، شفافة كالمرآة، لم يطأها أحد، لم يمسّها أحد. ويصبح أناس آخرون متزلّجين ممتازين. الجائزة الأولى في مجموعة الرجال، الجائزة الأولى في مجموعة النساء، والجائزة الأولى دائماً في ألعاب جبال الألب لكلا المجموعتين!

لا تتحرك شعرة واحدة في إريكا، لا ردن يرفرف على إريكا، لا ذرة غبار واحدة تجثم على إريكا. تهبّ ريح صرصر، تنزلق عبر الحقل. راقصة على الجليد ترتدي ثياباً خفيفة وتضع زلاجات بيضاء. أكثر الأسطح نعومة الممتدة من الأفق إلى الأفق، بل وحتى أبعد من ذلك. يئز عبر الثلج! لقد أخطأ المنظّمون في وضع الكاسيت، لذلك لن يصدح مزيج من الأنغام الآن، بل سيتحول الطنين الفولاذي المنفرد للمتزلجين إلى أصوات ضجيج معدنية مميتة، لمعان قصير، نظام مورس غير واضح على حافة الزمن. وبسرعة متزايدة، تنكمش المتزلّجة داخل نفسها بقبضة عملاقة: طاقة حركيّة مركّزة، تندفع إلى الخارج في اللحظة المناسبة تماماً في محور دقيق مزدوج، تدور، تتجه مباشرة إلى النقطة. تحدث الاهتزازات، يتضاعف وزن جسدها على الأقل، وتضغط بذلك الوزن في الجليد الصلب. تُقطع حركتها في المرآة الماسيّة الصلبة، وفي الشبكة الحسّاسة من أربطتها، تجهد عظامها لأقصى حد. وتقرفص الآن في جلسة دوارة! تحت ذلك الزخم ذاته! وتصبح راقصة بالية الثلج أنبوباً أسطوانيا، آلة حفر لاستخراج النفط. الهواء يئزّ، ذرات الثلج تتطاير، غيوم من الأنفاس تتهاوى، أصوات العواء تدوي. لكن السطح راسخ، لا يبدي أي أثر من الضرر! الدوران يتباطأ، نستطيع أن نتبين تلك الشخصية الجميلة ثانية، تبدأ الغشاوة الزرقاء الفاتحة غير الواضحة في تنورتها تتمايل، ترتّب نفسها بعناية في

ثنيات. جمهور على اليمين، وجمهور على اليسار، والمتزلّجة تتزلج، تلوّح بإحدى يديها، وتلوّح بالزهور باليد الأخرى. أما الجمهور فكان لا يزال غير مرئي. ولعله كان هناك لأنها سمعت التصفيق. تتزلج باندفعات سريعة، تبدو صغيرة الحجم من بعيد. لا شيء أكثر هدوءاً الآن من المكان الذي تقبع فيه حاشية التنورة الزرقاء الفاتحة، ساقان يكسوهما جورب طويل، تصفق، تقفز، تتمايل، تتأرجح، مركز الاستراحة والاسترخاء: هذه التنورة القصيرة، تلك التوهجات والثنيات المخملية الناعمة، هذا الثوب الضيق اللاصق بالجسد ذي الخطّ المطرّز عند العنق.

* * *

كانت الأمّ جالسة في المطبخ، أمامها دورق قهوة، توزع أوامرها يميناً ويساراً. وما إن تغادر ابنتها البيت، حتى تهرع وتفتح التلفزيون لمشاهدة برامج الصباح. يتملكها شعور بالسكينة لأنها تعرف إلى أين ابنتها ذاهبة. ماذا يجب أن نشاهد اليوم؟ برنامج عن ألبريشت ديرير أو برنامج حوار؟

وبعد تجارب اليوم ومحنه، تصرخ الابنة في وجه أمّها: يجب أن تتركها أخيراً تعيش حياتها. فقد كبرت بما يكفي. الفتاة تصرخ. ويأتي رد الأمّ اليومي أن الأمّ تعرف دائماً أفضل من ابنتها لأنها لا تتوقف أبداً عن كونها أمّاً.

إلا أن «حياتها التي تخصها» هذه، التي تتوق الابنة لعيشها، ستُتوّج بقمة الطاعة التامة، إلى أن ينفتح مسرب صغير ضيّق، لا يتسع إلا لشخص واحد يشير إليه بالدخول. الشرطي يعطي إشارة: الطريق سالك. جدران ملساء مصقولة بعناية إلى اليمين واليسار، جدران عالية

بدون فتحات أو ممرات، لا كُوى أو تجويفات، فقط هذا الممر الضيّق، الذي يجب أن تشق طريقها عبره لكي تصل إلى الطرف الآخر. وفي مكان ما، لا تعرف أين بالضبط، ينتظر مشهد طبيعي شتائي، يمتدّ بعيداً، مشهد طبيعي لا درب فيه، لا قلعة فيه توفر المأوى. وإلاّ فلا يوجد شيء ينتظرها سوى غرفة لا باب لها، غرفة مفروشة تحوي مغسلة قديمة وإبريق ومنشفة، ويتناهى إليك صوت وقع أقدام صاحب الغرفة وهو يقترب ويقترب، لكنه لا يصل أبداً لعدم وجود باب هنا. في هذا الاتساع اللانهائي، أو في هذا الضيق الشديد دون باب، سيواجه الحيوان المذعور حيواناً أكبر، أو مجرد مغسلة صغيرة على عجلات، تنتصب هناك لكي تُستعمل، وهذا كل ما في الأمر.

لا تزال إريكا تتماسك وتضبط نفسها حتى لا تعود تشعر بأي دافع آخر في داخلها. لم يعد جسدها يعمل، لعدم وجود فهد أسود يثب عليها وينهش جسدها. تنتظر بصمت. تخصص لجسدها مهمات صعبة، وما يزيد الصعوبات أمامها نصب الفخاخ المخفية حيثما تشاء. إنها تشتمّ رائحة أي شخص، حتى أنه يمكن لأي رجل بدائي أن يتبع «الدافع» إذا لم يكن يخشى أن تفرغ جعبتها على الملأ.

إريكا ك. تصحّح باخ، تعدّله وترقّعه. تلميذها يحدّق في يديه المتشابكتين. إنها تحدّق من خلاله، لكنها لا ترى إلا جداراً يحمل قناع موت شومان. وللحظة عابرة، تنتابها رغبة في أن تمسك بشعر التلميذ وتدق رأسه داخل البيانو إلى أن تصرخ خيوط وأسلاك أمعائه الدامية وتنفتل. وعندها لن يختلس بوزيندورفر النظر مرة أخرى. تمرّ هذه الرغبة بسرعة البرق في المعلّمة، وتتلاشى دون أن يحدث شيء.

يعدها التلميذ بأنه سيبذل قصارى جهده، مهما أخذ ذلك منه من جهد. إريكا تأمل ذلك وتطلب منه أن يعزف بيتهوفن. يبذل التلميذ كل

ما بوسعه ليحصل على مديح، مع أنه لم يكن يدمن ذلك مثل السيد كليمر، الذي تصدر مفصلاته عادة صريراً تحت وطأة حماسته.

وفي هذه الأثناء، وفي الواجهات الزجاجية لسينما مترو، ينتظر اللحم الوردي في مختلف أشكاله، وأحجامه وأسعاره. اللحم يعبث ويهيج ويطيش، لأن إريكا لا تستطيع أن تحرس المكان في هذا الوقت. ثمن الدخول موحّد، الصفوف الأمامية أرخص من الصفوف الخلفية رغم أنك تجلس في المقدمة لأنك تأتي أولاً، وتستطيع أن ترى مشهد الأجساد على نحو أفضل. أظافر طويلة جداً ملوثة بالدم تخترق امرأة. شيء حادّ - سوط يحدث ثقوباً في جسد آخر. ذلك الشيء يترك أثراً على لحمها، يظهر للمتفرج من هو السيد ومن هو غير السيد، وينتاب المتفرج أيضاً الشعور بأنه سيد. تستطيع إريكا أن تحسّ بالسوط وهو يلسعها. وبالتأكيد يخصّص لها مقعد إلى جانب المشاهدين. وجه امرأة ملتو من البهجة، لأن الرجل لا يمكنه أن يعرف مدى المتعة الكبيرة التي تنالها، وكم من المتعة قد أهدرت إلا من قسمات وجهها. وجه المرأة الأخرى على الشاشة يتلوى ألماً، لأنها ضُربت بالسوط، مع أن الضربة كانت خفيفة. المرأة لا تستطيع أن تظهر مدى متعتها في وجهها. لكن الرجل يعتمد كليّة على الأدلّة والتلميحات. إنه يقرأ المتعة في وجهها. تحيد المرأة جانباً كي لا تقدم له هدفاً جيداً. عيناها مغمضتان، رأسها مرمي إلى الوراء. ولو لم تكن عيناها مغمضتين، فلعلهما كانتا قد خرجتا من محجريهما. وقلما تنظران إلى الرجل، لذلك فهو يزداد توتراً: فقسمات وجهها لن تجعل النتائج أفضل أو تساعده على إحراز نقاط أخرى. المرأة مستغرقة تماماً في متعتها إلى حد أنها لا ترى الرجل: إنها لا ترى أشجار الغابة. إنها تحدّق في نفسها فقط. والرجل، ميكانيكي محنك، يعمل على المرأة، السيارة

المعطوبة. ففي المشاهد الخلاعية، يبدي الممثلون جدية أكبر مما يبدونه في الأفلام التي تصور الحياة اليومية العادية.

تنجذب إريكا لمراقبة الناس الذين يعملون بجدّ لأنهم يريدون أن يحرزوا نتائج. وفي هذا المجال، فإن الفرق بين الموسيقى والمتعة الجنسية يكون عادة ضئيلاً للغاية. لا تبدي إريكا اهتماماً كبيراً برؤية الطبيعة. فهي لا تذهب إلى منطقة الغابة أبداً، حيث يقوم فنانون آخرون بترميم البيوت الريفية وتجديدها. لماذا لم تتسلّق الجبال في حياتها. لماذا لم تسبح في البحيرات مطلقاً. لماذا لم تستلق على الشواطئ على الإطلاق. لم تتزلج على الثلج. الرجل يختزن هزات الجماع بجشع، حتى يغرق أخيراً في عرقه، ويظل مستلقياً هناك حيث بدأ في البداية. ومن الناحية الأخرى، فقد زاد من رصيد حسابه كثيراً لهذا اليوم. لقد رأت إريكا هذا المشهد منذ فترة بعيدة، في ضاحية تقطنها الطبقة العاملة، لا يعرفها أحد (أمين الصندوق يعرفها فقط ويخاطبها الآن بـ«سيدتي»). في الواقع، لقد رأته مرّتين. لكنها لن تذهب مرة ثالثة، لأنها تفضّل وجبة أقوى عندما يتعلق الأمر بالأفلام الإباحية. تلك النماذج المشكّلة بلطف من النوع البشري في دار السينما تلك الواقعة في وسط المدينة، التي تعمل بدون ألم وبدون إمكانية حدوث ألم. إنهم مصنوعون من المطاط القاسي. وما الألم بحد ذاته إلا نتيجة للرغبة التي تسعى للحصول على المتعة، الرغبة من أجل التحطيم، من أجل الإبادة. وفي أحد أشكاله، فإن الألم أحد أشكال المتعة. إن إريكا تعبر الحدود بسعادة ورضا لقتلها. ففي المضاجعة في حيّ فقير أمل أكبر في تشكيل الألم، تزيين الألم. فتلك الممثلات الهواة ذوات الهيئات الرثة، اللاتي يبعثن على الغثيان يعملن بجد أكبر، ويشعرن بالامتنان للفرصة التي أتيحت لهن كي يظهرن في فيلم حقيقي. أجسادهن مليئة

بالتشوهات. إذ تنتشر على جلودهن البقع، والبثور، والندب، والتجاعيد، والخطوط الشحمية، والدهون. وشعرهن مصبوغ على نحو مقرف. يتصببن عرقاً. أقدامهن قذرة. أما في الأفلام التي يصعب إرضاء المشاهدين بها من الناحية الجمالية والتي تعرض في دور السينما الفخمة، فإنك لا ترى الرجال والنساء في الغالب إلا من الخارج. والجنسان كلاهما محشوران في جوارب نسائية وسخة ورديئة من النايلون المقاوم للحرارة، والمضاد للأحماض، المتين، البغيض. أما في دور عرض الأفلام الإباحية الرخيصة، فالرجل ينقض على المرأة بشبق صارخ أكثر. المرأة لا تتكلّم، مع أنها قد تئنّ وتتنهد وتقول: «المزيد! المزيد!». إن هذا يستنزف الحوار، لكن لا يستنزف الرجل، مهما كان الخيال خصباً، لأنه يريد أن يركّز بجشع على ذروته الجنسية، مضيفاً أكبر عدد ممكن منها.

وهنا، في الأفلام الخلاعية الخفيفة، ينحدر كلّ شيء إلى المظاهر السطحية. إنها ليست كافية بالنسبة لإريكا، التي هي امرأة صعبة الإرضاء. إنها لا تكفي، لأن إريكا، مستغرقة في أولئك الناس الواقعين في الشرك، تودّ أن تصل إلى لبّ هذا العمل، الذي يُفترض أن يكون صعباً للغاية على الأحاسيس التي يريد كلّ شخص أن يقوم بها أو يراقبها على أقل تقدير. والولوج إلى داخل الجسد لا يقدم تفسيراً تاماً، بل يسمح بظهور قدر معيّن من الشكوك. وبعد كلّ شيء، فإنك لا تستطيع أن تفتح الإنسان من الداخل لتستخرج كلّ شيء منه. ففي الأفلام الرخيصة، يمكنك أن تلقي نظرة أعمق إلى المرأة. لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك كثيراً في الرجل. وفي جميع الأحوال، فما من أحد يرى الضوء في نهاية النفق. وحتى لو فتحت المرأة، فلن ترى سوى الأمعاء والأحشاء. أما الرجل، الذي يكون نشيطاً في الحياة، فهو

ينمو إلى الخارج جسدياً. وفي النهاية، يعطي النتيجة المتوقعة، أو لا يعطيها. لكنه إذا أعطاها، فيمكن أن يراها أي شخص، ويصبح المنتج سعيداً بمنتجه المحلي الثمين.

يجب أن يشعر الرجل في غالب الأحيان (في رأي إريكا) بأن المرأة تخبئ شيئاً هاماً للغاية في فوضى أعضائها تلك. إنها تلك الأشياء المخفية التي تجعل إريكا تبحث عن أشياء جديدة، أكثر عمقاً، والمحرمة دائماً. إنها تترقب دوماً شيئاً جديداً مدهشاً. إذ لم ينكشف لها جسدها أبداً - حتى عندما تقف وقفتها العادية تلك حيث تكون ساقاها متباعدتين أمام مرآة الحلاقة - أسرارها الصامتة، حتى لها نفسها! لذلك، فإن الأجساد المعروضة على الشاشة تخفي كلّ شيء عن الرجل الذي يريد أن يتفحص الإناث لاختيار إحداهن في سوق النخاسة، النساء اللاتي لا يعرفهن، ومن إريكا، المشاهدة غير المندهشة.

لقد أهين تلميذ إريكا وعوقب. تلفّ ساقاً على ساق دون أن تضمهما بإحكام، تسخر إريكا منه بسبب عزفه لبيتهوفن. إنها ليست بحاجة لأن تقول المزيد. إنه على وشك أن يبكي.

لم تر فائدة من عزفها هذه المقطوعة. فلن يحصل على المزيد من معلّمته للبيانو اليوم. فإذا لم يكن بوسعه أن يلاحظ أخطاءه بنفسه، فلن تستطيع أن تساعده في ذلك.

* * *

هل يحبّ الوحش البرّي السابق، وحيوان السيرك المعاصر مروّضه؟ ربما، لكن ليس بالضرورة. فأحدهما يحتاج إلى الآخر بقوة. وبواسطة الحيل والمغريات، يمكن لكلّ واحد منهما أن ينير الضوء في وسط الفرقة ويزدهي بنفسه مثل ضفدع كبير. كلّ منهما يحتاج إلى

الآخر كنقطة ثابتة في تلك الفوضى التي تغشى البصر. إذ يجب على الحيوان أن يعرف أين هو الأعلى، وأين هو الأسفل. وإلا لوجد نفسه فجأة منقلباً رأساً على عقب. وبدون مدرّبه، فإن الحيوان يهوي عاجزاً في سقطة حرة، أو يندفع في المكان مهتاجاً، ينهش، ويخمش، ويلتهم أيّ شيء يصادفه في طريقه. أما إذا كان للحيوان مدرّب، فهناك دائماً شخص يخبره إن كان الشيء صالحاً للأكل أم لا. وتقدَّم إلى الحيوان أحياناً الأطعمة ممضوغة مسبقاً أو مقطّعة. وليس على الحيوان أن يتجشم عناء البحث عن طعامه، أو السعي إلى مغامرات في الغابة. أما في الغابة، فإن الفهد يعرف ما يصلح له ويصطاد فريسته، سواء كانت ظبياً أم صياداً أبيض متهوراً. أما هنا، فإن الحيوان يعيش خلال النهار حياة من التفكير في الألعاب التي يجب أن يقوم بها في المساء. عندما يجب عليه أن يقفز عبر الأطواق المحترقة، ويصعد فوق المقاعد، ويطبق برفق بين فكيه على رأس دون أن يؤذيه، يرقص على إيقاعات معينة، وحده أو برفقة حيوانات أخرى، التي ستتمزق حناجرها إذا صادفها في البرية، ما لم تنطلق هاربة منه، هذا إن تمكنت من ذلك. ويوضع على الحيوان أردية تنكرية أنيقة فوق رأسه أو على ظهره. وعُرف عن بعض الحيوانات أنها تضع عباءة جلدية وتمتطي الخيل! فيما يقوم سيد الحيوان، مروّضه، بلسع سوطه! مديحاً أو عقاباً، حسب الوضع. وحسب ما يستحقه الحيوان. لكن لا يجرؤ أكثر المروضين شجاعة على أن يحلموا ويخرجوا فهداً أو لبوة من صندوق آلة الكمان. فكل ما يمكن للمخيلة الإنسانية أن تتصوره هو مشاهدة دبّ يمتطي الدراجة.

القسم الثاني

تتفتت آخر قطعة من ضوء النهار مثل بقايا كعكة بين أصابع خرقاء.

وقد بدأ المساء يقترب، وبدأ عدد الطلاب يتناقص في هذه السلسلة اليومية، وبدأ عدد فترات الاستراحة يزداد، كانت المعلّمة تذهب في أثنائها إلى الحمّام لتقضم سراً شطيرة، ثم تلفّها بورق بعناية من جديد. وفي المساء، كان الكبار الذين يعملون بجدّ طوال النهار، يأتون إليها للتدرب على الموسيقى. أما الطلاب الذين كانوا يرغبون في أن يصبحوا موسيقيين محترفين، كالمعلمين الذين يدرّسونهم الآن، فكانوا يأتون أثناء النهار، لعدم وجود شيء آخر يفعلونه سوى الموسيقى. وهم يرغبون في إتقان الموسيقى بقدر ما يستطيعون حتى ينالوا شهاداتهم. وكانوا عادة ينصتون إلى زملائهم وهم يعزفون، ثم يوجهون لهم نقداً شديداً هم والأستاذة كوهوت. ولم يكن يعتريهم الخجل عندما يصححون أخطاء الآخرين، التي كانوا يرتكبونها هم أنفسهم. فرغم أنهم كانوا يستمعون كثيراً، إلا أنهم لم يكونوا يشعرون بالمعزوفة، ولم يكن بوسعهم مضاهاتها. وبعد ذهاب آخر طالب، تتراجع السلسلة طوال الليل، حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، عندما تعود لتمتلئ بالطلاب من جديد، فتبدأ تكتسب حيوية مرة أخرى. التروس تنقر، المكابس تقرع، الأصابع تتحرّك جيئة وذهاباً. وهكذا تنطلق الأصوات.

ويجلس السيد كليمر بين ثلاثة طلاب من كوريا الجنوبية ويبدأ يتحرّك الآن بحذر نحو معلّمته. يجب ألا تلاحظ، إلا أنه سيصبح على حين غرة في داخلها. علماً أنه كان يتبعها منذ فترة قصيرة وهو يمشي على مسافة وراءها. ولما لم يكن لدى الكوريين هؤلاء سوى معرفة سطحية باللغة الألمانية، فقد كانوا مجهزّين بالأحكام المسبقة، وأنواع التحيز، والشجب باللغة الإنكليزية. ويتحدث السيد كليمر إلى الآنسة كوهوت بلغة القلب الدولية. يصاحبه الرجال الثلاثة من الشرق الأقصى في العزف. وبرصانتهم المجربة والحقيقية، لا يشعرون بالاهتزازات التي كانت تحدث بين المعلّمة الرائقة المزاج والطالب الساعي إلى المطلق.

تستخدم إريكا لغة أجنبية في حديثها عن الخطايا المرتكبة ضد روح شوبيرت: يجب على الكوريين أن يحسّوا، يجب ألا يقلّدوا ببلادة معزوفة لألفريد بريندل، وذلك لأن بريندل يستطيع أن يعزف دائماً بأسلوبه على نحو أفضل بكثير! ودون أن يطلب منه أحد، أعرب كليمر عن رأيه في روح العمل الموسيقي، تلك الروح التي يصعب انتزاعها منه. ومع ذلك فبوسع البعض أن يفعل ذلك! ويجب ألا يأتوا إلى هنا إذا لم يكن باستطاعتهم أن يحسّوا بها في أعماقهم. ويشير كليمر، طالب الشرف، باستهزاء إلى أن الكوري الجنوبي لن يجد الروح في زاوية الغرفة. ويتحدث كليمر ببطء، مقتبساً قول نيتشه، الذي يتماهى معه، ويقول إنه ليس سعيداً بما يكفي، ولا يتمتع بصحة جيدة تجعله ينصت إلى جميع أنواع الموسيقيين الرومانسيين (بمن فيهم بيتهوفن). ويأمل كليمر أن تكتشف معلمته بنفسها عدم سعادته وعدم تمتعه بصحة جيدة من عزفه الرائع. ويضيف قائلاً إن ما نحتاج إليه هو موسيقى تجعلنا ننسى آلامنا. وإنه يجب تأليه الحياة الحيوانية (!) إذ يريد الناس

أن يرقصوا، أن ينتصروا. الضوء، الإيقاعات المرحة، التناغمات الذهبية الحنونة، لا أكثر ولا أقل. تلك هي أمنيات الفيلسوف الذي لا تثير غضبه أشياء كثيرة، ويوافقه والتر كليمر على ذلك. متى ستعيشين في الواقع يا إريكا؟ يسألها الطالب، مشيراً إلى وجود وقت كاف في المساء كي تعيش إذا ما انتهزت الفرصة. ونصف الوقت يخص والتر كليمر، وعليها أن تتصرف هي بالنصف الباقي. لكنها يجب أن تبقى دائماً مع أمّها. تصرخ كل امرأة في وجه الأخرى. يتحدث كليمر عن الحياة كما لو كانت عنقوداً من العنب المسكي الذهبي، الذي تصففه وترتّبه ربّة المنزل في طبق لتقديمه للضيف، كي يتمكن من تناوله بعينيه أيضاً. ويتناول الضيف عنقوداً من العنب بتردد، ثم عنقوداً آخر، حتى لا تبقى سوى السويقة، التي تصبح عارية بعد أن خلت من حبات العنب، وتراكمت تحتها كومة من البذور.

اللمسات العشوائية تهدّد هذه المرأة، التي يبجل الجميع عقلها وفنّها ويقدرونهما. وإذا أحسّ شعرها وكتفها تحت بلوزتها الفضفاضة بالتهديد، فإن كرسي المعلّمة يتقدم خطوة إلى الأمام.

يغوص المفكّ في العمق، ويقشط آخر جزء من مقطوعة Der Wiener Liederfürst التي استمعنا إليها اليوم على البيانو فقط. الكوري يحدّق في نوطته الموسيقية التي اشتراها من بلده، في كوريا. تلك النقاط السوداء الكثيرة تدلّ على ثقافة أجنبية تماماً، والتي قد يتباهى بها عندما يعود إلى وطنه.

يرفع كليمر راية الشهوانية. بل إنه يواجه الشهوانية في الموسيقى! المعلّمة، تلك الأنثى المدمرة للعقل، تنصح باتباع أسلوب متماسك. إلا أن يد الكوري اليسرىٰ لا تستطيع مجاراة يده اليمنى. هناك تمرين خاصّ للإصبع لحلّ هذه المشكلة. تعيد يده اليسرى لكي تتناغم

وتنسجم مع يده اليمنى، وتعلّمه كيف تكون اليد اليسرى مستقلة عن اليد اليمنى. يداه تحارب إحداهما الأخرى، كما يجادل كليمر دائماً، الذي يعرف كل ذلك عن الآخرين. يُصرف الكوري من الدرس اليوم.

تشعر إريكا كوهوت بجسد بشري وراءها، فتسري الرعشة في أوصالها. يجب ألا يقترب منها كثيراً وألا يلمسها. يتجه إلى مكان خلفها، ثم يعود. تدل هذه الحركة على حيرته. وعندما يعود، يظهر أخيراً في طرف عينها، يهز رأسه مثل حمامة، حاملاً وجهه الصغير بمكر في المخروط المنير المنبعث من الضوء الذي يشع بأعلى وهجه هنا. تشعر إريكا بالجفاف في حلقها. الصدفة الخارجية التي لا وزن لها تحوم حول مجالها المركزي المضغوط. جسدها لم يعد من اللحم، وثمة شيء يطبق عليها، ويتحوّل كذلك إلى شيء. أنبوب معدني أسطواني. جهاز بسيط للغاية، يُستخدم لكي يُقحم إقحاماً. وتنطلق صورة هذا الشيء (كليمر) بتوقّد شديد إلى داخل تجويف إريكا العميق، وينقلب رأساً على عقب في جدارها الداخلي. هنا تزداد الصورة وضوحاً في رأسها. وفي هذه اللحظة بالذات، عندما تحوّل إلى جسم بالنسبة لها، جسم يمكن مسّه باليدين، أصبح كذلك جسماً مجرّداً تماماً، وفقد لحمه. وفي اللحظة التي أصبح كل منهما شيئاً مادياً بالنسبة للآخر، قطعا أية علاقة إنسانية متبادلة. لا يوجد ثمة برلمانيون يمكن إرسالهم لنقل رسائل وخطابات. ولم يعد أي من الجسمين يمسك بالآخر، بل أصبح كلّ منهما وسيلة للآخر، كائناً مختلفاً، حيث يريد كلّ منهما أن يلج الآخر على نحو مؤلم. وكلما ولج أحدهما إلى العمق أكثر، ازداد اللحم تعفناً، وأصبح خفيفاً كالريشة وطار بعيداً عن هاتين القارتين الأجنبيتين والمتعاديتين، اللتين تصطدم إحداهما بالأخرى،

لتنهارا معاً، وتتحوّلا إلى شيء يصدر قرقعة مع أقمشة من الخيش البالي الذي يتفتت لدى أدنى لمسة، ويتحلل إلى غبار.

وجه كليمر صقيل كالمرآة. وبدأت تظهر على وجه إريكا قسمات الانحلال والتفسخ. إذ بدأ جلدها ينكمش ويتغضن، وتقوّس الجفنان بشكل واه مثل ورقة حارة، وتجعّد اللحم الرقيق تحت العينين وبدأ يميل إلى اللون الأزرق. ولم يعد بالوسع تسوية الشقّين الحادّين الخارجين من المنخرين مرة أخرى. وازداد سطح الوجه كبراً، وستتواصل هذه العملية لسنوات وسنوات، إلى أن ينكمش اللحم تحت الجلد ويختفي، ويعشش الجلد بارتياح في الجمجمة، التي لن يعود بإمكانها أن تحافظ على دفئها. خصلات بيضاء منفردة من الشعر، يغذّيها نسغ راكد، تتضاعف باستمرار، حتى تشكّل أعشاشاً قبيحة، لا تفقّس شيئاً، لا تحتضن شيئاً، لا تغذي شيئاً، كما أن إريكا لم تحتضن شيئاً بدفء، حتى جسدها. لكنها تريد أن تُحتضن. يجب أن يشتهيها، يجب أن يلاحقها ويهتم بها، يجب أن يجثو عند قدميها، يجب أن يصبح مهووساً بها، يجب ألا يجد مفراً منها. لكن إريكا نادراً ما تظهر علناً، مثل أمّها التي تحتجب عن أنظار الناس عادة. إنهما تبقيان حبيستين داخل جدرانهما الأربعة، كما لا تحدوهما أية رغبة في استقبال أيّ زائر. وبهذه الطريقة، توفّر المرأتان على نفسيهما التآكل والتلف الشخصي. وبالطبع، عندما كانتا تظهران في المجتمع، وهذا ما يحدث نادراً، لا تجدان اهتماماً كبيراً من قبل الآخرين.

أصابع التلف السريعة تصيب إريكا. أمراض جسدية غامضة، اضطرابات في الأوعية الدموية في الساقين، ولسعات الروماتيزم، ووخزات التهاب المفاصل تنتشر في الجسد كله. (نادراً ما تصيب هذه الأمراض الأطفال لذلك لم تصب إريكا على الإطلاق). أما كليمر،

الشاهد الحيّ على الفوائد الصحية للتجذيف في البحيرة البيضاء، فيحدق في معلّمته، كما لو كان يريد أن يصرّها ويأخذها على الفور، أو ربما كان يرغب في أن يأكلها هنا. وتسأل إريكا نفسها بقسوة من هو آخر رجل رغب فيّ، لأني سرعان ما سأكون في عداد الأموات، خمس وثلاثون سنة أخرى فقط، تخاطب إريكا نفسها بغضب. التحقي بالركب، لأني في اللحظة التي سأموت فيها، لن أعود أسمع، أو أشمّ، أو أذوق أيّ شئ ثانية! تخدش المفاتيح بمخالبها. تكشط بقدميها الأرض بدون أمل، وبشيء من الحرج، تلمس نفسها بغموض. هذا الرجل يثير أعصاب المرأة ويجعلها متوترة، يسلبها أحد أركانها الأساسية، الموسيقى.

الأمّ تنتظر في البيت. تنظر إلى ساعة المطبخ. رقّاص الساعة الذي لا يتوقف عن الحركة يميناً ويساراً، وبعد ثلاثين دقيقة من الآن ستدقّ معلنة وصول ابنتها إلى البيت. الأمّ، التي لا يوجد لديها شيء آخر تفعله، تفضّل أن تنتظر هنا. فماذا لو عادت إريكا إلى البيت قبل وقتها المتوقع، بسبب إلغاء الدرس؟ لكن إريكا كانت لا تزال مخوزقة على كرسي البيانو.

مغناطيس الصمت المنزلي القوي، ممتزجاً بصوت التلفزيون (مركز الراحة والخمول المطلقين)، يتحول إلى ألم جسدي في داخلها. يجب على كليمر أن ينصرف! لماذا لا يكفّ عن الكلام هنا، بينما لا يزال الماء يغلي في البيت حتى يتعفن سقف المطبخ؟

طرف حذاء كليمر يُفسد الأرضية المرصعة وهو يبث الحقائق الصغيرة الهامة في استخدام تقنيات لوحة المفاتيح وينفثها كالدخان في الهواء. في هذه الأثناء، تتوق المرأة للعودة إلى البيت. يسألها كليمر ما الشيء الذي يشكّل الصوت، ثم يجيب عن سؤاله هو نفسه: اللمسة،

النظرة. يفرغ فمه فيضاً من الكلمات: أما الأشياء المتبقية الغامضة غير الملموسة، فتتكوّن من الصوت واللون والضوء. لا، لا، فالأشياء التي تدرجها في قائمتك لا تشكّل الموسيقى التي أعرفها، تزقزق إريكا، الصرصور، الذي يريد أن يعود إلى ملاذه الدافئ. لكن الشاب ينفجر ويقول إنك مخطئة، فالموسيقى عبارة عن كذا وكذا. بالنسبة لي لا يمكن تقدير معايير الفنّ وقياسها. كلام كليمر المأثور يناقض كلام المعلّمة. تغلق إريكا غطاء البيانو، تدفع الأشياء بعيداً. لقد عثر الرجل على شوبيرت في أحد الرفوف العقلية، وبدأ يستغلّ ما لقيه على الفور. تذوب روح شوبيرت في الدخان، في الرائحة، في اللون، في الفكرة، كلما تعذر وصف قيمته. قيمته تكبر وتصبح ذات أبعاد عملاقة، يعجز المرء عن فهمها. ويقول كليمر الظلّ أدقّ بكثير من المادة. لماذا، ربما كان الواقع أكبر خطأ في العالم. ولهذا السبب، تأتي الأكاذيب قبل الحقيقة، يستنتج الرجل من كلماته. اللاواقعي يأتي قبل الواقعي. وهذا ما يجعل نوعية الفنّ أفضل.

يعد تأخر المتعة البيتية التي تتمثل في تناول طعام العشاء بشكل غير مقصود، حفرة مظلمة بالنسبة للنجمة التي تُعرف بإريكا. فهي تعرف حق المعرفة أن عناق أمّها سيلتهمها ويبتلعها تماماً، ومع ذلك، فهي تنجذب إليها بطريقة سحرية. اللون القرمزي يطبع عظم خديها، يعزز موقفها. يجب على كليمر أن يطبق عليها ويغشاها. إريكا لا تريد أن تتذكر حتى ذرة الغبار على حذائه. إنها تتوق إلى عناق طويل وحميم، إلى أن تدفعه هذه المرأة الرائعة وتبعده عنها، ويتوقف العناق. لكن كليمر لم يكن يرغب في تركها. إذ يجب عليه أن يخبرها أنه يمكنه أن يحبّ سوناتات بيتهوفن بدءاً من المعزوفة رقم ١٠١. ويواصل ثرثرته ويقول إنها تصبح عندئذ في غاية الرقة، ويتدفق أحدهما في الآخر.

وتنبسط الحركات الفردية الهادئة عند الحافات، ولا يتضارب أحدها بالآخر. هذا ما يتفتق عنه عقل كليمر. إنه يعتصر ما تبقى من هذه الأفكار، ثمّ يربط نهايات المقانق، كي لا يندلق ما بداخلها إلى الخارج.

ومن أجل تغيير الموضوع يا أستاذة، يجب أن أخبرك - وسأشرح لك ذلك بتفصيل شديد - بأن الإنسان لا يحقق قيمته العليا إلا عندما يتخلى عن الواقع ويلج في عالم الأحاسيس، وهذا يجب أن ينسحب عليك أيضاً. وعلى بيتهوفن وشوبيرت أيضاً، أستاذيّ الأثيرين، اللذين يستحوذان عليّ شخصياً. لا أعرف بالضبط كيف. لكني أشعر - وهذا ينطبق عليّ أيضاً - بأننا نحتقر الواقع ونعتبر أن الفنّ والأحاسيس هما واقعنا الوحيد. كفانا حديثاً عن بيتهوفن وشوبيرت. أما أنا، كليمر، ففي صعود مستمر. ويتهم إريكا كوهوت بأنها تفتقر إلى كلّ ذلك. يقول إنها تتعلّق بالأشياء السطحية، أما الرجل فيستخلص الضروريات ويعزلها عن غير الضروريات. لقد تجرأ كليمر، الطالب، وأعطى رداً صفيقاً. لقد تجاسر عليها.

أما في عقل إريكا، فلا يوجد سوى مصدر واحد من النور ينير كلّ شيء ذكي كسطوع النهار، وخاصة اللوحة التي تقول: منفذ خروج. وينشر كرسي التلفزيون ذو المسندين ذراعيه واسعاً، الموسيقى التمهيدية تعزف بهدوء معلنة بدء الأخبار المسائية، ويتحرك مذيع الأخبار بجدية فوق ربطة عنقه. المنضدة الجانبية تعرض ثروة نموذجية من صحون ملوّنة تحتوي على ما لذ وطاب من المأكولات والحلويات، التي تشترك السيدتان في تناولها، بالتناوب أو في آن واحد. وعلى الفور يعاد ملء الصحن الفارغ. عالم الخيال هذا، حيث لا ينتهي شيء، ولا شيء يبدأ.

تدفع إريكا الأشياء من أحد طرفي استوديو الموسيقى إلى الطرف الآخر، ثم تعيدها إلى مكانها ثانية. تنظر بحدة إلى الساعة، تبعث إشارة خفية من ساريتها المرتفعة، مظهرة كم هي مرهقة بعد يوم شاق من العمل، انتُهك خلاله الفن لإرضاء طموحات أبوية.

يقف كليمر هناك، يحدق فيها.

لا تريد إريكا أن يسود الصمت، لذلك تتفوه بملاحظات تافهة. الفنّ شيء تافه بالنسبة لإريكا لأنها تعيش على الفنّ. وتضيف المرأة قائلة كم يسهل على الفنان أن يُخرج مشاعره أو عواطفه من نفسه، عندما يلجأ إلى أدوات مثيرة، الأدوات التي تقدّرها أنت عالياً يا كليمر، إذ إنه يستخدم أساليب مزيفة، ويهمل الطرق الأصيلة. إنها تتكلم كي لا ينفجر الصمت. أما أنا ولكوني معلّمة، فإني أحبّذ الفنّ غير الرومانسي - تماماً مثل شومان. الدراما أسهل دائماً! وما المشاعر والعواطف إلا مجرّد بديل دائماً، بديل عن الروحانية. المعلّمة تتوق لوقوع زلزال، عاصفة هوجاء تنقض عليها. أما كليمر المتوحش ذاك، فهو يتميّز غضباً إلى درجة أنه يكاد يدق رأسه بالحائط. أما قاعة دروس الكلارينت في الغرفة المجاورة، التي يتردّد عليها مرّتين في الأسبوع، لأنه يعزف على آلة ثانية، فستملكها الدهشة إذا ما ظهر رأس كليمر الغاضب من الطرف الآخر من الجدار فجأة، إلى جانب قناع موت بيتهوفن. أوه. ها هو ذاك يا إريكا، ها هو ذاك يا إريكا. إنها لا تشعر بأنه يتحدث عنها في الواقع، وبالتأكيد عن نفسه أيضاً! إنه يربط نفسه وإريكا في سياق حسّي، يقذف الروح، عدوة الأحاسيس، ذلك الخصم الرئيسي للحم. تظن أنه يشير إلى شوبيرت، لكنه يشير إلى نفسه في الواقع، تماماً كما يشير إلى نفسه دائماً عندما يتحدث.

وفجأة يجازف ويتخذ نبرة الندّ مع إريكا. وبنبرة رسمية، تنصحه

إريكا أن يكون موضوعياً! تزم شفتيها، وسواء شاءت أم أبت، يصبح فمها مثل نجمة وردية متغضنة، لا يمكنها أن تتحكم به. إنها تتحكم بما يقوله الفم، لكنها لا تستطيع أن تتحكم بالطريقة التي تقدّم فيها نفسها إلى العالم الخارجي. تسري قشعريرة في أنحاء جسدها.

ينتاب كليمر الخوف. يهمهم متذمراً، يتمرّغ في حوض كلماته وأفكاره الدافئ. ينقضّ على البيانو، بمتعة شديدة. وبإيقاع يتجاوز السرعة المحددة، يعزف عبارة أطول، كان قد تعلمها عن ظهر قلب. كان يريد أن يثبت شيئاً بهذه العبارة. يتساءل ما الذي يعجب إريكا كوهوت بهذا الانحراف الطفيف. ترتمي على الطالب، كي توقف اندفاع القطار السريع قبل أن يبدأ انطلاقه فعلاً. إنك تعزف بسرعة كبيرة جداً وبصوت عالٍ كثيراً أيضاً يا سيد كليمر، وبذلك فإنك لا تثبت إلا أن غياب الجانب الروحي في المعزوفة قد يحدث فجوات فظيعة.

يلقي الرجل برأسه إلى الخلف على الكرسي. ثم يقفز واقفاً، مضطرباً، مثل حصان سباق حقق الكثير من الانتصارات. ولكي يكافئ على انتصاراته، ولكي لا يُمنى بالهزيمة، يتطلب معاملة ورعاية ومحبّة خاصة، على أقل تقدير مثل طقم الفضة المؤلف من اثنتي عشرة قطعة.

تريد إريكا أن تعود إلى البيت. إريكا تريد أن تعود إلى البيت. إريكا تريد أن تعود إلى البيت. تقدم له نصيحة هامة: تجوّل في أرجاء فيينا وتنفّس بعمق. ثمّ اعزف شوبيرت، لكن هذه المرة بدون نشاز!

إني مغادر أيضاً. يجمع والتر كليمر مجموعته من النوطات المضغوطة بقوة، ويخرج مثل نجم مسرحي، سوى أنه لا يوجد عدد كبير من المشاهدين. فهو النجم والجمهور مجتمعين في شخص واحد، إنه يؤدي كذلك دور المشاهدين. ويصفق تصفيقاً مدوياً.

وفي الخارج، يهفهف شعر كليمر الأشقر وراءه وهو يندفع إلى

مراحيض الرجال، حيث يبتلع لتراً من الماء من الحنفية مباشرة. لكن السائل لا يمكنه أن يحدث مزيداً من الدمار داخل جسمه الخالي من الماء. ثمّ يبلل وجهه بالماء، يبلل رأسه: أمواج من مياه نبع الجبل تتدفق بنظافة على وجه كليمر ورأسه. إني أُخرج دائماً أشياء جميلة من الطين، يقول لنفسه. مياه فيينا المشهورة التي أصبحت سامة تُهدر الآن. يفرك كليمر يديه بطاقة لا يمكنه أن يستخدمها في مكان آخر. لا يزال يتلقى في يديه قطرات الصابون السائل الأخضر من الوعاء، عدة مرات. يرشّ الماء ويتغرغر. يواصل غسل وجهه عدة مرات. يلوّح بيديه، يبلّل شعره. تنبعث من فمه أصوات غرغرة، فيها زخارف فنية، لكنها بلا معنى. إنه يعاني من مشكلة الحبّ. يفرقع أصابعه ويطقطق مفاصله. وبرأس حذائه، يحكّ الحائط تحت خصاص النافذة الصغيرة المطلة على الفناء، لكنه لا يتمكن من التخلص مما علق به. بضع قطرات تتدفّق، إلا أن ما تبقى من المحتويات يظل في حاويته التي تفسد شيئاً فشيئاً لأنه لا يستطيع بلوغ الميناء النسائي الذي يجب عليه الوصول إليه. نعم، بالفعل، لا شك في ذلك: إن والتر كليمر عاشق حقاً. وبالتأكيد ليس للمرة الأولى، وبالتأكيد ليس للمرة الأخيرة. لكن حبّه حبّ غير متبادل. إنها لا تبادله مشاعره، مما يجعله يتقيأ، ويعبّر عن مشاعره بالاشمئزاز بسيلان مخاط يقذفه بشكل صاخب في المغسلة. مشيمة حبّ كليمر. يغلق الحنفية بإحكام بحيث لا يتمكن من سيأتي بعده من فتحها، ما لم يكن عازف بيانو أيضاً. ويكون رسغه وأصابعه فولاذية. وبما أن كليمر لم ينظف المغسلة من آثاره، تجري تلك الأشياء ببطء إلى فتحة البالوعة. ويمكن لأي شخص يلقي نظرة فاحصة أن يراها بوضوح.

في تلك اللحظة بالذات، يدخل طالب يكسو وجهه شحوب

الموت (بيانو أو شيء من هذا القبيل) مسرعاً، بعد انتهائه مباشرة من الامتحان. ويغوص في إحدى تلك المقصورات، ويلقي بنفسه. إنها أشبه بكارثة طبيعية. زلزال يبدو أنه يزلزل ويهدّ جسمه من الداخل. يبدو أن أشياء كثيرة قد تهاوت في داخله، بما في ذلك أيّ أمل لنيل شهادته في وقت قريب. وكان على هذا الطالب المُمتحن أن يتمالك نفسه لأن مدير المدرسة كان حاضراً في الامتحان. أما الآن، فيجب عليه أن يوفي هذا الهياج القوي حقه - مباشرة في حوض المرحاض. لقد شوش الطالب المعزوفة ذات السلم الموسيقي الملون. كان قد بدأ في وقت مضاعف، لا يمكن لأي إنسان أن يتحمّله، بمن فيهم شوبان. كليمر يحتقر باب المقصورة المغلق، الذي يقبع وراءه زميله في الموسيقى، الذي يجاهد الآن لإخراج ما في جوفه. ولعل أيّ عازف بيانو يسيطر عليه جسده بقوة لا يستطيع أن يضيف شيئاً حاسماً إلى أدائه. لعله لا يرى الموسيقى إلا حرفة، ويأخذ الأمر بمشقة عندما تخيّبه إحدى آلاته العشر. أما كليمر فقد اجتاز هذه المرحلة، وهو لا يستمع لغير حقيقة المعزوفة الداخلية. فهو يشعر مثلاً بأنه لم يعد هناك شيء يقوله عن المقطوعات التي تعزف بتركيز أكبر في معزوفات بيتهوفن على البيانو. يجب على المرء أن يشعر بها، يجب على المرء أن يوحيها للمستمعين بدلاً من أن يعزفها. بوسع كليمر أن يحاضر ساعات وساعات عن الفائدة الروحية التي يجنيها المرء من المعزوفة الموسيقية، وأن قيمتها الفائضة هي في متناول اليد، إلا أنه لا يدركها إلا الذين يتمتعون بشجاعة أكبر. المهم هو ما يقوله المؤلف الموسيقي، ما يشعر به، وليس مجرد قوام المعزوفة.

يرفع كليمر صندوق آلته الموسيقية عالياً، وتأكيداً على نظريته، يهوي بها على المغسلة الخزفية عدّة مرات، لكي يعتصر آخر نقاط

تبقت في طاقته. ويلاحظ كليمر أنه استُنزف تماماً. فقد أغدق كلّ طاقته على تلك المرأة، يقول مقتبساً ذلك من رواية شهيرة. لقد بذل كل ما بوسعه من أجلها. ويعلن كليمر أنها نجحت. فقد قدم لها أفضل جزء منه، بل كلّه. حتى أنه أخذ يعزف لها نفسه مراراً وتكراراً. أما الآن، فإن كلّ ما يريده هو أن يمضي عطلة نهاية الأسبوع في تجذيف القارب في البحيرة البيضاء. ربما لم تكن إريكا كوهوت تفهمه. ربما كانت تفهم أجزاء منه، لا تفهمه ككل تام.

يخرج الطالب الذي فشل بسبب عزفه المقطوعة الموسيقية ذات السلم الموسيقي الملون، متثاقلاً من مقصورته ويتوجه نحو المرآة. لقد شعر بشيء من الراحة عندما رأى انعكاس صورته المشعة، فمسح شعره بطريقة فنية، اللمسة الأخيرة، للتعويض عن فشل يديه.

يفكر والتر كليمر أن معلّمته لم ترق إلى مستوى عازفة في الحفلات الموسيقية. ثم يبصق على الأرض، ويصدر صوتاً يُسمع على بعد أميال، متخلصاً مما تبقى من آخر آثار الرغوة الداخلية التي أفرزها مزاجه. أما زميله عازف البيانو، فيرمق البصقة مؤنباً، لأنه معتاد على النظام. الفنّ والنظام، قريبان يرفضان أن يرتبطا. يسحب كليمر بقوة عشرات المناديل الورقية من الصندوق، ويكوّرها ويجعلها في شكل كرة، ثم يرميها في سلة المهملات، لكنه يخطئ قذفها في السلة بفارق ضئيل جداً كرمش بعوضة. ينظر زميله شذراً إلى هذا التصرف. فقد انتابه الفزع مرة أخرى، ففي هذه المرة تُهدر الأملاك العائدة إلى مدينة فيينا. إذ يمتلك أبواه محلاً صغيراً، ويجب أن يعود إلى عائلته البرجوازية الصغيرة إذا لم ينجح في الامتحان في المرة القادمة، لأن أبويه سيتوقفان عن مده بالمال. وسيتعين عليه أن ينتقل من الفنّ إلى العمل، وسيذكر هذا الأمر بدون شكّ، عندما يبدأ يبحث عن زوجة،

وسوف تعاني زوجته وأطفاله من عواقب هذه الحقيقة. لذلك سيبقي العمل والمتعة دون أن يمسهما أحد بسوء. وبمجرد التفكير في ذلك، تتشنج أصابعه المثلجة الحمراء الشبيهة بالمقانق، التي يجب أن تساعد أباه في المخزن، وتتحول إلى مخالب طيور جارحة.

يضع والتر كليمر قلبه في رأسه ويستعرض بعقله النساء اللاتي ضاجعهن وما تبقى منهن. وقدم لهن شرحاً مفصلاً عن السبب الذي جعله يتخلى عنهن. ولم يتوقف عن ذلك لأنه يريد أن يتأكد أنهن فهمن قصده (من لا يعاني لن يغنم). ولو شاء الرجل، لتركهن دون أن ينبس بكلمة. تومض هوائيات المرأة وتتذبذب بعصبية في الهواء. فالمرأة قبل كلّ شيء مخلوق عاطفي. ولا يسيطر عليها العقل، كما تستطيع أن تعرف من الطريقة التي تعزف فيها البيانو. والمرأة عادة لا تفعل شيئاً أكثر من أن تلمح إلى قدراتها، وترضى تماماً بأن لا تمضي في مشوارها حتى النهاية. أما كليمر، فهو يحبّ دائماً أن يمضي إلى آخر المشوار.

يعرف والتر كليمر تمام المعرفة أنه يريد أن يغشى معلّمته. إنه يرغب بقوة في أن يغزوها، وكالفيل، يطأ كليمر بلاطتين بيضويتي الشكل تحت قدميه لمجرد التفكير في أن حبّه قد لا يكون حباً متبادلاً. وبعد لحظات قليلة، سينطلق مثل قطار ألبرغ السريع من نفق يحمل الاسم ذاته، إلى مشهد طبيعي شتوي متجمّد يغلب عليه العقل. وهذا المشهد الطبيعي شديد البرودة لأن إريكا كوهوت لم تشعل أيّ ضوء فيه. وينصح كليمر تلك المرأة بأن تفكر جدياً في إمكانياتها الضئيلة. شابّ يتفجر شوقاً لها، ويشتركان الآن في إرساء الأساس العقلي. لكن إذا ما سُحب هذا الأساس فجأة من تحت أقدامهما، فسيضطر كليمر لأن يجذّف قاربه وحده.

يُسمع صدى وقع قدميه في ممر المعهد الموسيقي الذي خلا من

أي شخص. يهبط الدرج واثباً، مثل كرة مطاطية، من درجة إلى أخرى، ويبدأ مزاجه الجيد يعتدل شيئاً فشيئاً، الأمر الذي كان ينتظره بفارغ الصبر. لا يُسمع صوت من وراء باب غرفة كوهوت. كانت أحياناً تأتي إلى المعهد لتعزف قليلاً، لأن البيانو في البيت أسوأ بكثير من البيانو في المعهد. لقد اكتشف ذلك للتو. يتلمّس بسرعة مقبض الباب كي يحسّ بشيء تلمسه المعلّمة يوماً بعد يوم. لكن الباب يظل بارداً وصامتاً، بل حتى أنه لا يتزحزح ولا حتى ملليمتراً واحداً، لأنه مقفل. لقد انتهت الدروس. فهي الآن في منتصف الطريق إلى البيت لتنضم إلى أمّها الخرفة، وتتبادلان اللكمات إلى الأبد. ومع ذلك، فهما لا تقويان على أن تفارق إحداهما الأخرى، ولا حتى في الإجازة، التي تقضيانها في منتجع ستيريان. تتشاجران وتتشاحنان. والحال هذا يمتد منذ عشرات السنين! إنه وضع غير سليم لامرأة حسّاسة، امرأة إذا تمعّن فيها من الناحية الرياضية من جميع الجوانب، لاكتشف أنها ليست هرمة إلى تلك الدرجة. تلكم كانت الأفكار الإيجابية التي دارت في رأس والتر كليمر عن محبوبته، وهو في طريقه إلى منزل أبويه، اللذين يعيش معهما.

كان قد طلب منهما أن يهيئا له وجبة عشاء لذيذة. إذ يجب عليه أولاً أن يعيد ملء خزانات طاقته التي استنزفها بسبب معلّمته، ولأنه ثانياً يريد أن يمارس الرياضة في الغد، وسينطلق مع انبلاج الفجر. الرياضة لا تهمّ، لكنه ربما ذهب إلى نادي القوارب. لديه رغبة جامحة في أن يمارس الرياضة حتى يسقط من الإعياء، يستنشق هواء لم يستنشقه أحد من قبل، هواء غير الهواء الذي تنشقه وزفره آلاف من الناس الآخرين. هواء نظيف لا يتعين على كليمر أن يتنشق فيه أبخرة المحركات والأطعمة الرخيصة التي تقدم للناس من الطبقة الوسطى. إنه يريد أن يتناول شيئاً طازجاً تنتجه الأشجار في جبال الألب بمساعدة اليخضور.

إنه سيذهب إلى أكثر البقاع ظلمة في ستيريا التي لا يطأها إنسان. وهناك سينزل مركبه إلى الماء، قرب سد قديم. يضع خوذته البرتقالية الصلبة، ويرتدي سترة النجاة، وغطاء واقياً من الرذاذ، وينطلق بين غابتين، متمايلاً ذات اليمين وذات اليسار، لكن سيظل دائماً منطلقاً إلى الأمام متابعاً مجرى التيار. يجب أن تبذل ما بوسعك كي تتحاشى الصخور. كي لا تنقلب! وتحافظ على سرعتك! يسرع أحدهم في قارب وراءه، لكنه لا يستطيع اللحاق به. عادة ما تنشأ صداقات في نهاية الألعاب الرياضية مع الشخص الذي يهدّدك بالتفوق عليك. يقيس الشخص قوته بقوة رفيقه الأدنى مما يزيد من تقدمه. ولتحقيق هذه الغاية، يختار والتر كليمر بعناية شخصاً أقل قوة يمكنه أن يتقدم عليه. وعندما يتعلق الأمر بالرياضة أو اللعب، فإن كليمر لا يخسر. ولهذا كان يحسّ بضيق شديد من إريكا كوهوت. وعندما يقع في مستنقع النقاش، لا يستسلم، بل يلقي شيئاً بغضب في وجه معارضه: حفنة من البندق، من ذلك النوع الذي تتقيأه الطيور من آكلة اللحوم - صندوق مليء بالعظام، شعر غير قابل للهضم، أحجار، أعشاب غير مطهوة. ثمّ يحدّق سارحاً، يسترجع كلّ الأشياء في عقله التي كان يمكن أن يقولها، لكنه للأسف لم يقلها، ويغادر أخيراً الحلبة وهو في مزاج سيئ للغاية.

الآن، وبعد أن أصبح في الشارع، مدّ يده إلى جيبه الخلفي وسحب محبوبته كوهوت. وبما أنه كان وحيداً، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتفوق عليه في رياضته، فقد بدأ يتسلّق هذا الحبّ (سلّم وهمي من الحبال)، ليبلغ ارتفاعاً جسدياً وروحياً معاً.

وبخطوات واسعة مرنة اتجه مسرعاً إلى غوهانسغانس، ثم انعطف يساراً إلى شارع كارنتنر واندفع بسرعة إلى الحلبة. كانت حافلات الترامواي الملتفة كالديناصورات أمام دار الأوبرا تشكّل حاجزاً طبيعياً

يصعب تجاوزه. لذلك تعين على كليمر، رغم تهوّره، أن يأخذ المصعد ليصب في أمعاء طريق الأوبرا السفلي.

وكان قوام إريكا كوهوت قد انزلق منذ قليل خارجاً من مدخل إحدى البنايات. رأت الشابّ مسرعاً، ومثل لبوة، أخذت تغذّ الخطى وراءه. وبما أنه لم يسمع أحد بمطاردتها أو يراها، فلم يكن لها ثمة وجود. لم تكن تعرف أنه سيمضي طوال هذا الوقت في الحمّام، لكنها انتظرت، وانتظرت. يجب أن يمرّ من هنا اليوم. هذا إذا لم يتخذ الاتجاه الآخر، الذي ليس هو الاتجاه الذي يسلكه عادة. إن إريكا في حالة انتظار دائم في مكان ما، بصبر وأناة. أخذت تراقب من مكان لا يتوقّع أحد أن يشعر بوجودها. إنها تشذّب بعناية حواف الأجسام المهترئة القريبة التي تنفجر، أو تقبع هناك، وتصحبها إلى البيت. ثم تأخذ في تقليبها، سواء وحدها أو مع أمها، مرات عديدة، وتمسّد درزاتها، تبحث عن الفتات، عن الأوساخ، أو عن قطع ممزّقة لتقوم بتحليلها. مخلفات حياة أناس آخرين أو موتهم، إن كان بالإمكان قبل أن تؤخذ حياتهم لتنظيفها. هناك الكثير الذي يجب أن تبحث عنه وتجده. وبالنسبة لإريكا، فإن هذه الرقائق والقصاصات هي الخلاصة الحقيقية. تنحني السيدتان كوهوت، كلّ على حدة أو مجتمعتين، فوق طاولة العمليات في بيتهما بحماسة شديدة، وتمسكان شموع المواد المتبقية المشتعلة لكي تقرّرا إن كانت هذه الألياف نباتية أم حيوانية صافية، أم أكياس متنوعة، أم من الفنّ البحت. ولا تزالان تستطيعان تحديد رائحة البقايا المتفحّمة ولزوجتها على نحو صائب، وعندها سيكون بوسع المحقق الحائر أن يقرّر ما يمكنه أن يفعل بها.

تضم الأمّ وطفلتها رأسيهما معاً. إنهما متلازمتان لا تنفصلان، ومن الناحية العملية، هما شخص واحد. ولعل تلك البقايا الغريبة،

التي انفصلت عن مرساها الأصلي، تقبع أمامهما، لا تلمسانها، لا تهددانها، ومع ذلك، فهما محملتان بآثام الآخرين، ولذلك يجب فحصها بعناية شديدة. ولا يمكن لهذه البقايا أن تفلت، ولا يمكن للطلاب أن يفلتوا من سلطة معلّمة البيانو عادة، التي تمسكهم مسك اليد في كل مكان، ما إن يغادروا مياه عزف البيانو الهائجة.

يمشي كليمر بخيلاء أمام إريكا. يمضي قدماً بإصرار وعناد، متحاشياً المنعطفات. أما إريكا فكانت تتحاشى كلّ شخص وكلّ شيء، إلا أنه إذا تجنبها شخص فطن، تنطلق وراءه، تتعقبه: منقذها، الذي انجذبت إليه، كما لو أنها قد انجذبت إلى كعبة أنظار عملاقة.

تسير إريكا كوهوت بخطوات سريعة متعقبة إياه عبر الشوارع. أما كليمر فيستشيط غضباً من الأشياء التي لم تتحقق، ومن الأشياء التي لا يرغب فيها، ولم يكن يراوده أدنى شك في أن محبوبته تندفع وراءه، وبالسرعة نفسها. وكانت إريكا ترتاب في الفتيات الشابات، تحاول أن تقيس ثيابهن وأبعادهن الجسدية الطبيعية، آملة في أن تجد فيهن عيباً لتسخر منهن. يا لها من متعة تلك التي تستمدها هي وأمّها من السخرية من تلك المخلوقات! تتجاوز تلك الفتيات ببراءة درب الطالب دون أن يحدثن أي أذى، ومع أنهن بوسعهن أن ينسربن إلى كليمر مثل عويل صفّارات الإنذار، فكنّ يبهرنه، ويجعلنه يتبعهن. تدقّق لترى كم يديم النظر في امرأة، ثم تمحو تلك النظرة بعناية. بوسع الشابّ الذي يعزف البيانو أن يحصل على درجات عالية لا يمكن لأي امرأة أن تحققها. ومن الأفضل له ألا يختار أيّ امرأة، رغم أن الكثير من النساء سيخترنه.

كلاهما يدور وينعطف في شوارع فيينا. الرجل محاولاً أن يخفف من غلوائه، والمرأة مكتوية بنار الغيرة.

تنكفئ إريكا داخل لحمها، تلك العباءة المنيعة. لا تحتمل أية

لمسة. إنها منغلقة على نفسها. ومع ذلك فقد انجذبت إلى طالبها. إنه رأس المذنّب، وهي ذيله. وقد نسيت اليوم أن تضيف شيئاً إلى خزانة ملابسها. لكنها ستتذكّر أن ترتدي شيئاً مختلفاً في درسها القادم. سترتدي ثوباً أنيقاً بعد أن حلّ الربيع. الأمّ في البيت، لا تريد أن يطول انتظارها أكثر، والمقانق التي تطهوها لا تحبّ أن تنتظر كذلك. إذ ستصبح قاسية وتحتاج إلى كثير من المضغ، ولن تصلح للأكل. وعندما تصل إريكا، ستشعر الأمّ بضيق شديد وستضطر إلى اللجوء إلى الخدعة التي تستخدمها ربّة البيت لكي تستوي المقانق جيداً وتتشرب الماء، حتى تصبح عديمة الطعم قاسية. سيكون ذلك تحذيراً كافياً. لكن إريكا لا تشك في شيء.

إنها تجري وراء كليمر، وكليمر يجري أمامها. أحدهما يرتبط بالآخر في نهاية الأمر. بسهولة ويسر، تتعقب إريكا خطوات كليمر. ومن الطبيعي أنه ليس بوسع إريكا أن تعاقب واجهات المحل كلها بإهمالها لها. تنظر إليها بطرف عينها. لم تنظر بإمعان إلى الألبسة في هذه المنطقة، رغم أنها لا تكفّ عن البحث عن ثياب جديدة ورائعة. إنها بحاجة ماسة إلى شراء فستان للحفلة الموسيقية الجديدة، لكنها لا ترى شيئاً ملائماً هنا. من الأفضل لها أن تشتري فستاناً من مركز المدينة. فقد تناثرت فوق موديلات أوائل الربيع وأواخر الشتاء لفافات وقصاصات ملونة كتلك التي تستخدم في الكرنفالات المفعمة بالبهجة. وهناك أشياء برّاقة تبدو رائعة للسهرة ولا يمكن ارتداؤها إلا في الليل. وفي واجهة المحل يلتف وشاح عادي من الريش حول كأسَي شمبانيا مصفوفين بدهاء وممتلئين بسائل اصطناعي. وثمة زوج من الصنادل الإيطالية الأصلية ذاتَ الكعب العالي وقد نثرت فوقهما قصاصات ملونة متلألئة. وتقف امرأة في منتصف العمر أمام واجهة المحل، مستغرقة

تماماً. قدماها لا تسعان في نعلها المصنوع من وبر الجمل الذي يبلغ مقاسه اثني عشر؛ فقدماها شديدتا الانتفاخ، وقد أمضت حياتها كلها وهي تقف أمام الأشياء الراكدة الفاسدة. تنظر إريكا إلى فستان حريري قرمزي مطرز على الردنين والرقبة. إن التعلّم أفضل بكثير من النظر. إنها تحبّ هذا، ولا تحبّ ذاك (فهي قبل كلّ شيء لا تزال شابة).

إريكا كوهوت تتبع والتر كليمر الذي يدلف إلى مدخل بيت من الطبقة المتوسطة، دون أن ينظر إلى الوراء. فقد كان والداه في انتظاره في شقتهما في الطابق الثاني. لكن إريكا كوهوت لا تدخل وراءه. فهي لا تسكن في مكان بعيد من هنا، بل في المنطقة ذاتها. ومن سجلات المدرسة تعرف أن كليمر يقطن في الحيّ الذي تقيم فيه. ربما كان أحدهما خُلق من أجل الآخر، لكن الآخر سيدرك ذلك بعد الكثير من العواصف والنزاعات.

لم يعد بإمكان المقانق أن تنتظر أكثر. لذلك تأتي إريكا لعندها. إنها متأكدة من أن والتر كليمر لم يتوقّف في أي مكان، بل ذهب مباشرة إلى البيت. لذلك يمكنها أن تتخلّى عن مهمتها في المراقبة اليوم. لكن ثمة شيء حدث لها. تأخذ النتيْجة، تأخذها إلى البيت، وتضعها في الخزانة وتقفل عليها، كي لا تعثر الأمّ عليها.

* * *

يجد الناس متعة كبيرة في التنزه في براتر. إذ يجد الصغار متعتهم في مدينة الملاهي، والداعرون في المروج. كلّ مجموعة تتمتع بطريقتها الخاصة. وفي الكرنفال، يضع الآباء الذين ملأوا بطونهم بالنبيذ أو البيرة، وأكلوا مع أطفالهم الفطائر أو لحم الخنزير المشوي، أطفالهم على ظهور المهور والفيلة والثعابين، ويركبونهم في السيارات

البلاستيكية المتعددة الألوان. ويدور الأطفال حول أنفسهم، ويقذفون كلّ شيء كانوا قد ابتلعوه. وتتهاوى عليهم صفعات قوية لأن الطعام الذي تناولوه في المطعم كلّف مبلغاً باهظاً، إذ لا نستطيع أن نوفّر مثل هذه المتع في كلّ يوم. وحبس الآباء وجبات طعامهم في جوفهم، لأن معدهم تصلبت وقسيت، لكن أيديهم تكون سريعة عندما تنهال على ذريتهم. مما يجعل الأطفال يتحرّكون بسرعة أكبر. أما إذا شرب الأب والأمّ كثيراً، فقد لا يستطيعان أن يتحملا اهتزازات الأرجوحة.

ولاختبار قوة شخصيتهم والتباهي بقوتهم، يتوجّه جيل الشباب إلى متع الألعاب الإلكترونية من جيل الرقائق ما قبل الأخير. ولهذه العربات أسماء استمدت من الرحلات الفضائية. وهي شديدة التباين والتنوع، تندفع في الهواء بسهولة كبيرة، تتأرجح، لكنها تجري بدقة شديدة، وربما أصبح أعلاها سافلها. أما العبّارة الكونية فهي عبارة عن مصعد يضم هيكلين عملاقين من المعدن الملوّن. وبالفعل، يجب أن تكون شجاعاً لكي تجد متعتك هنا. وهذه الجولات مخصصة للمراهقين الذين قوّتهم الحياة، لكنهم لا يزالون لا يتحمّلون أية مسؤوليات بعد، ولا حتى مسؤولية أجسامهم. وهم يستطيعون أن يتحملوها وهي تصعد وتهبط. وفي غضون ذلك، يحاول الرجال على الأرض إثارة إعجاب صديقاتهم بإطلاق النار على الدمى. ويحملون جوائزهم إلى البيت. كي تستطيع أن ترى الزوجات المحبطات بعد سنوات كم كنّ ثمينات لدى خلانهن.

لكن الأمور تختلف كثيراً في البقاع الخضراء الشاسعة، والأكثر وحشية من منتزه براتر. إذ يقوم المحتالون بالتحكم بهذه المنطقة. ولا تتوقف الحافلات الجميلة الكبيرة السريعة عن إفراغ أحشائها من الركاب ممن يرتدون ثياب ركوب الخيل، الذين كانوا أحياناً يعودون إلى بيوتهم

دون أن يحققوا ما جاءوا من أجله، الحصان، لذلك كنت تراهم يتهادون ويمشون بخيلاء بهذه الثياب في الساحة. أما السكرتيرات فكن يفلسن هنا، لأنه يتعين عليهن كذلك أن يرتدين ثياباً أنيقة في العمل. ويحرّك المحاسبون مؤخراتهم ليضعوها فوق أحد الخيول لمدة ساعة واحدة في عصر كلّ يوم سبت، الذين يضطرون للعمل وقتاً إضافياً للتخلص من سطوة رؤساء الأقسام ومديري الشركات الذين يتمتعون عادة براحة أكبر، لأنهم يستطيعون توفير هذه المتع بسهولة، لكنهم لا يتعين عليهم أن يفعلوا ذلك. ويمكن لأيّ شخص أن يعرف من هم، وقد يبدأون بالتفكير في لعبة الغولف التي سيلعبونها.

ربما كانت هناك مناطق أكثر جاذبية لركوب الخيل، إلا أنه لا يوجد مكان آخر يمكن للمرء أن ينظر إليه ويحدّق فيه بسبب هذا العدد الهائل من العائلات البريئة مع الأطفال الأبرياء والكلاب المربوطة بأرسنتها: انظر إلى هذا الحصان! يصرخ الأطفال. فهم يرغبون في ركوب الخيول أنفسهم. وإذا ألحّوا على ذلك بصوت عالٍ، يتلقون صفعة على وجوههم. إننا لا نملك مالاً كافياً. وللتعويض عن ذلك، يوضع الصغار على حصان بلاستيكي هزاز، حيث يمكنهم مواصلة أنينهم ونواحهم. إنه درس جيد للأطفال: إذ يتعلّمون أنه يوجد لكل شيء أصلي باهظ الثمن نسخة مقلدة رخيصة الثمن. لكن لسوء الحظ، لا يتذكّر الطفل إلا الأشياء الأصلية ويبدأ يكنّ كراهية لأبويه.

كما توجد في منتزه براتر أماكن تتسابق فيها الخيول، التي يتعين عليها أن تنطلق بسرعة، ويمكن لحوذييها عمل الكثير. وتتناثر فوق الأرض علب فارغة، وبقايا تذاكر الرهانات، وأوساخ أخرى لا تستطيع الطبيعة أن تهضمها. فهي لا تستطيع إلا أن تتعامل مع الأنسجة الرهيفة. الورق المستخدم ليكون منتجاً طبيعياً، إلا أن فترة طويلة ستنقضي قبل

أن يصبح مرة أخرى صحوناً ورقية، محصولاً غير صالح للأكل، يشتهي الأرض الموطوءة. آلات نحيلة بأربع قوائم تُلقم بذكاء، وتمتلك عضلات على نحو رائع، تندفع تحت أغطيتها، توجّه بإخلاص. وكلّ ما يتوجب عليهم أن يهتموا به هو وسيلة الربح المستخدمة في السباق الثالث، لكن فرسانهم أو حوذييهم سيعلمونهم في الوقت المناسب، قبل أن تتاح لهم فرصة الخسارة.

وعندما يبدأ ضوء النهار في الأفول، ويخرج الليل بالمصابيح والعمل، أو بالمسدسات والمفاصل النحاسية، ترى الناس الذين خسروا في الحياة يرافقهم آخرون أغلبهم من النساء، وفي أحوال نادرة جداً، من الشبان الصغار، لأنه عندما يكبر هؤلاء الشبان، تقلّ قيمتهم بالنسبة للنساء الأكبر سنّاً. والذين بطبيعة الحال، سواء كانوا صغاراً أو كباراً، لا يساوون شيئاً بالنسبة للمثليين جنسياً. وتتدافع العاهرات، والمتدافعون يتعهّرون في منتزه براتر.

ويُحذِّر كلّ مواطن فييني، منذ نعومة أظفاره، بألا يقترب من هذه المنطقة في الليل: الفتيان إلى اليسار، والفتيات إلى اليمين. ويمكنك أن تجد الكثير من النساء المسنات هنا، في أواخر حياتهن المهنية أو على حافة قبرهن. وغالباً ما يكتشف المرء جثثهن، التي تُلقى من السيارات المسرعة. وكالعادة لا تكتشف الشرطة شيئاً، لأن المجرم يكون قد عاد منذ فترة طويلة إلى صمته المعتاد الذي كان قد خرج منه. فقد يكون القواد، لكنه يثبت عدم وجوده في موقع الجريمة. لذلك اختُرِع واستُعمل المفرش المتنقل لأول مرة. فإذا لم يكن لديك شقّة، أو غرفة، أو فندق رخيص تمكث فيه لليلة واحدة، أو سيارة، يتعين عليك عندها أن تشتريَ مفرشاً متنقلاً، يجعلك تشعر بالدفء، ويمكنك أن تستخدمه بهدوء عندما تجتاحك الرغبة. هنا، فيينا، في حقدها

اللامحدود مع سبق الإصرار والترصد، تعرض أكثر أزهارها جمالاً عندما يندفع يوغوسلافي فطن، أو صانع أقفال سريع، محاولاً أن يحصل على هدية مجانية، تطارده محترفة بذيئة اللسان لم تُمنح أجرها المطلوب. إلا أنه لا يوجد ثمة شيء يتوق إليه صانع الأقفال أكثر من جدار آخر، كي يتمكن هو وصديقته من إخفاء شبق حياتهما. كتب، نظام ستيريو مع مكبرات صوت، وألبومات، وتلفزيون، وراديو، ومجموعة فراشات، وحوض سمك، وأدوات وآلات لممارسة الهوايات المتعددة، والله يعلم أو لا يعلم أي شيء آخر يمكن يحميها من العيون المحدقة التي تخزنها بأمان. ولا يمكن للزائر إلا أن يرى الحاجز المصنوع من خشب الورد الملوّث ببقع داكنة، فيما لا يرى الفوضى على الجانب الآخر. ويتعين عليه أن ينظر بغضب إلى البار الصغير في البيت بمشروباته الملوّنة، وأقداحه المتلألئة، الملمّعة إلى ما لا نهاية والتي تتطابق مع تلك الأشكال والظلال. ففي السنوات الأولى من الزواج تمنح رعاية خاصة لهذه الأقداح. ثم يأتي الأطفال ويحطمونها، أو تبدأ الزوجة تنسى تلميعها لأن الزوج أصبح يعود إلى البيت دائماً متأخراً جداً، وبعد أن يكون قد تناول ما يكفي من المشروب في إحدى الحانات في الخارج. وسرعان ما تبدأ تتشكل ببطء طبقة من الغبار على البار.

اليوغوسلاف والأتراك يكرهون النساء بالفطرة. أما صانع الأقفال من أهالي فيينا فلا يكره المرأة إلا إذا لم تكن نظيفة، أو أنها تهدر المال على المساحيق. إذ يمكن إنفاق هذه النقود على شيء مفيد أكثر، شيء أكثر متانة. فهو ليس مضطراً لأن يدفع ثمن شيء لا يدوم طويلاً كبخاخ الشعر مثلاً. والأهم من كلّ ذلك أن تلك المرأة ستجد معه متعة لن تجدها مع رجل آخر. فبمجرد أن يحيا حياته الخاصة، يكون قد خلق

سائله المنوي بنفسه بصعوبة وعلى نحو مضجر. وعندما يموت، لن يكون بوسعه أن ينتج أيّ عصير، أو يخرج أيّ نسغ، الأمر الذي ستأسف عليه نساء كثيرات. ولا يستطيع صانع الأقفال غالباً أن يرى نساء أخريات لأنه معروف جيداً في الحيّ، وهو موضع مراقبة من دون شفقة. لكنه إذا تعرض لأزمة مالية حادّة، كأن يتأخر في تسديد الأقساط مثلاً، فسيتعرض لخطر الضرب أو حتى إلى شيء أسوأ بكثير. إن رغبته الجامحة في مختلف أنواع الفروج، لا تتماشى دائماً مع رغباته وإمكانياته المالية.

أما الآن، فهو يبحث عن امرأة لا يوجد رجل آخر يفكّر في توفير الحماية لها. وستدين له بامتنان شديد، لأن صانع الأقفال عبارة عن كتلة لحمية عديمة الشكل. وقد اختار امرأة نموذجية في عالم الأحاسيس، عجوزاً شمطاء. أما الهنغاري أو التركي، فلا يستطيع أن يجازف بذلك، لأن النساء لن يدعنه يقترب منهن في معظم الأحيان، على الأقل إلى مسافة لا تقل عن رمية حجر. وإذا قبّلت امرأة واحداً منهم، فلا تستطيع أن تطلب قدراً كبيراً من المال، لأن عملها لم يعد يساوي كثيراً. والتركي، الذي لا يساوي بالنسبة لربّ عمله مقدار المبلغ الذي يدفعه له، فإن شريكته في الجنس تشعر بالتقزز منه. فهو يرفض أن يضع واقياً جنسياً، لأن الأنثى مجرد خنزير، وليست ذكراً. ورغم ذلك، فإن التركي، مثل صانع الأقفال، ينجذب إلى حقيقة لا يمكن إغفالها، مهما كانت مرفوضة وهي الأنثى. فالرجال الأتراك لا يحبّون النساء، وهم لا يصاحبونهن عن طيب خاطر. لكن بما أن النساء حقيقة وواقع محتوم، فماذا عساك أن تفعل معهن؟ وما هو أول شيء يخطر في بال الرجل؟

أما صانع الأقفال فيعامل خطيبته باحترام لمدة لا تزيد على أسبوع

واحد. يشيد بنظافتها ونشاطها في العمل. ويقول لأصدقائه إنه لا يشعر بالحرج إذا ما رآه أحد معها، وهذا يعني الشيء الكثير. وبإمكانه أن يصطحبها إلى أيّ نادٍ ليلي. ولأنها غير متطلبة كثيراً، فهي لا تطلب منه الكثير. وتحصل على أقل ما يمكنها، وهي بالكاد تلاحظ. إنها تصغره بكثير. وهي تأتي من بيت منحرف، لذلك فإنها تقدّر البيت المنظم، الذي يكون لديه شيء يقدمه لها.

لا تستطيع أن تتحدث عن حياة التركي الخاصة، لأنه غير موجود. فهو يعمل. وبعد العمل، يجب أن يُخزَّن في مكان ما، لحمايته من الجو، لكن لا يعرف أحد أين. من الواضح في حافلة الترامواي، التي لا يشتري تذكرة لركوبها.

أما العالم غير التركي المحيط به، فهو كرتوني الشكل، كالدريئة التي تسدد إليها هدفك في صالات الرمي. فإذا كانت ثمة حاجة إليه للعمل، يُخرج من مكانه ويبدأ يتحرك. يطلق عليه أحد النار، وسواء أصيب أم لا، فإنه يتوارى في الطرف الآخر من الصالة، ثم يدور خفية (لا أحد يراه، لكن ربما لا يكون ثمة شيء جدير بالمشاهدة). إنه يتحرك وراء الستارة الورقية، ويعود إلى نقطة البداية. ثم يعود ويدخل المشهد (نبات الصليب الاصطناعي على قمة الجبل، نبات البرسية الألبية الاصطناعية، نبات كف الذئب الاصطناعي)، حيث ينتظره دفء فيينا. وتكون زوجة الرامي التي ترتدي أجمل ثياب يوم الأحد قد أثارته، فضلاً عن الصحيفة الشعبية المحلية، وابنه المراهق، الذي يريد أن يبزّ أباه في الرماية، ويتمنى في قرارة نفسه ألا يتمكن أبوه من إصابة الهدف، الذي يقدم للرابح دمية صغيرة كجائزة على إصابته. وهناك جوائز أخرى: عصا هارون وقضيب ذهبي. لكن مهما كانت الجائزة، فالهدف هو المرأة، التي تنتظر الرامي المنتصر، وتكون هي أعظم جائزة

له على الدوام. فهي تعرف أنه يبذل كلّ ما بوسعه من أجلها، وأنه إذا أخفق ولم يصب الهدف، فإنه يستشيط غضباً من أجلها فقط. وفي كلتا الحالتين، يجب أن تكتوي بناره. وقد ينشأ شجار قاتل إذا لم يتوقف الرجل عن التفكير في أنه يمكن ألا يصيب الهدف. أما المرأة فتزيد الطين بلة عندما تحاول أن تهدئ من خاطره. فعليها أن تدفع ثمن ذلك، عندما يندفع مباشرة لتناول الوجبة الرئيسية، ويضاجعها من دون مقبلات ليشحذ شهيتها. يثمل كثيراً، وإذا رفضت أن تنال قضيبه هذه الليلة، فيوسعها ضرباً كما لو أنها لن ترى صباح يوم آخر. وتصل سيارة الشرطة، صفارة الإنذار تولول، يقفز أفراد الشرطة خارج السيارة ويسألون المرأة لماذا تصيح هكذا، فعليها أن تدع جيرانها على الأقل ينامون، إذا لم يغمض لها هي جفن. ثم يعطونها عنوان ملجأ النساء.

* * *

إريكا، زورق شراعي صغير يفتّش عن فريسة، يدور بحرية تامة في المنطقة التي تمتدّ عبر الجزء الأخضر من منتزه براتر كله.

أصبحت هذه البقعة أرض صيدها السعيدة الجديدة مؤخراً. إنها توسّع نطاقها، لأنها تعلمت جيداً اللعبة البرّية في حيها منذ وقت طويل. والمجيء إلى هنا يتطلب شجاعة. تنتعل إريكا حذاءً متيناً، حتى إذا حصل تدافع وتناكب - أي إذا اكتشفها أحد يمكنها أن تهرع وتلوذ بالأحراج، حيث يتناثر روث الكلاب، وقناني بلاستيكية فارغة تشبه القضبان، لا تزال تحتوي على بقايا من شراب الليمون المصبوغ بمواد سامّة للأطفال (كانت قد عرضت كلّ نكهة منها في التلفزيون مع حيوان مختلف يغني)، وأكوام من الأوراق الدهنية التي استعملت ذات مرّة لأغراض غامضة، وصحون ورقية ملطخة بالخردل، وأغشية مطاطية لا

تزال ممتلئة ومحافظة على شكل القضيب السابق. وتنتظر إريكا متوفّزة متوترة، تحاول أن تشتمّ فريستها. تأخذ نَفَساً عميقاً ثم تطلقه.

أما البراترستيرن، تلك الساحة الكبيرة التي تترجل عندها من الحافلة، فهي ليست خطيرة. رجلان شبقان غير مؤذيين يختلطان بالمارة والحافلات. ويمكن حتى لسيدة متأنقة أن تذهب إلى البراترستيرن دون أن يرافقها أحد، رغم أن المنطقة ليست عصرية. فقد تحدث هنا كلّ أنواع الأشياء الغامضة. وإذا لم يكن هناك مثلاً أجانب متربصون يبيعون الصحف، فقد تراهم يخرجون من حقائبهم البلاستيكية قمصاناً مبهرجة ذات جيوب عديدة (مباشرة من المصنع)، وفساتين نسائية أنيقة (مباشرة من المصنع)، ولعب أطفال (مباشرة من المصنع)، فيها عيب طفيف، وعلب سيجار (مباشرة من المصنع)، وقطع غيار كهربائية وإلكترونية صغيرة (مباشرة من المصنع أو مسروقة)، وأجهزة راديو ترانزيستور أو مسجلات (مباشرة من المصنع أو مسروقة)، صناديق سكائر (لا يعرف إلا الله من أين). ويبيعها الباعة، ينادون عليها بأصواتهم العالية. ورغم ثيابها البسيطة، تبدو إريكا وكأن حقيبتها الكبيرة جداً التي تعلقها على كتفها قد صنعت خصيصاً، أو أنها جلبت إلى هنا خصيصاً لتخفي عن أعين الناس آلة تسجيل صغيرة خارجة من المصنع حديثاً ومن جنسية غير معروفة وفي حالة جيدة، ومغلفة في غلاف بلاستيكي جديد. إلا أنه بالإضافة إلى الكثير من الأشياء الضرورية، فإن حقيبتها تحتوي على شيء أكثر أهمية: نظارات جيدة للتلصص. ويبدو أن إريكا مقتدرة مالياً تماماً: فحذاؤها من الجلد الأصلي وذو نعل جيد، ومعطفها لا يبدو صارخاً، لكنه لا يخفي نفسه عن العيون المترقبة، فهو يغطي صاحبته برصانة وبتكلف، يحمل بفخر ماركته العالمية البريطانية الشهيرة، رغم أنها غير مرئية. ويمكن ارتداء هذا

المعطف مدى العمر، هذا إذا لم يثر أعصابك في البداية. فقد حثّت الأمّ إريكا على شرائه، لأنها تؤيد إمكانية حدوث تغيير طفيف في الحياة في بعض الأحيان.

تتجنب الآنسة كوهوت الآن رجلاً يوغوسلافياً يقترب منها بصفاقة، يحاول أن يدفع في وجهها جهازاً لصنع القهوة فيه ثمة عيب، فضلاً عن الأجهزة الأخرى. يجب أن يتوقف عن ذلك. تدير رأسها محتدة، وتتسلق إريكا حاجزاً غير مرئي، وتتجه مباشرة إلى مروج براتر، حيث يمكن للمرء أن يتيه بسرعة. لكن إريكا لا تنوي أن تخسر نفسها، بل توطد عزمها على الفوز. وبفرض أنها تاهت وضلت طريقها، فإن أمّها التي أخذت ترفع من مزايا إريكا وفوائدها منذ ولادتها، تكون قد دخلت ضمن ممتلكاتها في الحال. وستجري البلاد كلها وراءها: الصحافة والإذاعة والتلفزيون. شيء ما يجتذب إريكا إلى هذا المشهد الطبيعي الساحر، وهي ليست المرة الأولى. فقد جاءت إلى هنا من قبل مرات عديدة، وهي تعرف وجهتها جيداً. فقد بدأ عدد الناس يقلّ. وبدأ الحشد يتفكك ويتناثر عند الأطراف، وأصبح كلّ شخص يسير وحده كالنمل، حيث تتنكّب فيه كلّ نملة مهمة محددة. وبعد ساعة، تحصل النملة بافتخار على قدر ضئيل من فاكهة أو جيفة.

حشود، جماعات، جزر تتشكّل عند مواقف حافلة الترامواي لتمتلئ بها بائتلاف وتناغم كبيرين. هبط الظلام بسرعة، كما حسبت إريكا، وبدأت أضواء الوجود الإنساني تخفت كذلك. ومن الناحية الأخرى، بدأت أعداد متزايدة تتحلق حول الأضواء الاصطناعية. إذ يتواجد الناس هنا، أو في المنطقة المحيطة لأسباب مهنية. فإما أنهم يمارسون هواياتهم وهي مظارحة الغرام، أو لعلهم يضاجعون أناساً كانوا قد ضاجعوهم من قبل، ثم يسلبونهم ويقتلونهم. والبعض الآخر

يكتفي بالمراقبة بهدوء فقط. وثمة قلة من الناس يقفون بالقرب من مدخل نفق المرح يستعرضون أنفسهم.

ثمة طفل تائه، تضايقه معدات التزلج كثيراً، يمشي متعثراً باتجاه آخر ضوء تحت مظلة موقف الحافلة. وتنهال على الطفل أصوات أبويه، المسموعة داخلياً، محذّرة إياه بألا يبقى وحيداً في براتر في الليل. ويقومان بعدّ العلب التي تضم الزلاجات التي كانا قد اشتراها أثناء التنزيلات الشتوية والتي لا يمكنهما استعمالها إلا في الفصل القادم. وكان الطفل قد ألحّ وألحف عليهما لشراء هذه الزلاجات التي أضاعها الآن. وبشعور بالعجز التام، يسير بالقرب من الآنسة كوهوت التي يكاد يمسها، مندهشاً من وجود هذه السيدة تسير وحدها مما يشكّل تناقضاً حياً لما دأب على إسماعه له والداه.

تخطو إريكا التي يجذبها الظلام نحو المروج المنتشرة بهدوء هنا، والتي تتخللها الأحراج والأشجار والسواقي. فالمروج تنتشر في كل مكان، وتحمل كذلك أسماء مختلفة. أما هدف إريكا فهو مرج اليسوعيين، الذي لا يزال بعيداً بعض الشيء. فها هي أولاً مدينة الملاهي. أضواء بعيدة تومض ثم تختفي. تُسمع أصوات طلقات، وأصوات تزأر منتصرة. إذ لا يكفّ المراهقون عن الصراخ وهم يمسكون أدوات المعركة في أروقة ألعاب الفيديو، أو يهزّون الآلات التي تصدر خشخشة تثير صخباً شديداً، يتكلمون، يثرثرون، تنطلق ومضات من البرق. تدير إريكا بحزم ظهرها لهذه الجلبة حتى قبل أن تدعها تصل إليها. الأضواء تسعى نحوها، ولا تجد شيئاً تتشبث به. تمرر أصابعها المتململة فوق منديلها، تنزلق، تسحب بندم أثراً متبقياً من اللون أسفل معطفها، ثم يسقط على الأرض خلفها، ليموت ويدفن في الأوساخ. انفجارات صغيرة للغاية تشد إريكا، لكنها يجب أن تدع

أيضاً إريكا تسير دون أن تحدث فجوة فيها. إنها تصدها وتقاومها بدلاً من أن تجذبها. والدولاب الهوائي العملاق ذو الأضواء المتناثرة يهيمن على كلّ شيء آخر. أما منافسه فيتمثل في القاطرة السريعة الشديدة الإنارة، حيث ترتفع مقصورات صغيرة للغاية تصدر صريراً، وتحمل المخاطرين والمتهورين الذين يزعقون ويطلقون صرخات مرعبة، والخائفين من قوّة التكنولوجيا، إذ يتعلّق أحدهم بالآخر بقوة. ويبدي الرجال أعذاراً واهية كي يتشبثون بالنساء، وهو ليس بالأمر الهام بالنسبة لإريكا. وإذا كان ثمة شيء لا ترغب فيه، فهو أن يتشبث أحد بها. وفي ذروة هذه الجولة المرعبة، يحيّي شبح مضيء العالم، الذي لا يصطاد أيّ سمكة بالطعم الذي وضعه، الذي يكون غالباً فتاة في الرابعة عشرة من عمرها مع أول خليل لها، ويلعبان هما الاثنان، كقطتين صغيرتين، برعب العالم قبل أن يصبحا هما نفساهما جزءاً من ذلك الرعب.

بيوت تمتد على نسق واحد. بيوت تتسع لعائلة واحدة، الحارس الخلفي الأخير لهذا اليوم. إذ يتعين على الناس الذين يقيمون هناك أن يستمعوا إلى الضجيج القادم من مسافة بعيدة طوال اليوم وحتى منتصف الليل. سائقو الشاحنات من بلدان الكتلة الشرقية، سكارى مع آخر دفقة من العالم الكبير. صندل للزوجة في البيت. يخرج الصندل من كيس بلاستيكي، وعلى الزبون أن يتأكد إن كان مطابقاً لمعايير العالم الحرّ. نباح كلاب. ومضات غرامية من إحدى شاشات التلفزيون. وثمة رجل خرج للتو من دار سينما تعرض أفلاماً إباحية، يصيح بأنك لم تر في حياتك شيئاً كما يمكنك أن تراه هنا، ادخل فقط. وما إن يخيم الظلام حتى يخيّل إليك أن العالم يتكون في معظمه من الذكور. فيما ينتظر القسم النسائي بصبر وأناة وراء مخروط الضوء النهائي، راجياً أن

يحصل على شيء مما أبقاه الفيلم من الرجل. يدخل الرجل إلى السينما وحده. وبعد الفيلم، يكون بحاجة إلى امرأة. فهو لا يستطيع أن يفعل كلّ شيء وحده. ولسوء الحظ، يجب أن يدفع مرّتين: مرّة للفيلم، ومرّة لممارسة الجنس.

تشق إريكا طريقها وتندفع إلى الأمام. المروج المهجورة تفتح حويصلاتها الماصّة. ما زال الدرب طويلاً حتى تصل إلى البقعة الجميلة، وما وراءها، إلى أراض أجنبية. إلى الدانوب، إلى ميناء لوباو النفطي، وميناء فريودينو. وميناء ألبيرن الذي يضم صوامع للحبوب. والغابات ذات المروج المحيطة بميناء ألبيرن. ثم ملعب بوتر، ورصيف المرفأ التجاري. وبراتر كواي، حيث ترسو السفن ثم تبحر ثانية. وما وراء الدانوب، وبُطيحة النهر العملاقة، التي يقاتل من أجلها الشباب المهتمون بالبيئة. أرض الشاطئ الرملية، مروج، وأشجار الألدر المتقزمة. أمواج تهدر. لكن لا يتعين على إريكا أن تسير كل هذه المسافة الطويلة.

لا يمكن لأحد أن يقطع كلّ تلك المسافة إلا إذا كان مجهزاً بشكل جيد، وإلا لوجب عليه أن يأخذ قليلاً من الراحة ويتناول وجبة خفيفة. أخذت إريكا تسير الآن فوق المرج الرخو تحت قدميها، مواصلة سيرها الحثيث. تغذّ السير. جزر صغيرة مجمّدة، ومفارش مخرّمة من الثلج. أعشاب بنية وصفراء لا تزال مجمّدة بفعل الشتاء. تضع إريكا قدماً وراء قدم، بثبات وعزم. وإذا وطأت إحدى القدمين كومة من روث الكلاب، فإن القدم الأخرى تدرك ذلك على الفور وتتفادى الرائحة الكريهة التي تدوم لفترة طويلة. ثم تمسح قدمها الأولى في العشب. تتراجع الأضواء ببطء وتصبح وراء إريكا. الظلام يفتح أبوابه ويقول لها: ادخلي! وتعرف الآنسة كوهوت من التجربة أنه يمكن رؤية مومسات هنا وهن

يمارسن أعمالهن. وفي جعبة إريكا لفّة محشوة بمقانق لحم الخنزير المفروم. طعامها المفضّل، رغم أن أمّها تدينه وتقول إنه غير صحي، ومصباح كاشف صغير للطوارئ، ومسدس ذو طلقات خلّبية لحالات الطوارئ القصوى (بحجم مفصل الإصبع!)، ونصف ليتر من الحليب بالشوكولاته لتطفئ ظمأها بعد أن تتناول مقانق لحم الخنزير المفروم، وكمية كبيرة من المحارم الورقية التي قد تحتاج إليها، ومبلغ ضئيل من المال، لا يكاد يكفي أجرة تاكسي، لكنها لا تحمل بطاقة هوية، حتى في حالات الطوارئ. بالإضافة إلى المنظار الذي ورثته عن أبيها، الذي كان يستخدمه عندما كان لا يزال في كامل قواه العقلية، لمراقبة الطيور والجبال، حتى في الليل.

أما الأمّ، التي ظنت أنّ إريكا ذهبت لحضور حفلة خاصة لموسيقى الحجرة، فقد قالت لابنتها بتعالٍ وبصوت عالٍ إنها سمحت لها بالذهاب لكي يكون لإريكا حياتها الخاصة بدلاً من أن تنحي باللائمة دائماً على أمّها بأنها لا تفلتها من قبضتها. وبعد انقضاء ساعة واحدة على أبعد تقدير، تبدأ الأمّ بالاتصال بإحدى زميلات إريكا في الحفلة، فتختلق الزميلة عذراً معقداً. إذ تقول زميلة إريكا إن إريكا منهمكة في معزوفة رومانسية وإنها، أي الزميلة، مشغولة جداً.

التربة داكنة، والسماء ساطعة بشكل يكاد يكفي لمعرفة أين تقع الأرض وأين تقع السماء. تلوح ظلال الأشجار في الأفق. إريكا تمشي بحذر. تتحرّك بصمت، خفيفة كالريشة. رقيقة لا وزن لها. تكاد تكون غير مرئية. تكاد تتلاشى في الأثير. عيناها تحدقان بحذر، وأذناها مشنفتان. المنظار امتداد لعينيها. تتحاشى الدروب التي يسلكها المتسكعون الآخرون. تبحث عن الأماكن التي يحصل فيها متسكعون آخرون على متعهم - دائماً شخصان معاً. وهي لم تقدم على عمل أي

شيء خاطئ، لا شيء يمكن أن يجعل الآخرين ينكمشون منها ويبتعدون عنها. وبالمنظار تمسح المنطقة بحثاً عن رجل وامرأة معاً، ينكمش الآخرون منهما ويبتعدون عنهما. لا تعد تستطيع أن تعرف أين تطأ بقدمها ومدى صلابة الأرض تحت حذائها. تصبح عمياء تماماً. إنها تعتمد تماماً على أذنيها - عادة محترفة. أحياناً تقع، تكاد تتعثر، لكنها تواصل سيرها في الاتجاه الصحيح. تمشي وتمشي وتمشي. تعشش الأوساخ في أطراف حذائها، لكنها لا تتوقف عن السير عبر المرج.

وأخيراً تصل إلى مبتغاها. إنها تلتهب مثل نار معسكر ضخمة. صرخات شبقة تنطلق من رجل وامرأة من قاع المرج. أخيراً: وطن المتلصصين. المشهد قريب جداً إلى درجة أن إريكا لا تحتاج إلى استعمال منظارها. العدسة الليلية. ومثل بيت يلوح من مكانه، يمارس رجل وامرأة الجنس الذي ينطلق من أرض المرج الجميلة، وينتقل مباشرة إلى مقلتي عينَي إريكا. يصدر رجل تأوهات غريبة وهو يحرث طريقه في المرأة. المرأة لا تصدر أنيناً، بل تصدر توجيهات وأوامر بصوت هامس يشوبه الكآبة، لكن الرجل يبدو أنه لا يفهم ما تقوله. وفي غمرة بهجته باللغة التركية أو بلغة أخرى، يتجاهل الرجل صرخات المرأة. تزمجر المرأة من أعماق حنجرتها مثل كلب مستعد للوثوب. تحاول أن تطلب من الرجل أن يصمت. لكن التركي يتنهّد ويئن بصوت أعلى مثل رياح ربيعية. يطلق صرخات طويلة، مقدماً لإريكا نقطة توجيه جيدة، كي تنسلّ وتقترب أكثر. مع أنها شديدة القرب منهما. وتوفر الشجيرات التي تزوّد العاشقين ملاذاً، تمويهاً كافياً لإريكا. يبدو أن التركي أو الأجنبي الذي يشبه التركي يمضي وقتاً ممتعاً. وكذلك المرأة، على النحو الذي نسمعه. سوى أنها تكبح نفسها. إنها توجهه بما يجب أن يفعله. يصعب القول إن كان يستجيب لتعليماتها. إنه

يريدها هي أن تطيع أوامره، ولهذا فثمة فرصة جيدة لأن يصطدم برغبات المرأة بين الحين والآخر. إريكا شاهدة. الرجل لا يفعل ما تطلبه المرأة منه، إنه يفعل ما يريده هو. يبدو أن المرأة تفقد أعصابها شيئاً فشيئاً لأن الرجل لا يوفيها حقها، كما هو مطلوب. فإذا قالت له «تمهل» فإنه يضغط على البنزين أكثر ويزيد من سرعته، وإذا قالت العكس، فعل العكس. لعلها ليست امرأة محترفة، بل مجرد امرأة عادية ثملة. لعلها لن تحصل على شيء مقابل العناء الذي تبذله. إريكا تقعي. ترتاح في جلستها. وحتى لو داست بقوة بحذائها ذي المسامير، فلن يسمعاها. إنهما يصرخان بصوت عالٍ جداً، أو على الأقل أحدهما يفعل ذلك. لم تكن إريكا محظوظة كثيراً في مراقبتها. تقول المرأة الآن شيئاً للرجل. تطلب منه أن يتمالك نفسه لحظة. لا تعرف إريكا إن كان الرجل يعيرها أيّ اهتمام. يقول جملة قصيرة نسبياً بلغته. المرأة توبّخه، لكن همهمتها غير مفهومة. انتظر، أتفهم؟ انتظر! لا يمكنني أن أنتظر. تفهم إريكا ما يحدث. إنه يدقّ المرأة كما لو كان يرغب في تحطيم الرقم القياسي العالمي لوضع نعل في حذاء، أو لحم في هيكل سيارة. ترتعش المرأة وهي تتلقى الطعنات - حتى أعمق جدران أساساتها. أقوى مما يتطلبه الحال، تنفث حقدها: أبطئ أكثر! ليس بهذه القوة، أرجوك! من الواضح أنها أصبحت تتضرع إليه. خلاصة القول: عوداً على بدء. فلدى التركي طاقة غير معقولة ويلكزها بسرعة رهيبة. يزيد من وتيرة رهزاته ليطعنها أكبر عدد ممكن من الطعنات في وحدة الوقت، بل وربما في وحدة النقد. المرأة تستسلم: فهي لن تصل أبداً إلى نهاية جيدة. تشتمه وتوبخه: ألم ينته بعد، أم أنه سيبقى على هذه الحال حتى يوم الثلاثاء القادم؟ يصدح الرجل بأصوات تركية منقطعة الأنفاس تنبعث من أعماق أعماقه. يلتهب في كلا الجانبين.

يبدو أن اللغة والشبق يجتمعان معاً في داخله. يصرخ باللغة الألمانية: فراو! فراو! فراو! تحاول السيدة للمرّة الأخيرة وتقول: أبطئ! تفكر إريكا من مكمنها في الأمر: إنها ليست واحدة من المومسات اللاتي يجبن منتزه براتر، لأن المومس تحثه على أن يسرع، ولا تطلب منه أن يكبح نفسه. إذ عليها أن تجمع أكبر عدد ممكن من الزبائن في أقصر وقت ممكن، بخلاف الرجل، الذي يشعر بالعكس تماماً. فهو يريد أن يحصل على أكبر قدر ممكن لأطول فترة ممكنة. وسيأتي يوم لن يستطيع أن يفعل فيه شيئاً، وعندها لن تتبقى لديه سوى ذكرياته.

الجنس الآخر يريد دائماً العكس تماماً.

إريكا ليست سوى نفحة في مهب الريح، تتنفس بصعوبة، لكن عينيها مفتوحتان على وسعهما. هاتان العينان تشمّان، تشمّان كما يشمّ الظبي بأنفه. إنها أعضاء حسّاسة للغاية، وتدور كما تدور دوّارة الريح برشاقة. إريكا تفعل ما تفعله كي لا تبقى وحيدة. إنها تأتي إلى هنا أولاً، ثم تذهب إلى هناك. إنها تتحكم بالمكان الذي تريد أن تكون فيه، وحيث لا تريد. إنها لا تريد أن تشارك، لكن يجب ألا يحدث شيء من دونها. وعندما يتعلق الأمر بالموسيقى، فإن إريكا تعزف في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى، تكتفي بالنظر والسمع. هكذا تمضي وقتها. تصعد إريكا ثم تهبط ثانية، كما لو كان الوقت حافلة ترامواي قديمة من دون أبواب تفتح آلياً. أما في حافلات الترامواي الحديثة، فما إن تصعد إليها، حتى يتوجب عليك أن تبقى فيها حتى المحطة القادمة.

الرجل يدق مسامير في لوحة لانهائية. متعرقاً كخنزير، يمسك المرأة بقبضة حديدية كي لا تفلت منه. يغمرها بريقه كما لو كان يريد أن يلتهم فريسته. تتوقف المرأة عن الكلام، تتأوه فقط، تصاب بعدوى

لهفة الرجل وشبقه. تنشج سلسلة من الكلمات الخالية من المعنى بصوت ذي طبقة عالية. تصدر صفيراً مثل حيوان الغرير الألبي عندما يشتمّ عدواً. تشد يديها فوق ظهر شريكها، كي لا يفلت منها. كي تنتفض بسهولة. كي تتذكر ما أنجز بإحساس مفعم بالمودة أو بحكاية طريفة. الرجل يعمل: يعمل بالقطعة. يرفع حدّه الأقصى إلى أعلى مستوى. فهذه فرصته الأولى مع امرأة نمساوية محلية منذ زمن بعيد، وهو يستغلّ هذه الفرصة بنشاط محموم. تظللهما قمم الأشجار. وتبدو سماء الليل مفعمة بالحيوية تحت هبّات النسيم. من الواضح أن التركي لم يتمكن من تمالك نفسه كما كان يخيّل إليه. تتقيّأ حنجرته شيئاً لا يبدو أنه تركي. إنه على وشك أن ينتهي، والمرأة لا تني تحثه قائلة: هيا أسرع!

كان تأثير ذلك على المتفرجة مدمراً. يدها تحثها على المشاركة بفعالية، إلا أنه إذا لم يكن يُسمح لها بذلك، فستحجم عنه. إنها تنتظر منعاً قاطعاً. يجب أن تتصرّف ضمن إطار متماسك. يجب أن تتمدد عليه. ودون أن تدرك أصبح الثنائي ثلاثياً. وفجأة تبدأ بعض الأعضاء تعمل، ولم يعد بالإمكان السيطرة عليها. إنها تعمل بخطى سريعة، بل حتى بأسرع مما تتصور. تشعر بضغط قوي فوق مثانتها. يغمرها اضطراب رهيب عندما تُثار. دائماً في اللحظة غير الملائمة رغم وجود أميال من التضاريس هنا، تنتظر أن تجرف كلّ أثر مهما كان هذا الحافز الطبيعي. السيدة والرجل التركي يمثّلان من أجلها. وفي الحال تتفاعل إريكا بشكل تلقائي، فتصدر الأغصان حفيفاً. هل كانت ترغب في أن تصدر حفيفاً أم لا؟ الرغبة التي تخرج من الداخل تزداد التهاباً، تزداد سوءاً. يجب أن تسترخي المتفرجة وتعدل من جلستها القرفصاء كي تلبي هذه الرغبة الملحّة. إنها حقاً رغبة ملحّة. من يعرف إلى متى

يمكن احتواؤها؟ يجب ألا تستسلم لها الآن، مهما بلغ الأمر. يُسمع حفيف مرتفع. إريكا نفسها لا تعرف إن كانت قد ساعدت الغصن عمداً على إصدار الصوت، وهو أمر سخيف بعض الشيء. تختلج على الغصن، ويصبّ الغصن جام غضبه بجلبة كبيرة.

التركي، طفل الطبيعة، الضاربة جذوره بصلابة أكثر هنا، مع العشب والأزهار والأشجار، لا مع الآلة التي يعمل عليها عادة. ينسلخ عن أي شيء يقوم به. فها هو أولاً ينسلخ عن المرأة. المرأة لا تدرك ذلك مباشرة، وتواصل نواحها لثانية أو ثانيتين أخريين، رغم أن الضيف التركي قد هدأ وخمد. لبث ساكناً الآن، وهو شيء جيد ورائع. لقد انتهى - يا لها من صدفة - ويأخذ قسطاً من الراحة. إنه متعب. ينصت إلى الريح. المرأة تنصت الآن أيضاً، لكن بعد أن يهسهس لها ساكن البوسفور تكفّ عن الصراخ. يجأر بصوت عالٍ ويسألها باقتضاب شديد، أم كان أمراً؟ تحاول المرأة بفتور أن تهدئ من روعه. لعلها تريد المزيد من جارها الحبيب. التركي لا يفهم ما تقوله. ربما كان عليه أن يضربها كي توضح أكثر: امكثي هنا. أو شيئاً من هذا القبيل لم تسمعه إريكا جيداً. لقد حوّلت انتباهها الآن لأنها ابتعدت حوالى ثلاثين قدماً عندما كان التركي منهمكاً في تركيز كل اهتمامه على المرأة. ولحسن الحظ، لم تلحظها المرأة. يعود التركي الآن إلى نفسه مرة أخرى. وهو رجل بكل معنى الكلمة. المرأة تلحف عليه طالبة المال أو الحبّ. تشهق وتبكي بصوت عالٍ. الرجل القادم من القرن الذهبي ينبح عليها، ثم ينفصل عنها وعن اتصاله السلكي بها. وأثناء تقهقرها، بدت إريكا أشبه بقطيع من جاموس الكيب عندما تقترب منه لبوة. ربما كانت الجلبة التي أحدثتها متعمّدة، أو أنها تعمدت أن تحدثها دون وعي منها، وهو سيان.

يثب التركي على قدميه ويقفز إلى الأعلى والأسفل وهو على وشك أن يقذف - لكنه يتعثر. بنطاله وسرواله الداخلي الأبيض المتألق، يضيء حول ركبتيه في الظلام. يطلق العنان لسيل من اللعنات، يرفع ثيابه ويومئ مهدداً. يداه تشيران إلى تهديد جدّي، إلى اليسار ثم إلى اليمين - باتجاه الأحراج القريبة، حيث تقبع الآنسة كوهوت مبهورة الأنفاس، منكمشة على نفسها، تقضم إحدى مطارق البيانو الصغيرة العشر.

يبدأ التركي يقفز الآن داخل دروب بنطاله. يفوّت أحد الدربين، ثم الآخر. لا يأخذ وقتاً كافياً للقيام بالضرورات الأساسية. المتفرجة ترى كلّ هذا، وتلمع في رأسها فكرة: بعض الناس لا يفكرون، بل يتصرّفون فقط، مهما كان الأمر. والتركي ينتمي إلى هذه الفئة. الجزء السفلي المحبط لكل من الرجل والمرأة العاشقين يصرخ فيهما: ربما كان مجرد كلب أو جرذ أراد التهام الواقيات الجنسية. ثمة قمامة كثيرة هنا. شهد عسلها يجب أن يعود إليها. يجب ألا يتركها وحدها ويذهب. رأس الأجنبي الجميل المجعّد لا يولي أي اهتمام لما تقوله. ينهض إلى مستواه الطبيعي - يبدو أنه تركي ضخم الجثة نوعاً ما. ارتدى أخيراً بنطاله. غاص بين الأحراج. ولحسن الحظ، ولعله تعمّد ذلك، فقد ذهب في الاتجاه الخاطئ، نحو الجزء المظلل بأشجار كثيفة. أما إريكا، فلم تفكر في الأمر كثيراً، فقد اختارت أن تتجه من منطقة غير مكسوة بأشجار كثيفة، كي لا يشك أحد في أنها كانت متوارية. امرأته تدندن مبتهجة وتلوح له من بعيد. إنها تجمع أشياءها مرة أخرى. تحشر شيئاً بين فخذيها، تجفف نفسها بعنف. ثم ترمي بعض المحارم الورقية المُجعّدة. تشتم بطريقة مبتكرة شنيعة يبدو أنه مداها الصوتي الطبيعي. تصيح وتصيح. إريكا ترتجف. الرجل يثغو

بأجوبة مقتضبة إلى امرأته وهو لا يتوقف عن البحث. يتنقل من مكان إلى آخر، ثم يعود إلى المكان ذاته. لعل خوفاً اعتراه ولم يعد يريد حقاً أن يعثر على الشخص الذي كان يختلس النظر، لأنه يواصل الانتقال من أشجار البتولا إلى الشجيرات، ثم من الشجيرات إلى أشجار البتولا. إنه لا يتوجه أبداً إلى الأحراج الأخرى. صوت المرأة يصيح، مثل بوق سيارة الإطفاء، بأنه لا يوجد أحد هناك على أية حال. تقول له ارجع. لكن الرجل لا يريد أن يعود. يطلب منها باللغة الألمانية أن تغلق مصيدتها. تدسّ المرأة الآن مجموعة أخرى من المحارم الورقية بين فخذيها، خشية أن يكون شيئاً قد تبقى في داخلها. ترفع سروالها الداخلي. ثم تسوّي تنورتها. مركّزة على بلوزتها المفتوحة، تسحب معطفها من تحت جسمها. لقد أقامت لنفسها عشاً صغيراً، تماماً كما تفعل المرأة.

لم تشأ أن تلوّث تنورتها، إلا أن معطفها أصبح ملطخاً ومجعّداً. يصيح التركي شيئاً جديداً: هيا! صديقة التركي تثور، وتصر على أن يعود بسرعة. إريكا تراها الآن بكامل مجدها. فهي ليست في ريعان صباها، لكنها كانت لا تزال كذلك بالنسبة لتركي في مقتبل العمر. تلبث واقفة في الخلف حذرة، تعوقها كلّ تلك المحارم الورقية المحشورة في سروالها الداخلي. لقد كانت الخاسرة! فمن الناحية الجنسية، لم تحصل على المتعة التي تعادل المبلغ، لكنها الآن تريد أن تتأكد أنها لن تُقتل في هذه الصفقة الخاسرة. أما في المرة القادمة، فستتأكّد ما إذا كان بوسعها أن تستمتع بسلام وهدوء حتى النهاية. من الواضح أن المرأة تعود إلى نمساويتها مرة أخرى، ويعود التركي إلى تركيته التي لا يفارقها. المرأة تطلب الاحترام، فيما يحذر التركي بشكل تلقائي من الخصوم والأعداء.

لا تسمح إريكا حتى لورقة واحدة بأن تصدر حفيفاً أو تهمس على جسدها. تلبث في مكانها ثابتة دون أن تتحرك، ميتة مثل غصن متعفّن قُطع من الشجرة، ومات في العشب وأصبح بدون فائدة.

تهدّد المرأة بأن تترك العامل الضيف وتتخلى عنه. العامل الضيف يريد أن يرد عليها رداً سريعاً سيئاً، لكنه يغيّر رأيه ويواصل البحث صامتاً. يجب أن يحافظ على رباطة جأشه كي يحافظ على احترام المرأة التي تنبهت مرة أخرى فجأة إلى أنها نمساوية. مدفوعاً بالواقع أن لا شيء يتحرّك، يوسّع الدائرة التي يتحرك فيها، الأمر الذي أصبح يشكل تهديداً أكبر للآنسة كوهوت. توجّه له امرأته آخر تحذير وتلتقط حقيبة يدها من الأرض. ترتّب الأشياء الأخيرة فيها. تزرّر، تدسّ أطراف ثوبها، وتنفض شيئاً. تبدأ تسير ببطء باتجاه المطاعم، محدقة في صديقها التركي للمرة الأخيرة، لكنها تغذّ الخطى. تطلق عليه لعنات غير مفهومة بصوت عالٍ مودعة إياه.

التركي يتردّد. فإذا ذهبت هذه المرأة، فقد لا يجد بديلاً عنها لأسابيع عديدة. المرأة تصيح: إنها تستطيع أن تجد معتوهاً آخر مثله بسهولة كبيرة. يقف التركي ويهز رأسه، مرة باتجاه المرأة، ومرة باتجاه الشخص غير المرئي المتواري في الأحراج. التركي غير واثق من نفسه، يتردد بين غريزة وأخرى. الغريزتان كلتاهما جلبتا له البؤس في معظم الأحيان، إنه ينبح - كلب لا يعرف أيّ فريسة سيتبع.

لم تعد إريكا كوهوت تحتمل أكثر من ذلك. فقد كانت حاجتها أقوى. تنزل سروالها الداخلي بحذر وتبول على الأرض. جدول دافئ يتدفق من بين فخذيها ليصب على أرض المرج، ويتموّج فوق الأرض المكسوة بالأغصان والحشائش والأوساخ والقاذورات والدبال. وهي لا تزال لا تعرف إن كانت تريد أن يُكشف أمرها أم لا. تقوّس حاجبيها

بصلابة، وتترك الجدول يجري على الأرض. تُفرغ ما بداخلها أكثر وأكثر، وتتشرب الأرض السائل. إنها لا تأمل شيئاً. ترخي عضلاتها، ويتحول الخيط الخفيف إلى جدول ثابت لطيف. لقد وسّعت في مغازل حدقتيها الصغيرتين صورة ذاك الشاب الأجنبي المنتصب، عديم الحركة، وهي تبول بقوة على الأرض. تترك الأمر للقدر، في شكل حظ، إن كان التركي يتمتع بطباع جيدة أم لا. تشدّ بعناية تنورتها المنقوشة فوق ركبتيها المحنيتين كي لا تتبلل. إنه ليس خطأ التنورة. الرغبة الجامحة تتوقّف أخيراً، وسرعان ما سيكون بإمكانها إغلاق الصنبور.

ما زال التركي يلوح كالتمثال في المرج. أما رفيقته فقد أخذت تبتعد مسرعة، تصرخ بصوت حاد عبر ذلك المرج الواسع. وكانت بين الحين والآخر تتلفت وراءها، وتصنع بيدها إشارة بذيئة معروفة في أنحاء العالم، وبهذا تتغلّب على حاجز اللغة.

يسير الرجل الآن هنا، والآن هناك. حيوان أليف بين سيدين. إنه لا يعرف ماذا يعني الخرير والهمس، لم يلحظ وجود ماء في هذا المكان. لكن ثمة شيء واحد من المؤكد أنه يعرفه: وهو أن رفيقة أحاسيسه قد أفلتت منه وأخذت تبتعد عنه.

هنا تأكدت إريكا كوهوت أنه سيتمكن من خطو الخطوتين الهائلتين اللتين تفصلانه عنها. وفي هذه اللحظة، أخرجت إريكا كوهوت آخر قطرات تنساب منها، منتظرة أن تهوي عليها مطرقة إنسانية من السماء: تمثال الرجل ذاك، الذي صنعه نجار ماهر من لوح سميك من شجر البلوط، سيسحق إريكا كحشرة. لكنه يشيح بوجهه في اللحظة الأخيرة، ثم يغيّر اتجاهه. وفيما كان يتطلع حوله باستمرار، يمشي بتردد، ثم يسرع بخطواته بحزم أكبر، متابعاً الفريسة التي هدّمها منذ

مطلع هذا المساء البهيج. عصفور في اليد. ومع ذلك، فلا يمكنك أن تعرف إن كان العصفور على الأجمة سيرقى إلى مستوى رغبتك. يهرب التركي من الحيرة التي رفعت رأسها المؤلم له في هذا البلد. يتعقب المرأة. عليه أن يغذّ الخطى، لأنها تضاءلت وأصبحت نقطة بعيدة. وسرعان ما أصبح هو أيضاً مجرد نقطة صغيرة في الأفق.

لقد ذهبت، وذهب هو أيضاً، وفي الظلام تلتقي السماء والأرض، وتتشابك أيدي كل منهما مرة أخرى، الأيدي التي تراخت للحظات.

* * *

إحدى يدي إريكا كوهوت تعزف على بيانو العقل، بل بالأحرى تعزف على بيانو العاطفة. فالغلبة للعاطفة أولاً. وبما أن للعقل طريقته الخاصة، فإنه يدفع إريكا بسرعة إلى البيت بالسيارة عبر دروب معتمة. غير أن آخرين كانوا قد قطفوا ثمار العاطفة عوضاً عن إريكا. فقد رأتهم المعلّمة وراحت تضعهم شيئاً فشيئاً في ثنايا جسدها. وكادت تشارك في إحدى تلك العواطف، وبالكاد تمكنت من أن تنجو بنفسها نتيجة اكتشافها ذاك.

تندفع إريكا مسرعة على امتداد الأشجار المنتشرة التي تعرّضها نباتات الهدال للخطر. وتقوم الكثير من الأغصان بتوديع جذوعها وهي تموت. تبتعد إريكا عن موقع مراقبتها لتستقرّ في عشّها. لا تظهر أية علائم خارجية على اضطرابها الداخلي. إلا أن زوبعة تغمرها في اللحظة التي ترى فيها الشبان ذوي الأجسام الفتية وهم يتمشون على أطراف منتزه البراتر لأنها بلغت سناً يجعلها في عمر أمهاتهم! فقد حدث كلّ شيء قبل أن يولّي هذا العمر إلى غير رجعة، والذي لا يمكن أن يعود مرة أخرى. لكن من يعرف ماذا يخبئ المستقبل؟ فبفضل

إنجازات الطب الحديث الرائعة، تستطيع المرأة أن تقوم بتأدية وظائفها الأنثوية حتى بعد أن تطعن في السن. ترفع إريكا سروالها الداخلي.

فهذا يعزلها عن الاحتكاك. حتى الاحتكاك بالصدفة. أما في سريرتها الجريحة، فتهب عاصفة على مراعيها الريّانة الطرية.

إنها تعرف أين تقف سيارات الأجرة بدقة. تركب إحدى تلك السيارات الواقفة عند بداية الخطّ. ولم يتبق شيء من مروج براتر الواسعة سوى بقعة صغيرة رطبة على حذائها وبين ساقيها. وتفوح رائحة حامضة بعض الشيء من تحت تنورتها، لكن ربما لم يلحظ سائق التاكسي ذلك، لأن مزيل الروائح يغطّي على كلّ شيء. فهو لا يريد أن يرغم ركابه على أن يشمّوا رائحة عرقه اللاذعة، وليس من شأنه أن يلاحظ فظاظة ركابه. سيارة الأجرة دافئة وجافة. جهاز التدفئة يعمل بصمت، في مواجهة الليلة الباردة. وفي الخارج، تجري الأضواء بسرعة إلى الوراء، أما البيوت المعتمة التي لا نهاية لها في الأحياء الفقيرة فتغطّ في النوم بدون إنارة. الجسر عبر قناة الدانوب. الحانات الصغيرة الباردة المثقلة بالديون، التي يخرج منها السكارى المترنحون، يثبون على أقدامهم فجأة، وينقضّ أحدهم على الآخر، ويضربون بعضهم بعضاً. نساء عجائز يضعن مناديل، يمشّين كلابهن للمرّة الأخيرة في هذا اليوم، راجيات أن يصادفن رجلاً عجوزاً وحيداً، أرملَ معه كلب. تمر إريكا بسرعة خاطفة - فأر مطاطي معلق على خيط، وقطة عملاقة تتقافز وراءها مرحة.

مجموعة من الدراجات ذات المحركات الصغيرة. فتيات في بناطيل جينز ضيّقة جداً وقد صففن شعرهن على طريقة البانكي. لكن شعرهن لا يقوى على الوقوف منتصباً بشكل جيد، بل يستمرّ في التهدل. ولن يفي المرهم وحده بالغرض ، إذ لا يتوقف الشعر عن

الهبوط بيأس فوق فروة الرأس. وتتقافز الفتيات وراء من يقودون الدراجات وينطلقون بسرعة.

يخرج من إحدى قاعات المحاضرات حشد من الباحثين عن المعرفة، الذين يتحلّقون ويتدافعون حول المحاضر. إنهم يريدون معرفة المزيد عن درب التبّانة مع أنهم سمعوا كلّ شيء يمكن أن يقال عنه. تتذكّر إريكا أنها ألقت محاضرة هنا ذات يوم عن فرانز ليسزت وأعماله. وكانت قد تحدثت بعبارات مفككة غير متماسكة. وكانت قد حاضرت مرتين أو ثلاث مرات عن سوناتات بيتهوفن المبكّرة، وأوضحت أن سوناتات بيتهوفن، سواء المتأخرة منها أو المبكّرة، متنوعة تنوعاً شديداً إلى حد أنه يتعين على المرء أن يطرح على نفسه السؤال الأساسي وهو ما معنى الكلمة المذمومة كثيراً «السوناتة» حقاً. فلعل بيتهوفن طبّق هذه الكلمة على المقطوعات التي ليست سوناتات بالمعنى الدقيق للكلمة. ويجب على المرء أن يفهم قوانين جديدة في هذا الشكل الموسيقي المثير للغاية. ففي السوناتة غالباً، يحيد الشعور عن الشكل، وليس هذا هو الحال عند بيتهوفن، لأن هذين الشيئين يسيران جنباً إلى جنب هنا. فالشعور يجعل الشكل يدرك وجود فجوة في الأرض، والعكس صحيح.

يزداد الليل تلألأً : فقد بدأت السيارة تقترب من وسط مدينة فيينا. فالأنوار تستخدم بسخاء أكبر هنا، كي يتمكن السيّاح من إيجاد طريقهم إلى بيوتهم بسهولة. وقد انتهت الأوبرا لهذه الليلة، وهذا يعني بشكل عام أن الوقت أصبح متأخراً جداً إلى حد أن السيدة كوهوت، الأكبر، ستتميّز غيظاً وستزأر وتصيح في بيتها، الذي لن تأوي فيه إلى الفراش قبل أن تتأكد من وصول ابنتها إلى البيت بخير وسلام. وستصرخ الأمّ غاضبة بأعلى صوتها بدافع الغيرة، وستعد لها مواجهة مخيفة.

وستمضي الأمّ وقتاً طويلاً كي تسوّي الأمر مع إريكا، ثم ستقوم ابنتها بالتودد إليها وملاطفتها بعدد من الخدمات العالية التخصص. وقد اتضح مؤخراً أن الأمّ تمنحهاِ كلّ شيء، بينما لا تتخلى الطفلة عن ثانية واحدة من وقت تسليتها وراحتها! فكيف يمكن للأمّ أن تغط في النوم وهي تعرف أنها ستستيقظ بمجرد أن تعتلي ابنتها النصف المخصص لها من السرير العريض؟ الأمّ تنظر بحنق إلى الساعة، تذرع الشقّة ذهاباً وإياباً كالذئب. تتوقف في غرفة ابنتها، التي لا يوجد فيها سرير ولا يوجد لها مفتاح خاص بها. تفتح الخزانة وبغضب شديد تلقي الثياب التي كانت قد اشترتها بدون إحساس بالمسؤولية، وهو تصرف يتناقض مع الأقمشة الرقيقة التي يُوصى باستعمالها برقة. ففي صباح الغد، وقبل أن تتوجّه إلى المعهد الموسيقي، يجب على ابنتها أن تعيد كلّ شيء إلى مكانه. فالأمّ لا ترى في هذه الملابس سوى دليل على الغرور والتباهي والعناد. وقد تجلّت أنانية الطفلة في مجيئها في ساعة متأخرة. فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل، ولا تزال الأمّ وحدها. إنه لشيء فظيع! إذ لا يوجد أحد يمكنها أن تتكلم معه بعد أن انتهى عرض الفيلم في التلفزيون. وأعقب الفيلم برنامج حوار في آخر الليل. لكنها لا تريد أن تتفرج على البرنامج لأنها ستغفو، وهو الشيء الذي يجب ألا تفعله قبل أن تنال طفلتها ما تستحقه من عقاب. الأمّ تريد أن تبقى متيقظة. تغرز أسنانها في رداء حفلة موسيقية قديم، كانت لا تزال تتمنّى أن تكون صاحبته نجمة بيانو عالمية ذات يوم. فلقد ادّخر كلّ من الأمّ والأب المجنون المال لذلك، تقتّر المال، توفّر من هنا وهناك، تصطك أسنانها. أما الآن، فقد أخذت أسنان الأم السيئة تنهش الرداء. في ذلك الوقت، كانت إريكا، تلك الفتاة الوقحة المتعجرفة، تفضّل أن تموت على أن تعزف وهي ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة من قماش التفتا تتماشى

معها، مثل الآخرين. وخيّل إلى الأمّ وإريكا أن ذلك سيكون استثماراً جيداً إذا بدا عازف البيانو لطيفاً. لهذا تأخذ الأمّ تدوس على الرداء بنعليها النظيفين بقدر نظافة أرضية الغرفة، وبذلك لن تتمكن من انتهاك حرمة الرداء. كما أن نعليها ناعمان. وفي النهاية، يبدو الرداء مجعداً بعض الشيء. لذلك تناولت مقص المطبخ، وهجمت الأمّ على حقل العار لتضع اللمسات الأخيرة على هذا المخلوق الذي صنعه خياط أعمى، لم يتطلع في مجلّة للأزياء منذ ما لا يقل عن عشر سنوات، عندما ذهبت إلى العمل وهي ترتدي الرداء. غير أن الأمّ لم تُدخل أية تعديلات عليه، إذ يمكن أن يمنحها الرداء قواماً أفضل إذا ما امتلكت إريكا الشجاعة الكافية لارتداء هذا الشيء المخطّط المبتكر بافتخار في وسط أشرطة القماش الضيّقة تلك. تمزق الأمّ أحلامها مع الرداء . فلماذا تجعل أحلام الأمّ تتحقّق إن لم يكن بوسع إريكا أن تبدي أي اهتمام بأحلامها هي؟ لكن إريكا لا تجرؤ على مواصلة أحلامها حتى النهاية، بل إن كلّ ما تفعله هو أنها لا تتوقف عن التحديق فيه بغباء. وتمعن الأمّ في تقطيع وقصّ الزركشة عند فتحة عنق الثوب وكمّيه الرشيقين، التي هاجت إريكا وماجت من أجله.

ثم تأخذ الأمّ في تقطيع بقايا التنورة المتجمّعة في الأعلى. إنها تعمل بجدّ. هل كانت ملزمة بأن تقتر على نفسها وأن تعيش في ضنك لتدفع ثمن الثوب. كانت قد وفّرت قروشاً من أعمال التدبير المنزلي، لكنها الآن تنكبّ على تدميره. تتناثر الأجزاء المختلفة أمامها على الأرض. يجب أن تذهب كلها إلى مفرمة اللحم، التي لا تملك واحدة منها. لم تعد الطفلة إلى البيت حتى الآن. إلا أنه سرعان ما ستحل مرحلة الخوف محل حالة الغضب. يصعب عليها ألا تشعر بالقلق.

قد تحدث أشياء فظيعة للمرأة في الليل، في المكان الذي لا تشعر

بأنها تنتمي إليه. تتصل الأمّ بالشرطة. تقول الشرطة إنهم لا يعرفون شيئاً، بل حتى إنه لم تتناه إليهم أية إشاعات. ويقولون للأمّ إنه إذا حدث شئ فسيكونون أول من يعرف به. وبما أنهم لم يسمعوا شيئاً عن أي شخص يماثل عمر إريكا وطولها، فلا يمكن الإبلاغ عن أي شيء. كما أنهم لم يُبَلغوا حتى الآن عن اكتشاف أية جثة. ومع ذلك، تهرع الأمّ وتتصل بمستشفى أو عدة مستشفيات تقول للأمّ إنها أيضاً لا تعرف شيئاً. وإنه لا ترجى أية فائدة من هذه الاتصالات يا سيدتي. لكن ربما تكون قد رميت في هذه اللحظة بالذات، رزم ملطخة بالدماء فيها أجزاء من جسد ابنتها في حاويات القمامة في أرجاء المدينة. وعندها ستغدو الأمّ وحيدة، وتنتقل إلى دار المسنين، حيث لا يمكنها أن تكون وحيدة أبداً! ومن الناحية الأخرى، لن ينام أحد معها في سرير عريض، كما اعتادت.

مضت الآن عشر دقائق ولم يتناه إليها صوت حركة في القفل، ولم يرن هاتف صديق يقول: يرجى قدومك إلى المستشفى في الحال. ولم تسمع من ابنتها وهي تقول: ماما، سأعود إلى البيت بعد خمس عشرة دقيقة، فقد اضطررت للمجيء متأخرة. كما أن صديقتها، مضيفة موسيقى الحجرة المزعومة تلك لا تردّ على الهاتف، حتى بعد ثلاثين رّنه.

تنسل الفهدة من غرفة النوم، حيث السرير مرتب وجاهز. تدلف إلى غرفة الجلوس، حيث يوجد جهاز التلفزيون، تفتحه مرة أخرى. يسمع النشيد الوطني بمشهد العلم النمساوي المخطط بالأحمر والأبيض والأحمر يتموج في الريح، إيذاناً بانتهاء البث لهذا اليوم. لم يكن يجدر بها أن تفتح جهاز التلفزيون، لأن الأمّ تحفظ النشيد الوطني عن ظهر قلب. تنقل تحفتين زهيدتين من مكانيهما. تنقل الزبدية البلّورية الكبيرة

من زاوية إلى أخرى. ثمة قطع من الفاكهة المصنوعة من الشمع في الزبدية. تلمّع الفاكهة بقطعة قماش بيضاء ناعمة. تقول الفتاة، ذوّاقة الفنّ، إن الفاكهة فظيعة وكريهة. ترفض الأمّ هذا الحكم القاسي، فالشقة لا تزال شقّتها والفتاة لا تزال ابنتها. ففي ذات يوم، وعندما تموت الأمّ، سيتغيّر كلّ شيء من تلقاء نفسه. وفي غرفة النوم، تدقّق ترتيب الغرفة بدقة شديدة مرة أخرى. زاوية غطاء الفراش مثنية بعناية، لتشكيل مثلث متساوي الأضلاع. الشرشف متصلّب كتصفيفة شعر مرفوع إلى أعلى الرأس. وألقيت على الوسادة قطعة من الشوكولاته على شكل حدوة حصان ملفوفة في ورق قصديري رقيق، تركت هناك منذ ليلة رأس السنة الجديدة. أزيلت هذه المفاجأة، لأن الحلوى لا تقدم إلا للحلوين. وعلى المنضدة بجانب السرير، وإلى جانب المصباح، يقبع الكتاب الذي كانت تقرأ فيه الابنة. وفي داخله، توجد علامة لكتاب مرسومة باليد منذ الطفولة. وإلى جانبه كوب مملوء بالماء إذ ما أحست بالعطش في الليل (إزالة الحلوى عقوبة كافية). تملأ أمّ إريكا الطيبة القلب الكوب ثانية من ماء الصنبور للمرة التاسعة، كي يبقى الماء بارداً عذباً، وكي لا تظهر فيه فقاعات تدل على أن الماء قديم وعديم الطعم. لكن الأمّ لا تحرص كثيراً على اتخاذ هذه التدابير الوقائية على طرفها من السرير. غير أنها تحرص على إزالة طقم أسنانها من فمها في الصباح الباكر من كلّ يوم لتنظيفه. ثم يعود إلى مكانه ثانية، مباشرة! وإذا ما أبدت إريكا أي رغبة في الليل، تنفذ على الفور، إذا كان ذلك ممكناً. وهذا لا ينطبق إلا على الأمنيات الخارجية. إذ يجب على إريكا أن تبقي رغباتها الداخلية حبيسة في نفسها، فألا تعيش في بيت دافئ لطيف؟ وبعد مداولات طويلة، تضع الأم تفاحة خضراء كبيرة بجانب الكتاب لتوسع مجال خيارات ابنتها. وكالقطّة الأمّ التي تجر هريراتها وتضعها

حولها لأنها لا تثق بهدوئها وسكونها، تحمل الأمّ الثوب الممزق من مكان إلى ثان، ثم إلى مكان ثالث، حيث يمكن رؤيته متألقاً. فعلى الابنة أن ترى الدمار الذي تتحمل هي نفسها مسؤوليته. لكنه يجب ألا يوضع في مكان بارز جداً. وفي نهاية الأمر، تمدّد السيدة كوهوت بقايا الرداء على أريكة التلفزيون، بحرص شديد، كما لو أن إريكا سترتديه لتعزف على البيانو. يجب على الأمّ أن تتأكّد من أن الرداء يجمع بين الجسد والروح. تعيد ترتيب قطع الكمّ الممزقة بأشكال مختلفة. لقد قدّم تدميرها للثوب بشكل قانوني على طبق من فضة.

ينتاب الأمّ الشك لوهلة بأنه لعل السيد كليمر، منذ ذلك اليوم الذي أقيمت فيه الحفلة في البيت منذ مدة بعيدة، يشقّ طريقه بقوة بين الأمّ والطفلة. ذلك الشابّ البالغ الرقة، لكنه لا يستطيع أن يحلّ محل الأمّ. فمكانة الأمّ فريدة، وهي تعتبر الأصل بالنسبة لإريكا. فإذا ما التقت إريكا بالسيد كليمر، فستكون هذه المرّة الأخيرة، وخاصة أن الموعد النهائي لتسديد الدفعة الأولى للشقّة المشيدة حديثاً أخذ يقترب. ففي كلّ يوم، تضع الأم خطة جديدة، ثم ترميها جانباً، ولهذا يجب على ابنتها أن تنام معها في السرير ذاته، حتى لو انتقلتا إلى الشقّة الجديدة. ويجب على الأمّ كذلك أن تشكّل إريكا الآن، والحديد لا يزال حامياً. لكنه ليس حامياً بما يكفي بالنسبة لوالتر كليمر. وتضع الأمّ الأسباب التالية: أخطار مختلفة كالحريق، والسرقة، والسطو، والأنابيب التي يرشح منها الماء، ونوبات الأمّ القلبية (ضغط الدمّ!)، القلق الليلي ذو الطبيعة العامة والمحددة. وفي كلّ يوم، تعيد الأمّ ترتيب غرفة إريكا في الشقّة الجديدة، ودائماً على نحو أكثر دهاء من اليوم الذي سبقه. لكن لن يكون هناك سرير لابنتها - انسي ذلك! وكلّ ما يمكن أن تتنازل لها عنه هو أن تسمح لها بوضع كرسي عادي.

تضطجع الأمّ، ثم تنهض على الفور مرة أخرى. ترتدي ثوب نومها وعباءتها. تذرع الغرفة من الحائط إلى الحائط، تدفع جانباً أدوات الزينة من أماكنها. تنظر إلى جميع الساعات في الشقّة وتقارن إحداها بالأخرى. لا بد أن تنال الطفلة عقابها. لا بد أن تدفع الثمن.

حسناً، ها نحن هنا، فقد وصلت الطفلة. صوت القفل يطقطق بوضوح، يتحرك المفتاح بسرعة، ثم تُفتح الأبواب على الأرضية الرمادية والمرعبة من حبّ الأمّ. تدخل إريكا. ترفرف عينيها مثل حشرة عثّ ثملة في ضوء القاعة المتلألئ. جميع الأضواء منارة، كما لو كانت هناك حفلة مقامة. إلا أن وقت القربان المقدس قد مضى دون أن يمسّه أحد. ساعات مضت بهدوء، لكنها لا تزال تتميّز غضباً، تخرج الأمّ من مكمنها، وتوقع شيئاً عرضاً، وتكاد توقع إريكا (مرحلة الشجار تلك لن تأتي إلا في وقت لاحق). الأمّ! تهجم على طفلتها، والطفلة تردّ عليها. تنبعث من نعلي حذاء إريكا رائحة حيوانية، تشير على الأقل إلى وجود شيء فاسد. ومن أجل الجيران، الذين يجب أن ينهضوا في الصباح الباكر، تتصارع المرأتان بصمت. لا أحد يعرف النتيجة. وقد تسمح الابنة لأمّها بأن تفوز في النهاية بدافع الاحترام المطلق. وبدافع من القلق على مطارق طفلتها الموسيقية الصغيرة العشر، فقد تسمح الأمّ لطفلتها بأن تفوز. لكن الطفلة في الواقع، أقوى منها لأنها أصغر سناً، كما أن الأمّ كانت قد استنفدت كلّ قواها في الشجار مع زوجها. أما الطفلة فلم تتعلم بعد كيف تستغلّ قوتها تماماً ضد أمّها. تشدّ الأمّ شعر ثمرة رحمها التي أصبحت في آخر موسمها. ويتطاير المنديل الحريري المزيّن برؤوس أحصنة ويستقر، كما لو كان متعمداً، فوق مصباح الممر. يخفت النور، يصبح رطباً - الإنارة الملائمة لأكثر العروض مزاجية. الفتاة في موقع ضعف، فحذاؤها زلق من الغائط والطين

والعشب. تنزلق على الحصيرة. جسدها يرتطم بالأرض. تزداد صخباً. الأمّ تحاول إسكات إريكا: اسكتي! (الجيران!). ترد إريكا الصاع صاعين، وتعود الأمّ تذكّرها بالجيران: اسكتي! إحداهما تخدش الأخرى في وجهها. الابنة تصرخ كصقر ينقضّ على فريسته. أما بالنسبة للهدوء، فتقول إريكا إنه يمكن للجيران أن يشتكوا كما يشاؤون في الغد، والأمّ ستتحمل مسؤولية ذلك. الأمّ تولول، لكنها تكتم ولولتها في الحال. ويعقب ذلك نصف صمت، نصف لهاث وأنين ونشيج ثم ابتسام متكلف. تبدأ الأمّ في الضغط على زرّ «الشفقة»، وبما أن المعركة لم تقرر لمصلحة أحد منهما بعد، تلجأ الأمّ إلى وسائل غير عادلة مثل الحديث عن عمرها وموتها الوشيك. تدمدم هذه الحجج، سلسلة من الأعذار يصحبها نشيج وشهيق بسبب عدم انتصارها اليوم. لكن ندبها ونواحها يصيبان الهدف. لا تريد إريكا أن ترهق الأمّ نفسها في هذا الصراع. تقول إن الأمّ هي البادئة. لكن الأمّ تقول إن إريكا هي التي بدأت. لقد استنفد ذلك ما لا يقل عن شهر من حياة الأم. إريكا تخدش وتعض بفتور. لكن الأم تستغل هذا وتمسك بخصلة من غرة شعر إريكا، قليل من الشعر الذي تفتخر به إريكا، لأنها تجعله يتهدل في ضفيرة جميلة. تطلق إريكا صرخة عالية تثير الفزع في نفس الأمّ فتتوقف في الحال. ستضع إريكا غداً ضمادة فوق فروة رأسها. أو ستظل ترتدي منديلها، وهي تعطي دروسها. تجلس المرأتان فوق مفرش الطاولة المجعّد، تواجه إحداهما الأخرى تحت وهج المصباح المظلّل، تشهقان وتزفران بصوت عالٍ. وبعد تنشق عدّة نفحات من الهواء، تسأل الابنة إن كان ما فعلته الأمّ ضرورياً. ومثل زوجة عاشقة جاءها للتو خبر سيّئ من الخارج، تضغط إريكا بيدها اليمنى بتشنج على حنجرتها، حيث يبرز شريان فيختلج. تتراجع الأمّ، تجلس بجانب

طاولة مكتب البهو، التي توجد عليها كلّ أنواع المهام المبهمة، والاستعمالات التي لا تفسير لها. الأمّ تجيب دون أن تعثر على كلمات. تقول إن ذلك لم يكن ضرورياً لو عادت إريكا إلى البيت في الوقت المحدد لها. يخيم عليهما الصمت. أحاسيسهما متقدة. لقد صقلتا على حجر شحذ الأنصال وأصبحتا مرهفتين إلى درجة لا تصدّق. خلال المعركة انزلق ثوب نوم الأمّ إلى الأسفل، كاشفة أنها، رغم كلّ شيء، لا تزال امرأة أولاً وأخيراً. ابنتها المحرجة تشير إلى الأمّ بأنّ تغطّي نفسها. وبخجل تطيعها الأمّ. إريكا تنهض، تقول إنها تشعر بالظمأ. تهرع الأمّ لتلبية هذه الرغبة البسيطة. تخشى أن تقوم إريكا، بدافع من التحدي المطلق، بشراء رداء جديد في الغد. تجلب الأمّ قليلاً من شراب التفاح من الثلاجة، كانت قد اشترته من التنزيلات الخاصة في عطلة نهاية الأسبوع ، لأنها نادراً ما تحمل الزجاجات الثقيلة من السوبر ماركت إلى البيت. إذ دأبت على شراء عصير التوت المركّز، الذي يدوم أكثر بكثير وببذل الجهد نفسه. إذ يمكن أن يكفي الشراب المركّز، إذا ما خُفّف بالماء، أسابيع عديدة. تقول الأمّ إنها ستموت في النهاية، فجسدها يريد الحياة لكن قلبها ضعيف. الابنة تطلب منها ألا تبالغ في الأمر. التهديد بالموت يثملها. الأمّ تريد أن تبكي، مما سيجعلها تفوز بالضربة القاضية في الجولة الثالثة، أو في أسوأ الأحوال، بسبب تخلّف الخصم. إريكا تحذّر الأم من البكاء في هذه الساعة المتأخرة من الليل. تريد إريكا أن تشرب العصير وتأوي إلى الفراش. وينبغي للأمّ أن تفعل الشيء ذاته، وتضطجع في الطرف المخصص لها من السرير، ويجب ألا تكلّم إريكا بعد الآن! أما إريكا فلن تغفر لها هجومها بهذه السرعة على القادمة البريئة إلى البيت، هي موسيقار الحجرة. لا تريد إريكا أن تأخذ دوشاً لأن البناية كلها يمكن

أن تسمع صوت قرقعة الأنابيب. تستلقي، كما يتوجب عليها بجانب أمّها. لقد انصهر اليوم فتيل اشتعال، ومع ذلك فقد عادت إريكا إلى البيت. وبما أن فتائل الاشتعال مصممة للأجهزة التي نادراً ما تستخدم، لا تلاحظ إريكا أنها تمتد إلى الخارج. تستلقي وتغط في سبات عميق بعد أن دمدمت مباشرة عبارة «تصبحين على خير»، لكنها لم تسمع رداً عليها. لا يغمض للأمّ جفن لفترة طويلة، وتتساءل في سريرتها كيف يمكن لابنتها أن تغفو مباشرة، دون أن تبدي شيئاً من الندم والأسف. ولا بد أن إريكا قد لاحظت أن الأمّ لم ترد على قولها «تصبحين على خير». ففي الليالي العادية، كانتا تستلقيان، وتلبثان ساكتتين لمدة تقارب عشر دقائق، تكتوي إحداهما بنار الأخرى. ثم تأتي المصالحة الحتمية بعد حديث طويل هادئ صادق من القلب إلى القلب، وتتوجان ليلتهما بقبلة النوم. أما اليوم، فقد هربت إريكا إلى النوم، هانئة بالأحلام التي لن تعرف الأمّ عنها شيئاً، ولن تسمع عنها شيئاً في الغد. وتقول الأمّ لنفسها إنها يجب أن تمارس أقصى درجات الحذر في الأيام والأسابيع، بل حتى في الأشهر القليلة القادمة. الأفكار تلك التي تدور في رأسها تبقيها مستيقظة لساعات طوال، حتى تبدأ تبزغ خطوط الفجر الرمادية.

* * *

عند الحديث عن معزوفات براندينبيرغ الست لباخ، يقول الضليع في شؤون الفن عادة، منها أشياء أنه عندما أُلِّفت هذه التحف الرائعة، كانت النجوم تتراقص في السماوات. فالله دائم الوجود عندما يتحدث هؤلاء عن باخ. وكانت إريكا قد أخذت جزءاً من معزوفة أحد طلابها على البيانو، الذي بدأ أنفه ينزف مما اضطره لأن يذهب ويستلقي. يرقد الطالب على حصيرة، في حين تكمل النايات والكمانات العزف معاً،

فتمنح قيمة نادرة للمعزوفة. ويتفاوت تشكيل العازفين دائماً كثيراً، وكذلك الآلات. ففي إحدى المرات استخدمت المجموعة نايين خشبيين.

وفي أعقاب صحوة إريكا، يبدأ والتر كليمر هجوماً جديداً وجدياً. فقد اتخذ لنفسه ناصية في صالة الرياضة وكمن فيها. إنها صالته الخاصة، فهنا تقبع القاعة التي ينصت فيها إلى التدريبات على أوركسترا الحجرة. يتظاهر بأنه مستغرق تماماً في سلمه الموسيقي، لكنه في حقيقة الأمر لا يرفع بصره عن إريكا. إذ لا يمكن أن تفوته حركة واحدة من حركات أصابعها على لوحة المفاتيح، لا لأنه يريد أن يتعلم منها، بل لأنه يرغب في أن يُفقد عازفة البيانو عزيمتها - حيلة ذكورية مثالية. يحدّق في المعلّمة بسلبية، لكن على نحو استفزازي. إنه يريد أن يكون ذكراً شديد التحدي، وهو أمر لا تستطيع أن تواجهه إلا أشد النساء والفنانات وأقواهن عزيمة وبأساً. تسأله إريكا إن كان يريد أن يعزف ذلك الجزء من المعزوفة على البيانو. فيقول لا، إنه لا يريد، ويتخلل صمت بين العبارتين، شاحناً فترة الصمت تلك بشيء يفوق الوصف. يردّ بصمت ذي مغزى على زعم إريكا بأن التدريب هو السبيل للإتقان. يلقي كليمر التحية على فتاة يعرفها، يقبّل يدها - بادرة لعوبة مقصودة. ثم يضاحك فتاة ثانية حول أمر تافه.

ينتاب إريكا إحساس بوجود فراغ روحي ينبثق من تلك الفتيات. إذ سرعان ما سيسأم الرجل منهن. وجه جميل يُستهلك بسرعة كبيرة.

أما كليمر، البطل المأساوي، الصغير على هذا الدور (في حين أن إريكا في واقع الأمر كبيرة جداً لأن تكون ضحيّة بريئة لاهتمامه بها)، فيمرر إصبعه بشكل ضحيح فوق النوطات الصامتة على سلمه الموسيقي. ويستطيع أن يعرف الجميع في الحال أن كليمر هو ضحية

موسيقية، وليس طفيلياً موسيقياً. ويضع كليمر، الذي حُرم من العزف بسبب ظروف مؤسفة، ذراعه بسرعة حول كتف فتاة ثالثة. إنها ترتدي تنورة قصيرة جداً عادت موضتها. يبدو أنها خالية من أية أفكار. تقول إريكا لنفسها: إذا كان كليمر يريد أن ينحدر إلى هذا الدرك، فدعيه يفعل ذلك. لكني لن أرافقه. جلدها يتغضن وينكمش غيرة، مثل ورقة الكرنب الرقيقة. عيناها تؤلمانها لأنها لا تستطيع أن ترى كلّ شيء إلا من طرف عينها. يجب عليها ألا تعير كليمر أي اهتمام. يجب ألا يلاحظ اهتمامها مهما كان. إنه يمازح الفتاة الثالثة. الفتاة تتلوّى تحت وابل من الضحك. إنها تري ساقيها حتى المنطقة التي تكادان تنتهيان فيها وتتصلان بالجسد. يغمر الفتاة نور الشمس. لقد جعل التجذيف لون وجنتَي كليمر صحياً. رأسه في رأس الفتاة. شعره الأشقر يضيء مع شعر الفتاة الطويل. وعندما يذهب لتجذيف القارب، يعتمر كليمر خوذة لحماية رأسه. يروي للفتاة نكتة، وتومض عيناه باللون الأزرق، مثل أضواء السيارة الخلفية. إنه يستطيع أن يشعر بوجود إريكا على الدوام. عيناه لا تشيران إلى وجود كابح. لا ريب أن كليمر مقدم على إقامة علاقة جديدة معها. الرياح والماء والصخور والأمواج تنصح بدفء أنه لا يتعين على راكب القارب الفاقد الثقة أن يتوقف. كان على وشك الاستسلام، كان على وشك أن يقطف أزهار الحديقة الأكثر شباباً من إريكا. لكن ثمة دلائل على أن حبيبته السرية سترتعش وتلين. لو تمكن من إقناعها بأن تصحبه في جولة بالقارب مرّة واحدة فقط. ليس من الضروري أن يكون قارباً ذا مجذاف من النوع الذي يصعب التحكم فيه. بل يمكن أن يكون قارباً ثابتاً، غير متحرك. فمن المؤكد أنه يستطيع أن يسيطر عليها هناك، في البحيرة، في النهر - التي تعبر المكان الطبيعي لكليمر، الأكثر جوهرية - لأنه يشعر براحة كبيرة في

الماء. يمكنه أن يقود وينسّق حركات إريكا المحمومة. أما هنا، على لوحة المفاتيح، على درب النوطات، فإن إريكا في مكانها الطبيعي، ويقودها قائد الفرقة الموسيقية (هنغاري منفي، يرغي ويزبد غضباً، بلهجة ثقيلة، أمام قطيع الطلاب).

وبما أن كليمر يشخّص علاقته بإريكا بأنها مشاعر مودّة وحبّ، فإنه يقرّر مرة أخرى ألا يستسلم. يجلس بصعوبة، ويدفع ساقيه إلى الخلف بعناية. كادت تفلت منه، أو كادت عزيمته تثبط، أو يستسلم. سيكون ذلك خطأً فاحشاً. إنها تبدو له الآن أكثر تميزاً من الناحية الجسدية، أكثر سهولة من السنة الماضية: تلتقط المفاتيح، ترسل نظرات جانبية عصبية إلى الطالب الذي لن يذهب، والذي لن يأتي كذلك ويتحدث عن المحرقة التي تشتعل في داخله. أما بالنسبة لتحليل الأداء الموسيقي، فيبدو أنه ليس هناك مرة أخرى. إلا أنه هنا. هل هو هنا من أجلها؟ تعرف أنها صعبة المنال، لكنها تدع كليمر يعرف أنه الوحيد الذي تلاحظه هنا، منذ البداية. وباستثناء كليمر، لا يوجد ثمة شيء بالنسبة لإريكا إلا مروّض الموسيقى، الموسيقى. أما كليمر الذوّاق، فلا يصدق ما يخيّل إليه أنه يراه في وجه إريكا: الرفض. فهو الوحيد الذي يحق له أن يفتح الباب إلى المرعى، متجاهلاً إشارة ممنوع التجاوز. تهزّ إريكا الجديلة اللؤلؤية لرعشة النغم من ردنَي بلوزتها البيضاء. إنها مشحونة بالسرعة التي تتسم بالعصبية. ربما كان سبب عجلتها حلول الربيع مؤخراً، الذي كان قد أعلن عن مجيئه منذ أمد بعيد مع مرور الطيور الكثيف وتهور السائقين في كل مكان (يدّخرون سياراتهم في الشتاء كي لا يتلفون ذراع السرعة، لكنهم ينطلقون الآن، مع تبرعم أزهار الثلج الأولى، ويعلوهم شيء من الصدأ وهم وراء المقود، يسبّبون حوادث مخيفة). تعزف إريكا دور البيانو البسيط بشكل

آلي. تنجرف أفكارها بعيداً، إلى رحلة دراسية مع الطالب كليمر. هما الاثنان فقط في غرفة في فندق صغير وكثير من العشق والغرام.

شاحنة تحمل جميع أفكارها، ثم تلقيها ثانية في غرفة صغيرة تتسع لشخصين. وقبل مضي النهار بقليل، يجب أن تعود أفكار إريكا وتوضع في السلة الصغيرة التي أحاطتها أمّها بوسادات وغطتها من جديد بحنان، لكي يحتضن الشباب الشيخوخة.

ينقر السيد نيميث بعصاه نقرات خفيفة للمرة الثانية. إذ لم يكن صوت الكمان رخيماً على نحو كاف. مرة أخرى الميزان الموسيقي الخامس، أرجوكم. الآن، يعود نزيف الأنف، محصناً، ويطلب مكانها على البيانو، بالإضافة إلى حقوقها كعازفة منفردة، وهو امتياز كانت قد حظيت به بصعوبة بالغة رغم كلّ المنافسات. إنها تلميذة أثيرة لدى الأستاذة كوهوت لأن لديها أيضاً أماً تبنّت الطموح كأحد أطفالها.

تحل الفتاة محل إريكا. يغمز والتر كليمر الفتاة تشجيعاً، وينظر بدقة ليرى بماذا تفكر إريكا بغمزته تلك. وقبل أن يتمكن السيد نيميث من أن يرفع عصاه، تندفع إريكا خارج الغرفة. يشعر كليمر بامتنان عميق تجاهها، المعروف عنه أنه بادئ سريع في الفنّ والحبّ. تدبّ فيه الحياة. إنه يريد أن يتتبع الأثر ويتشممه. لكن نظرة قائد الفرقة الثاقبة تعيد كليمر، المشاهد، إلى مقعده. على الطالب أن يقرّر إن كان يريد أن يبقى أو أن يخرج. وعندما يتخذ قراره، يجب أن يلتزم بقراره.

تعلو أذرع عازفي الآلات الوترية اليمنى، وتهبط على الأقواس وتبدأ تتحرك فوقها بقوة. وينزل البيانو بزهو خبباً إلى الميدان، ويلوي وركه، ويخب متبختراً بحرية وانطلاق، ويعزف مفخرة رائعة من مفاخر المدرسة العليا - معزوفة غير واردة في النوطة، كانت قد ابتكرت على

مدى ليالي طويلة، وأضيئت الآن بلون وردي، يتهادى برشاقة حول المنحنى النصف دائري. وكان يتعين على السيد كليمر أن يلبث جالساً، وينتظر حتى يتوقّف قائد الفرقة الموسيقية في المرة القادمة. أما هذه المرّة، فإن المايسترو يريد أن يعزفها حتى النهاية، أو يتوقف، بافتراض أنّ لا أحد يتوقف فجأة. لكن لا تقلق: فصنّاع الموسيقى هؤلاء بالغون راشدون. أما أوركسترا الأطفال والفرق الغنائية المدرسية، فهي مَنشار شديد التنوع يضم جميع المدارس الغنائية الحالية، تدربت عليه في الساعة الرابعة: شكّلها معلّم الناي الخشبي، أما المغنون المنفردون، فقد شكّلهم معلمو الغناء في المدارس من جميع فروع مدارس الموسيقى. تأليف جريء، يتناوب بين الضربات المفردة والمزدوجة، التي جعلت بعض الأطفال يبولون في فراشهم.

ينغمس محترفو المستقبل انغماساً تاماً في الموسيقى، في عالم الواقع. أعضاء الأوركسترا النمساوية، ودار الأوبرا الإقليمية، وأوركسترا سمفونية شبكة الإذاعة النمساوية في المستقبل، وحتى محبو الموسيقى، إذ كان أحد أقارب الطالب من الذكور يعزف فيها.

يجلس كليمر ويمعن التفكير في باخ، لكن مثل الدجاجة البيّاضة التي تهمل بيضها قليلاً. هل ستعود إريكا ثانية بعد قليل؟ أم أنها تغسل يديها؟ فهو لا يعرف المكان جيداً هنا، لكنه لا يتمالك أن يمسك نفسه عن تبادل الغمزات مع الطالبات الجميلات. إنه يريد أن يحافظ على سمعته كزير نساء. اليوم يجب أن ينتقل التدريب إلى هذا المكان البديل، فقد هيئت جميع الغرف الكبيرة في المعهد الموسيقي لتدريب فرقة الأوبرا كلها بسرعة: مهمة انتحارية طموحة، فيجارو لموزارت. فقد أعارت إحدى المدارس الابتدائية صالتها الرياضية لإجراء التدريبات على معزوفات باخ. تراجعت الملاعب الرياضية وانكفأت إلى

الجدران. لقد تخلت الثقافة الجسدية عن مكانها وقدمته إلى الثقافة الراقية لمرة واحدة فقط. إذ تضم المدرسة الواقعة في حيّ شوبيرت القديم مدرسة الموسيقى المحلية بطوابقها العليا، إلا أنها صغيرة للغاية ولا تتسع لإجراء التدريب.

وقد سُمح اليوم لطلاب هذه المدرسة الموسيقية الفرعية بأن يحضروا تدريبات أوركسترا المعهد الموسيقي الشهيرة. وانتهز عدد قليل من الطلاب هذه الفرصة، بهدف تسهيل اختيارهم لمهنة المستقبل. إذ أصبح بوسعهم الآن أن يروا أن الأيدي لا تتعامل مع الآلات بوحشيّة فقط، بل يمكنها كذلك أن تداعب برهافة وحساسية. أما طموحاتهم المهنية - نجار أو أستاذ جامعي - فتتلاشى في الأثير. يجلس الطلاب في مقاعدهم وينكبون على صناعة الحصر، يصيخون السمع. لا يوجد لدى أي منهم أب يتوقّع أن يدرس طفله النجارة مثلاً.

ومن الناحية الأخرى، يجب ألا يخيّل إلى الطفل أن حياة الموسيقار سهلة. فعلى الطفل أن يضحّي بوقت فراغه حتى لا يتوقف عن التدريب. أما والتر كليمر فقد اعترته نوبة اكتئاب بسبب الأماكن الغريبة التي تحيط بالمدرسة، ويشعر مرة أخرى بأنه طفل أمام إريكا. فقد ترسخت بينهما علاقة التلميذ/ المعلّمة، لكن علاقة الحبّ بينهما تبدو بعيدة جداً أكثر من أي وقت مضى. حتى إن كليمر لا يجرؤ على استعمال مرفقيه لكي يشق طريقه إلى باب الخروج. لقد هربت إريكا، أغلقت الباب وراءها حتى دون أن تنتظره. أفراد الفرقة يدقون، ويعزفون، ويضربون على المفاتيح. يبذل العازفون جهداً كبيراً، لأن المرء لا ينِي يبذل جهداً كبيراً أمام - المستمعين الجهلة - الذين يقدّرون الوجوه القدسية والقسمات المركّزة. وهكذا تأخذ الأوركسترا تعزف بجدية أكبر مما تفعله في الأحوال العادية. جدار الصوت ينغلق

أمام كليمر. ولا يجرؤ على الإقدام على اختراقه، لشدة قلقه على مستقبله المهني. إذ لا يريد أن يرفضه السيد نيميث كعازف منفرد في الحفلة الموسيقية الختامية الكبيرة في الفصل الدراسي. فقد تم ترشيح كليمر ليتدرب على معزوفة موزارت.

أمضى والتر كليمر معظم وقته في الصالة الرياضية يتأمل ويقيس الأبعاد النسائية، يقارن أعطاف الواحدة بالأخرى، وهو ليس بالأمر الصعب على تقني مثله. أما معلّمة البيانو، فكانت في هذه الأثناء تفتّش بتردد في غرفة الملابس التي تكدست فيها اليوم علب الآلات، والأغطية، والمعاطف، والقبعات، والأوشحة، والقفازات. أما عازفو آلات النفخ فقد حافظوا على دفء رؤوسهم ، وحافظ عازفو البيانو والآلات الوترية على أيديهم - إذ إن ذلك يتوقف على أي جزء من الجسم الذي يستحضر الأصوات. وثمة عدد لا يحصى من الأحذية في المكان، لأنه لا يمكنك أن تدخل صالة الرياضة إلا إذا كنت تنتعل حذاءً رياضياً. وبما أن بعض العازفين كانوا قد نسوا أحذيتهم الرياضية، كنت تراهم جالسين في جواربهم، أو في جواربهن النسائية، وقد أصابهم البرد.

يصل صوت شلالات باخ الهادرة من بعيد إلى أسماع إريكا عازفة البيانو. إنها تقف فوق أرض تهيئ الطلاب لتحقيق إنجازات رياضية عادية. لا تعرف ماذا تفعل أو لماذا خرجت مسرعة من قاعة التدريب. هل كليمر هو الذي أخرجها؟ إن الطريقة التي ألقى فيها تلك الفتيات الصغيرات على طاولة البحث مثل خبير في الأطعمة شيء لا يطاق. وإذا سُئل عن ذلك، فيجيب لأنه يتمتع بحاسة ذوق مرهفة، ولأنه يقدّر الجمال الأنثوي من كلّ عمر وصنف. إنها تشكّل إهانة للمعلّمة، التي حاولت أن تهرب من هذا الشعور.

غالباً ما تريح الموسيقى أعصاب إريكا عندما تكون متكدرة. أما اليوم، فالموسيقى تحفر في أطراف أعصابها الحسّاسة التي كشفها الرجل الذي يدعى كليمر. حطت إريكا رحالها في مطعم يكسوه الغبار، ولا تتوفر فيه تدفئة. إنها تريد أن تنضم إلى الآخرين مرة أخرى، لكنها لا تستطيع أن تغادر، وتقف بجانب نادل تكسو جسده العضلات، ينصح السيدة المترفة بأن تتخذ قرارها، فالمطبخ على وشك أن يغلق. حساء الخضار أو فطيرة الكبد؟ المشاعر مضحكة دائماً، وخاصة عندما يضع الأشخاص غير المخوّلين أيديهم عليها. تتمشّى إريكا في أرجاء الغرفة التي تفوح منها روائح كريهة، طير معلّق في عمود دوران غريب الشكل في حديقة حيوانات الحاجات السرية. تتعمد أن تمشي ببطء شديد، متمنية أن يأتي أحد ما ويوقفها. أو تتمنى أن يمنعها شخص من القيام بالفعل المشين الذي تزمع أن تقوم به، والذي يجب أن تتحمّل عواقبه المروّعة: نفق يحتدم بأجهزة مخيفة حادة، وظلام دامس ستنطلق فيه بسرعة. لا يبدو أي وميض من الضوء في نهاية النفق. وأين هو مفتاح ضوء الكُوى التي يختفي فيها عمال الطوارئ؟

كلّ ما تعرفه أنها ستجد الساحة في الطرف الآخر، مضاءة بألوان شديدة الحرارة، حيث تنتظرها مباهج وعروض أخرى. مدرج ذو مقاعد حجرية صاعدة، يمطر عليها: قشور الفستق، أكياس البوشار، قناني الصودا ذات المصاصات المعقوفة، لفائف ورق التواليت. هذا هو جمهورها الحقيقي. ومن صالة الرياضة يأتي صراخ السيد نيميث المكفهرّ. إنه يصرخ في الطلاب ليعزفوا بصوت أعلى: بقوة! بصوت أعلى!

حوض المغسلة مصنوع من الخزف، فيه شقوق كثيرة، وتعلوه

مرآة. وتحت المرآة رفّ زجاجي يستند إلى أقواس معدنية. ثمة كوب على الرفّ. لم يوضع الكوب هناك بعناية أو بحرص. فالشخص الذي وضعه هناك يبدو أنه لا يكترث للأشياء التي لا حياة فيها. ينتصب الكوب حيث ينتصب. لا تزال نقطة ماء معلقة في قعر الكوب، باسترخاء قبل أن تتبخّر. لعل أحد الطلاب كان قد شرب من الكوب. تفتّش إريكا في جيوب المعاطف والسترات بحثاً عن منديل، تعثر عليه أخيراً. نتاج الأنفلونزا وموسم الإصابة بالبرد. تمسك إريكا الكوب بالمنديل. تحيط الكوب بقطعة القماش. يلتف الكوب الذي يحمل عدداً لا يحصى من بصمات الأصابع التي خلفتها أيدي الشبان الصغار الخرقاء، بأكمله. تضع إريكا الكوب المغطى على الأرض وتهشّمه بكعب حذائها. يتحطم الزجاج الملتف بالمنديل ويتحول إلى شظايا. ثم تأخذ تدوس على الكوب المكسور عدة مرات حتى يتحوّل إلى شظايا، لكن ليس إلى عصيدة رقيقة لا شكل لها. يجب ألا تكون الشظايا صغيرة جداً! بل يجب أن تكون جميلة وحادة! ترفع إريكا المنديل الممتلئ بشظايا الزجاج وتدلقها بعناية في جيب أحد المعاطف. لقد خلّف الزجاج الرقيق الرخيص أجزاء سيئة وحادّة للغاية. قطعة القماش تكتم صوت طنين نشيج من الألم.

من الواضح أن إريكا تعرف المعطف من لونه الصارخ والدارجة موضته، ومن شدة قصره. عند بداية التدريب، حاولت الفتاة أن تقترب كثيراً من والتر كليمر، الذي شمخ فوقها برأسه وكتفيه. تودّ إريكا أن تعرف كيف ستشمخ الفتاة بأنفها عندما تكون يدها جريحة. عندها سيلتوي وجهها بتجهم قبيح، ولن يعود أحد يدرك شبابها وجمالها السابق. ستنتصر روح إريكا على مزايا اللحم.

على إريكا أن تتجاوز مرحلة التنورة القصير جداً أولاً بناء على

طلب أمّها. فقد حزمت الأمّ أمرها وحذرتها من ارتداء الحاشية القصيرة: إن موضة الميني جوب لا تليق بإريكا. فقد قصّرت جميع الفتيات الأخريات تنوراتهن وعدّلن فساتينهن ومعاطفهن، أو أنهن اشترينها وهي قصيرة وجميلة. عجلة الزمن تعج بسيقان النساء العارية مثل شموع تنسال بتدفق. أما إريكا، وبأوامر من أمها، فقد قفزت إلى الأمام، تخطت الزمن. كان عليها أن توضّح للجميع، سواء أرادوا أن يسمعوا أم لا: إنه لا يناسبني حقاً، كما أني لا أحبّ أن أرتديه في واقع الأمر! وقفزت عبر المكان والزمان. طلقة من منجنيق الأم. فمنذ البداية، نفذت أكثر المعايير صرامة، أمضت ليالي طويلة من التمعن والتفكير، حتى تحكم إلى أي مدى وإلى أي حد يجب أن تبرز فيها السيقان العارية! كانت تضع علامات على السيقان التي تبرز جميع أنواع السراويل الداخلية أو التي تتعرى في الصيف - وهي الأسوأ بكثير. وكانت إريكا تقول لكلّ شخص كائناً من كان: لو كنت مكانها، لما تجرأت على عمل ذلك! وكانت إريكا تقدم شرحاً مفصلاً عن السبب الذي يجعل قوام قلة قليلة من الفتيات يلائمهن ذلك. ثم تجاوزت الزمن وبدعه، متشبثة بالفساتين التي «تصل إلى الركبة»، التي لا تبطل موضتها كما تقول مجلات الأزياء. وهكذا أصبحت، وبأسرع من الأخريات، ضحيّة لحلقة مستمرة من السكاكين في عجلة الزمن. وترى أنه يجب على المرء أن لا ينساق وراء الموضة: بل يجب أن تنساق الموضة وراء ما يبدو ملائماً لك أو لا يبدو ملائماً.

عازفة الناي تلك، التي تشبه المهرج، زادت من حرارة والتر كليمر بعد أن خصّته بساقين يمكن للقاصي والداني أن يراهما. وتعرف إريكا جيداً أن مصممات الأزياء يحسدن الفتاة كثيراً. وبينما كانت إريكا كوهوت تدلق شظايا الكوب عمداً في جيب معطف الفتاة، خطر ببالها

أنها لن تعود تبالي بأن تعيش شبابها مرة أخرى مهما كان الثمن، فهي سعيدة بأنها بلغت هذا العمر. فقد تمكّنت، وفي الوقت المناسب، من أن تستعيض عن الشباب بالخبرة.

لم يدخل أحد بعد، لكن المجازفة كبيرة. فما زال الجميع في الصالة الرياضية منهمكين في مباراة تنافسية في الموسيقى. فالبهجة، أو ما كان باخ يعنيه بذلك، يملأ كلّ ركن من أركان المكان ويتسلق السلالم. لم يعد اللحن الختامي بعيداً جداً. وبعجلة واندفاع، تفتح إريكا الباب وتعود إلى تواضعها البالغ. تفرك يديها كما لو كانت قد غسلتهما للتو، وتقبع بصمت في إحدى الزوايا. ولا داعي للقول إن إريكا، لكونها معلّمة، تستطيع أن تفتح الأبواب التي تشاء رغم أن باخ لا يزال يبقبق. ويسجل السيد كليمر عودتها بوهج في عينيه اللامعتين بشكل طبيعي. إريكا تتجاهله. يحاول أن يحيّي معلّمته مثل طفل يحيّي دمية الدبّ في عيد الفصح. البحث عن البيض أكثر متعة من العثور عليه، وبهذه الطريقة يحسّ والتر كليمر بهذه المرأة. والصيد بالنسبة للرجل أكثر متعة من الاتحاد الحتمي. والسؤال الوحيد هو متى؟ لا يزال القلق ينتاب كليمر حول الفرق اللعين في العمر. لكنه يظل هو الرجل، وهذا بحد ذاته يعوّض عن السنوات العشر التي تكبره بها إريكا. كما أن قيمة المرأة تتناقص مع تزايد السنوات وزيادة ذكائها. الجانب التقني في شخصية كليمر يحسب كلّ هذه البيانات، وخلاصة كلّ هذه الحسابات أنها تكشف أنه لم يعد أمام إريكا فترة طويلة قبل أن تضع قدمها في القبر. ولا يشعر والتر كليمر بخجل شديد عندما يرى التجاعيد على وجه إريكا وجسدها، بل ينتابه خجل أكبر عندما تأخذ تشرح له شيئاً عن لوحة المفاتيح. ولكن في النهاية، فإن ما يهم هو التغضنات، والتجاعيد، والثنايا الشحمية، والشعر الأشيب،

والانتفاخات تحت العينين، والمسامات الكبيرة، والأسنان الاصطناعية، والنظارات، وفقدان القوام.

لحسن الحظ، لم تعد إريكا إلى البيت مبكراً كعادتها. إذ يحلو لها كثيراً أن تتغيب عن البيت بدون إذن. لا تصدر عنها ولا كلمة تحذير، ولا حتى إشارة بيدها. وفجأة، تراها تذهب إلى كل مكان. وفي الأيام التي تهجره عامدة متعمدة، يعزف كليمر داي وينترريس على الناي مرارا وتكراراً، يدندنها برقة. ويقول للمعلّمة في اليوم التالي إن أكثر أغاني شوبيرت حزناً هي التي تهدئ الأعصاب وتريح المزاج الذي كان يتملكه البارحة، وكلّ ذلك بسببكِ أنتِ يا إريكا. ثمة شيء فيّ اختلج مع شوبيرت الذي لا بد أنه ارتعش عندما كتب «وطأة الوحدة»، كما ارتعشتُ البارحة. لقد أحسسنا بالإيقاع نفسه، مثل شوبيرت وخادمك المتواضع. قد أكون قاصراً وتافهاً مقارنة بشوبيرت. لكنني في بعض الأمسيات كالبارحة، يتملكني شعور أفضل من المعتاد بالمقارنة به. وفي العادة، فأنا سطحي نوعاً ما. أترين يا إريكا فأنا أعترف بذلك بكل صدق وأمانة.

تطلب إريكا من كليمر ألا ينظر إليها بهذه الطريقة: إلا أن كليمر منفتح الآن كما كان دائماً في ما يتعلق برغباته. فكلاهما منغلقان مثل شرنقتين توأمين في شرنقة واحدة، قشورها رقيقة مثل نسيج العنكبوت، مصنوعة من الطموح، والطموح، الذي يرقد هشاً، لا وزن له، على هيكل رغباتهما الجسدية وأحلامهما. هذه الرغبات هي التي تجعل كلّ شخص حقيقياً بالنسبة للآخرين. الرغبة في أن تخترق بالكامل وأن تُخترق كلياً، هي التي تصنع شخص كليمر وشخص كوهوت. قطعتان من اللحم معروضتان في واجهة دكان الجزار الجيدة التبريد، لون قطع اللحم الوردية المتجهة نحو المارة. وبعد مشاورات طويلة، تطلب ربّة

البيت رطلاً من هذا، ورطلين من ذاك. يلف القطعتين في ورق سميك لا ينفذ إليه الدهن. تضعهما الزبونة في حقيبة تسوّق غير صحّية مبطنة بالبلاستيك لم تنظّف على الإطلاق. وتقبع قطعتا اللحم، الشريحة وضلع لحم الخنزير معاً، واحدة شديدة الحمرة، والأخرى وردية شاحبة.

فيّ سترى الحاجز الذي ستتكسر عليه إرادتك، لأنك لن تفلت مني يا سيد كليمر! وكليمر يخالفها بشدة، واضعاً حدوده ومعاييره.

في هذه الأثناء، تنطلق فوضى التداوس بالأقدام والتدافع بالمناكب في غرفة الثياب. تتعالى الأصوات بأنهم لا يجدون هذا أو ذاك، الذي كانوا قد تركوه هنا أو هناك. ويزعق آخرون بأن أحداً يدين لهم بالمال. علبة آلة كمان تتحطم وتتصدّع تحت قدم شاب لم يشتر العلبة بماله، وإلا لأبدى مزيداً من الحرص عليها والاهتمام بها، كما تذرّع أبواه. تزقزق فتاتان أمريكيتان بصوت ذي طبقة عالية عن انطباعهما العام عن الموسيقى، الذي شوشّه شيء ما، لا تستطيعان تحديده بدقة، ربما كان الصوت. لكنهما سمعتا تشويشاً ما.

ثم يشق صراخ عنان السماء إلى نصفين، وتخرج يد دامية مجروحة من جيب أحد المعاطف. يقطر الدم على المعطف الجديد، ويخلّف بقعاً داكنة. وتصرخ الفتاة صاحبة اليد مرعوبة وتبكي بألم شديد، بعد لحظة من حدوث الصدمة التي لم تشعر خلالها بشيء. أداة عازفة الناي المجروحة، التي يجب خياطتها، اليد التي تضغط المفاتيح وتطلقها، أصبحت قطعاً ترتعش. المراهقة تفغر فمها مرعوبة وهي تنظر إلى يدها التي تقطر دماً. وبدأ مجمّل الرموش، وظلّ العيون ينسالان في انسجام ملوّن بعناية على وجنتيها. يعتري الجمهور إحساس بالصدمة، ثم تندفع نحو المركز بقوة مضاعفة، مثل برادة الحديد عندما يجذبها حقل

مغناطيسي. ولم يكن التعلق بالضحية مفيداً كثيراً. فهو لا يجعلهم مذنبين، لأنهم لم يدخلوا في علاقة غامضة مع الضحية. فقد طردوا شرّ طردة. يلتقط السيد نيميث عصا السلطة ويطلب طبيباً. ثلاثة طلاب نموذجيين يهرعون إلى الهاتف. ويلبث الآخرون في مكانهم يشاهدون، لا يعرفون أن سبب الحادثة رغبة أُظهرت بشكل غير مناسب. ولم يتمكنوا من فهم من بوسعه أن يقدم على شيء كهذا. ولم يخطر ببالهم أنه يمكن لأحد أن يقدم على ارتكاب عمل شنيع كهذا.

تتجمع مجموعة من الطلاب للمساعدة. لا يبتعد أحد لأن الجميع يريد أن يلقي نظرة عن كثب.

يجب أن تجلس الضحية. إنها تشعر بالحاجة إلى التقيؤ. ربما وضع ذلك حداً لعزفها السيئ على الناي.

إريكا تتظاهر بأنها تشعر بالغثيان لأنها شديدة القرب من الدم.

ثمة شيء إنساني يحدث بعد أن وقع الضرر. يخابر البعض لأن آخرين خابروا أيضاً. يصرخ كثيرون في وجه الآخرين بأن يلوذوا بالصمت، إلا أنه في الواقع لا يصمت إلا قلة قليلة. يتدافعون ليخترق أحدهم خطوط رؤية الآخر. يتهمون أشخاصاً أبرياء تماماً. يسلكون عكس نداءات الالتزام بالنظام. يثبتون أنهم لا يبالون كثيراً بالتوسلات للحفاظ على الهدوء، ابتعدوا، ابتعدوا عن هذه الحادثة الفظيعة. يعارض طالبان، أو ثلاثة طلاب قواعد الحشمة الأكثر بدائية. ومن الزوايا المختلفة التي تراجع إليها الأولاد ذوو التربية الجيدة واللامبالون، يسمع المرء أسئلة عمن يمكن أن يقترف مثل هذا العمل الإجرامي. يخمّن أحدهم أن الفتاة جرحت نفسها لتجذب الانتباه. يحتج آخر بقوة ويشيع بأنّ هذا العمل الشنيع أقدم عليه صديق غيور. وذكر ثالث أن الغيرة ربما كانت الدافع، ومن يمكنه أن يفعل ذلك سوى فتاة غيورة.

ينفجر فتى وجّه إليه الاتهام ظلماً. تجهش فتاة تتهم زوراً وبهتاناً بالبكاء. مجموعة من الطلاب تقاوم تدابير فرضها العقل. أحدهم يصد بقوة تأنيباً، بالأسلوب الذي ترى السياسيين يسلكونه في التلفزيون. يطلب السيد نيميث الهدوء، الذي يعكر صفوه صوت صافرة سيارة الإسعاف.

تلاحظ إريكا كوهوت كلّ شيء بعناية ثم تغادر. لاحظ والتر كليمر إريكا كوهوت مثل فرخ فقس حديثاً يتعرف على مصدر غذائه، ثم خرج في إثرها ما إن غادرت المكان.

* * *

درجات السلم التي جُوّفت تحت وقع أقدام الأطفال الغاضبة، ترتج تحت حذاء إريكا الرياضي، وتختفي تحت قدميها. وفي هذه الأثناء، تشكّلت مجالس مؤقتة في الصالة الرياضية، تحزر وتخمّن وتوصي. تركّز على مناطق اختفاء محتملة، وتشكل سلاسل للانقضاض على المناطق التي يكمن فيها مثيرو الصخب. هذا التشابك والاضطراب لن ينحلّ قريباً. لكنه في النهاية سيتفكك تدريجياً، لأنه يتعين على الموسيقيين الشباب أن يعودوا إلى بيوتهم. إلا أنهم يتحلقون الآن حول سوء الحظ، الذي لحسن الحظ، لم يصبهم هم. وكان ثمة شخص أو شخصان يعتقدان أن دورهما جاء الآن. تهبط إريكا الدرج مسرعة. إذ يخيّل إلى كلّ من يراها هاربة بأنها تشعر بالغثيان - فعالمها الموسيقي لا يعرف الأذى. وتشعر برغبة جامحة في أن تبول كما اعتادت في اللحظات غير المناسبة. تحسّ بشيء يشدها إلى الأسفل بين ساقيها، لذلك يجب عليها أن تهرع بسرعة إلى الأعلى. تبحث عن حمّام في الطابق العلوي، لأنه لن يفاجئ أحد المعلّمة هناك وهي تقوم بعمل طبيعي رتيب عادي.

تجذب باباً لا على التعيين وتفتحه. إنها لا تعرف طريقها جيداً. إلا أنها تمتلك خبرة في أبواب الحمّامات، لأنها كانت تضطر للبحث عنها في معظم الأحيان في أماكن مستحيلة. في بنايات أو مكاتب غير مألوفة. يبدو الباب مهترئاً إلى حد أن مظهره يدلّ على ذلك. لا بد أن هذا الباب يفضي إلى الحمّامات في هذه المدرسة، ويعزز ذلك الرائحة الكريهة المنبعثة من بول الأطفال.

لا يمكن فتح أبواب حمّامات المدرسة إلا بمفاتيح خاصة. وتضم هذه المرافق أدوات صحية ممتازة فضلاً عن أحدث الأجهزة الخاصة. يعتري إريكا ذلك الشعور غير الموسيقي بأنها على وشك أن تنفجر. وكلّ ما تريد أن تفعله هو أن تدلق ذلك الجدول الطويل الحار من داخلها. يتملكها هذا الحافز غالباً عندما تواجه لحظات صعبة في إحدى الحفلات الموسيقية، عندما يعزف عازف البيانو بهدوء شديد، بالإضافة إلى استخدامه الدواسة الناعمة.

تنفجر إريكا بصوت غير مسموع إزاء تلك العادة التعيسة التي يمارسها الكثير من عازفي البيانو الذين يرون - وهو رأي يؤيدونه علناً - بأن الدواسة الناعمة لا تستخدم إلا من أجل الهدوء. ومع ذلك، كانت تعليمات بيتهوفن الشخصية واضحة لصالح الدواسة الناعمة. لذلك يتحدث منطق إريكا إلى خبرتها، اللذان يخالطان بتهوفن ويمتزجان معه. تندم إريكا في سريرتها لأنها لا تستطيع أن تستمتع بجريمتها تماماً إزاء الطالبة الجاهلة.

أصبحت الآن في الغرفة الأمامية للحمّام. لا تستطيع إلا أن تدهش لخصب خيال المهندس المعماري الذي صمّم المدرسة، أو الذي صمم الديكور الداخلي. فإلى اليمين، ثمة باب قزم يفضي إلى مبولة الصبية. الرائحة نفّاذة. وثمة بالوعة تجري في الأرض بجانب الجدار الملطخ

ببقع الزيت. وتضم البالوعة مجموعة لطيفة من أنابيب التصريف، بعضها مسدود. فهنا يهسهس الرجال الصغار بجداولهم الصفراء ويقذفونها إلى المباول، أو أنهم يقومون بطلاء رسوم وأشكال على الجدار. خطوط يدهم واضحة المعالم على الحائط.

أما الأشياء التي لا تخص هذا المكان، فهي عالقة في البالوعة هنا أيضاً: قصاصات ورق، قشور موز، قشور برتقال، بل وحتى دفتر ملاحظات. تفتح إريكا النافذة وترى إفريزاً فنياً فوق الحائط المواجه، ينحرف قليلاً إلى الجانب. ويظهر الديكور الخارجي، من البقعة التي تطل منها إريكا بعين الطير، شيئاً شبيهاً برجل عارٍ جالس، وامرأة عارية قاعدة. وذراع المرأة تلتف حول فتاة صغيرة بكامل ثيابها، تقوم بعمل ما بيديها. الرجل ينظر إلى الأعلى بنيّة حسنة إلى ابن يرتدي ثيابه، يحمل بحذر فرجاراً مفتوحاً، ويبدو أنه يقوم بحلّ مسائل علمية. وتشاهد إريكا تنبيهاً محفوراً على الحجر في الإفريز عن السياسات الديمقراطية الاجتماعية التعليمية، وتبذل جهدها لأن لا تنحني أكثر خارج النافذة كي لا تسقط. تفضّل إريكا أن تغلق النافذة، رغم الرائحة الكريهة. لا تستطيع إريكا أن تضيّع وقتها بالنظر إلى الفنّ، بل يجب أن تفعل ما جاءت من أجله إلى هنا.

أما تلميذات المدرسة الصغيرات فيبلن خلف واجهة مستعارة في مؤخرة شيء يشبه ديكور المسرح الذي يصوّر، بدون إقناع شديد، شيئاً أشبه بصفّ من الأكشاك. وكما هو الحال على الشاطئ، ترى فتحات لا تعد ولا تحصى من أكثر الأشكال والأحجام تنوعاً، مثقوبة في الحواجز الخشبية. وتتساءل إريكا بماذا ثقبنها. وقد جُعلت هذه الجدران بارتفاع كتفي المعلّمة، حيث كان رأسها يلوح إلى الخارج. ولا يمكن لأحد أن يخفي نفسه وراء هذا الستار إلا تلميذة مدرسة

ابتدائية، أما أعضاء الهيئة التدريسية الكبار فلا يمكنهم ذلك. ويختلس التلاميذ النظر من خلال الفتحات لرؤية مشهد جانبي من حوض المرحاض المجاور والشخص الذي يستعمله. فإذا وقفت إريكا وراء الحاجز، فسيبرز رأسها من فوقه مثل زرافة تتناول غصناً في شجرة باسقة. وقد يكون أحد أسباب عمل الحواجز بهذا الشكل، أن يتحقق الكبار دائماً من سبب استغراق الطفلة طوال هذا الوقت وهي قابعة خلف الباب، أو إن كانت قد أقفلت الباب على نفسها.

تسرع إريكا وتقعي على مقعد المرحاض المتسخ بعد أن ترفع الغطاء. وبما أنه قد تكون قد أتت الأشخاص الآخرين ممن سبقوها إلى هذا المكان ومضة الحكمة تلك، فلعل المقعد تكسوه الجراثيم والطفيليات. ثمة شيء يعوم في الحوض، إلا أن إريكا لا تنظر، لأنها في عجلة من أمرها. فهي مستعدة في حالتها لأن تقعي حتى فوق جحر أفعى. لكن يجب أن يكون هناك باب يمكن إغلاقه. فإذا لم تتمكن من إغلاقه جيداً، فلن يخرج منها شيء بأي ثمن. ها هو المزلاج يعمل، وعندها تدفق السيل من إريكا. تتنفس إريكا الصعداء، تدفع العتلة الصغيرة حتى تظهر قطعة حمراء على الجانب الآخر مكتوب عليها عبارة: مشغول.

يفتح أحدهم أحد الأبواب ويدخل. الأشياء المحيطة لا تثير قلقه. الخطوات المقتربة خطوات ذكر، وكما يتبين فهي خطوات والتر كليمر، الذي انطلق مسرعاً وراء إريكا منذ دقائق قليلة. ينتقل كليمر من شيء كريه منفّر إلى آخر، وهو شيء لا يمكنه تحاشيه إذا أراد أن يتعقب محبوبته. فهي تصدّه منذ أشهر عديدة، مع أنها كان يجب أن تعرف حقيقة كليمر كازانوفا. إنه يتمنّى أن تتمكن من تحرير نفسها من عقدها. يجب أن تضع شخصيتها كمعلّمة جانباً وتنتقل إلى شيء يمكنها أن

تقدمه له. وسيتدبر هو الباقي. يتشكل كليمر الآن من بيروقراطية ورغبة. رغبة لا تعرف أية حدود، أو إذا عرفتها، فلا تتقيد بها. تلك هي مهمة كليمر تجاه معلّمته. ينفض والتر كليمر عن نفسه قشرة تسمى الكوابح والروادع، قشرة تسمى الخجل، قشرة تسمى القيود. لن تفلت منه إريكا، ولن يوجد أمامها سوى عملية بناء هائلة. سيجعلها تنسى كلّ شيء سواه، سيريها النجوم. وسيطبق تعليمات الدليل بحيث لا يتمكن أحد آخر من استخدام إريكا بهذه الطريقة. لقد آن الأوان: الكثير من غموض إريكا وخفوتها. فلن تعود الجميلة النائمة. يجب أن تكون شخصاً حراً، تقدّم نفسها بحرية إلى كليمر، الذي يعرف جيداً كل شيء عن رغباتها السرية.

ولهذا السبب يسأل كليمر الآن: «إريكا، هل أنت هنا؟» لا يأتي أي رد. يدوّي صوت طرطشة ماء خافتة من المقصورة. ضجيج يتضاءل شيئاً فشيئاً. نحنحة نصف مكتومة. إنها تشير إلى الاتجاه الذي تقبع فيه. عدم الرد على كليمر قد يترجم بأنه ازدراء له. فقد تمكن من التعرف بدقة على صاحبة الحنجرة التي تنحنحت. لا يمكنكِ أن تجيبي رجلاً بهذه الطريقة، يقول كليمر، متحدثاً إلى غابة من المقصورات. إريكا معلّمة، لكنها طفلة كذلك. وقد يكون كليمر الطالب، لكنه الكبير هنا. وقد أدرك أنه هو، لا المعلّمة، من يضع المعايير. يطبّق كليمر هذا الامتياز الذي اكتسبه مؤخراً بالبحث عن شيء يرتقيه. إنه فطن، فقد رأى دلواً وسخاً من الصفيح تتدلى على طرفه خرقة لتجف. ينفض كليمر الخرقة. يحمل الدلو إلى إحدى المقصورات، ويقلبه رأساً على عقب. يقف عليه، ويطل من وراء الحاجز، الذي كانت تقطر خلفه آخر القطرات. يسود صمت قاتل. تُنزل المرأة القابعة وراء الحاجز تنورتها، كي لا يراها كليمر في موقع ضعف. يظهر جزء كليمر الأعلى من الباب

ويميل إلى الأمام بتحد. يصبح وجه إريكا أحمر كالشوندر. تلوذ بالصمت. ومن مكانه يستطيع كليمر، الزهرة ذات الجذع الطويل، أن يفعل أيّ شيء. يفتح مزلاج الباب. يسحب كليمر المعلّمة إلى الخارج لأنه يحبّها، وربما كانت توافقه تماماً. ستمنحه ذاك الامتياز إن وجدها هناك ثانية، وسيكون مخلصاً لكل ملليمتر فيها، عندما تجتاحه الرغبة في أن يغشاها. تبدأ تسحب شيئاً من نفسها، من وعاء نفسها الذي لا قعر له، الذي لن يعود فارغاً للطالب. لنأمل أنه التقط إشارات خفية. يمارس كليمر عنفاً شديداً ويرميها على ظهرها على الأرض. هبوطه فوقها سيكون ناعماً، أما هبوطها فسيكون عنيفاً. إنه يطلب المطلق من إريكا. لأنهما يعرفان كلاهما أن شخصاً ما قد يأتي في أية لحظة. يقول والتر كليمر شيئاً جديداً تماماً عن حبّه لها بصوت عالٍ في أذنها.

تظهر يدان أمام إريكا ضمن إطار مضيء. ومن اتجاهين مختلفين تشقان طريقهما نحوها. تتملكهما الدهشة عندما تهبطان عليها بشكل مفاجئ. إن صاحب اليدين أقوى من المعلّمة. ولهذا ما فتئت تستخدم الكلمة التي غالباً ما يساء استعمالها «انتظر!». لكنه لا يريد أن ينتظر. يشرح لها سبب ذلك. يتنهد بشبق، لكنه يبكي أيضاً، لأنه دُهش من السهولة التي تم فيها كلّ شيء. تعاون إريكا كفتاة مطيعة.

تبعد إريكا والتر كليمر عنها. تسحب قضيبه، الذي أخذ ينتعظ. إنه ليس بحاجة إلا إلى اللمسة الأخيرة، لأنه مستعد ومهيأ. وأحس بالراحة لأن إريكا هي التي قامت بهذه المهمّة الصعبة. يحاول كليمر أن يدفع معلّمته إلى الأسفل. لكن يجب على إريكا أن تقاومه الآن بكامل ما أوتيت من قوة كي تبقى منتصبة. تمسك عضو كليمر من مسافة، فيما يتحسّس شيئها عشوائياً. تخبره إن لم يتوقّف، فإنها ستغادر على الفور. تكرّر تهديدها بهدوء عدة مرات، لأن إرادتها العليا المفاجئة ستجد

صعوبة في الوصول إليه وغضبه الشديد. وبدا لها أن عقله تغشاه نوايا شريرة. يتردّد. مستغرباً إن كان قد أساء فهم شيء. فلا يبدو أن لهذه المرأة أية شرارة من الاستسلام. تبدأ إريكا تداعب الجذر الأحمر بين أصابعها. تطلب امتيازاً، لكنها ترفض أن تمنحه للرجل. يجب ألا يمضي معها أكثر من ذلك. عقل كليمر يأمره بألا يدعها تفعل هكذا به. فأليس هو الخيّال، وهي الفرس! إذ ستتوقّف عن استمنائه إن لم يتوقّف عن مداعبة جزئها السفلي. ويخطر بباله أخيراً أن الإحساس أكثر إمتاعاً من جعل الآخرين يحسون. ولذلك يطيع. وبعد عدة محاولات تنم عن مزيد من الفشل، تبتعد يده عن إريكا للأبد. وبارتياب يحدّق في عضوه الذي بدا أنه قد انفصل عنه، فيما يزداد انتفاخاً في يدَي إريكا. تأمره إريكا أن ينظر إليها، لا إلى قضيبه والحجم الذي وصل إليه. يجب ألا يقيسه أو يقارنه بالآخرين، لأن حجمه يخصه هو وحده. سواء كان كبيراً أو صغيراً، فهو يكفيها. لا يشعر بالرضا. لكن لا حيلة له في ذلك، وهي تعمل عليه. سيكون من الأفضل ممارسة الطريقة الأخرى، التي تتم في الصف. تبقيه إريكا بعيداً عنها. هوّة بين جسديهما تفغر فمها بتثاؤب، تتألف من قضيب طوله سبع بوصات، فضلاً عن ذراع إريكا، وفرق في العمر قدره عشر سنوات. الرذيلة أساساً هي حبّ الفشل. وقد دُربت إريكا دائماً على النجاح، رغم عدم تحقيقه.

يريد كليمر أن يصل إلى إريكا بواسطة برنامج عمل أو دراسة، أن يصل إليها بحميمية. يردد اسمها مرات عديدة. يلوح بيديه في الهواء، مجازفاً للمرة الثانية في أن يصل إلى الأرض المحرّمة: فلعلها تفتح له هضبتها الاحتفالية السوداء بعد كل ذلك. إنه يأمل أن يجد كلاهما متعة أكبر بكثير، ويعلن لها عن رغبته في ذلك. يختلج قضيبه في انتفاخ يميل إلى اللون الأزرق. يخبط في الهواء. يشعر كليمر الآن بأنه مضطر

لأن يبدي اهتماماً بدودته الممتدة أكثر من اهتمامه بإريكا ككل. إريكا تطلب من كليمر أن يصمت، وألا يأتي بأية حركة مهما كانت، وإلا لغادرته. يقف الطالب مباعداً بين ساقيه أمام المعلّمة، لا يزال لا يرى أي بصيص من النور في نهاية النفق. مرتبكاً، يستسلم كما لو كان ينفذ توجيهات معزوفة كرنفال لشومان أو سوناتة بروكوفيف التي يتدرب عليها. عاجزاً يبقي يديه قرب سحاب بنطاله. ولا يستطيع أن يفكر في مكان آخر يمكنه أن يضعهما فيه. صورته الجانبية تشوّه قضيبه الذي يتقدم إلى الأمام مثل صبي حسن السلوك - يحاول هذا النتوء الخافق أن يهاجم جذوراً هوائية. بدأ الظلام ينتشر في الخارج. ومن حسن الحظ، كانت إريكا بجانب مفتاح الضوء، فشعتله. راحت تتفحص لون قضيب كليمر وتكوينه. تدخل أظافرها تحت قلفته، وتأمره بألا يصدر صوتاً، سواء من البهجة أو من الألم. يقف الطالب في مكانه متجمداً كاتماً نَفَسه لكي يدفع ذلك الشيء إلى الخارج. يضم فخذيه معاً، ويضغط عضلات ردفيه حتى تصبح قاسية كالفولاذ.

يجب ألا تتوقفي عن ذلك الآن، أرجوكِ! بدأ كليمر يشعر بالمتعة شيئاً فشيئاً بهذا الوضع، وبدأ يغمره شعور لذيذ في جسده كله. وبدلاً من الفعل الغرامي، ينطق بكلمات غرامية، إلى أن تأمره بأن يصمت. وللمرة الأخيرة، تأمر المعلّمة التلميذ بأن لا يفه بكلمة - سواء حول الشيء الذي في متناول اليد أو أي شيء آخر. هل هذا واضح؟ يصدر عن كليمر صوت نواح لأنها تداعب عضو حبّه الرائع كله. تتعمد أن تسبب له الألم. تُفتح فتحة تفضي إلى كليمر تغذيها قنوات مختلفة. الفتحة تتنفّس، تترقب الانفجار. يبدو أنه قد آن الأوان، لأن كليمر يصرخ محذراً أنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك. ويؤكد لها أنه يبذل كل ما بوسعه لكي يضبط نفسه لكن جهوده لا تجدي نفعاً.

تغرس إريكا أسنانها في تاج قضيبه، والتاج لا يفقد أية نقاط، ومع ذلك فإن صاحب التاج يصيح. تطلب منه أن يلوذ بالصمت. لذلك يبدأ يهمس مثل مشاهد في المسرح: إنه على وشك أن تأتيه الرعشة الآن، الآن! تبعد إريكا أداته من فمها وتقول لصاحبها إنها ستضع في المستقبل قائمة بجميع الأشياء التي يمكنه أن يفعلها لها. سأدوّن لك كلّ رغباتي وأعطيك إياها. وبكلّ تناقضاته كان هذا الرجل مثل كتاب مفتوح. لقد أصبح لدى كليمر شيء يتطلع إليه!

كليمر لا يتمكن من مجاراة انجرافها وجنوحها. يتوسل إليها وهو ينشج ألا تتوقف بحق السماء، فهو على وشك أن يفرغ حممه البركانية. يمدّ مدفع رشاشه الصغير، تحدوه الرغبة في أن يضغط على الزناد ليطلق النار. لكن إريكا تقول إنها لم تعد تريد أن تلمسه - حتى لو مُلِّكت الدنيا كلها. كليمر ينحني، يخفض جذعه حتى ركبتيه تقريباً. وبهذه الوضعية، يهرع إلى الغرفة الأمامية من الحمّام. يقع في دائرة ضوء مصباح أبيض مستدير قوي. يتوسل إلى إريكا، لكنها لا تستجيب. يلمس نفسه ليكمل ما بدأته إريكا بيدها. يفسّر لمعلمته لماذا أن معاملة رجل بدون احترام وهو في مثل هذه الحالة، تنطوي على انعدام المسؤولية وأنه أمر غير سليم حقاً. فتجيب إريكا: لا تلمسه، وإلا لن تراني ثانية في مثل هذا الحالة أو في حالة مشابهة يا سيد كليمر. يصوّر الطالب لها الألم الشديد المنبثق من الخصيتين الزرقاوين، وأنه لن يتمكن حتى من العودة إلى البيت سيراً على القدمين. فتنصحه إريكا بهدوء أن يأخذ سيارة أجرة. وبسرعة تغسل يديها في حوض المغسلة. تزدرد بعض الماء. يحاول كليمر خلسة أن يداعب نفسه (فالنوطة غير موجودة). لكن صيحة حادّة منها توقفه. يجب عليه بكلّ بساطة أن يقف أمام المعلّمة إلى أن تصدر أمرها. إنها

ترغب في أن تدرس تحوله الجسدي. ويمكنه أن يطمئن أنها لن تلمسه. السيد كليمر يتوسل، ينشج ويرتعش. إنه يعاني من قطع العلاقات المفاجئ، رغم أن هذه العلاقات لم تكن متبادلة. يؤنب إريكا بشدة. يدخل في تفاصيل دقيقة عن كلّ مرحلة من مراحل المعاناة بين رأسه وأصابع قدميه. وفي هذه الأثناء، ينكمش قضيبه ببطء. قد يكون كليمر أيّ شيء لكنه ليس تابعاً بالفطرة، فهو من ذلك النوع من الرجال الذي يجب أن يسأل لماذا، لذلك يبدأ يشتم ويلعن معلّمته أخيراً. يفقد السيطرة على نفسه لأن الرجولة فيه قد انتُهكت. فبعد المداعبة، يجب على الرجل أن يُصقل ويُلمّع حتى يصبح نظيفاً ثم يعاد إلى مكانه. تردّ إريكا: اسكت! نبرتها تبقيه صامتاً.

وبينما كان يتراخى ويذوي، يقف على مسافة بضعة أقدام منها. وبعد أن سمحنا لنفسينا أن نحصل على استراحة قصيرة، يجب على كليمر أن يدوّن جميع الأشياء التي يجب على المرأة ألا تفعلها لمثل هذه الرجل. إذ يبدأ سلوك إريكا بسلسلة طويلة من المحرمات وأنواع الكبت. وهو يريد أن يراجع أسباب ذلك. تطلب منه أن يصمت. إنه آخر طلب توجهه له. كليمر لا يصمت تماماً، ويعد بالانتقام.

تتجه إريكا ك. نحو الباب وتستأذنه بالانصراف بصمت. إنه لم يطعها رغم جميع الفرص التي منحتها له. أما الآن فلن يمارس ما يمكنه أن يمارسه معها، فيا له من حكم قاسٍ، يا لها من عقوبة. تضغط على مقبض الباب، لكن كليمر يرجوها أن تبقى.

سيلبث ساكناً، كلمة شرف. تفتح إريكا باب الحمّام على مصراعيه. يصبح كليمر داخل إطار الفتحة - ليست صورة ثمينة جداً. فسيكون بوسع أيّ عابر أن يرى قضيبه المكشوف دون أن يكون مستعداً لرؤية هذا المشهد. تترك إريكا الباب مفتوحاً لتمعن في تعذيب كليمر.

وبالطبع، فهي لا تريد أن يشاهدها أحد هنا أيضاً. تنتهز الفرصة بجرأة. سلّم الدرج ينتهي مباشرة بجانب باب الحمّام. تمرر إريكا أصابعها مرة أخيرة على قضيب كليمر، فيعاوده أمل جديد. لكنها تتوقف فجأة مرة أخرى. يرتعش كليمر كما ترتعش الأوراق في مهب الريح. استسلم ولم يعد يقاوم، كاشفاً عن عورته تماماً، ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً إزاء ذلك. إنه علاج مثالي لأي شخص يأتي بالصدفة ويراه. لقد فعلت إريكا ما عليها. أنهت برنامجها المكثّف دون أن ترتكب أي خطأ.

تضرب المعلّمة جذورها في الأرض. ترفض رفضاً قاطعاً أن تلمس عضو حبّه. إعصار الحبّ يهب ضعيفاً الآن. لا ينبس كليمر بكلمة عن المشاعر المتبادلة. ينكمش على نحو مؤلم. إريكا تجده ضئيلاً للغاية. إنه يتحمّل ذلك. فمن الآن وصاعداً، ستبقي عيناً ثاقبة على نشاطاته المهنية التي يقوم بها في أوقات فراغه. وإذا دعت الضرورة، فستمنعه من ركوب القارب لمجرد خطأ تافه. إنها ستقلّبه كما لو كان كتاباً مملاً، بل وربما ستركنه جانباً قريباً. يمكن لكليمر أن يستخدم مجذافه، عندما تسمح له بذلك فقط. تمنعه إريكا من محاولته خلسة لأن يعيده إلى مكانه ويرفع سحابه. يصبح كليمر صفيقاً، ويشعر بقرب النهاية. يتوقع أنه لن يكون بوسعه أن يمشي لثلاثة أيام. يصف مخاوفه بهذا الأمر، لأن المشي بالنسبة لكليمر، الرياضي، رياضة أساسية. تقول له إريكا أن ينتظر تعليماتها. سواء كانت خطية أم شفهية أم بالهاتف. تسمح له إريكا أن يعيد نبات الهليون إلى مكانه. وبحركة فطرية، يدير كليمر ظهره نحو إريكا ليفعل ذلك. لكنه في نهاية الأمر يجب أن يفعل كلّ شيء أمامها، وهي تراقبه. إنه سعيد لأنه بدأ يتحرك ثانية. وبعد بضع ثوان يبدأ تمريناً، يمارس حركات الملاكمة مع شخص وهمي. إذاً فهو لم يتعرض لأية تأثيرات سيئة. يجري ذهاباً

وإياباً في الحمّام. وكلما بدا أكثر مرونة واسترخاء، بدت معلمته أكثر تشنّجاً وتصلباً. لقد انكفأت، للأسف، تماماً إلى داخل شرنقتها. ولكي يعيد إليها روح الحيوية والمرح، يربت كليمر مداعباً على وجنتيها، ثم يصفعها برفق على مؤخرة عنقها. يطلب منها أن تضحك قليلاً، أن تتخفف من أعبائها، يا سيدتي الجميلة! اضحكي والعالم سيضحك معكِ! والآن لنعد إلى الهواء الطلق، الذي فاته أكثر مما فاته أي شيء آخر في تلك الدقائق القليلة الطويلة. ففي عمر كليمر، تُنسى الصدمة أسرع مما تُنسى في عمر إريكا.

ينطلق كليمر إلى البهو ويجري مسافة ثلاثين متراً. يأخذ شهيقاً وزفيراً بقوة، يذهب ويعدو أمام إريكا. يضحك بصوت عالٍ، يعطي اضطرابه متنفساً. يتمخّط بصوت هادر. يقسم إن الأمور ستكون أحسن بكثير بالنسبة لهما في المرة القادمة! فالممارسة تجعل المرأة كاملة. تدوّي ضحكة كليمر في البهو. يهبط الدرجات قفزاً، ينعطف في كلّ عطفة بدقة شديدة. ثم تسمع إريكا صوت باب المدرسة الثقيل في الأسفل يغلق بقوة.

يبدو أن كليمر قد غادر المبنى.

تهبط إريكا كوهوت الدرج ببطء إلى الطابق الرئيسي.

* * *

بدأ يستحوذ على إريكا كوهوت، التي لم تعد تفهم نفسها، شعور غريب أثناء الدروس التي يحضرها والتر كليمر، وأخذت تفقد أعصابها بدون مسوّغ. فمنذ أن لمسته في ذلك اليوم بدأ الطالب يهمل التدريب. وبدأ كليمر يرتكب الآن أخطاء على لوحة المفاتيح، بدأ يتعثّر، عندما تقف محبوبته وراءه. حتى أنه لم يعد يعرف على أي مفتاح ضغط!

وينتقل من مقام إلى مقام بدون إحساس. وأخذ يبتعد أكثر وأكثر عن السلم الرئيسي الذي يعزفه. أما إريكا كوهوت، فبدأت تشعر بكتلة قبيحة من القمامة تتدحرج نحوها. إلا أن هذه القمامة كانت تثير البهجة لدى كليمر- إذ بدأ يشعر بثقل وزن المرأة المحبوبة. لقد انحرفت رغباته الموسيقية، التي لا تتماشى مع قدراته. ولم تكد إريكا تحرك شفتيها، تنبهه بأنه يرتكب إثماً بحق شوبيرت. وللتعويض عن هذه الشكوى ولإيقاظ حماس المرأة، يفكّر كليمر في جبال النمسا ووديانها، في السحر الذي يزعم أن هذا البلد يتمتع به. فقد أحسّ بها شوبيرت الذي لم يسافر كثيراً، رغم أنه لم يتحقق من ذلك. وبدأ كليمر يعزف مجدداً سونيتة البرجوازي الرئيسية لبيدرميير الذي سبق زمنه بمراحل كثيرة. ويعزف كليمر بروح - أو بالأحرى بلا روح - رقصة ألمانية من تأليف الأستاذ العظيم نفسه. لكنه سرعان ما يتوقف لأن معلّمته تسخر منه: فلعله لم ير في حياته هاوية شديدة الانحدار، هوّة عميقة الأغوار، جدولاً هائجاً يجري في واد ضيق، أو بحيرة نيوسيدلر بكلّ بهائها وعظمتها. لقد عبّر شوبيرت عن مثل هذه التناقضات الفظيعة، وخاصة في هذه السوناتة الفذة، لا في ضاحية كئيبة في عصر يوم معتدل وهو يتناول شاي الساعة الخامسة، والتي تلائم مشهد مولداو سميتانا الطبيعي. وكلّ هذا ليس لها، هي إريكا كوهوت، قاهرة العقبات الموسيقية، بل للجمهور الذي يستمع إلى حفلات صباح يوم الأحد الموسيقية التي تذاع في هيئة الإذاعة النمساوية.

بدأ كليمر يجعجع: لو كان هناك أحد يعرف ما هو الجدول الهائج، فهو والتر كليمر، في حين تقبع معلّمته على الدوام في الغرف المظلمة، إلى جانب أمّها العجوز التي لا تفعل شيئاً سوى أن تحدّق في شاشة التلفزيون. وأمّها تلك لا تأبه إن كانت فوق الأرض أو تحتها على

مسافة ستة أقدام. وتتذكّر إريكا كوهوت إشارات تعابير شوبيرت التي تؤججها. ماؤها يفور ويغلي. وتتراوح هذه الإشارات بين الصيحات والهمسات، لا بين الحديث بصوت مرتفع والحديث برقة! الفوضوية ليست من شيمك يا كليمر. فالرياضي يتشبث برأيه بقوة.

يأمل والتر كليمر أن يقبّلها من عنقها. وهو لم يفعل ذلك أبداً، لكنه سمع عن ذلك كثيراً. وتتمنى إريكا أن يقبّلها الطالب في عنقها، لكنها لا تلمح إلى ذلك. الاستسلام يعتمل في داخلها، أما في عقلها، فيصطدم الاستسلام بالكراهية القديمة والجديدة، وخاصة للنساء اللاتي عشن حياة أقل مما عاشتها، ولذلك فهن أصغر سناً منها. استسلام إريكا لا يشبه استسلامها لأمّها في أيّ حال من الأحوال. أما كراهيتها فتشبه كراهيتها العادية الطبيعية لكلّ شيء.

ولإخفاء هذه المشاعر، تخالف المرأة كلّ شيء تؤيده بحماسة علناً في الموسيقى. فهي تقول: إن ثمة نقطة محددة لدى عازف أية معزوفة، تنتهي عندها الدقة، ويبدأ غموض الإبداع الشخصي. وعندها لا يعود العازف يخدم بل يطلب! إنه يطلب المطلق من المؤلف. ربما لم يفت الأوان بعد لأن تحظى إريكا بفرصة جديدة لكي تتمتع بحياة أفضل، ولا ضير من الدفاع عن إطروحات جديدة. وتقول إريكا هازئة إن كليمر وصل الآن إلى مستوى القدرة، مستوى أصبح يحق له معه أن يضع قلبه وروحه إلى جانب قدرته. تصفع المرأة الطالب عندما تقول له إنها تفترض ضمناً أنه يمتلك أية قدرة، وتضيف إنها بصفتها المعلّمة فلا بد أنها تعرف أفضل. ويجب على كليمر أن يذهب ويمارس التجذيف كما يشاء، لكنه يجب أن يتحاشى روح شوبيرت إذا ما صادفته في الغابة. شوبيرت القبيح. لقد أحس الطالب بالإهانة بعد أن وجهت له عبارات مثل شاب وسيم، فيما تزيد إريكا كذلك وزناً إضافياً على جانبي قضيب

الأثقال المشحون بالكراهية. وبالكاد تستطيع إريكا أن ترفع قضيب الأثقال حتى صدرها. محشوراً في ضآلتك المبهرجة من الوسامة، فإنك لا ترى الهاوية حتى عندما تسقط فيها، تقول إريكا لكليمر. إنك لا تتحمّل المجازفة أبداً! تتقافز بين برك الماء حتى لا تبلل حذاءك. وعندما تنقلب أثناء تجذيفك للقارب - وأفهم هذا كثيراً - فإنك تنقلب إلى الأعلى على الفور. بل إنك تخشى الماء، ذلك الاستسلام الفريد، الذي يغمر رأسك! فمن الواضح أنك تحبّذ الخوض في المياه الضحلة. تلتف بسرعة حول الصخور بحذر - بحذر من أجلك - قبل أن تراها بالفعل.

تحاول إريكا أن تأخذ نفساً بصعوبة. يفرك كليمر يديه ليمنع محبوبته - التي لم تصبح محبوبته بعد - من سلوك هذا الدرب. لا تسدّي الطريق في وجهي إلى الأبد، يقول لها لمصلحتها. ويبدو أنه محصّن على نحو غريب، وهو يخرج من مباراة رياضية كما لو كان خارجاً من حرب بين الجنسين. امرأة مسنة تتلوّى على الأرض، زبد الغضب يسيل على ذقنها. إذ يمكن لهذه المرأة أن تنظر إلى الموسيقى، كما ينظر إليها المرء من الجانب الخاطئ من المنظار، فتجعل الموسيقى تبدو بعيدة جداً ومتناهية في الصغر. ولا يمكنك أن توقفها عندما تشعر بأنها يجب أن تقول شيئاً ألهمتها إياه هذه الموسيقى. ثم تتكلم بسرعة البرق. يبدو أن إريكا قد أفناها الشعور بالظلم: إذ لا يحب أحد فرانز شوبيرت، ذلك البدين السكير بعض الشيء. عندما تنظر إلى كليمر، فإنها تشعر بعدم التوافق ذاك بقوة: بين شوبيرت والمرأة. فصل مظلم في مجلة فنية داعرة. إذ لم يلتزم شوبيرت بالصورة الشعبية عن العبقري، سواء كمبدع أو كموهوب. يدخل كليمر البهجة إلى نفوس الناس. يخلق الناس صوراً، ولا يرضون حتى أن يصادفوا صوره في

البرية. شوبيرت لم يكن يملك حتى بيانو - كم أنت ميسور الحال بالمقارنة مع السيد كليمر! كم من المؤسف أن يعيش كليمر ولا يتدرب بما يكفي، وشوبيرت ليس على قيد الحياة. أما إريكا كوهوت فتحتقر الرجل الذي تشتهي حبّه. وتوجه له أشد أنواع القذع برعونة، كلمات شريرة قاذعة تزدهر تحت غشاء سقف حلقها، فوق جلد لسانها. أما في الليل، فهي تغلق انتفاخات وجهها بينما تشخر الأم إلى جانبها، لا تشك في شيء. وفي الصباح، تتطلع إريكا في المرآة، لكنها لا تستطيع أن ترى عينيها بسبب تهدل الطيات تحتهما. تفغر فمها وتحدّق في انعكاس صورتها، لكن الصورة لا تتحسّن. رجل وامرأة وجهاً لوجه مرة أخرى، يشلهما الصراع.

وبين النوطات الموسيقية توجد رسالة إلى الطالب في حقيبة إريكا. ستعطيه الرسالة بعد أن تخبره النتيجة باحتقار. غثيانها الغاضب ما زال يتصاعد في جسدها على شكل تشنجات منتظمة. يتقيأ كليمر فكرة محشوة جديدة - المقانق من خلال أسنانه: ربما كان شوبيرت موهوباً جداً، لأنه تمكن من إحراز تقدم بدون مساعدة معلّم بالمقارنة مع ليوبولد موزارت، غير أن شوبيرت لم يكن بالتأكيد عبقرياً. يقدم كليمر إلى معلّمته رأيه في المقانق في صحن ورقي، مع مسحة من الخردل. فالرجل الذي يموت في سن مبكرة لا يمكن أن يكون عبقرياً! فلن أرى العشرين مرة أخرى، ولا أزال لا أعرف سوى النذر اليسير. إني أدرك ذلك كل يوم، يقول كليمر. لذلك كم كان يعرف فرانز شوبيرت وهو في الثلاثين من عمره! ذلك الطفل الصغير الغامض، الجذّاب، ابن مدير المدرسة، من أهالي فيينا! الذي قتلته النساء بمرض الزهري.

سيوصلنك النساء إلى القبر، يقول الشاب مازحاً بمزاج متقلب، شيرزاندو. ثم يتحدث قليلاً عن مزاجية الأنثى. تتردد النساء في اتجاه،

ثم في اتجاه آخر، ولا يمكن للمرء أن يعرف نمط تردّدهن. إريكا تقول لكليمر إنه لا يملك أدنى ذرة من المأساة. تقول له هو الشاب الوسيم. المعلّمة تلقي له عظمة فخذ، فيطحنها بأسنانه السليمة.

تقول له إنه لا يمتلك أدنى فكرة عن الطريقة التي يضع فيها شوبيرت علامات التشديد. احذر من التكلّف: هذا هو رأي إريكا كوهوت. ويجاريها الطالب بسرعة.

ليس من اللائق أن يكون المرء دائماً سخياً جداً في علامات الآلات الموسيقية - لنقل الآلات النحاسية - في أعمال شوبيرت على البيانو. على أية حال، وقبل أن تتعلمها يا كليمر عن ظهر قلب، يجب أن تحذر من النوطات الخاطئة، والضغط بكثرة على الدواسة، والإقلال كثيراً كذلك! لا تحاول إطالة النوطة إلا إذا كانت النوطات تقتضي منك ذلك. علاوة على ذلك، فليست كلّ نوطة مدوّنة بالطريقة التي يجب أن تكون.

وكنوع من المكافأة، تريه إريكا تدريباً خاصاً على اليد اليسرى الذي يحتاج إليه. تريده أن يهدئ أعصابه. إنها تريد أن تعوّض عما سببته يدها اليسرى لهذا الرجل من معاناة. لكن كليمر لا يريد أن يهدئ من غلوائه عن طريق البيانو. إنه يسعى إلى صراع الجسد والألم، صراع لا يتوقف عند إريكا كوهوت. ويقتنع كليمر قناعة تامة بأن فنّه سيفوز في النهاية، إذا ما صمد أمام الصراع بقوة وجلادة. وعندما يذهب كلّ في طريقه بعد أن يدق الجرس معلناً انتهاء الحصة، سيفوز بعدد أكبر من النقاط، وستحصل إريكا على نقاط أقل، وهو يتطلّع بفارغ الصبر إلى ذلك. ستكبر إريكا سنة واحدة، وسيتقدم هو الآخرين بسنة واحدة. يغرز كليمر مخالبه في موضوع شوبيرت. يهوج ويموج: تدور معلّمته فجأة وبسرعة مشوشة بدرجة ١٨٠ درجة. إنها

تعبّر عن رأيها في شيء لطالما سألها عنه. وهو أن الشيء الذي لا يمكن التكهن به، الشيء الذي لا يمكن تسميته، الشيء الذي يفوق الوصف، الشيء الذي لا يمكن عزفه، الشيء المنيع، الغامض، لهو شيء أكثر أهمية من أية أشياء ملموسة حقيقية: تقنية، بل وتقنية أكبر. هل غفوتِ يا أستاذة؟

تشعر إريكا بالغليان لأنه تحدّث عن ذلك الشيء الغامض، الذي يقصد به حبّه لها. إنها تبدو متألقة، دافئة، ومشعة. أخذت شمس الهيام والعشق، التي لم تشعر بها لسوء الحظ من قبل، تشرق مرة أخرى الآن. إنه يحنو عليها، الشعور ذاته الذي اعتراه في الأمس واليوم الذي سبقه! من الواضح أن كليمر يحبها ويحترمها إلى حد يفوق الوصف، كما قال لها برقة. تخفض إريكا عينيها للحظة، وتدمدم بشكل ذي مغزى أنها كانت تقصد أن شوبيرت يحبّ أن يعبّر عن التأثيرات الأوركسترالية بدقة متناهية على لوحة المفاتيح. ويجب أن يعرف المرء هذه التأثيرات والآلات، وأن يعزف الآلات التي تمثّلها. لكن، كما قالت من قبل، بدون تكلّف. تقدم إريكا عزاء نسائياً ودياً: لا تقلق، فإنك ستبلغ ذلك!

تواجه المعلّمة والطالب أحدهما الآخر، امرأة ورجل. لكن تفصلهما الحرارة وجدار منيع. الجدار يحول دون تسلّق أحدهما الآخر ومص دمه. يستعر أوار الحب والرغبة في المعلّمة والطالب ليصلا إلى مزيد من الحبّ.

ويستطيعان في هذه الأثناء، وتحت أقدامهما، أن يشعرا بعصيدة الثقافة تفور وتغلي، ولكن بدون أن تنضج وتستوي أبداً. يتناولانها بلقيمات صغيرة، وجبتهما اليومية، التي لا يستطيعان أن يعيشا بدونها. العصيدة تلقي فقاعات غاز قزحية الألوان.

إريكا كوهوت في جلد سنواتها القاسي الكئيب. لا يستطيع أحد أن يزيله أو يريد أن يفعل ذلك. إذ لا يمكن أن يبلى هذا الجلد. لقد حُرمت من أشياء كثيرة، وخاصة شبابها، بما في ذلك السنة الثامنة عشرة من عمرها، التي يطلق عليها النمساويون «الثمانية عشرة الحلوة». وهي لا تدوم إلا سنة واحدة فقط، ثم تنقضي. أما الآن، فآخرون يتمتّعون بسنة «الثامنة عشرة» الشهيرة بدلاً من إريكا. فقد بلغت إريكا اليوم أكثر من ضعف عمر فتاة في الثامنة عشرة! تواصل إريكا تدقيق الرقم، لكن الفجوة بينها وبين الثامنة عشرة لن تقلّ أبداً - رغم أنها، إذا ما مُنحت، فلن تتوسّع أيضاً. والشعور بالاشمئزاز الذي يعتري إريكا تجاه أيّ فتاة في هذا العمر يزيد الفجوة على نحو غير ضروري. وفي الليل، تنفث إريكا غضبها على النار المتقدة: الحبّ الأمومي. تصبّ عليها دائماً مرق لحم الفنّ الموسيقي اللاذع. وليس ثمة شيء يمكن أن يغير هذا الفرق الذي لا يتزحزح: الشيخوخة/ الشباب. تماماً كما لا يستطيع تاميتين أحد أساطين الموسيقى أن يغيّر شيئاً في التدوين الموسيقي. فلديك ما تراه. فقد قُيدت إريكا بنظام التدوين هذا منذ نعومة أظفارها. تلك السطور الخمسة تهيمن عليها منذ أن بدأت تفكر. يجب ألا تفكّر في أيّ شيء إلا في تلك السطور السوداء الخمسة. وقد شلّ حركتها نظام الشبكة هذا، بالإضافة إلى أمّها، في شبكة لا يمكن الخلاص منها من التوجيهات والإرشادات والوصايا الدقيقة، مثل لحم خنزير وردي معلق على خطّاف أحد الجزّارين. فهذا يوفّر الأمن، والأمن يثير الخوف بالقلق والحيرة. وينتاب إريكا الخوف من أن يبقى كلّ شيء كما هو، وتخشى أن يتغيّر شيء ذات يوم. تسعى جاهدة كي تتنشق الهواء، يعتريها شيء أشبه بنوبة ربو - ثم لا تعرف ماذا تفعل بكلّ هذا الهواء. حنجرتها تطقطق، لا تستطيع أن تنبس بكلمة. يدبّ

الفزع في نفس كليمر. يسأل ما خطب معشوقته. هل أحضر لك كوباً من الماء؟ يسألها برقة شديدة. إنه يرعاها بحرص وحبّ شديدين - ممثل شركة الفارس الضالّ وشركاه. المعلّمة تسعل بتشنج. تلفظ شيئاً أسوأ بكثير مما كان يهيج حنجرتها. لا تستطيع أن تعبّر عن مشاعرها بصوت عالٍ، بل بواسطة البيانو فقط.

تمد إريكا يدها إلى حقيبتها وتخرج رسالة محكمة الإغلاق توخياً للأمان. تسلّمها إلى كليمر، بالطريقة التي تخيلتها في البيت ألف مرة. الرسالة تشير إلى التقدّم الذي يجب أن يحرزه نوع معين من الحبّ. لقد دوّنت إريكا في الرسالة كلّ شيء لا تريد أن تقوله بصوت مرتفع. يقول كليمر إن الشيء الذي يمكن كتابته فقط شيء رائع إلى حد لا يصدق، ويشرق مثل القمر فوق قمم الجبال. كم فاته هذا النوع من الأشياء، هو، كليمر، الذي أصبح أخيراً محظوظاً، بفضل مواظبته على العمل على مشاعره، وأضحى بإمكانه أن يجهر بأيّ شيء يرغب في قوله وفي أي وقت! وبالفعل فقد كان يترك انطباعاً جديداً لطيفاً على كلّ شخص، عندما يتقدم ليكون أول من يقول شيئاً علناً وبصوت عال. لا تكن خجولاً، فهذا لن يساعدك في شيء، إذا لزم الأمر، أعلن عن حبك بصوت عالٍ. ومن حسن حظه، أن الافتراض بأن يسمع أحد بهذا ليس ضرورياً.

ينحني كليمر إلى الوراء في مقعده في السينما، يمضغ البوشار سعيداً برؤية صورته على الشاشة، التي يعرض عليها بصورة أضخم، ذلك الموضوع الحسّاس عن علاقة حبّ بين شاب وامرأة تكبره في السن. كما تؤدي البطولة أمّ مسنة تافهة، تريد أن تسحر كلّ أوروبا وإنكلترا وأمريكا بصوت طفلتها الجميل الذي تصدح به منذ سنوات. ومن الواضح أن الأمّ تريد أن تبقى طفلتها مقيدة بخيوط المئزر الأمومي

بدلاً من أن تُطهى في عصير الحبّ والعواطف الحسّية. فالمشاعر تُطهى بشكل أسرع في طنجرة البخار، حيث يتم حفظ الكثير من الفيتامينات. كانت تلك النصيحة الجيدة هي ردّ كليمر للأمّ. فبعد ستة شهور على أكثر تقدير، سيلتهم إريكا بشراهة، وبعدها سيتمكن من التوجه إلى المتع الأخرى.

ينهال كليمر بالقبلات على يد إريكا التي تعطيه الرسالة. يقول لها: شكراً لك يا إريكا. فهو يريد أن يكرّس عطلة نهاية الأسبوع كلها لهذه المرأة. وخشية منها أن يقتحم كليمر عطلة نهاية أسبوعها المصونة، ترفض الفكرة. ترتجل عذراً عن سبب تعذّر لقائهما في عطلة نهاية الأسبوع هذه، أو ربما في عطلة نهاية الأسبوع القادمة أو التي تليها. يمكننا أن نتكلّم على الهاتف دائماً، تكذب المرأة بصفاقة. تدفقات تجري في أنحاء جسدها في كلا الاتجاهين. يطقطق كليمر الرسالة الغامضة بإيحاء ذي مغزى، ويعبّر عن نظريته بأن إريكا لا تقصد الخبث الذي تهذر به من دون تفكير. حكمة اليوم: لا تضللي الرجل بوعود كاذبة.

وينصحها كليمر بلطف ويقول إنه يجب على إريكا ألا تنسى، إذا ما أخذت بالاعتبار عمرها، أن كلّ سنة من حياة كليمر تساوي ثلاث سنوات من عمرها. وأنها يجب أن تستغل الفرصة، وألا تضيع اليوم سدى.

يجعّد الرسالة في إحدى يديه المتعرقتين، ويمدّ يده الأخرى بتردد يغمره شعور بأن المعلّمة مثل دجاجة تتمنى أن يشتريها أحد. لكنه يجب أن يتأكد إن كان السعر مناسباً، وإن كان يتناسب مع عمر الدجاجة. لكن كليمر لا يعرف كيف يحدد إن كانت الدجاجة صالحة لصنع الحساء أم أنها صالحة للشواء، أو إن كانت صغيرة أم كبيرة في العمر.

لكنّه يستطيع أن يرى ذلك في معلّمته بدقة شديدة. فلديه عينان في رأسه، ويمكنه أن يعرف أنها ليست دجاجة في ربيع عمرها، مع أنها محفوظة جيداً نوعاً ما. ويمكنك أن تقول إنها متغضنة بعض الشيء، لولا تلك النظرة الناضجة العذبة في عينيها. ثم ذلك السحر الذي لا يذوي لكونها معلّمته! وهذا يوحي إليه أن يجعلها تلميذة له مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. إريكا تتملص من الطالب. تفلت من قبضته، وتشعر بالحرج الشديد لأنها تمسح أنفها منذ وقت طويل. يصوّر كليمر الطبيعة أمام عينيها. يصفها تماماً كما يعرفها ويحبها. وسرعان ما سينغمس هو وإريكا في متع الطبيعة، إذ سيصحبها إلى أكثر البقع كثافة في الغابة، حيث يجلسان فوق وسائد الأشنة والحشائش ويمضيان وقتاً طيباً، حيث لن يرى أحد ذلك الشاب الرياضي والفنان (الذي برز في مباريات عديدة) وهو يتجول مع امرأة هرمة (التي يجب أن تتحاشى التنافس مع النساء اللاتي يصغرنها سناً). ويشعر كليمر بقوة أن السرية ستكون أكثر جوانب علاقتهما إثارة في المستقبل.

تلوذ إريكا بالصمت ولا تنبس بكلمة، لا تحدق عيناها، وقلبها لا يتضخم. يشعر كليمر بأن الوقت قد حان لتصحيح كلّ شيء كانت قد قالته معلّمته عن فرانز شوبيرت بأثر رجعي. إذ سيشق طريقه إلى المناقشة. وبشيء من المودة يصحّح صورة شوبيرت لدى إريكا، ويضعه ويضع نفسه تحت الضوء. وسيفوز هو بالمناقشات أكثر وأكثر. هذا ما يتوقعه لمحبوبته. إن أحد الأسباب الذي يجعلها تحبّ هذه المرأة هو غنى تجربتها بذلك الزخم الهائل من معرفتها بالموسيقى، أما على المدى البعيد، فلن تستطيع أن تخفي تجربتها الحقيقة من أنه يعرف كلّ شيء أكثر منها بكثير. وهذا الإدراك يمنحه سعادة أكبر. يرفع إصبعاً ليؤكد رأيه عندما تحاول إريكا أن تختلف معه. فهو المنتصر الصفيق،

وقد لجأت المرأة إلى وراء البيانو لتتهرب من قبلاته. ستتعثر الكلمات في النهاية، وستفوز المشاعر بالإصرار والعنف المطلقين.

تقول إريكا بتفاخر إنها لا تعرف أية مشاعر. وإذا تعيّن عليها أن تقرّ بشعور ما، فلن تدعه يسيطر على ذكائها. وتقحم البيانو الثاني بينها وبين كليمر. يقول إن محبوبته جبانة من الطراز الأول. فعلى المرء الذي يحبّ شخصاً مثل كليمر، أن يخرج إلى العالم كله ويعلن ذلك على الملأ. وبالطبع لا يريد كليمر أن يعرف أحد في المعهد الموسيقي، حرصاً منه على مشاعر الفتيات الأصغر سناً اللاتي يرعاهن في مرعاه. وما الحبّ إلا متعة يحسدك عليها الآخرون لأنك تمتلك حبيبة. لذلك، لن تكون مسألة الزواج في وقت لاحق واردة على الإطلاق. ومن حسن حظ إريكا أن لديها أمّها، التي لا تسمح لها بأن تقترن برجل آخر. ينجرف كليمر في المياه ورأسه عائم فوق سطح الماء. فهو يبقي دائماً رأسه فوق سطح الماء. فالماء مكانه الطبيعي. ويقطّع آخر رأي من آراء إريكا عن سوناتات شوبيرت إرباً. تسعل إريكا، فتتأرجح في حرجها فوق مفاصل يلاحظها كليمر عليها بسرعة، والتي لم يلاحظها على أناس آخرين. تشدّ الحزام في أكثر الأماكن المستحيلة، ويحسّ كليمر بحنجرته ترتفع قليلاً، لكنه لا يتمكن من دمج غثيانه في مشاعره. يمكنك القول إن هذا ملائم. لكن لا يجب على المرء أن يتمدد هكذا. تطقطق إريكا مفاصلها، التي لا تفيدها لا لعزفها ولا لصحتها. تحدّق بعناد في زوايا بعيدة، مع أن كليمر يأمرها بأن تنظر إليه بحرية وانفتاح، لا بتوتر وخلسة. فلا أحد ينظر إليهما. ثم يسألها: هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً لم تسمعيه من قبل، شيئاً لم تفعليه في حياتك؟ وهو الاختبار الحقيقي للحبّ. فلكي تخطو أول خطوة في حياة الحبّ الجديدة، يجب عليها أن تفعل شيئاً لا يمكن

فهمه، وهو أن تأتي معه وأن تلغي درسها مع طالبها الأخير في هذا المساء. وبالطبع تدّعي إريكا، بدافع الحذر، المرض أو الصداع، لكي لا يرتاب الطالب فيها وينشر أقاصيص عنها خارج المدرسة. وترفض إريكا هذه المهمّة السهلة: فهي فرس بري تمكّنت أخيراً من تحطيم باب الإسطبل بحوافرها، لكنها تفضّل أن تبقى داخله لأنها غيّرت رأيها. ويحكي كليمر لمحبوبته كيف أن الآخرين نفضوا عن ظهورهم نير العقود والقوانين العامة. ويستشهد بحلقة فاغنر كمثال واحد من الأمثلة التي لا تعد ولا تحصى. فهو يقدم الفنّ لإريكا كمثال على كلّ شيء وعلى لا شيء. فعلى المرء أن يسعى وراء الفنّ وحده - ذلك الشرك المحاط بالمناجل والمشيّد بالخرسانة - وسيجد المرء ما يكفي من الأمثلة على السلوك الفوضوي. فقد كان موزارت مثلاً، مضرب المثل في كل شيء، قد نفض عن كاهله نير الأسقف الأمير. فإذا كان بوسع موزارت، الذي كان شعبياً بامتياز - الذي لا يقدّره أيّ منا بشكل خاص - أن يفعل ذلك، فيمكننا نحن إذاً أن نفعل ذلك أيضاً يا إريكا. فكم مرة اتفقنا على أنه لا يمكن لا للمبدع ولا للفنان المؤدّي أن يتحمّل الصلابة، لأن الفنان يؤثر أن يتفادى الضغوط الشديدة التي يفرضها الواقع أو القوانين. إني مندهش - أرجو ألا تستائي من كلامي - من تمكنك من تحمّل وجود أمّك حولك طوال هذه السنوات. فإما أنك لستِ فنانة، أو أنك لا تشعرين بأنّ النير هو نير، حتى لو كنتِ تئنّين تحت وطأته. ويشعر كليمر، الذي بدأ الآن يتخذ نغمة تتسم برفع الكلفة مع معلّمته، بالسرور بأن تلوح أمّها كحاجز، ككبش فداء، بينهما. وستتأكد أمّها أنه لن يختنق تحت هذه المرأة المسنة!

توفّر الأمّ مواضيع مستمرة من الأحاديث - مثل أجمة، عائق أمام

جميع أنواع الإنجازات. ومن الناحية الأخرى، فهي تمسك ابنتها بثبات في مكان واحد، كي لا تتمكن ابنتها من متابعة كليمر في كل مكان. كيف يمكننا أن نلتقي في مواعيد منتظمة في حالتنا غير الطبيعية، دون أن يعلم أحد بذلك يا إريكا؟

تروق لكليمر فكرة أن يعثرا على غرفة سرية يأويان إليها، تكون مؤثثة بجهاز تسجيل قديم وتسجيلات حصل على نسخ منها. فهو يعرف ذوق إريكا في الموسيقى. ويمتلك كذلك الحسّ الموسيقي نفسه! فقد حصل على نسخ من بضع معزوفات لشوبان، ولديه ألبوم يضم بعض المعزوفات الغريبة من بادرفسكي، الذي استحوذ عليه شوبان - ظلماً، حسب رأي كليمر وإريكا.

يتوق كليمر إلى قراءة الرسالة بشغف. فإذا لم تستطع أن تقول شيئاً علناً، فعليك أن تدوّنه. وإذا لم يكن بوسعك أن تحتمل شيئاً، فلا تفعله. إني أتطلع متلهفاً لقراءة رسالتك المؤرخة في ٢٤/ ٤ وفهمها حق الفهم يا عزيزتي إريكا. وإذا أسأت فهم رسالتك متعمداً - وهو شيء أتطلع إليه أيضاً - فعندها سيلثم أحدنا الآخر، وسنتصالح بعد الشجار. ويبدأ كليمر على الفور يتحدث عن نفسه، عن نفسه، وعن نفسه. لقد كُتبت له هذه الرسالة الطويلة، كي يمضي وقتاً في قراءتها، ويمكنه الآن أن يستخدم هذا الوقت كي يتكلم، حتى لا يكون لإريكا اليد الطولى في علاقتهما. ويقول كليمر لإريكا إن النقيضين يعتملان في نفسه: الرياضة (بالمنافسة) والفنّ (بانتظام).

وفيما تتحرّك يدا الطالب لأخذ الرسالة، تأمره إريكا بأن لا يمسّها. كليمر، تمهل قليلاً في بحثك في موضوع شوبيرت. تستخدم إريكا التورية. تستخدم اسم كليمر الثمين، باستهانة.

ينتصب كليمر واقفاً. للحظة كاملة، تداعبه فكرة أن يعلن السرّ عنه وعن معلّمته، أن يصيح به أمام العالم كله. لقد حدث ذلك في حمّام المدرسة! لكن بما أن العمل لم يتم وفق ما كان يرغب ويحقق مجده الأعظم، فقد أمسك لسانه. ويمكنه في وقت لاحق أن يلوي الحقائق، ويخبر الأجيال القادمة أنه خرج من المعركة منتصراً. ويشك كليمر أنه إذا أُرغم على الاختيار بين المرأة والفنّ والرياضة، فلن يختار الفنّ أو الرياضة. إنه لا يزال يخفي هذه الأشياء الحمقاء عن المرأة، وبدأ الآن يعرف ماذا يعني أن تنقل عامل الشك والحيرة من نفس شخص آخر إلى لعبته المعقّدة. فالرياضة تنطوي كذلك على بعض المخاطر، فمن الممكن أن يتغير شكلك مثلاً بين عشية وضحاها. ورغم أن هذه المرأة مسنة، فهي لا تعرف ماذا تريد. أما أنا ففي مقتبل الشباب، لكني أعرف دائماً ماذا أحبّ.

كانت الرسالة محشورة في جيب قميص كليمر. أصابع كليمر تختلج. لم تعد تحتمل أكثر من ذلك، ولذلك يقرّر، عاشق اللذة المتقلّب الأطوار، أن يقرأ الرسالة بسلام، في مكان ينعم بالهدوء والسكينة في الريف، حيث يمكنه أن يسجل ملاحظات مباشرة، لكي يكتب رداً أطول من الرسالة نفسها. ربما في حديقة القلعة؟ سيجلس في مقهى بيت النخلة ويطلب فنجان كابوتشينو وفطيرة تفاح. وسيزيد عنصرا التباعد، الفنّ وإريكا، من سحر الرسالة إلى الأبد. ويكون كليمر بينهما الحكم، الذي يقرع الجرس ليعلن دائماً من هو الفائز في الجولة: الطبيعة خارجه، أو إريكا داخله. وما إن يتوصل كليمر إلى رأي حتى يعود وينقلب عنه.

في اللحظة التي تلاشى فيها كليمر من قاعة دروس البيانو، وما إن بدأت التلميذة التالية الحركة المعاكسة المليئة بالمطبات في سلمها

الموسيقي، حتى طلبت منها المعلّمة أنها ستنهي الدرس هذا اليوم، لأنها تعاني، للأسف، من صداع شديد. تصعد التلميذة إلى الأعالي مثل قبّرة ثم تحلق بعيداً.

تتلوّى إريكا بسبب مخاوفها غير المتبادلة وقلقها المزعج. لقد أصبحت الآن معلقة من أنبوب نقيع أفضال كليمر الجيدة. هل يمكنه أن يتسلق حقاً أسيجة عالية ويخوض في السيول العاصفة؟ هل هو مستعد لأن يجازف بكل شيء من أجل حبّه؟ لا تعرف إريكا إن كان بوسعها أن تعتمد على احتجاجات كليمر المتواصلة بأنه لا يتهرب من أيّ خطر - كلما كان أكبر سناً كان أفضل. هذه هي أول مرة طوال هذه السنوات تصرف فيها إريكا تلميذاً دون أن تعطيه درساً. لا تني الأمّ تحذّر إريكا من اتباع أساليب ملتوية. وإذا لم تكن الأمّ تشير إلى سلّم النجاح، الذي إذا مضى المرء فيه وصل إلى القمة، فهي تصوّر لها أهوال اتباع سبيل اللهو والمتعة، الذي يؤدي إلى الحضيض. وقمة الفنّ أفضل بكثير من مستنقع الجنس. وبخلاف الفكرة الشائعة عن عبث الفنان وفجوره، على الفنان، في رأي الأم، أن ينسى كلّ شيء يمتّ بصلة إلى الجنس. وإذا لم يستطع، فلن يكون سوى مجرد فرد بين هؤلاء البشر. لكنه يجب ألا يكون مجرد فرد من هؤلاء البشر. بل يجب أن يكون إلهياً! ولكن ولسوء الحظ، تعجّ السير الذاتية للفنانين، أكثر الأشياء أهمية عنهم، غالباً بالألاعيب الجنسية والإساءة إلى المعجبين بهم وأنصارهم. وهي تستدرج القارئ إلى التفكير في أن غراس الخيار المتناسقة تنمو في وسط كومة من سماد الجنس العضوي.

وعندما كانت الأمّ وابنتها تتشاجران، كانت الأمّ توبّخ طفلتها لأنها تعثرت فنياً ذات يوم. لكنْ مرة واحدة لا تُحسب - سترين ذلك.

تندفع إريكا إلى البيت من المعهد الموسيقي. عفن بين ساقيها،

كتلة ناعمة خالية من الأحاسيس. تسفح كتلة متعفنة من المادة العضوية. لا أنسام ربيعية توقظ شيئاً. إنها كومة بليدة من الأمنيات التافهة والرغبات الوضيعة التي تخشى أن تتحقق. وسيحيط بها زميلاها المختاران مثل مخالب سرطان بحري: الأمّ وكليمر. فليس بوسع إريكا أن تحصل على كليهما، ولا يمكنها كذلك أن تحظى بواحد منهما فقط، لأنها ستشتاق إلى الآخر. بوسعها أن تطلب من أمّها ألا تدع كليمر يدخل إذا ما طرق بابها. وتغمر الأمّ سعادة بالغة عندما تلبي طلبها هذا. فهل لهذا السبب عاشت إريكا دائماً حياة هادئة هكذا - لهذا القلق التعيس؟ لنأمل أنه لن يأتي الليلة. يمكنه أن يأتي غداً، لكن ليس الليلة، لأن إريكا تريد أن تشاهد أحد أفلام لوبيتش القديمة، الذي تنتظره الأمّ وابنتها منذ يوم الجمعة الماضي عندما عُرض برنامج التلفزيون. فعائلة كوهوت تنتظر عرض البرامج بشوق يفوق الحبّ الحقيقي، الذي ليس من المفترض أن يري وجهه هنا.

اتخذت إريكا خطوة هامة عندما كتبت الرسالة، التي ليس للأمّ رأي في هذه المسألة. وفي واقع الحال، يجب ألا تكتشف الأمّ هذه الخطوة التي تقدمت بها إريكا إلى الأمام، باتجاه جرن علف المحرومين. مع أن إريكا كانت تعترف دائماً بكلّ عمل أخرق تقدم عليه بالنسبة لتلك العين الأمومية، عين القانون، التي كانت تدّعي بعد ذلك أنها كانت تعرف ذلك قبل أن تعترف به إريكا.

تواصل إريكا سيرها، تشعر بكراهية نحو تلك الفاكهة الفاسدة المثقوبة القابعة أسفل بطنها. ولا شيء يعد بطلاوة لانهائية إلا الفنّ. وسرعان ما سيتقدّم التفسخ والتسوس، ويمتد إلى أجزاء أكبر من جسدها. ثم ستموت في عذابها. تتصور إريكا نفسها مذعورة بأنها ثقب خدر، فاقد الحس، ستة أقدام من الفراغ يتحلل في التراب. الثقب

الذي طالما احتقرته وأهملته، استحوذ عليها الآن بالكامل. إنها لا شيء. ولم يتبق لها شيء.

إريكا لا تدرك أن والتر كليمر يغذّ الخطى وراءها. لقد استجمع قوّته بعد أن تملّكه حافز بدائي قوي، وقرّر ألا يفتح الرسالة الآن. يريد أن يجري حديثاً جدياً مع إريكا الدافئة، الحية، قبل أن يقرأ رسالتها التي تخلو من الحياة. هذه المرأة الحيّة أغلى إليه من قصاصة ورقة ميتة يجب أن تموت الأشجار من أجلها. يمكنني أن أقرأ الرسالة لاحقاً، في البيت، بهدوء وسلام، يقول كليمر لنفسه، مؤثراً أن يبقي عينه على الكرة. الكرة تتدحرج، تثب، تقفز، تتوقف عند إشارات المرور، تخلّف انعكاسات في واجهات المخازن. لم تقل له هذه المرأة متى يجب أن يقرأ الرسالة، ومتى سيحرز تقدماً شخصياً. المرأة غير معتادة على لعب دور الضحية، الفريسة، فهي لا تتطلع حولها. ومع ذلك فهي تُلقَّن أنها الفريسة، وأن الرجل هو الصياد. إبدأ بتعليمها الآن، فليس ثمة وقت كالحاضر. ولن يخطر ببال إريكا أبداً أن قوة إرادتها العليا قد لا تملي عليها كلّ شيء ذات يوم، رغم أن أمّها لا تني تأمرها وتملي عليها. إلا أن هذه الحالة أصبحت جزءاً كبيراً من إريكا، إلى درجة أنها لم تعد تلاحظ ذلك. الثقة شيء جيد، لكن السيطرة أفضل.

يلوح أمامها بيت مفعم بالبهجة بمدخله. أشعة النور الدافئة تغمر المعلّمة. تطفو إريكا كنقطة ضوء سريعة من على شاشة رادار الأم. ترفرف - فراشة، حشرة، فوق دبّوس المخلوق الأقوى. لا تريد إريكا أن تعرف كيف كان ردّ فعل كليمر على رسالتها، لأنها لم ترفع سماعة الهاتف. وستطلب من أمّها على الفور أن تقول للرجل إنها ليست في البيت. تظن إريكا في الحقيقة أنها تستطيع أن تخبر الأمّ شيئاً لم تخبره الأمّ لإريكا. أمنيات أمّ. حظّ إريكا السعيد باتخاذها خطوة أولى هو أن

تنغلق على نفسها على الخارج ولا تثق إلا بنفسها. الأمّ تكذب بشكل وسواسي، بنار داخلية تخالف سنها: ابنتي ليست في البيت. لا أعرف متى ستعود. تعال مرة أخرى. شكراً. في هذه اللحظات، تشعر الفتاة بأنها تنتمي إليها تماماً أكثر من ذي قبل. إلى الأمّ ولا أحد سواها. أما بالنسبة للآخرين، فالطفلة غير موجودة.

أما الرجل الذي غمرته قمامة أفكار إريكا بالكامل، فقد تبع أحاسيس جسده. ففي ذات يوم، كانت تنتصب في هذا المكان بالذات أكبر قاعة سينما حديثة في فيينا، في شارع جوزيفستاد شتراس، الذي حل بنك محلها اليوم. وكانت إريكا تأتي إلى السينما أحياناً مع أمّها في إحدى العطل. إلا أنهما كانتا عادة، وبهدف التوفير، تذهبان إلى سينما صغيرة ورخيصة في الحيّ. وبهدف التوفير أكثر، كانتا تتركان الأب في البيت، الذي كان بإمكانه بهذه الطريقة أن يوفّر آخر أثر متبق في عقله أيضاً، الذي لم يكن يريد أن يهدره في السينما. إريكا لا تلتفت أبداً. أحاسيسها لا تشعر بشيء. حتى أنها لا تشعر بالحبيب القريب منها. ومع ذلك، كانت أفكارها التي تتركّز على نقطة واحدة، وهي المحبوب، تزداد ضخامة: والتر كليمر.

وهكذا تغذّ معلّمة البيانو، إريكا كوهوت، خطاها، الواحدة في إثر الأخرى، يدفعها شيء ما من ورائها. رجل يُخرج الملاك أو الشيطان منها. كلّ شيء في يديها الآن: إذ يمكنها أن تعلّم الرجل الاهتمام بها برفق وحنان. تبدأ إريكا ترفع زاوية صغيرة جداً من القدرة الحسّية وكلّ شيء يمكن أن تنطوي عليه هذه القوة. أما كليمر، الذي كان يمتلك كلّ أحاسيسه، فهو يسير وراءها، حتى دون أن تلاحظ وجوده. وفي طريقها إلى البيت، لم تشتر مجلة أزياء أجنبية جديدة، أو رداء مصوراً في داخلها، أو فستاناً مقلداً من صورة رداء في داخلها. بل إنها لم تنظر بعد

إلى الموديلات الربيعية الجديدة المعروضة في واجهات المحلات. وفي اضطرابها وتشوشها في شغفها وهيامها الذكوري الذي أخذ يتقد ويتوهج في داخلها، لم يبق أمامها سوى نظرة واحدة فقط. وقد خصصت تلك النظرة، عرضاً وبشرود، إلى الصفحة الأولى من صحيفة الغد: صورة اليوم التي تبدو في حالة رثة بعض الشيء من كثرة الاستعمال، سارق مصرف - صورة زفاف المجرم المحبوب. من الواضح أن أحداً قد التقط آخر صورة له في زفافه المحترم. وأصبح معروفاً لدى الناس جميعهم الآن لأنه تزوج فقط. وتتخيّل إريكا كليمر عريساً وهي العروس وأمها أمّ العروس، التي ستعيش معهما. لكن إريكا لا ترى الطالب، الذي تفكّر فيه باستمرار والذي يسير وراءها الآن.

تعرف الأمّ أن طفلتها قد تصل بعد نصف ساعة على أقل تقدير، إذا كانت الظروف مواتية، ومع ذلك فهي تنتظر إريكا على أحرّ من الجمر. لكن الأمّ لا تعرف أن درساً قد ألغي. ومع ذلك فهي تنتظر طفلتها التي تصل إلى البيت في مواعيد دقيقة دائماً. وستستكين إرادة إريكا الحمل في إرادة الأمّ الأسد. وسيمنع هذا الجانب من التواضع والاستكانة تجاه الإرادة الأمومية من تهشيم وتدمير إرادة الابنة الرقيقة الهشة المنعدمة الشكل وتلتهم أطرافها الدامية. وفجأة، يُفتح باب البناية. الظلام يخيم على المكان. ويمتدّ سلم الدرج، الدرج السماوي المفضي إلى أخبار المساء والبرامج اللاحقة، إلى الأعلى. وما إن تشعل إريكا ضوء الدرج حتى تهبّ نسمة لطيفة معتدلة من الطابق الثاني. لم يُفتح باب الشقّة. لم تُسمع اليوم وقع خطوات، لأنه يُتوقع حضور الفتاة بعد نصف ساعة. ولا تزال الأمّ منهمكة في التحضيرات النهائية، التي سيتوج مجدها بقطعة لحم مشوية.

انقضت نصف ساعة الآن، ولا يزال والتر كليمر ينظر إلى معلّمته

من الخلف. قد لا يكون هذا هو الجانب المفضّل لإريكا، لكنه يستطيع أن يميّزه من بين ألف ظهر آخر! إنه يعرف النساء جيداً، يعرفهن من جميع جوانبهن، من الداخل والخارج. يرى وسادة مؤخرتها الطرية الممتلئة، التي تنتصب فوق ساقين ممشوقتين صلبتين. يفكّر كيف سيتصرف بهذا الجسد. فهو الخبير الذي لن يضلله هذا التشوه في الشكل بسهولة. متعة متوقعة ممزوجة بالرعب تستحوذ على كليمر. تواصل إريكا سيرها بهدوء وراحة بال، لكنها سرعان ما ستئن وتعوي متعة وبهجة! ولن يكون ثمة أحد مصدراً لهذه المتعة سوى كليمر وحده. لا يزال جسدها مليئاً بحركات نقل سرعة مختلفة، التي سرعان ما سيضعها كليمر في أعلى درجة من السرعة! وفي حقيقة الأمر فإن كليمر لا يشتهي هذه المرأة التي لا يشعر بانجذاب نحوها، وهو غير واثق إن كان سبب عدم رغبته بها يعزى إلى عمرها. لكن كليمر عنيد، وينصبّ كلّ تركيزه على تعرية لحمها النقي. وهو حتى الآن لا يعرفها إلا في وظيفة واحدة، وهي وظيفة المعلّمة. ويشعر الآن برغبة في أن يستخرج وظيفة أخرى منها، وسيرى إن كان سينجح في التعرف على وظيفتها الأخرى، وهي وظيفة المعشوقة. وإذا لم يتمكن من ذلك، فسيكون الأمر سيئاً للغاية. فهو عازم على أن يمزّق وبدقة متناهية الطبقات المتراكمة من القناعات العصرية والقديمة أحياناً، وتلك الهياكل والقشور التي يجمعها جسد ذو أحاسيس مرهفة، وتلك الأقنعة الملونة من الخرق والجلود التي ترتديها وتلتصق بها. ليس لديها فكرة عن ذلك بعد، لكنها سرعان ما ستعرف. ستتعلّم كيف يجب أن تتزين المرأة: بشكل جميل، لكن، وقبل كل شيء، بشكل عملي بحيث لا يعوق حركتها. وهو، كليمر، لا يرغب كثيراً في أن يمتلك إريكا، بمعنى أن يفتح هذه الرزمة من الجلد والعظام. الجلد المكسو بعناية برقع من

الأنسجة والألوان! بل سيزيل عنها الورق الملفوفة به ويرميه جانباً. يريد كليمر أن يجعل هذه المرأة، التي كان من الصعب الوصول إليها منذ فترة من الزمن، بتنانيرها وأوشحتها الملونة - في متناول يده قبل أن تصل إلى مرحلة التفسخ والتسوس. فلماذا تشتري تلك الألبسة؟ في حين يمكنها أن تجد ملابس عملية وجذّابة، بل وحتى ليست غالية الثمن! هذا ما سيقوله لها، بينما تشرح له كيف يعزف مقطوعة لباخ.
يريد كليمر أن ينكشف اللحم أمامه، مهما بذل من جهد. يريد بكلّ بساطة أن يمتلك ذلك الشيء الذي يقبع في الأسفل. فما إن يعرّي هذه المرأة من قشرتها، حتى تبرز إريكا الإنسان بكلّ عيوبها، ذلك الإنسان الذي يبدي اهتماماً به منذ فترة طويلة. هكذا يفكّر كليمر. فقد تصلّبت كلّ طبقة من القماش التي ترتديها وحال لونها بسبب الغسيل أكثر من الطبقة التي تحتها. ولا يريد كليمر من إريكا إلا أفضل ما فيها، ذلك اللبّ الصغير في أعماقها، الذي قد يكون طيب المذاق: إنه يريد أن يستعمل الجسد. يستعمله لمصلحته هو. وإذا دعت الضرورة فسيفعل ذلك بالقوة. إنه يعرف كيف تفكر جيداً. وفي حقيقة الأمر فإن كليمر، في حالة الشكّ، لا يستمع إلا إلى جسده الذي لا يخطئ أبداً، والذي لا يتحدث إلا بلغة الجسد. فقد يخفق الجسد عند المدمنين أو العاجزين في قول الحقيقة بسبب الضعف وسوء الاستعمال في غالب الأحوال. أما جسد كليمر فهو مفعم بالصحة، شكراً جزيلاً. دقّ على الخشب! وخلال التمارين الرياضية، فإن جسد كليمر يخبره دائماً متى يكون قد حصل على كفايته، أو إذا كان لا يزال قد بقي شيء في خزّانه الاحتياطي، حتى يمنح كلّ ما لديه من طاقة. عندها يشعر كليمر بأنه في أفضل حال! حال يتعذر وصفها! بهذه الطريقة يصف والتر كليمر وضعه بسعادة. وهو يريد أن يقع لحمه تحت عينَي معلمته الذليلتين. وهو

ينتظر هذه اللحظة منذ أمد بعيد. لقد انقضت أشهر وهو ينتظر، وقد حان وقت تقديم أوراقه الثبوتية. لقد ترجمت الإشارات بشكل صحيح. إذ بدأت إريكا مؤخراً تتزين بشكل بارز من أجل كليمر : السلاسل، أزرار أكمام القميص، الأحزمة، النطاقات، أحذية بكعب عال، مناديل، عطورات، وياقات فراء يمكن إزالتها، وعصابة ذراع بلاستيكية جديدة تحتك بلوحة المفاتيح. لقد جعلت هذه المرأة نفسها جذّابة لرجل واحد. إلا أن هذا الرجل يريد أن يحطم كلّ الحلي الواهية، غير الصحّية. أن يهزّ آخر ما تبقى من أصالة المرأة ويخرجها من غلافها. يريد أن يمتلك منها كلّ شيء! لكن دون أن يشتهيها حقاً. فهذه الحلي والتزيينات تجعل كليمر مباشراً كالسهم، يفقد هدوء أعصابه اللاعقلاني. أفلا تكتسي الطبيعة بالزينة والحليّ عندما تبدأ بالتزاوج؟ لبضعة أنواع من الطيور فقط، غالبها من الذكور، ريش مغرٍ، إلا أن هذا جزء من شكلها الطبيعي.

يواصل كليمر سيره وراء معشوقته المستقبلية، وهو لا يزال يرى أن غضبه الشديد يستهدف شكلها وهندامها الذي بذلت فيه جهداً كبيراً، لكنه أخرق وسيّئ. يجب أن تنبذ هذا التبرج، هذه البهرجة، التي يرى كليمر أنها تشوّهها، في الحال! من أجله! وإذا استدعى الأمر، فسيقول لإريكا إن النظافة الجيدة هي الزينة الوحيدة التي يمكن أن يقبلها في وجه لطيف غير جذاب. فإريكا تجلب لنفسها السخرية، وهو شيء لا يرغب فيه. الاستحمام مرتين في اليوم، هذا ما تعنيه النظافة الشخصية بالنسبة لكليمر، وهو شيء كاف. ويريد كليمر تسريحة نظيفة لأنه يعتبر أن الشعر الوسخ لعنة. وبدأت إريكا مؤخراً تلجم نفسها مثل حصان سيرك. إذ راحت تنهب احتياطيها من الثياب التي لم تلبسها منذ فترة طويلة لكي تبدو أكثر جاذبية. إذ يفغر كلّ شخص وفي كل مكان، فمه

ويحدّق فيها لأنها تفرط في التجمّل وتستخدم مساحيق كثيرة. إنها تمرّ في تغييرات. وهي لا تُخرج ثيابها من كنزها الدفين الثري، بل تشتري كذلك أرطالاً وأرطالاً من الإكسسوارات: أحزمة، حقائب، أحذية، قفازات، زينة عصرية. إنها تريد أن تسحر الرجل، أن تأسر رغباته الشريرة. كان عليها أن تُبقي النمر النائم نائماً كي لا يلتهمها. هذه هي نصيحة كليمر لذاته الموقّرة. تترنح إريكا مثل تمثال ثمل، مهندمة ومتأنقة في حذاء عال ومهمازات، في لجام ودرع. لماذا لم تفتح خزائنها من قبل لكي تسرّع علاقة الحبّ المعقّدة هذه؟ إنها تخرج مزيداً من الروائع! فقد تجرأت أخيراً واقتحمت مكنوزاتها الحريرية الملوّنة وهي تبحث عن نظرات الغزل غير الخجولة التي لا تحظى بها. ولا تلاحظ سخرية الناس من دون خجل الذين يعرفون إريكا منذ وقت بعيد، والذين يتحدثون عن التغييرات التي طرأت على شكلها.

تبدو إريكا مضحكة، لكنها صلبة، جيدة البنية. ويعرف البائعون جيداً أن التغليف هو كلّ شيء! عشر طبقات فاتنة للحماية، واحدة فوق أخرى، وجميعها متطابقة مع بعضها قدر الإمكان! لا توجد إنجازت ضئيلة. إذ توبّخ الأم إريكا، التي اشترت قبعة راعي بقر جديدة لترتديها مع بدلتها. وللقبعة حزام وشريط صغير جداً لتربط القبعة تحت ذقنها، كي لا تطيّرها نفحة هواء. الأم ترثي بصخب لهذا الإنفاق ولشكوكها بأساليب طفلتها المغرقة في الموضة، التي لا شكّ أنها لا هدف لها إلا إيذاء مشاعر الأمّ واصطياد الرجال. وإذا كان ثمة رجل معين، فسرعان ما سيتعرّف على الأمّ! وعلى جانبها الأقلّ لطافة. وتنم سخرية الأمّ من قميص داخلي على ذوق رفيع. فهي تبغض القشور والجلود والعباءات والسترات التي ترتديها الفتاة على نحو مدروس. فتسمّمها الأم بسمّ ازدرائها. وتعتقد الابنة أن هذا نابع من غيرتها لها.

ووراء هذا المخلوق المبهرج والمزيّن بشكل رائع، الذي لا تستطيع أن تجد له مثيلاً في الطبيعة، يندفع والتر كليمر، العدو الطبيعي لهذا المخلوق. وجلّ هدفه أن يخلّص المعلّمة من عادة ارتدائها هذا النوع من الثياب بأسرع ما يمكن. فبنطال الجينز وقميص التي شيرت يكفيان كليمر، مهما كانا.

يمنح مدخل البناية إحساساً بالكآبة - حيث أخذ ينمو نبات نادر لم يكن مرئياً منذ فترة من الزمن. فجميع الألوان التي تزدهر وتتبرعم في الخارج تموت هنا. وفي منتصف الدرج المؤدي إلى الطابق التالي، يرى كليمر الغاضب إريكا. ليس ثمة مكان يمكنها أن تفر إليه. فلا يوجد هناك مرآب، ولا مستودع للحافلات، ولا موقف للسيارات.

رجل وامرأة يلتقيان، لكن ليس بالصدفة. أما الطرف الثالث غير المرئي، في صورة المشرف الأمومي، فيقبع في الطابق العلوي، ينتظر إشارة البدء. إريكا تنصح الطالب بأن يبتعد عن هذا المكان. إنها رائعة، مهيبة. الطالب يقاوم، مع أنه لا يرغب في الاصطدام مع الأمّ. يطلب منها أن تذهب معه إلى مكان آخر، كي يتمكنا من التحدث بحرية. إنه يريد أن يكلمها! ينتاب إريكا الذعر، تدق الأرض بقدميها وتركل. الرجل يريد أن يغزو خلوتها. تشير الأمّ بإصبعها بمحبة لعشاء لشخصين - ماذا عساها أن تقول؟ فوجبة الطعام مخصصة للأمّ والطفلة وحدهما.

تريد إريكا أن تتأكد إن كان كليمر قد قرأ الرسالة أم لا. أقرأت رسالتي يا سيد كليمر؟ وما حاجتنا للرسائل؟ يسأل كليمر محبوبته، التي تتنهد بارتياح لأنه لم يقرأ الرسالة. ومن الناحية الأخرى، فقد كانت تخشى أنه لن يقوم بتنفيذ الطلبات التي عرضتها في رسالتها. وحتى قبل أن يبدأ الشجار، يسيء كل من الشخصين اللذين شبكهما الحب والغرام

فهم حاجات الآخر. ويزداد سوء التفاهم هذا تصلباً ويصبح كالصوان. لم يكونا مخطئين في فهم الأمّ التي ستتخذ تدابير صارمة وتزيح الجزء الفائض عن الحاجة (كليمر) على الفور. لكنها ستحافظ على الجزء الذي يشكّل ملكيتها الكاملة، مهجة فؤادها (إريكا). تجفل المرأة الآن، تتردد، تندفع في هذا الاتجاه، ثم في الاتجاه الآخر. كليمر يفهمها. إنه فخور بأنه سبب هذا التردد. وسيساعد إريكا في أن تلد مزيداً من القرارات. إنه يريد أن يزيل قبعة راعي البقر عن رأس فريسته. يا للجحود إزاء هذه القبعة، التي تشبه لافتة صديقة، تلوح دائماً في الاضطراب العاطفي: نجم الصباح للمجوسيين الثلاثة، قبعة لا يمر من أمامها أحد دون أن يقدم ولاء الازدراء. يرى الناس هذه القبعة، بل ويشعرون بالقلق حتى لو لم يعزون انزعاجهم دائماً إلى القبعة، التي تثير حفيظتهم في المقام الأول.

لا يوجد أحد غيرنا هنا على الدرج، وإننا نلعب بالنار، يقول كليمر محذراً المرأة. يحذّرها من أن لا تستمرّ في إثارة شهواته ثم تتمنع عنه. تحدّق إريكا في الرجل الذي يجب أن يذهب لأنه يجب أن يبقى. وتحت غلاف هديتها، تتفتّح المرأة بشكل مظلم. فهذه الزهرة لم تخلق لتعيش في مناخ من الشبق الفج، وهو لا يقصد البقاء فترة طويلة على الدرج، لأن النبات يحتاج إلى الضوء على الفور. هذان العازفان الرئيسيان يبغيان تقديم مشهد حبّ، مشهد خاص جداً، لا إضافات، لا ممثل إضافي يدخل ويخرج، بل ممثل رئيسي واحد فقط يقف بقوة أمام الممثل الرئيسي الآخر.

وفي مناسبة كهذه، تتخلى إريكا فوراً عن كونها شخصاً. هدية ملفوفة في منديل يعلوها قليل من الغبار، فوق مفرش مائدة أبيض. وما دام الضيف موجوداً، فإن هديته تعامل بكل احترام ومودّة، لكنه ما إن

يغادر، حتى تُركن الهدية جانباً، بدون اكتراث وارتباك، ويهرع الجميع لتناول طعام العشاء. ولا يمكن للهدية أن تذهب من تلقاء نفسها، لكنها تشعر لوهلة بالارتياح لأنها ليست وحدها. الصحون والكؤوس تصلصل، الفضيّات تحتك فوق الخزف. لكن الرزمة تلاحظ أخيراً أن هذه الجلبة تنبعث من جهاز تسجيل على المنضدة. تصفيق وقرقعة كؤوس - كلّ شيء مسجل في الشريط! أحدهم يأتي ويتناول الرزمة. تستطيع إريكا أن ترتاح في الجو الآمن الجديد: فقد قام أحدهم برعايتها والعناية بها. إنها تنتظر التعليمات أو الأوامر. فهي تدرس منذ سنوات - لا من أجل حفلتها الموسيقية، بل من أجل هذا اليوم.

لكليمر أن يختار في أن يعيدها إلى مكانها دون أن يستعملها كعقاب لها. الأمر يعود له. إذ يمكنه أن يستعملها أو يتركها. بل حتى يمكنه أن يرميها بخبث. لكنه يستطيع أيضاً أن يصقلها ويلمّعها ويضعها في خزانة للعرض. ربما لن يغسلها أبداً، بل يستمرّ في صبّ السوائل فيها، حيث ستكون حوافها دبقة ودهنية من جميع آثار الفم المتبقية عليها. معطف من السكّر عمره يوم واحد يقبع في القعر.

يسحب والتر كليمر إريكا من مقصورة الحمّام. يشدّها. وكبداية، يطبع قبلة طويلة على فمها. لقد تأخر موعدها كثيراً. يقضم شفتيها، يغوص لسانه في أعماقها. وبعد الاستعمال المدمّر اللانهائي، ينسحب لسانه ثم يلهج باسم إريكا مرات عديدة. يشتغل كثيراً على هذه القطعة التي تعرف بإريكا. يمدّ يده تحت تنورتها، عارفاً أن هذا يعني أنه سيزور أماكن أخرى. يمدّ يده أكثر، ويشعر بأن اللهيب والشغف يمنحانه الإذن. الرغبة الجامحة تمنحه تفويضاً كاملاً. يأخذ ينقّب أكثر في أحشاء إريكا كما لو كان يريد أن يستخرجها من مكانها، ثم يصفّها ويرتّبها ويعيدها إلى حالتها الأولى. يصل إلى حدّ معين، ويكتشف أن

يده لم تعد تستطيع أن تغوص أكثر. يبدأ يلهث كما لو كان قد ركض مسافة كبيرة حتى وصل إلى خط النهاية. يجب أن يظهر لهذه المرأة على الأقل ما يمكنه أن يفعله. لا يستطيع أن يقحم يده كلها في داخلها، لكنه ربما تمكن من إيلاج إصبع أو إصبعين. ولم تكد تخطر له هذه الفكرة حتى أتم عمله. أخذ يشعر بسبابته تنزلق أعمق وأعمق. تعتريه بهجة جامحة، فيأخذ يعضّ إريكا في أنحاء جسدها، بإباحة. يغمرها بريقه. ويمسكها بيده الأخرى بقوة، إلا أنه لا حاجة لذلك، لأن المرأة مستكينة لا تتحرك. يتساءل إن كان على يده الأخرى أن تجول بشبق تحت كنزتها ، لكن ياقتها بشكل حرف V ليست كافية كالكنزة المقورة عند العنق. ثم هناك تلك البلوزة البيضاء اللعينة تحتها. يقرص الآن ويعصر بغضب أسفل بطن إريكا بقوة. يعاقبها لأنها عللته بالآمال حتى كاد يقلع عما كان يسعى إليه - وهو أمر سيكون سيئاً للغاية بالنسبة لها. يسمع نشيجاً مؤلماً من إريكا. يتوقف على الفور. لا يريد أن يسبب لها أي أذى قبل أن تسير الأمور جيداً. تبرق في رأس كليمر فكرة، فربما تمكن من حشر يده داخل الكنزة والبلوزة، ثم ينزل بها إلى أسفل نطاق الخصر، أي من الاتجاه المعاكس. وعليه أولاً أن يخرج الكنزة والبلوزة من التنورة. يلهث بقوة لأنه يبذل جهداً. لا يتوقف عن النباح. ينطق اسم إريكا (الذي تعرفه على كل حال) في فمها. لكنه مهما صاح في تلك الهوّة، فلن يُسمع صدى للصوت. إريكا تقف باسترخاء بين يدي كليمر. ينتابها الخجل للموقف الذي وضعها فيه. خجلها لذيذ. إنه يثير كليمر الذي يشحذ كل همته على إريكا. يجثو دون كلل. يرتفع بقوة فوق إريكا كي يعود ويهبط ثانية، لكنه كان يتوقف عند الأماكن اللذيذة. يطبع قبلات سريعة على إريكا. تقف على الأرض مثل ناي استعمل كثيراً حتى درجة إنكار الذات، وإلا لما تمكن

من تحمّل شفاه الهواة الكثيرة التي لم تفتأ تريد أن تضعه في فمها. ترغب في أن يتمتع هذا الطالب بالحرية التامة ويغادر عندما يشاء. تجعل وقوفها بلا حراك نقطة شرف لأنه جعلها تقف على قدميها.

أشعة الشمس. إن أفضل مكان لها هو بجانب أمّها، أمام التلفزيون. تلوح إريكا بمجون من تحت قبعتها الجديدة التي رُفعت لاحقاً. ها هو الوجه المشوب بالحمرة بشكل غير صحّي لمخلوق عثر على سيده. يشعر كليمر بأنه غير قادر على اشتهاء هذه المرأة، لكنه يشعر بالرغبة في أن يلجها منذ فترة من الزمن. مهما كلّفه الأمر - أن يبثها كلمات غرامية على الأقل. أما إريكا فهي تحبّ الشاب وتنتظر أن يعتقها. لا تبدي أية إشارة حبّ، لذلك لا يتعين عليها أن تتحمّل الهزيمة. تريد إريكا أن تظهر ضعفاً، لكنها هي من يقرّر شكل استسلامها. لقد دوّنت كلّ شيء. تريد أن يلتهمها الرجل حتى ينعدم الحاضر. ويجب أن تغطي قبعة راعي البقر التي ترتديها كل الأشياء التي لا يمكن لمسها بشغف. تريد المرأة أن تجعل حالة التحجر التي أصابتها منذ سنوات طويلة تلين، وهي لا تمانع إن التهمها الرجل. تريد أن تذوب تماماً بين يدَي هذا الرجل، لكن دون أن يلاحظ ذلك. هل تدرك أننا وحدنا في العالم؟ تسأل الرجل بصمت. أما الأمّ فكانت لا تزال تنتظر في الطابق العلوي. مستعدة لفتح الباب في أية لحظة، لكن الباب لم يُفتح بعد لأن الأمّ لم تتوقع قدوم ابنتها بعد.

لا تشعر الأمّ بأن طفلتها تزيل قيودها، لأنها لن ترى ولن تشعر بالطفلة وهي تخلع قيودها لنصف ساعة أخرى. وتنهمك إريكا في محاولة معرفة من يحبّ من، لأن من يحب أكثر هو الأضعف. تتذكر إريكا عمرها، وتدّعي أنها هي التي تحبّ أقل لأنها أحبّت مرات عديدة من قبل. لذلك فإن كليمر هو الذي يحبّ أكثر. لكن يجب أن تُحبّ

إريكا أكثر. حصر كليمر إريكا في الزاوية، ولم يعد أمامها سوى منفذ واحد فقط يؤدي مباشرة إلى عشّ الدبابير في الطابق الثاني. وكانا باستطاعتهما أن يشاهدا الباب. لكن الدبور الهرم يئزّ ويطنّ بين القدور والمقلايات. يمكنه أن يُسمع ويُرى في صورة جانبية من خلال نافذة المطبخ المضيئة قبالة المدخل. كليمر يأمر وإريكا تطيع. يبدو أنها في سباق متعمد نحو دمارها. إنه مقصدها النهائي والأكثر ألفة. تتخلّى إريكا عن إرادتها. فقد كانت أمّها تمتلك على الدوام إرادة إريكا، لكن إريكا تسلّم الآن إرادتها إلى والتر كليمر، كما تسلم عصا العدّاء. تميل إلى الخلف بانتظار سماع قراره. لكنها رغم تخليها عن حريتها، تضع شرطاً واحداً: تستخدم إريكا كوهوت حبّها ليكون هذا الفتى سيدها. وكلما ازدادت القوّة التي يكتسبها، أصبحت إريكا مخلوقاً مرناً. وسيصبح كليمر عبدها بالكامل عندما يذهبان مثلاً ويتجولان في الجبال. ومع ذلك سيعتبر كليمر نفسه سيد إريكا. هذا هو هدف حبّ إريكا. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي لن يُستهلك فيها الحبّ قبل أوانه. يجب أن يقتنع أن هذه المرأة وضعت نفسها كلية بين يديه، وأنه سيصبح مَلِكاً على إريكا. بهذه الطريقة تتصوّر الأمور. وكان من الممكن أن تحيد الأمور عن طريقها لو كان كليمر قد قرأ الرسالة ورفض محتوياتها. بدافع من الاشمئزاز والحرج والخوف - كلّ ذلك يتوقف على المشاعر المهيمنة. فنحن لسنا إلا بشراً ولذلك لا نتمتع بالكمال. تداعب إريكا وجه الذكر أمامها. إنها تريد أن تقبّل هذا الوجه الذي يزداد نعومة، الذي يكاد يذوب تحت عينَي معلّمته. وتخلص إريكا إلى القول إننا نخفق تماماً في بعض الأحيان، ونكاد نصل إلى قناعة بأن الفشل الحتمي هذا هو هدفنا النهائي. وعوضاً عن تبادل القبلات، تقرع الجرس. ووراء الباب، يتساءل وجه الأمّ، في مزيج من التوقّع والانزعاج، من يمكنه أن

يتجرأ ويضايقها، يكاد يتورد في الحال - ثم يذوي عندما تدرك أن ابنتها مرتبطة بأحد. ويشير الارتباط في الحال إلى اتجاهه: هنا، كوهوت، الأم والابنة. لقد وصلنا منذ قليل. الأمّ متشنجة. لقد سُحبت بقوة من تحت لحافها الحالم، وتقف الآن في ثوب نومها، تواجه حشداً ضخماً من الرعاع الذين يولولون ويعوون. تستخدم لغة العيون التي تدربت عليها جيداً، الأمّ تسأل إريكا ماذا يفعل هذا الشاب هنا. عينا الأم تطلب أن ينصرف هذا الشاب على الفور. فهو ليس السبّاك ولا قارئ العداد في جميع الأحوال. تجيب إريكا أنها يجب أن تناقش شيئاً مع الطالب، ومن الأفضل لهما أن يدخلا إلى غرفتها. توضح الأمّ أنه ليس لدى ابنتها غرفة خاصة بها، لأن ما تشير إليه إريكا بجنون عظمتها بأنه غرفتها هو في حقيقة الأمر من أملاك الأمّ. فما دامت هذه الشقة لي، فسنقرر كلّ شيء معاً، ثم تعبّر الأمّ عن قرارها بالكلمات. وتنصح إريكا كوهوت أمّها بألا تتبعها هي والطالب إلى الغرفة، وإلا ستحدث مشكلة! تصرخ كلّ من السيدتين في وجه الأخرى. يشعر كليمر بالغبطة، الأمّ تعترض. الأمّ ترقّ وتلين، وبصوت يكاد يكون مسموعاً تشير إلى أن كمية الطعام القليلة القابعة هناك، لا تكفي إلا لشخصين لا يأكلان طعاماً كثيراً، لكن لا لشخصين لا يأكلان كثيراً ولشخص شره. كليمر يعتذر ويقول: لا شكراً، لقد أكلت للتو. الأمّ تفقد أعصابها. إنها تقف فوق أرض من الحقائق غير السارة وتحدّق. يمكن لأي شيء الآن أن يرفع الأمّ ويرميها. هبّة خفيفة من الريح قد توقع هذه السيدة المتصلبة، المتيبسة، العصبية المزاج، التي تهزّ قبضتها عادة أمام أي عاصفة، وتقاوم أي انهمار للأمطار، بمساعدة ثياب معقولة. تقف الأمّ هناك، وتأخذ طبقاتها تتقشّر الواحدة تلو الأخرى.

الموكب المؤلف من الابنة والرجل الغريب، الذي لا تعرف عنه

الأمّ كثيراً، يتجاوز المرأة العجوز نحو غرفة الفتاة. تغمغم إريكا شيئاً بمعنى إلى اللقاء، الأمر الذي لا يغير الحقيقة بأنّ عبارة إلى اللقاء موجهة للأمّ. إنها لم تطرد الطالب الذي غزا هذا البيت. ومن الواضح فهي مؤامرة هدفها إضعاف الاسم المقدّس للأمّ. ولهذا السبب تهمهم الأم دعوات موجهة إلى السيد المسيح. لكن أحداً لم يسمع الصلاة، بمن فيهم الشخص الذي وجهت إليه. الباب يغلق بإصرار.

ليس لدى الأمّ فكرة عما سيحدث بين الشخصين في غرفة إريكا. لكنها تستطيع أن تكتشف ذلك بسهولة، لأنه بفضل الإجراءات الوقائية الأمومية الحكيمة، لا يمكن إقفال الباب. تسير الأمّ على أطراف أصابعها دون أن يسمعها أحد نحو غرفة الطفلة، كي تسمع ما الآلة التي يعزفان عليها. إنه ليس البيانو، لأن البيانو يجثم متألقاً في صالة الاستقبال. كانت الأمّ تعتقد أن ابنتها تجسّد البراءة، لكنها الآن، وفجأة، ترى أحداً يدفع لكي يستأجر طفلتها. لكن الأمّ سترفض هذا الأجر بسخط واستياء. فهي تستطيع أن تتدبر أمورها من دون هذا الدخل الإضافي، وربما سدد هذا الفتى غراماً ضبابياً قد لا يدوم طويلاً.

عندما تمدّ الأمّ يدها إلى مقبض الباب، تسمع بوضوح شيئاً ثقيلاً يُسحب من مكانه - ربما كانت طاولة مكتب الجدة، المحشو بقطع غيار وإكسسوارات جديدة كانت قد اشترتها إريكا مؤخراً، رغم أنها ثياب زائدة عن الحاجة. تنفصل طاولة المكتب بقسوة عن موقعها الذي تقبع فيه منذ سنوات كثيرة، وتُسحب على أرض الغرفة. وخارج باب ابنتها، الذي سُدَّ عمداً أمام عينيها، تقف أمّ تغمرها خيبة الأمل والإحباط. وتبدأ تستجمع ما تبقى من قوتها لتدق على الباب دون وعي منها. تستخدم طرف قدمها اليمنى، المكسوة بمشايّة من وبر الجمل غير الصالح للركل بسبب نعومته الزائدة. أصابع قدم الأمّ تؤلمها، لكنها لا

تشعر بالألم بسبب هياجها الشديد. بدأت تنبعث من الطعام رائحة كريهة في المطبخ. لا توجد يدّ تشفق عليه وتحرّكه. حتى أنها لم تعتبر أن الأمّ جديرة بمخاطبتها رسمياً. لم تقدم لها تفسيرات، مع أن هذا البيت هو بيت الأمّ أيضاً، وهي تحافظ على جماله وأناقته من أجل ابنتها. وفي الواقع، فهو بيت الأمّ أكثر من كونه بيت إريكا، لأن الأمّ لا تكاد تخرج منه أبداً. الشقّة لا تخص الطفلة وحدها. إذ لا تزال الأمّ على قيد الحياة وهي تنوي أن تواصل حياتها. وفي هذا المساء بالذات، وعندما تنتهي هذه الزيارة غير المرحب بها، ستقول الأمّ لابنتها، بدافع التظاهر فقط، إنها تنوي أن تنتقل من البيت إلى دار المسنين. وإذا ما سبرت إريكا الأغوار قليلاً، فستكتشف أن الأمّ ليست جادة في عرضها هذا، فإلى أين ستذهب؟ وتحت ستار تغيّر السلطة، وتغيّر الحارس، تغزو أفكار غير مقبولة عقل الأمّ السيئة الطبع. تدخل إلى المطبخ، وتلقي بالطعام نصف المطهو في أرجاء المطبخ. عملها هذا ينم عن غضب وليس نابعاً من اليأس. وعاجلاً أم آجلاً، ستتسلم عصا سباق الشيخوخة. تلاحظ الأم بذور الصراع السامّة في ابنتها، لكن هذا الصراع سرعان ما سيزول عندما تتذكّر الطفلة كم هي مدينة لأمّها. فعندما وصلت الأمّ إلى عمر إريكا الآن، لم تعد تتنازل. خيّل إليها أنها ستصمد حتى يفرقهما الموت. إلى أن يقرع الجرس الكبير. فلعلها لن تعيش أطول من حياة طفلتها، لكنها ما دامت على قيد الحياة، فستبقى هي صاحبة الأمر والنهي. لقد تجاوزت ابنتها العمر الذي يمكن أن تتوقع فيه مفاجآت غير سارة من رجل. لكنها ترى هنا الآن الرجل، الذي كان يخيّل إليها أن الفتاة كانت قد طردته من رأسها. فقد أقنعت الأمّ طفلتها بأن تتخلى عن التفكير فيه، والآن ها هو يعود إلى الظهور، جديداً، لم يمسه سوء، وفي بيتهما!

مبهورة الأنفاس، تغوص الأمّ في كرسي المطبخ، تحيطها آثار خراب وجبة الطعام. لا يوجد أحد غيرها سيقوم بتنظيف هذه الفوضى. على الأقل سينسيها مشاكلها. اللّيلة، عندما تجلسان لمشاهدة التلفزيون، ستعامل إريكا بصمت. وإذا كسرت الأمّ جدار الصمت، فستقول لإريكا إن كلّ ما تفعله الأمّ هو بدافع الحبّ. وستعلن الأمّ عن حبّها لإريكا، التي يجب أن تعذرها على أية أخطاء قد تكون ارتكبتها في حقها. وستستشهد الأمّ بالله وبجميع الكبار الذين يكنون للآخرين الحبّ أيضاً، لا الحبّ الأناني الذي يتبرعم ويزهر في هذا الشاب. ولمعاقبة ابنتها، لن تهدر الأمّ ولا كلمة واحدة عن الفيلم. ولن تتبادل معها كما اعتادتا الأفكار هذه الليلة، لأن الأمّ قرّرت أن تحذفها. إذ يجب على الابنة هذه الليلة أن تقبل رغبات الأمّ. فالبنت لا تستطيع أن تتكلم مع نفسها.

تدخل الأمّ إلى غرفة الجلوس دون أن تتناول شيئاً من الطعام، وتشعل التلفزيون فيضيء الشعاع الدائم الملون، وترفع الصوت عالياً كي تشعر ابنتها بالأسف لأنها اختارت أكثر المتعتين ضجراً. ينتاب الأمّ شعور باليأس، لكنها تجد أخيراً شيئاً من السلوان: فقد أحضرت الابنة الرجل إلى هنا، ولم تأخذه إلى مكان آخر. وكلّ ما تخشاه الأمّ هو أن يكون اللحم هو الذي يتكلّم الآن من وراء الباب الموصد. وتخشى كذلك أن يكون الشاب يسعى وراء المال. وتستطيع الأمّ أن تتصور أن الشخص يسعى وراء المال حتى لو أخفى نواياه بذكاء مدعياً أنه يحبّ الفتاة. يمكنه أن يأخذ أيّ شيء يريد، إلا المال. هذا هو القرار الذي اتخذته وزيرة المالية في الأسرة، التي ستقوم بتغيير الرقم السري لدفتر الحساب المصرفي غداً. لا لحظة بعد الآن: يا إريكا. وستُحرج الفتاة كثيراً عندما تذهب إلى المصرف غداً، وتحاول أن تمنح الشاب مدّخراتها.

يتملك الأمّ الفزع بأن ابنتها، القابعة وراء الباب، لا تستمع إلا إلى جسدها، الذي قد يتفتّح ويزهر الآن تحت لمسات شخص ما. ترفع الأمّ صوت التلفزيون على مداه كي يتذمر الجيران. تهتزّ الشقة تحت دويّ موسيقى معزوفة يوم القيامة، معلنة عن موعد نشرة أخبار المساء. وفي أية لحظة الآن، سيبدأ الجيران يطرقون بمقابض المكانس أو يدقون على الباب للشكوى شخصياً. هذا جزاء إريكا، لأنها هي السبب وراء هذه التجاوزات السمعية. ومن الآن فصاعداً، لن تتمكن من النظر في عين أحد من الجيران.

لا تصدر أية نظرة خاطفة من غرفة الفتاة، حيث تهيج الخلايا على نحو غير صحّي. لا هديل حمام، لا نقيق ضفادع، لا هزيم رعد. ومهما بذلت الأمّ من محاولات، فلن تستطيع أن تسمع ابنتها الآن، حتى لو صرخت الفتاة. تخفض الأمّ صوت التلفزيون، الذي يحفل بالأخبار السيئة. الأمّ تريد أن تسمع ما الذي يحدث في غرفة ابنتها. لا تزال لا تسمع شيئاً، لأن طاولة المكتب تغطّي الضوضاء أيضاً، لا تسمع ماذا يحدث ولا حتى الخطوات. تخفض الأمّ الصوت، لكن لا يتحرّك شيء وراء الباب. ترفع الأمّ الصوت لكي تموّه على ما تفعله: تسير على أطراف أصابعها إلى الباب كي تتنصت. ما نوع الأصوات التي يمكن أن تسمعها الأمّ: متعة، ألم، أو كلاهما؟ تضع الأمّ أذنها على الباب. من المؤسف أنها لا تملك سماعة طبيب. لحسن الحظ أنهما يتكلمان فقط. لكن عن ماذا يتكلمان؟ هل يتحدثان عن الأمّ؟ لقد فقدت الأمّ أي اهتمام بمشاهدة التلفزيون، مع أنها دأبت على القول لابنتها إنه لا يوجد شيء أفضل من التلفزيون في نهاية يوم طويل وشاق. الفتاة تقوم بالعمل، لكن الأمّ قد تشاهد التلفزيون معها دائماً. لأن وجود الأمّ مع ابنتها يُدخل على مشاهدة التلفزيون نكهة خاصة. إلا

أن النكهة تلاشت الآن، ولم يعد للتلفزيون أي طعم. لقد فقدت الأم مذاقه.

تتوجه الأمّ الآن إلى خزانة السمّ في صالة الاستقبال. تحتسي مشروباً، ثم تأخذ جرعات أكبر. المشروب يجعلها تشعر بأنها مرهقة وثقيلة. تستلقي على الكنبة وتجرع المزيد. أما وراء الباب فكان ثمة شيء ينتشر كالسرطان الذي يواصل نموه حتى بعد موت المصاب منذ زمن بعيد. لا تتوقف الأمّ عن الشرب.

* * *

يستسلم والتر كليمر عن طيب خاطر لرغبته في الانقضاض على إريكا الآن بعد أن أتم الأعمال التحضيرية والباب موصد. لا يستطيع أحد أن يدخل، ولا يستطيع أحد كذلك أن يخرج من دون مساعدته. فقد سدّ الطريق أمام الباب بطاولة المكتب مستخدماً قوته. هو والمرأة معاً، وطاولة المكتب تحميهما من الخارج. يرسم كليمر صورة شراكة مثالية مع إريكا، مضيفاً إليها مشاعر الغرام. يا لروعة التمتّع بالحبّ عندما أكون معك أنتِ. تقول إريكا إنها تريد أن تحبّ بعد كلّ ما رأته من محن وشدائد. وبسرعة تنكفئ وتعود إلى وضعها كشيء وتغلق مشاعرها. وبتشنج تضع طاولة مكتب عارها، وصندوق تذمّرها أمامها، وعلى كليمر أن يزيح قطع الأثاث تلك بقوة حتى يصل إلى إريكا. تريد أن تكون مجرد آلة تعلّمه كيف يعزف عليها. يجب أن يكون حراً، فيما ترزح هي في القيود. لكن إريكا ستختار القيود بنفسها: تقرّر أن تصبح شيئاً، أداة. وعلى كليمر أن يقرر استخدام هذا الشيء. ترغم إريكا كليمر على قراءة الرسالة، وتتمنى في سريرتها أن يتجاوز محتويات الرسالة عندما يقرأها. ليعرف فقط أن ما يشعر به هو الحبّ حقاً، لا

مجرد سراب واهٍ يشرق في المروج. وستنسحب إريكا من كليمر تماماً إن هو رفض توقّع العنف من جانبها. لكنها ستكون سعيدة بحنانه، الذي يستثني العنف ضد مخلوق اختاره هو. فلا يمكنه أن ينال إريكا إلا بشرط استخدام العنف. يجب أن يحبّ إريكا حتى درجة الاستسلام الذاتي. وعندها ستحبّه إلى حدّ نكران الذات. وسيسلّم أحدهما الآخر باستمرار دليلاً موثقاً على مودتهما ووفائهما. تتوقع إريكا من كليمر أن ينكر العنف من أجل الحبّ. وسترفض إريكا ذلك من أجل الحبّ، وستطلب منه أن يفعل ما ذكرته بالتفصيل في الرسالة، حيث تأمل مخلصة أن ما طلبته في رسالتها لا يثقل عليها.

ينظر كليمر في إريكا بِوَلَهٍ وتبجيل. ينظر المراقب اللامرئي من وراء كتف كليمر. تسلّم نفسها بين يدي كليمر، راجية الخلاص والانعتاق من خلال الثقة المطلقة. إنها تريد من نفسها الطاعة والأوامر من كليمر لتكمل طاعتها. تضحك: يحتاج الأمر إلى شخصين! يشاركها كليمر الضحك. ثم يقول لها إننا لسنا بحاجة إلى تبادل الرسائل، بل يكفينا تبادل القبلات. ويطمئن كليمر محبوبته المستقبلية بأنه يمكنها أن تخبره أيّ شيء، أيّ شيء، وعليها أن لا تتجشم عناء الكتابة. المرأة التي تعلّمت عزف البيانو يجب أن تخجل من نفسها، بصدق! إذ إن ظهوراً جميلاً في حفلة موسيقية قد يعوض النداء الجنسي الذي قتلته المعرفة. ويريد كليمر أن يقتحم سماء الحبّ أخيراً، وألا ينتظر إشارات المرور التي تحددها الكتابة. ها هي الرسالة، لماذا لا يفتحها؟ تشدّ إريكا بقوة على حريتها وإرادتها اللتين قد تتقهقران في نهاية الأمر. الرجل لا يتفهم تضحيتها. تعتريها نوبة من الخدر تنبثق من افتقادها لقوة الإرادة تلك. السحر والفتنة يثيرانها بشدة. يقول كليمر مازحاً: بدأت أفقد رغبتي. إنه يهدّد: هذا الجسد

الناعم، المكتنز، أوه هذا الجسد السلبي للغاية، المتحرك، الذي يركز بدقّة على البيانو، لن يثير لهفة كبيرة في نفسه إذا ما تراكمت هذه العقبات. والآن، بعد أن أصبحنا وحدنا، لنبدأ العرض! فلا رجعة ولا رحمة. فبعد أن سلك طرقاً وعرة وملتوية كثيرة، تمكّن من الوصول إلى هنا بشق النفس. تتآكله النيران ويطلب المزيد، يزيل بعض الزخارف. يدفع كليمر الرسالة بعنف، ويقول لإريكا إنها يجب أن تشكر حسن طالعها. يصف لها السعادة التي ستتمتّع بها معه، ما يملكه من إمكانيات ومزايا، وكذلك العيوب - مقابل الورقة الميتة. إن كليمر حيّ! وسرعان ما سيشعرها كم هي حيّة أيضاً! ويلمح والتر كليمر بأسى كيف أن النساء يجعلن بعض الرجال يعتريهم الملل بسرعة. يجب على المرأة، بكل بساطة، أن تتنوع وتتجدد باستمرار. لكن إريكا ، التي تتقدم عليه خطوة، تعرف ذلك جيداً. ولهذا تدفع بالرسالة إلى كليمر، الرسالة التي توضّح كيف أنه يمكن للمرء أن يطيل حاشية العلاقة في ظروف محددة. إريكا تتكلّم: نعم، لكن الرسالة أولاً. ولا يوجد خيار أمام كليمر إلا أن يأخذها، وإلا لألقاها على الأرض، فيوجه بذلك إهانة للمرأة. ينهال على إريكا بقبل عنيفة، سعيداً بأنها أصبحت واعية ومتعاونة في الغرام أخيراً. ولقاء ذلك ستحظى منه بمزايا غرامية تفوق الوصف منه هو، كليمر. تأمره إريكا: إقرأ الرسالة. يفلت كليمر إريكا متردداً من يده المفتوحة، ويبدأ يفتح المغلف. يطالع الرسالة دهشاً، حتى أنه يقرأ بعض أجزائها بصوت عالٍ. إذا كان ما تقوله الرسالة صحيحاً، فلن تسير الأمور على النحو الذي كان يأمله، بل إلى درجة أسوأ مع هذه المرأة. ومهما بذل من محاولات الآن، فلم يعدْ يستطيع أن ينظر إليها كإنسان. ويجب عليك أن تضع قفازات لتلمس شيئاً كهذا. تُخرج إريكا علبة حذاء قديمة

وتفتحها لتخرج ما خبأته في داخلها. تتردّد: دعيه يقرّر، إنها تودّ أن تلبث واقفة في مكانها لا تتحرك أبداً. تودّ أن تترك كلّ المسؤوليات للظروف الخارجية. إنها تريد أن تعهد بنفسها إلى شخص آخر، لكن بشروطها هي. إنها تتحداه.

يوضّح كليمر أن رفض التحدي يتطلب غالباً شجاعة واختيار القاعدة المألوفة. وكليمر هو القاعدة. كليمر يقرأ ويتساءل من تظن هذه المرأة نفسها. يجهد دماغه: هل هي جادة؟ فهو جدّي للغاية. فقد تعلّم أن يكون جدياً في المياه الهائجة، حيث يواجه المرء في معظم الأحيان الأخطار ويتغلّب عليها.

تطلب إريكا من السيد كليمر أن يقترب منها أكثر بينما ترتدي قميصاً داخلياً أسود من النايلون وجوارب نسائية! إنها تحبّ ذلك. الرغبة التي تستحوذ عليّ - يقرأ السيد كليمر المعبود - هي أن تعاقبني. إنها ترغب في أن يعاقبها كليمر، بحيث يربطها بالحبال التي جمعتها، والأحزمة الجلدية بل وحتى السلاسل! أن يقيّدها، يربطها بقدر ما يستطيع - بشدة، بقوة، بمهارة، بفظاظة، بتعذيب، بمكر. يجب أن يضغط بركبتيه فوق أسفل بطنها، هذا إن أردت أن تكون لطيفاً جداً معي.

تنطلق من كليمر ضحكة عنيفة. يا لها من نكتة - إنها تريده أن يضرب بطنها بقبضتيه وأن يجلس فوقها بقوة فيما تستلقي هناك مثل لوح خشبي، غير قادرة على أن تأتي بأيّ حركة وهي مكبلة في قيوده الحلوة القاسية. ينخر كليمر مستهجناً لأنها لا يمكن أن تكون جدّية فيما تقول، ولا بد أن يكون كلّ ذلك من ضرب التخيّل. تظهر إريكا جانباً مختلفاً من نفسها تقيّد الرجل به. إنها تبحث عن المتعة والتسلية، كلّ شيء مقبول. فتقول رسالتها مثلاً سأتلوى كدودة وأنا في قيودك القاسية،

حيث تجعلني أستلقي ساعات طويلة، وتجعلني أقوم بجميع الأوضاع المختلفة، تضربني أو تركلني بل وحتى تضربني بالسوط! رسالة إريكا تقول إنها تريد أن تتبدد وتتلاشى تحته. وإن ما تظهره من ضروب الطاعة المتأصلة تحتاج إلى قدر أكبر من الحدّة! وليست الأمّ كلّ شيء، مع أنه يكون للمرء عادة أمّ واحدة فقط. فهي في الأساس الأمّ، وستبقى كذلك، أما الرجل فيسعى إلى تحقيق إنجازات أكبر. يسألها كليمر عن قصدها من ذلك. إنه يريد أن يعرف من هي. وتكوّن لديه الانطباع بأنها لا تشعر حتى بالخجل من نفسها.

يشعر كليمر برغبة شديدة في أن يخرج من هذه الشقة التي أضحت فخاً. لم يكن يعي ما يزج نفسه فيه. كان يأمل في شيء أفضل. الجذّاف يصارع مياهاً خطرة. ولن يعترف لنفسه حقيقة ما يريده منها. ولن يعترف بذلك للآخرين. إنه خائف: ماذا تريد مني تلك المرأة ؟ هل فهم الأمر بشكل صحيح: أن يصبح سيدها. لكنه لا يستطيع أن يصبح سيدها المطلق؟ فما دامت تملي عليه ما يجب أن يفعله لها، سيبقى ثمة جزء من إريكا غير مدرك. كم من السهل أن يتصور المحبّ أنه ولج إلى أكثر المناطق عمقاً، حيث لا يعود يوجد سرّ يمكن كشفه. إريكا تظن أنه لا تزال أمامها فرصة الاختيار في عمرها، بينما هو يصغرها بكثير ولديه الاختيار الأول، والأول الذي يتم اختياره. وتطلب منه إريكا كتابة أن يتخذها جارية له وأن يكلّفها بالقيام بأشياء معينة. يقول في نفسه: إذا كان هذا كلّ شيء. . . لكنه لن يعاقبها، سيكون ذلك أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة لشاب كريم المحتد. فثمة نقطة محددة لا يمكنه أن يتجاوزها أبداً وفق ما تربى عليه. يجب أن تعرف حدودك، والحدود تبدأ عندما تبدأ تشعر بالألم. لا لأنه لا يقوى على ذلك، بل لمجرد أنه لا يريد. وتقول رسالتها إنها ستعلّمه دائماً عن طريق الكتابة

أو بالهاتف، لا وجهاً لوجه على الإطلاق. إنها لا تقوى على أن تقول ذلك علناً! خاصة عندما تنظر في عينيه الزرقاوين.

يجد كليمر الأمر كله مضحكاً، إلى حد أنه يصفع فخذيه. إنها تريده أن يكون هو الآمر الناهي. ويفترض منه أن يطيعها في الحال. وتتابع قولها إنه يجب أن تصف ما ستفعله لي. وأن تهدّدني بصوت عالٍ إن أنا رفضت. أعلمني ما ستفعله لي إن رفضت إطاعتك. يجب توضيح كلّ شيء بتفصيل دقيق، ويجب أيضاً أن يصف بدقة مستويات الحدّة. يسخر كليمر ثانية من المرأة الصامتة: من تظن نفسها! سخريته تشير ضمناً إلى أنها لا شيء، أو أنها ليست تلك المرأة الهامة. إنه يتحدّث عن حدّ أبعد، لا يعرفه أحد سواه، لأنه يجول في الحدود المحددة: إذ تبدأ هذه الحدود في المكان الذي يفترض بي أن أقوم بأشياء ضد رغبتي. يمزح السيد كليمر عن جدية الوضع. يقرأ، لكن لمجرد المتعة. يقرأ بصوت عالٍ، لكن ليتسلى فقط، فلا أحد يستطيع أن يحتمل الأشياء التي ترغب فيها، دون أن يموت آجلاً أم عاجلاً. يفترض بي أن أعاملكِ كشيء فقط. وخلال دروس البيانو، يجب ألا أدع أحداً يلاحظ شيئاً. ويسألها كليمر إن كانت قد فقدت عقلها. فإذا كانت تظن أن أحداً لن يلاحظ شيئاً، فهي مخطئة. مخطئة جداً.

لا تنبس إريكا بأية كلمة. تكتب أنه يمكن أن يستفسر قطيع تلامذة البيانو ذوي العقول البليدة عن بعض الأشياء، لكنهم لن يعرفوا شيئاً منها. يقول كليمر معترضاً إن إريكا تبخس من شأن تلامذتها بشكل عام. وهو لا يريد أن يبدو أحمق تماماً أمام أناس يقلون ذكاء عنه بكثير. ليس هذا ما أتوقعه من علاقتنا يا إريكا. ففي الرسالة، التي لا يمكن أن يأخذها بجدية مهما بذل من محاولات، يقرأ أنه يجب أن يتجاهل أيّ طلب يأتي منها. فإذا طلبتُ منك أن ترخي الحبل، يا

عزيزي، لكي أتمكن من تحرير نفسي، يجب ألا تعير أي اهتمام لتوسلاتي، وهذا أمر في غاية الأهمية. بل على العكس من ذلك: فإذا توسلت، تصرّف وكأنك ستنفذ طلبي. لكن يجب أن تحكم شدّ الحبال، اسحبها، شدّ الحزام أكثر وأكثر - فكلما كان القيد محكماً أكثر كان أفضل. وستكون هناك قطع قديمة ملقاة من النايلون. احشرها في فمي بقدر ما تستطيع لكي لا أستطيع أن أصدر صوتاً واحداً.

كليمر يرفض، ويريد أن تتوقف هذه المهزلة. يسأل إريكا إن كانت تريده أن يصفعها على وجهها. لا تنبس إريكا بكلمة. يهدّد كليمر قائلاً إنه إذا واصل القراءة، فلأنه بدأ يهتم بها كحالة مرضية، ويقول: امرأة مثلك لا تحتاج إلى كلّ هذا. فأنتِ لستِ امرأة قبيحة، ولا توجد فيك عيوب جسدية مرئية، سوى العمر. فأسنانها حقيقية وليست اصطناعية.

هذه الفقرة تقول: استخدم خرطوماً مطاطياً - سأريك كيف - ادخل الكمامة بإحكام في فمي حتى لا أتمكن من إخراج لساني. الخرطوم جاهز! أرجوك استعمل بلوزة لتزيد من متعتي: أوثق وجهي بمهارة وبالكامل لكي لا يكون بوسعي أن أتخلص منها. ودعني أذوي في هذا الوضع المؤلم لساعات طويلة. وماذا عن مكافأتي؟ يقول كليمر مازحاً. يسأل لأنه لا يجد متعة في عذاب الآخرين. فالعذاب الذي يأخذه الرياضي على نفسه مسألة مختلفة: وهو الشخص الوحيد الذي يعاني منه. جلسة في حمّام بخار بعد أن يكون قد سبح في أكثر المياه برودة في الجبل. يمكنني أن أفعل ذلك لنفسي، ويجب أن أوضّح لك ماذا أقصد بحالة شديدة.

اسخر مني وانعتني بـ«جارية غبية» بل حتى أطلق عليّ أسماء وألقاباً قبيحة، تطلب إريكا في الرسالة. أرجو أن تخبرني بصوت مرتفع ما ستفعله لي، وصف لي درجات الحدّة دون أن تزيد من القساوة.

تحدّث عن أشياء، لكن لا تفعل أكثر من التلميح بها. هدّدني، لكن لا تذهب أبعد من ذلك. يتذكر كليمر الآن أبعد مسافة قطعها في أحد الجداول الجبلية، لكنه لم يصادف مثل هذه المرأة في حياته! وهو لن يبحث عن شواطئ جديدة معها يدعوها مكتئباً: بالوعة هرمة تنبعث منها روائح كريهة. يهزأ بها ويعيب عليها، مع أنه يعيب على نفسه. يحدّق في هذه المرأة، التي تريد أن تجرفها النعمة ويسأل نفسه: من بوسعه أن يفهم جنس النساء في أية حال؟ فكل ما تفكّر فيه هو نفسها. ويكتشف الرجل أنها ستقبّل قدميّ بامتنان. الرسالة لا تكبح جماحها. إنها تقترح أشياء سرية بينهما، أشياء لن يلاحظها العالم الخارجي. فالدروس توفّر تربة خصبة للعمل خلسة وبسرية، وللظهور علناً كذلك. يدرك كليمر أنّ الرسالة تهذي بهذه النغمة إلى نهايتها، وقد يعتبرها مجرد فضول. يجب عليه حقاً أن يخرج من هنا: هذا هو هدفه النهائي. لكن فضوله يكبحه عن ذلك. يتساءل إلى أي مدى يمكن للمرء أن يمضي إذا كان على استعداد للإمساك بالنجوم! كليمر، النجمة الثابتة التي ينيرها منذ زمن. إن عالم الموسيقى شاسع واسع، وعلى المرأة وحدها أن تحقق شيئاً، لكنها تذعن وتقبل بالقليل! وتحدو كليمر رغبة قوية في أن يركلها.

تنظر إريكا إلى الرجل. فقد كانت طفلة ذات يوم، ولن تعود طفلة مرة أخرى.

يمازحها كليمر عن اللمسات التي تأتي في غير محلها. فالمرأة تريد أن تحظى بهذه اللمسات في حضورها فقط، وهذا ليس بالشيء الكثير. تتذكر إريكا المصاعد القديمة في المخازن الكبيرة في طفولتها. يقول كليمر متهكماً إن يدي قد تهوي عليك وعندها لن تعارضي، لكن المبالغة في الأمر ليست بالشيء الجيد. دعينا لا نقطع شوطاً بعيداً في مسألة الحميمية، لا بشكل مبالغ فيه. إنها تجس نبضه حول الحبّ

الذي بوسع رجل أعمى أن يراه. إنه مجرد اختبار إلى أي مدى سيمضي معها في ما يتعلق بالحبّ. تسبر أغواره حول الوفاء الأبدي. إنها تريد أن تتأكد حتى قبل أن تبدأ. كامرأة فقط. يبدو أنها تجسّ نبضه، تحاول أن تحدد إلى أي مدى يمكنها أن تثق بإخلاصه ووفائه، وإلى أي حد يمكنه أن يقرع على جدار استسلامها. إن قدرتها على الاستسلام مطلقة. والقدرات تتحول إلى معرفة.

يرى كليمر أنه يمكن للرجل في هذه المرحلة من اللعبة أن يعد المرأة بكلّ شيء، لكنه لا يلتزم بكلّ شيء. اطرق الحديد وهو حامٍ، استغل الفرصة عندما تسنح لك. فالرجل يسوّغ ويبرر نضوب اهتمامه بالكيان الأنثوي المثالي. الإرهاق وكثرة العمل يستهلكان الرجل تماماً. تحدوه رغبة عارمة في أن يبقى وحده.

بعد أن ينتهي كليمر من قراءة الرسالة، يخلص إلى أن هذه المرأة تريده أن يلتهمها، أن يفترسها. شكراً، لكن لا داعي للشكر، فكليمر لا يتضور جوعاً. إنه يبرّر رفضه: أعامل الناس كما أحبّ أن يعاملوني. فهو لا يريد أن يُقيد ويُكمم فمه. إني أحبّكِ كثيراً، يقول كليمر، ولا أقوى على إيذائك على الإطلاق، حتى لو أردتني أن أسبب لك الأذى. فالمرء يريد أن يفعل ما يريد أن يفعله هو فقط. ولن ينفذ كليمر ما جاء في الرسالة. هذا شيء مؤكد.

من وراء الباب، ينبعث صوت الرعد المكتوم الصادر من التلفزيون، حيث يهدّد ذكر أنثى. فقد اقتحم مسلسل السهرة اليوم على نحو ممض عقل إريكا المنفتح والمتقبل له. وينفتح عقلها داخل جدرانه الأربعة بروعة، لأن لا شيء يهدّده بالمنافسة. فقد ابتلي عقلها بالحضور الأمومي في ما يتعلق بقدراتها الفائقة على لوحة مفاتيح. الأمّ لا تني تردد: إريكا هي الأفضل. هذا القيد الذي تستخدمه لتقييد ابنتها.

يقرأ كليمر عبارة تسمح له بأن يقوم بتحديد العقوبات التي يراها مناسبة لإريكا. يسألها لماذا لم تدوّني طريقة العقوبة؟ سؤاله هذا جعل السفينة الحربية إريكا تثب. تقول لكليمر إنه مجرد اقتراح. تعرض عليه شراء سلسلة ذات قفلين لا تستطيع أن تفتحهما. أرجوك لا تشغل بالك بأمّي. الأمّ التي أخذت تشعر بالقلق على إريكا وراحت تطرق على الباب. لكنهما لا يكادان يلاحظان ذلك بسبب طاولة المكتب، القابعة وراء الباب بصبر. الأم تنبح، والتلفزيون يئز ويطن. تظهر على الشاشة أرقام صغيرة جداً لا يمكن السيطرة عليها إلا بإغلاقه وفتحه اعتباطاً. الحياة الحقيقية الكبيرة تنافس حياة التلفزيون الصغيرة، إلا أن الحياة الحقيقية هي التي تفوز لأنها تتحكم بكلّ شيء وتسيطر عليه. الحياة تتكيف مع التلفزيون، والتلفزيون ينسخ قصصه من الحياة.

أشخاص بتسريحات قام مجفف الشعر بنفشها بحقد، يحدق أحدهم خوفاً في وجه الآخر. لكن الأشخاص خارج الشاشة فقط هم الذين يمكنهم أن يروا كلّ شيء. أما الآخرون فيحدقون من الشاشة، لا يدّعون شيئاً، ولا يدركون شيئاً.

تقترح إريكا المزيد: يجب أن نحصل على قفل أو أداة من هذا القبيل لهذا الباب! يمكنك أن تترك هذا الأمر عليّ يا عزيزي. إني أريدك أن تحوّلني إلى كتلة تقع تحت رحمتك تماماً.

يلعق كليمر شفتيه بعصبية في وجه السيطرة والقوة. تنفتح أمامه عوالم صغيرة، كتلك التي تعرض على شاشة التلفزيون. لا يكاد يوجد متسع في الغرفة يمكنك أن تضع قدمك فيه. يجأر ذلك الشكل الصغير جداً في دماغه. تنكمش المرأة أمامه وتصغر. يمكنك أن ترميها مثل كرة دون أن تمسك بها. يمكنك أن تخرج الهواء منها. إنها تبخس من شأنها عمداً رغم أنها لا يجب أن تفعل ذلك، لأنه يعرف مواهبها ويقرّ

بها. إنها لا تريد أن تكون متفوّقة، لأنها لن تجد أحداً يمكنه أن يشعر بالتفوق عليها. إريكا تريد أن تشتري بعض الأدوات حتى يصبح لديهما عدّة تعذيب كاملة. عندئذ يمكنهما أن يلعبا بهذه الأدوات. لكن يجب ألا يسمع العالم الخارجي صوت أي أداة. إذ ينتاب إريكا القلق من أن يلاحظ الطلاب الآخرون شيئاً. أما خارج الباب، فإن الأمّ تنشج بهدوء وشراسة. وعلى شاشة التلفزيون، ثمة امرأة غير مرئية جيداً تنشج بصمت لأن الصوت منخفض. تستطيع الأمّ، وتحدوها الرغبة أيضاً، في أن تجعل هذه المرأة التي تنتمي إلى أسرة التلفزيون أن تبكي وتجهش بصوت عال جداً حتى تجعل الشقّة ترتج وتهتزّ. وإذا لم يكن بوسعها، أمّ إريكا، أن تتدخّل، فإن موجة الحميمية الدائمة لتلك المرأة التكساسية تعرقل عملها. وكلّ ما عليك أن تفعليه هو أن تحركي جهاز التحكم من بعد.

يا لإريكا من فتاة متعجرفة، صلفة: إنها تريد أن تكون شقية، كي تُعاقب في الحال. لن تنجح في عمل أي شيء. لن تكتشف الأمّ ذلك، لكن إريكا ستكون شجاعة. أرجوك لا تهتم بأمّي على الإطلاق. بالتأكيد يستطيع والتر كليمر أن لا يبدي أي اهتمام بالأمّ، لكن الأمّ لا تتمالك نفسها من التعبير عن قلقها بواسطة ضجيج التلفزيون. أمّك مزعجة جداً، يقول الرجل متذمراً. تقترح عليه إريكا أن يجلب لها مئزراً مصنوعاً من البلاستيك أو النايلون الأسود فيه ثقوب كي يستطيع المرء أن يرى الأعضاء الجنسية. يسأل كليمر أين يمكن للمرء أن يجد مثل هذا المئزر دون أن يسرقه أو يصنعه. وهكذا تقدم للرجل عرضاً يستطيع من خلاله أن يسترق النظر، يقول لها هازئاً كم أنت راقية يا إريكا. هل تعلّمت ذلك من التلفزيون؟ إنكَ لن ترى كلّ شيء، بل لمحات خاطفة. المخرج يقدم لك نظرة خاطفة، ويترك الباقي

لخيالك. إريكا تكره الذين يشاهدون التلفزيون من دون تفكير. تستطيع أن تستفيد من كلّ شيء ما دمت تفتح عقلك. فجهاز التلفزيون يقدم لك معلومات جاهزة، وعقلك يقوم بتصنيع الأغطية الخارجية. إن جهاز التلفزيون يغيّر الحقائق اعتباطاً ويحيك الحبكات. إنه يفرّق بين العشاق ويربط الأشياء التي يبقيها الكاتب منفصلة. العقل يلفّ ويدور كما يراه مناسباً.

إريكا تريد أن يعذبها والتر كليمر. لكن كليمر لا يريد أن يفعل ذلك. يقول لم يكن هذا ما كنا نسعى إليه يا إريكا. إريكا تتوسل إليه أن يقيدها بالأسلاك والحبال بإحكام. لا ترأف بي بأي شكل من الأشكال. بل بالعكس، امنحها كل طاقتك! وافعل ذلك في كل مكان. ماذا تعرفين عن قوتي، يسأل والتر كليمر هذه المرأة بطريقة خطابية، تلك المرأة التي لم تره يجذف القارب أبداً. إنها تبخس من شأن حدود قوته. وليس لديها أدنى فكرة عما يمكنه أن يفعله لها. ولهذا السبب كتبت له: هل تعرف أنك تستطيع أن تزيد من قوة التأثير بنقع الحبال أولاً في الماء لفترة طويلة؟ أرجوك افعل ذلك حينما تشعر بالرغبة في ذلك، وأرجوك تمتّع بها إلى أبعد درجة. ذات يوم - سأشير إلى ذلك اليوم في رسالة - فاجئني بأن تنقع الحبال تماماً، فهي تنكمش بعد أن تجف.

يحاول كليمر أن يصف كيف أن إريكا، التي لزمت الصمت، تنتهك قاعدة بسيطة من قواعِد الاحتشام بصمتها. تظل إريكا صامتة! لكنها لا تخفض رأسها. تشعر أنها تسير على المسار الصحيح، وتريده أن يعتني كثيرا بجميع مفاتيح الأقفال التي سيستخدمها لسجنها! لا تنس شيئاً.

لا تعبأ بأمي. فقط اطلب منها المفتاح البديل، إذ يوجد مفاتيح

كثيرة منها! أغلق عليّ باب الغرفة أنا وأمي من الخارج! أظن أنك ستضطر للذهاب لأمر عاجل، ولديّ رغبة عارمة في أن تتركني مقيدة، مشدودة الوثاق مع أمّي. واتركني هكذا حتى اليوم التالي. لا تكترث لأمّي، اتركها لي. خذ معك جميع مفاتيح الغرف والشقّة، لا تترك مفتاحاً واحداً هنا!

يسأل كليمر مرة أخرى وماذا سأحصل لقاء كلّ ذلك؟ يقول كليمر ضاحكاً. الأمّ تخربش. التلفزيون يصدر صريراً. الباب يُغلق. إريكا تلبث في مكانها لا تتحرك. الأمّ تضحك. كليمر يخربش. الباب يحدث صريراً. التلفزيون مغلق. وكذلك إريكا.

ولكي لا تجعلني أبكي وأنشج بألم، أحشر في فمي سروالاً أو قميصاً داخلياً من النايلون وأسكتني بالمتعة، وأرجو أن ترتدي مايوه بيكيني أسود صغيراً، يكشف أكثر مما يخفي. لن أنبس بكلمة واحدة! خاطبني كإنسانة وقل: سترين في أي حال سأجعلك، وسترين كيف ستصبحين بعد أن أعاملك. تملقني، امتدحني بإفراط وأبقني هكذا لمدة لا تقل عن خمس أو ستّ ساعات، لا دقيقة أقل.

والتر كليمر يسألها: حقاً؟ ثم يجيب: حقاً الآن! احتضن المرأة، لكنها ليست أمّه، وتُظهر له ذلك بعدم ضمه بين ذراعيها كما تفعل مع ابنها. تبقي يديها على جانبيها، هادئة ورائقة. يطلب منها الشاب بعض المشاعر الرقيقة ويقترب منها برقة. يطلب ردّ فعل ينم عن حبّ لا يمكن إلا لوحش أن يرفضه بعد هذه الصدمة. إريكا كوهوت لا تضم إلا نفسها، لا تضم أحداً غيرها. أرجوكِ، أرجوكِ تصدر برتابة عن الطالب. المعلّمة لا تشكره بتهذيب. تتصرف كأنها ترفضه، تسمح له بأن يلمسها، لكنها ترفضْ أن تمنحه شفتيها الحمراوين. ليست القراءة كالشيء الأصيل، الرجل يلعنها بشناعة. تقدم المرأة الرسالة ثانية.

كليمر يهاجمها: أهذا هو كلّ ما تقدمينه لي. كيف تجرئين! لا يمكن أن يأخذ المرء دائماً. يتطوّع كليمر ليريها عالماً لا تعرفه بعد! إريكا لا تعطي، وإريكا لا تأخذ.

لكنها تهدّد بعدم الطاعة في رسالتها. فإن رأيت مني تجاوزاً (تنصح والتر كليمر)، أرجوك اضربني، بقفا يدك أيضاً، اصفع وجهي عندما نصبح وحدنا. اسألني لماذا لا أشتكي لأمّي، أو لماذا لا أردّ لك الصفعة. في أية حال، قل لي هذه الأشياء كي أشعر بعجزي جيداً. عاملني كما أخبرتك في رسالتي.

في الخارج كان التلفزيون يهدل ويقرقر بنعومة. تبدأ الأم تحتسي بنهم. هذه هي الطريقة الوحيدة لصرف انتباهها. العائلات كلها تتناول طعامها الآن في كل مكان. يمكنك أن تتخلص من الناس التافهين في التلفزيون في أي وقت، ما عليك إلا أن تضغط على الزرّ. وعندها ينتهي مصيرهم دون بحث دقيق، لكن الأمّ لا تجد الشجاعة لعمل ذلك. تجازف بإلقاء نظرة أو نظرتين لترى التلفزيون. وفي الغد، وإذا شاءت الطفلة، فمن الممكن أن تطلعها على حلقة الليلة، لذلك لا يتعين على إريكا أن تفغر فمها وتحدّق ببلاهة في الحلقة القادمة المحزنة. يعتبر كليمر نفسه أنه يقف خارج الرغبة ويتمعّن بموضوعية في منظور هذا الجسد الأنثوي. لكن شيئاً يتحرك فيه دون أن يدرك.

لقد لطّخ غراء الشبق مواقفه المتعددة، وتوفر له الحلول البيروقراطية التي تصفها إريكا التوجيهات حتى يتصرّف وفق متعه.

لقد تأثر كليمر، شاء أم أبى، برغبات المرأة. لا يزال غريباً، يقرأ رغباتها فقط. لكنه سرعان ما سيحصل على المتعة المنشودة!

لا ترغب إريكا إلا في شيء واحد وهو أن تجعل جسدها شهياً

ومرغوباً. تريد أن تتأكد من ذلك. كانت تريد أن ينتهي الأمر عندما ينهي قراءته. بدأ الظلام يهبط. جميع الأضواء مطفأة. لا يزال نور الشارع كافياً.

رنة رقيقة تصدرها الأمّ من البيانو، لأن حركة أصابع الطفلة خاطئة. تبرق الذكريات التي لا تخطئ من صندوق دماغ إريكا الذي لا ينضب. في هذه الأثناء، تحتسي الأم مشروباً، ثم مشروباً آخر بلون مختلف. تحاول الأمّ أن ترتّب أطرافها، لكنها تجد صعوبة في إيجادها. تبدأ تحضيراتها لكي تأوي إلى الفراش. لقد حان وقت نومها، بل تأخرت على ذلك.

انتهى كليمر من قراءة الرسالة. لم يعد يتشرف بأن يخاطب إريكا مباشرة، لأن هذه المرأة غير جديرة بالاحترام: يجد جسد كليمر ترحيباً بشكل متواطئ، يتفاعل دون إرادته. لقد اتصلت معه المرأة عن طريق الكتابة، إلا أن لمسة بسيطة كانت ستحرز نقاطاً أكثر بكثير. لقد تعمدت أن ترفض أن تسلك درب الملامسة الأنثوية الناعمة. ومع ذلك تبدو أنها متوافقة تماماً مع رغبته الأساسية. يمدّ يده إليها، لكنها لا تمدّ يدها إليه. هذا الأمر يهدئ من غلوائه. لذلك يجيب بصمت على رسالة المرأة. ويلبث صامتاً حتى تقترح إريكا جواباً. تطلب منه أن يضع إشارة على كلماتها، لا أن يريها إياها. اتبع قلبك السري. يهزّ كليمر رأسه. تقول إريكا إنه يطيع عادة الجوع والعطش. تقول إريكا إنه يعرف رقم هاتفها، وبوسعه أن يخابرها. فكّر في الأمر بهدوء وبصمت. ليس لصمت كليمر نهاية أو لازمة موسيقية. العرق يتفصد من يديه وقدميه، وكذلك من ظهره. مضت دقائق طويلة. أصيبت المرأة، التي انتظرت ردّ فعل عاطفياً، بخيبة أملٍ، لأنه يسأل للمرة العشرين إن كانت جادّة أم أن هذا مجرد مزحة سيئة؟ كليمر صورة عن هدوء الزمن المتأخر الذي

أوشك أن ينفجر! إنه يشبه الأشخاص المهووسين بالامتلاك - قبل أن يحققوا إنجازهم مباشرة. تحاول إريكا أن تفهم أين ذهب حبّه. هل أنت غاضب مني؟ آمل ألا تكون. تحاول إريكا أن توجه ضربة وقائية خجولة: ليس من الضروري أن تحدث الآن. غداً أو في يوم آخر، أو في يوم ما في المستقبل، لا يهمني. على كل حال، فالحبال والأشرطة موجودة في علبة الأحذية اليوم.

هناك تشكيلة لطيفة منها. تتحدث كما لو كانت تعلّم. لا ينبس كليمر بكلمة لأن المعلّمة هي التي تتكلّم في الصف فقط. إريكا تطلب منه: تكلّم الآن!

يبتسم كليمر ويجيب مازحاً إنهما يستطيعان مناقشة إن كانت مولعة بالجنس وإن كان الجنس قد أفقدها عقلها؟

للمرة الأولى، تخشى إريكا أن يهاجمها كليمر قبل أن يبدآ. فتعتذر بسرعة عن لغة الرسالة المبتذلة، محاولة أن تشيع جواً من الارتياح. وبدون اشمئزاز، وفي مزاج رائق، تقول إريكا إن الحبّ في أساسه في نهاية الأمر شيء عادي جداً.

هل تستطيع أن تأتي دائماً إلى شقتي؟ تستطيع أن تتركني أذوي في سلاسلك القاسية الحلوة من مساء يوم الجمعة وحتى مساء يوم الأحد، إذا تجرأت على عمل ذلك. أريد أن أذوي وأذبل بقدر ما يمكنني في سلاسلك التي طالما اشتقت إليها.

لا يهدر كليمر الكثير من الكلمات لكنه يقول: ربما. وبعد برهة يقول بجدّية تامة: بالتأكيد لا! إريكا تريده أن يقبّلها باتقاد وحرارة، لا أن يضربها. تقول إن فعل الحبّ قد يحلّ الكثير من المشاكل التي يبدو أن لا أمل يرجى منها. قل لي شيئاً يعبّر عن الحبّ وانس الرسالة،

تقول له بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. تأمل إريكا أن يكون منقذها هنا، وترجو كذلك توخي الحيطة والسرية. ثم تخطر ببال إريكا فكرة: يمكن أن يكتب كلّ واحد منا إلى الآخر. بل ولا يتعين علينا أن ننفق مالاً على ثمن طوابع البريد. وتتبجح قائلة إن رسائلهما قد تصبح أكثر ابتذالاً من هذه الرسالة. إنها مجرد بداية، وقد تمت البداية. هل لي أن أكتب رسالة أخرى؟ ربما كانت أفضل. المرأة متلهفة لأن يقبّلها بعنف، لا أن يضربها. يستطيع أن يقبّلها بشكل مؤلم ما دام لا يريد أن يضربها. يجيب كليمر إن هذا لا يهمّ. يقول أرجوك، وشكراً. يكاد يكون صوته خالياً من أية نبرة.

إريكا تعرف تلك النبرة من أمّها. آمل ألا يضربني كليمر، تقول في نفسها خائفة. تشدّد على أنه يمكنه أن يفعل أيّ شيء لها. أيّ شيء، تشدّد، ما دام يسبب لها ألماً لأنه لا يكاد يوجد شيء لا أشتهيه. ويجب على كليمر أن يسامحها لأنها، كما يخيّل إليها، لم تكتب الرسالة بشكل جميل. آمل ألا يضربني بغتة، تقول المرأة في نفسها. وتكشف للرجل أنها تتوق لأن تُضرب منذ سنوات عديدة. وتظن أنها وجدت أخيراً السيد الذي تتوق إليه.

تخشى إريكا كثيراً أن تتحدّث عن شيء آخر. يجيبها كليمر: شكراً لك. إريكا تسمح لكليمر أن يختار لها ملابسها من الآن وصاعداً. وإذا ما حصل تجاوز من جانبها، يمكنه أن يتخذ في حقها إجراءات صارمة في ما يتعلق بخزانة ملابسها. إريكا تفتح باب الخزانة وتريه مجموعة من ثيابها. تُخرج بضع قطع منها، أو تعرض أمامه بضعة أشياء معلقة على المشجب. تريد أن تريه الثياب الرائعة التي توجد لديها، تعرض على ناظريه مشهداً ملوّناً. إذا كان ثمة شيء تحبه بشكل خاص، يمكنني أن أشتريه لك أنت فقط. المال لا يهمّ. المال يهمّ الأمّ

فقط، لكنه لا يعتبر شيئاً هاماً بالنسبة لي. عليك أن لا تبالي بأمّي. ما هو لونك المفضّل يا والتر؟ إن رسالتي لم تكن مجرد مزحة. تتذلّل أمام يده. إنك لست غاضباً مني، أليس كذلك؟ لو طلبت منك أن تكتب لي بضعة أسطر شخصية فهل تفعل ذلك؟ اكتب لي عن رأيك برسالتي. كليمر يقول إلى اللقاء. إريكا تتذلّل، تتمنّى أن تهبط يده بمودّة، لا بطريقة مدمّرة. سأركّب قفلاً غداً. ثم ستعطي إريكا المفتاح الوحيد لبابها إلى كليمر. فكّر كم سيكون ذلك جميلاً. لا يفه كليمر بكلمة حول هذا الاقتراح. إريكا تريد الحبّ. تريد أن يجيبها برقة وحنان عندما تقدّم له نفسها في أي وقت. لا يهم متى. لا يبدي كليمر أي ردّ فعل سوى أنه يتنفس.

تقسم إريكا إنها ستفعل كلّ شيء دوّنته في رسالتها. إنها تؤكّد: إن ما كتبته ليس محفوراً على الحجارة! وأن تصل متأخراً أفضل من أن لا تصل أبداً. يشعل كليمر الضوء. لا يتكلّم ولا يضربها. تحاول إريكا أن تكتشف إن كان بوسعها أن تكتب له عن رغباتها مرة أخرى. هل تسمح لي أن أواصل كتابتي لك، أرجوك؟ لا ينبس كليمر بكلمة تنم عن جواب.

ثم يجيب والتر كليمر : يجب أن ننتظر ونرى. يرفع صوته على إريكا، قيمة قياسية غامضة، تموت خوفاً. يشتمها بكلمة نابية، لكنه على الأقل لا يضربها. يشتم إريكا ناعتاً إياها «أيتها الهرمة». إريكا تتوقع ردود الأفعال هذه، وتحمي وجهها بذراعيها. تسقط ذراعيها: إذا كان سيضربها الآن، فليفعل. كليمر يقول إنه لن يمسّها بأذى. ويقسم إن مشاعر الحبّ كانت تنتابه تجاهها، أما الآن فقد انتهى كلّ شيء. وهو لن يسعى وراءها. إنه يشعر بالتقزز منها. كيف تجرؤ وتقترح مثل هذه الأشياء! تدفن إريكا وجهها بين ركبتيها، بالطريقة التي يتخذها

الركاب في الطائرات بالوضع الجنيني عندما تهوي الطائرة وتوشك على التحطم. إنهم يريدون أن يحبطوا الموت. إنها تريد أن تحبط ضربات كليمر، كي يمكنها أن تبقى على قيد الحياة. لن يضربها لأنه، كما قال، لا يريد أن يلوّث يديه بها. يرمي الرسالة في وجه المرأة، لكنه يصيبها في مؤخرة رأسها المحني. ويدع الرسالة تسقط على إريكا. يقول كليمر ساخراً من المرأة: المحبون لا يحتاجون إلى كتابة رسائل. فالذريعة المكتوبة لا تكون ملزمة إلا إذا كان كل حبيب سيخدع الآخر.

تجلس إريكا متصلبة على أريكتها. قدماها جاثمتان بشكل متواز في حذائها الجديد. منتظرة خطوة غرامية من كليمر. يعتريها إحساس قوي بأن الحبّ على وشك الزوال! تأمل ألا يزول حبّه. فما دام هنا، فهناك أمل. تأمل أن يقبّلها قبلات حارة على الأقل، أرجوك. فيجيبها كليمر: لا شكراً. وبدلاً من أن يعذّبها، تريده أن يمارس الحبّ معها على الطريقة النمساوية. وإذا أطلق لنفسه العنان معها عاطفياً، فستخزه بكلماتها: إمّا بطريقتي أو لا. وتتوقّع أن يغمرها الطالب العديم الخبرة بشفتيه ويديه. وستريه كيف.

يجلس أحدهما قبالة الآخر. الخلاص من خلال الحبّ وشيك، لكن الصخرة التي تغلق فتحة القبر ثقيلة جداً. إن كليمر ليس ملاكاً، والنساء لسن ملائكة أيضاً. دحرج الصخرة بعيداً. إريكا قاسية مع والتر كليمر عندما يتعلق الأمر برغباتها التي دوّنتها له. وليس لها رغبات باستثناء الرغبات التي وردت في الرسالة. يسألها كليمر: لماذا تهدر الكلمات؟ على الأقل، إنه لن يضربها.

يطوّق طاولة المكتب الخالية من أية مشاعر بكلّ القوة التي يستطيع أن يستجمعها ويدفعها ملليمتراً ملليمتراً، من دون مساعدة إريكا. يدفعها قليلاً كي يتمكن من فتح الباب: لا يوجد المزيد يمكن أن يقوله أحدنا

إلى الآخر، يقول كليمر. يغادر دون أن يودعها ويصفق باب الشقّة وراءه. لقد ذهب.

* * *

تضطجع الأمّ في النصف المخصص لها من السرير، تشخر بتأثير الكحول الذي لم تعتد عليه، المخصص للضيوف فقط الذين لا يأتون أبداً. وقبل عدة سنوات، وفي هذا السرير بالذات، أثمرت الشهوة أمومة مقدّسة، وانتهت الشهوة حالما تحقق ذلك الهدف. فقذفة واحدة قتلت الشهوة وخلقت فضاءً للفتاة. لقد قتل الأب عصفورين بحجر واحد. وقتل نفسه بالضربة ذاتها. وبسبب كسله الداخلي وضعف عقله، لم يكن قادراً على متابعة نتائج قذفه. تنزلق إريكا الآن إلى النصف المخصص لها من السرير، لكن الأب يقبع على عمق ستة أقدام تحت الأرض. والليلة لم تستحم إريكا أو تنظف نفسها بأي شكل من الأشكال.

تفوح منها رائحة عرقها، مثل حيوان حبيس في قفص، حيث تتجمّع رائحة العرق وبخار البرية لا يستطيع أن يتحرك لأن القفص صغير للغاية. فإذا أراد أحد الحيوانين أن يستدير إلى جانب، كان على الحيوان الآخر أن يلتصق بالحائط. العرق يغمرها. تستقر إريكا إلى جانب أمّها وتستلقي في مكانها. لا يغمض لها جفن. وبعد ساعتين من التقلب المستمر في عصائرها، يجافي النوم عينيها ولا تستطيع أن تفكر أيضاً، تشعر إريكا بأمّها تستيقظ فجأة. لا بد أن التفكير في طفلتها قد أيقظها، لكن الطفلة لا تتحرك. تتذكّر الأم المشروب الذي احتسته والذي ساعدها على الهروب. تتحرك في مكانها، تشع كالفضة، تتلألأ بدون ضياء الشمس. تحدق في الطفلة، وتوجه إليها اتهاماً خطيراً، مقترناً بتهديد خطير ويوطوبيا الإيذاء الجسدي. ثم ينهمر عليها سيل من

الأسئلة التي لا تجد أجوبة، بدون ترتيب خاصّ بالنسبة للأولويات أو الأهمية. لا تنبس إريكا بكلمة، فتستدير الأمّ إلى الطرف الآخر، شاعرة بالإهانة. وتفسر شعورها بالإهانة بأنه شعور بالاشمئزاز من ابنتها. لكنها تعود وتستدير نحو ابنتها وتعيد عليها نسخة سمعية من تهديداتها، ولكن بصوت أعلى. إريكا لا تزال تصرّ أسنانها، والأم لا تتوقف تكيل لها اللعنات والشتائم. اتهاماتها الوحشية تقودها إلى حالة من فقدان السيطرة على النفس. وتستسلم الأمّ للكحول الذي لا يزال تأثيره يسري في دمها. فقد كان لمشروب البيض تأثير سيّئ عليها، وكذلك مشروب الشوكولاته.

تشنّ إريكا هجوماً فاتراً مفعماً بالحبّ، لأن الأمّ تتصوّر عواقب بعيدة المدى لحياتهما معاً في المستقبل. يعتري الأمّ شعور بالذعر الشديد من مغبة حصول أسوأ العواقب - منها مثلاً، وجود سرير منفصل لإريكا!

استطارت الحمية بإريكا بسبب بدايتها الغرامية. ارتمت على الأمّ، وراحت تمطرها بالقبلات. قبّلت الأمّ بطريقة لم يخطر لها أن تقبّلها بها منذ سنوات. فقد أمسكت بكتفَي الأمّ، لكن الأمّ أخذت تلوّح بقبضتيها بغضب، لا تضرب بهما. راحت إريكا تقبّل أمّها بين كتفيها، لكنها لم تكن تصيب هدفها دائماً، لأن الأمّ لم تتوقف عن إبعاد رأسها إلى الجانب الذي لم يكن يُقبّل. وفي شبه الظلام، كان وجه الأم مجرّد لطخة تلمع محاطة بشعر أشقر مصبوغ، تقبّل إريكا هذه البقعة اللامعة من دون تمييز. فهي لحم من هذا اللحم! فتات قطعة الكاتو الأمومية هذه! وتواصل إريكا الضغط بفمها الرطب على وجه الأمّ، تمسكها بذراعين فولاذيتين كي لا تقاوم الأمّ. يكاد نصف جسد إريكا يستلقي فوق الأمّ، لكن الأمّ لا تني تدفعها عنها بذراعيها. وبدفعات محمومة

من الرأس، يحاول فمُ الأم تفادي فمَ إريكا المزموم. تلقي الأمّ رأسها بقوة إلى أحد الجانبين، محاولة التهرب من القبلات. إنه شيء يشبه صراع الأحبة، لكن الهدف ليس الوصول إلى رعشة الجماع، بل الأمّ بحدّ ذاتها، الشخص الذي يُعرف بالأمّ. وتستسلم هذه الأمّ ، فما من فائدة، فلا بد أن إريكا تفوقها قوة.

تلتفّ حول الأمّ كما تلتفّ شجرة اللبلاب حول بيت قديم، لكن من المؤكد أن هذه الأمّ ليست بيتاً قديماً مريحاً. تمتصّ إريكا هذا الجسد الكبير وتقضمه كما لو كانت تريد أن تزحف وتختبئ داخله. تعترف إريكا بحبّها لأمّها، لكن أمّها تجيبها بعكس ذلك، وهي تعني أنها تحبّ طفلتها كذلك، لكن على طفلتها أن تتوقّف على الفور! ولم يعد بوسع الأمّ الآن أن تدافع عن نفسها من هذه العاصفة الهوجاء من العواطف، لكنها شعرت بالإطراء. وفجأة انتابها إحساس بالتودد والألفة. إنها فرضية الحبّ التي نشعر أنها صادقة لأن شخصاً آخر يضعنا في صدر اهتماماته. تغرس إريكا أسنانها في الأمّ. تبدأ الأمّ تدفع إريكا بعيداً عنها. وكلما قبّلتها إريكا أكثر، ازدادت الأمّ دفعاً لها: لحماية نفسها أولاً، ولتبعد عنها الطفلة التي يبدو أنها فقدت السيطرة على نفسها، مع أنها معروفة برزانتها ثانياً. تصرخ الأمّ «توقّفي»، بنبرات مختلفة. ثم تطلب منها الأمّ بحزم أن تتوقف! لكن قبلات إريكا لا تزال تنهمر على الأمّ. تضرب إريكا الأمّ بإلحاح، ولكن برقّة، لأن ردّ فعل الأمّ لم يكن مستحسناً. إريكا تضرب الأمّ مداعبة. لكن الأم تأخذ الأمر على نحو خاطئ، فتهدّد وتصرخ. تتبادل الأمّ والطفلة الأدوار، لأن الأمّ هي التي تضرب عادة، ومن موقعها الفوقي، تحظى بمشهد شامل للطفلة. تشعر الأمّ أنها يجب أن تدافع عن نفسها ضد هجمات نسلها الهجين، فتأخذ تصفع بيدها بصورة عمياء.

تشدّ الابنة يدَي الأمّ إلى الأسفل وتأخذ تقبّل عنق الأم. إن هدف إريكا الخفي جنسي. عاشقة غريبة تفتقر إلى التجربة. كما تستخدم الأمّ، التي لم تتمتع كذلك بأيّ درجة عالية من التعليم في أمور الحبّ، الأسلوب الخاطئ: فهي تدوس كلّ شيء حولها، وهذا أقسى ما تعانيه في لحمها الشائخ، الذي لا يعامل إلا كلحم، لا كأمّ. أسنان إريكا تنغرز في لحم أمّها. تقبّل الأمّ وتقبّلها بوحشية. تقول الأمّ إن تصرف ابنتها مثير للقرف. لقد فقدت إريكا السيطرة على نفسها. لا فائدة - فلم تُقبّل الأمّ بهذه الطريقة منذ عشرات السنين، والقادم أعظم! لأن القبلات لا تتوقف، إلى أن تنهار الفتاة من الإعياء، وتكاد تستلقي على أمّها. الطفلة تبكي فوق وجه الأمّ، والأمّ تدفع الطفلة بعيداً عنها. تسألها إن كانت قد فقدت عقلها. وعندما لا تسمع جواباً ولا تتوقع جواباً، تأمر الأمّ إريكا بأن تنام في الحال، لأن الغد يوم آخر! وتذكّرها بواجباتها المهنية التي تنتظرها. الفتاة توافق. فقد حان وقت النوم. ومثل خلد أعمى، تلتصق الابنة بجسد الأمّ، لكن الأمّ تبعد عنها يدَي إريكا. وبنظرة خاطفة، تتمكن إريكا من رؤية شعر عانة أمّها المتناثرة، القابعة تحت بطنها السمينة. لم يكن المشهد عادياً. فقد كانت الأمّ شديدة الحرص دائماً على إخفاء هذه المنطقة بالقفل والمفتاح.

تغط المرأتان في نوم عميق، متلاصقتين. مع أنه مضى الهزيع الأكبر من الليل. وسرعان ما سيطلع النهار بضيائه غير السار، وزقزقة الطيور المزعجة.

* * *

أحس والتر كليمر بالصدمة من هذه المرأة، التي تجرأت على

القيام بأشياء يعد بها الآخرون فقط. وبعد فترة قصيرة وبعد بعض المداولات، بدأ يُعجب متردداً بالحدود التي كانت إريكا تدفع نفسها إليها في محاولة لتوسيع مجال متعتها. كان كليمر منبهراً بها. فقد يكون لدى امرأة أخرى ملعب يضم أرجوحة أو أرجوحتين - منطقة تكسوها خرسانة متصدّعة. أما هذه المرأة فلديها ملعب كرة قدم كامل مع ملاعب تنس ومضمار للجري - كلّ ذلك للمستخدم السعيد! إريكا تعرف حدودها منذ سنوات، لكن الأمّ كانت قد دقّت الأوتاد. غير أن إريكا لا تخشى اقتلاع هذه الأوتاد، كما يقول كليمر، لدقّ أوتاد جديدة. يشعر كليمر بالفخر لأنها اختارته من بين كلّ الرجال لتفعل معه ذلك. وتخطر له هذه الفكرة بعد إمعان شديد. فهو شاب ومستعد لتجريب أي شيء جديد. إنه يتمتع بالصحة، وهو مستعد للمرض. إنه منفتح لأيّ شيء ولكلّ شيء، لا يهم من أين يأتي. إذ يتمتع بأفق واسع وهو على استعداد لفتح باب آخر. إذ يمكنه أن ينحني من خارج النافذة، إلى درجة تكفي لأن يفقد توازنه.

سيقف على أطراف أصابعه! سيتحمّل المخاطرة متعمداً، وسيتمتّع بالمجازفة لأنه هو الذي من أقدم عليها. لقد كان دائماً صفحة فارغة تنتظر حبر طابعة مجهولة، لكن لا يوجد أحد سيقرأها أبداً. سيشار إليه بالبنان مدى الحياة! وبعدها لن يعود الشخص ذاته، بل سيصبح أكثر أهمية، وسيحصل على المزيد.

كما سيمارس القسوة على هذه المرأة إذا دعت الضرورة. هكذا يفكر. إذ سيقبل شروطها من دون هواجس وسيملي عليها شروطه: وحشيّة أكبر. إنه يعرف بدقة ما سيحدث بعد أن يتحاشاها بضعة أيام ليرى إن كان الحبّ سيفوز باختبار الإجهاد اللاإنساني للعقل. بدأت قوة عقله الفولاذية تخبو وتخفت، لكنه لم يتحطم تحت ثقل الوعود التي

قدمتها له هذه المرأة. ستكون طوع بنانه، وهو فخور بالتجارب التي سيجنيها منها. لماذا، فلعله سيقتلها!

ومع ذلك، يشعر هذا الطالب بالسعادة في إبقاء مسافة بينه وبينها عدة أيام. من الأفضل أن تتمنع في الحصول على شيء، من أن تعطي أحداً خنصرك. ينتظر يومين ليرى ماهية هذه المرأة، ومن سيكون حبيبها التالي. أرنب بري أو حجل ميت. أو مجرد حذاء قديم. ولإظهار استقلاليته، يتوقف عن أخذ الدروس فجأة. يأمل أن يحدو ذلك بالمرأة أن تنتظره دون خجل. عندها سيقول لها وينتظر حركتها التالية. ويفضّل الشابّ في هذه الأثناء أن ينكفئ على نفسه. الذئب لا يعرف صديقاً أفضل قبل أن يلتقي بالعنزة.

أما إريكا، فقد تعلّمت ماذا تفعل منذ سنوات. إذ أصبحت ترغب الآن في أن تتغيّر تماماً. معصرة شهوتها التي استخدمتها كثيراً تسحق رغباتها. نسغ أحمر يجري في عروقها. لا ترفع بصرها عن الباب، بانتظار الطالب. يأتي جميع الطلاب الآخرين، ما عدا كليمر. يُسجل غائباً بدون إذن رسمي.

لقد أدمن كليمر على التعلّم. فقد بدأ أشياء كثيرة، ولم ينه إلا القليل منها، بما فيها فنون الدفاع عن النفس اليابانية، اللغات، السفر، الرسم الزيتي. وكان مدمن التعلّم قد بدأ يحضر دروس الكلارينت ليتعلم بعض الأسس التي يمكنه أن يطبّقها على الساكسفون كي يتمكن من العزف ارتجالاً على الجاز. وأصبح يتفادى البيانو ومعلمته فقط. وكان كليمر ما إن يبدأ في تعلّم الأساسيات في عدد من المجالات، حتى ينسحب منها سريعاً. إنه يفتقر إلى المثابرة. أما الآن، فهو يرغب في أن يكون عاشقاً ذا إنجازات عظيمة - المرأة تتحدّاه عملياً بأن يفعل ذلك. إلا أنه من الناحية الثانية، يشتكي (عندما يتاح له الوقت) من أن

مشدّ التدريب على الموسيقى الكلاسيكية شديد الضيق عليه. إنه يحبّ أن يتمتّع برؤية مشهد لا تفسده أية حدود. يتصور مشهداً طبيعياً شاسعاً، يتوقّع وجود حقول لم يسبق له أن رآها، وبالطبع لم يسبق لأحد أن رآها قبله. يرفع أطراف القماش، ثم يدعها تسقط مذعوراً، ليعود ويرفعها ثانية: هل خدعته عيناه؟ فهو لا يكاد يصدقهما. وتواصل كوهوت محاولة منعه من رؤية تلك الحقول والمروج، لكنها لا تتوقف عن الإشارة إليها سراً. يشعر الطالب بأنه يُمتص بلا حدود. لكن المرأة لا تلين خلال الدروس.

يمكنك أن تسمع أدنى تفصيل، أدنى فكرة مهما صغرت، من بعيد. أما في الحياة الفعلية، فهي ترغب في أن تُرغم على الاستجداء. وعلى لوحة المفاتيح، تلفّه حول خنصرها بضماد مطاطي مخصص لتمارين الأصابع، تدريبات، مدرسة تشيرني للسرعة. ستكون بمثابة صفعة على وجهها عندما يطلقه الكلارينت من انقباضات مزج الألحان. كم من الممتع أن يتمكن ذات يوم من أن يرتجل على ساكس السوبرانو! كليمر يتدرب على الكلارينت. إنه يفتح آفاقاً موسيقية جديدة بعزم ويخطّط للعمل في فرقة الجاز للطلاب - إنه يعرف أعضاء الفرقة شخصياً، لكن ما إن يتفوق عليهم، حتى يشكل فرقته الخاصة به. سيؤلف موسيقاه الخاصة به، وفقاً لقواعده الخاصة. ولديه حالياً اسم للفرقة، لكنه سيبقيه طي الكتمان الآن. وستلائم هذه الخطط الموسيقية حافزه المميّز للحرية. فقد تسجّل في دروس الجاز. لإنه يريد أن يدرس تعديل النغمات وتحويرها. ففي البداية، يريد أن يعدّل النغمات، ثم يوفّق بينها. وسيخرج من التشكيل في الوقت المناسب كنبع لا ينضب، بعزف منفرد مدهش. لم يتمكن أحد من تصنيف قوّة إرادته بسهولة. لم توضع رغباته وقدراته بعد في الصندوق الذي يضم

النوطات. مرفقاه يجذّفان بفرح على جانبَي جسده، نَفَسُه يهبّ بفرح في الأنبوب، عقله صفحة بيضاء. تغمره السعادة. يتدرب على الترنيم وتغيير القصبات. يرى أمامه التقدّم الرائع بوضوح شديد، هذا ما تقوله معلّمة الكلارينت، والمعلّمة سعيدة لأن يكون لديها طالب مثله، الذي حصل على توصية رائعة من الأستاذة كوهوت، والذي تأمل معلّمة الكلارينت أن تسرقه منها، لكي تشمّس الطالب في أشعة حفلة المدرسة الموسيقية السنوية.

تقترب امرأة ترتدي زيّ سفر أنيقاً لا تُعرف على الفور من باب قاعة دروس الكلارينت وتنتظر. إنها تريد أن تأتي إلى هنا، ولهذا السبب فهي هنا. وكالعادة، ترتدي إريكا كوهوت ثياباً أنيقة لهذه المناسبة.

ألم يعدها كليمر بأن يصحبها إلى طبيعة نقية كالأقحوان، لكنه لا يعرف أين توجد مثل هذه الطبيعة؟ يخرج الطالب من الباب حاملاً علبة آلة موسيقية سوداء صغيرة. تعتريه الدهشة. يتلعثم ويتأتئ، تقترح عليه أن يتمشيا على طول النهر. الآن! زيّها يظهر بجلاء ما ترمي إليه. تقول إنها جاءت إلى هنا لنذهب لرؤية النهر والأشجار. هذه المرأة الشديدة التأنق تسبب انهياراً أرضياً هائلاً، قصف رعد، وركاماً تحدثه الثلوج لا يثير الشهية. الجهود المحددة الأهداف ستبرز في محطة جبلية تثير الغثيان. قشور موز ولبّ تفاح على الأرض، وقيء في الركن، وجميع الوثائق التي لم يعد لها قيمة، وقصاصات أوراق قذرة في كل ركن، وتذاكر قطار ممزقة لا تكنس أبداً ولا توضع في سلة القمامة.

كانت إريكا، كما لاحظ كليمر، ترتدي ثياباً جديدة. ثيابها تلاؤم المناسبة، والمناسبة تلائم ثيابها. وكالعادة، يبدو أن ثيابها أهم شيء بالنسبة لها. المرأة تحتاج إلى الزينة بشكل عام لتحسين صورتها، لكن

الغابة وحدها لم تزيّن أية امرأة أبداً. بل بالعكس، يجب على المرأة أن تزيّن الغابة بحضورها، وبهذه الطريقة، فهي تشبه حيواناً رآه صياد من خلال المنظار. لقد اشترت إريكا حذاء طويلاً متيناً للتريض به، ونقعته في الدهن كي لا يتعفن بسبب الرطوبة. وبهذا الحذاء الطويل، تستطيع أن تمشي أميالاً عديدة بسهولة، إذا أرادا. إنها ترتدي بلوزة رياضية ذات مربعات، وسترة صوفية سميكة، وبنطالاً قصيراً، وجورباً صوفياً أحمر يصل إلى الركبة. بل تحمل كذلك حقيبة صغيرة تحتوي على أطعمة شهية. لا يوجد لديها حبل، لذلك لن تشط كثيراً في سلوكها هذه المرة. وحتى إذا تجاوزت حدودها، فلن تستعمل شبكة أو حبلاً. ولن تحمل خطافاً على خصرها عندما تتحدّى البريّة عندما تتمرغ في الجسد، حيث يعتمد المرء كلية على نفسه وعلى رفيقه.

تزمع إريكا أن تسلم نفسها إلى الرجل الذي قرأت عنه في الحكايات. يجب ألا يأكل حتى التخمة، بل يجب أن يكون ضارياً ومفترساً لها على الدوام. هذه هي الصورة التي تتخيلها عندما تكون وحدها مع الأمّ. إنها غير مسرفة مع نفسها، تنفق على نفسها بتردّد وتقتير شديدين، وبعد أن تقلب الأمر على وجوهه، وتدرس حسناته وسيئاته. إنها تستغل كل ذرة من لحمها إلى أقصى درجة. ستأخذ القطع النقدية الصغيرة من جسدها الجديد وتضعها على منضدة كليمر، كي يظن أنها تنفق ضعف ما تنفقه حقاً. فبعد أن ألقت رسالتها أمامه بصفاقة، رجعت إلى الوراء بدلاً من أن تمضي قدماً، وهو شيء لم يكن من السهل عمله. إنها ملتصقة بحصالة جسدها، بذلك الورم المائل إلى اللون الأزرق الذي لا تني تحمله، الذي يكاد يتفجّر. فقد أنفقت الكثير من المال على ثياب التريض هذه من محل بيع الألبسة المخصصة للرحلات. إنها تشتري الألبسة المعروفة بجودتها، لكن الجمال أكثر

أهميّة بالنسبة لها. إن أفق رغباتها واسع. يتمعن كليمر في المرأة بصمت وهدوء - إنها مصدر قوة. تتنقل عيناه بتأن عبر الأزرار الفلاحية التقليدية وسلسلة الساعة الفضية الصغيرة (تقليدية أيضاً) مثل ملابس الصيادين، المرصّعة بأسنان الأيل، الممتدة حتى بطن إريكا. تقول إريكا متذمرة: كان قد وعدها بيوم رحلة، وقد جاءت من أجل ذلك. يسألها لماذا هنا بالضبط، الآن، اليوم؟ فتقول: ألا تذكر، لقد قلت اليوم؟ وبصمت، تمدّ قسائم وعوده الطائشة. من الواضح أنه وعد، واليوم هو اليوم. كان هو من اقترح اليوم. يجب ألا يخطر ببال الطالب أن المعلّمة تنسى شيئاً. يقول كليمر إن هذا المكان ليس المكان المناسب والزمن ليس الزمن المناسب. وعلى الفور تعرض إريكا أماكن أكثر بعداً، وأوقاتاً أفضل. وبعد فترة وجيزة، لن يتعين عليهما الالتفاف في طرق دائرية في الغابات وعبر البحيرات. أما اليوم فإن مشهد قمم الجبل ورؤوس الأشجار قد يزيد من شهوة الرجل.

يفكّر والتر كليمر في الأمر. يقرّر أنه ليس مضطراً لأن يذهب شأواً بعيداً كي يختبر شيئاً جديداً. وبسبب اهتماماته العلمية العميقة، يعرض - وسينتاب إريكا الدهشة - أن يفعلاها هنا! لماذا يذهبان بعيداً إلى الحقول؟ لكي يتمكن من الذهاب إلى نادي الجودو في الساعة الثالثة! لكن الحبّ لا يعني أبداً أن تقول إنك تمزح. فإذا كانت جادّة في ما تقول، فإن ذلك يلائمه. ويبدو حتى الآن محباً ودوداً، لكنه كما سيتبين، فقد يكون قاسياً أيضاً. كما هو مطلوب. وبدلاً من أن تجيب كما يليق بها، تسحب إريكا كوهوت الطالب إلى حجرة التنظيف، التي تعرف أنها لا توصد أبداً. دعيه يظهر قوته الفعلية. فالمرأة تبذل قوتها الدافعة. أريه ما لم يتعلمه في حياته. تنبعث من المنظفات روائح حادّة ونفّاذة، أدوات التنظيف مكدسة في الحجرة. وكبداية تتوسل إريكا بأن

يسامحها ويغفر لها، فهي لم تجرؤ على الكتابة إلى شاب من قبل. تستفيض في هذه الفكرة. تجثو أمام كليمر وتطبع قبلات بفظاظة على بطنه المشدودة. ركبتاها اللتان لم تركعا أبداً لفنّ الحبّ الأسمى، اكتسيتا بالغبار. حجرة التنظيف أكثر الغرف قذارة. النعال الجديدة تلمع في وسط الظلام. يلتحم كل من الطالب والمعلّمة بكوكب حبّه أو كوكب حبّها، كتل جليدية طافية، تشكّل قارات صلبة، يقاوم أحدهما الآخر ويبتعد. أحسّ كليمر بالحرج لشدة تواضعها، وتملّكه الخوف من الطلبات التي يشعر بأن له الحقّ في تنفيذها، وينفذّها بعنف لأنه يفتقر إلى الخبرة.

المهانة تصرخ بصوت أعلى من صوت أيّ شهوة غير مكبوحة. كليمر يجيب: أرجوك انهضي فوراً! يرى أنها ألقت بكبريائها عرض الحائط، وإذا دعا الأمر، سيوثق نفسه بالعجلة. لكن ما إن يشرعا في ذلك، فلن يعود بوسعهما أن يتحدا. أما مشاعر المعلّمة فهي مثل نسمة دافئة تهبّ عالياً. كليمر لا يريد، لكنه مرغم، مطلوب منه ذلك. يضم ركبتيه معاً - تلميذ مدرسة محرج. تطوف المرأة فوق فخذيه وتطلب منه الصبر والأناة، وأن يندفع إلى الأمام. يا له من وقت رائع نستطيع أن نتمتع به أشد المتعة. قطع من لحمها تتساقط على الأرض. تعبّر إريكا كوهوت عن حبّها، الذي لم يكن سوى طلبات مملة، عقود معقّدة، وضمانات مصاغة بعناية. أما كليمر فلا يقدم حبّاً. إنه لا يعرب عن إعجابه بهذه السرعة. يجب عليها ألا تستعجل الأمور. تصف له إريكا إلى أي مدى تريد أن تمضي في مختلف الظروف، لكن الشيء الوحيد الذي يفكّر فيه كليمر هو أن يقوم بجولة في المتنزه. يقول: ليس اليوم، الأسبوع القادم حيث سيكون لديّ وقت أطول. إلا أنه عندما تهبط طلباته على آذان صمّاء، يبدأ يداعب نفسه سراً، أما جسده

فكان لا يزال يفتقر إلى الحياة. توصله هذه المرأة إلى فضاء ماضٍ تطلب فيه آلته لكنها لا تجيب عن أسئلته. وبشكل هستيري، يشدّ، يطرق، يرتعش. أما هي فلم تلحظ شيئاً بعد. تندفع نحوه كانهيار جليدي من الحبّ. تنشج، تتراجع عن بعض الأشياء التي قالتها. تعد بأشياء أفضل. تشعر باسترخاء شديد. يشتغل كليمر ببرود في منطقته السفلى. يلوي القطعة التي يعمل عليها، يطرقها بأدوات حديدية. الشرر يتطاير. إنه يخشى من عوالم معلّمة البيانو الداخلية، التي لم تجر تهويتها منذ أمد بعيد. والتي تريد التهامه تماماً! ومنذ البداية، تتوقّع إريكا أن يظهر كلّ ما يملكه، لكنه لا يظهر لها الكثير. تقوم بحركات تتصور أنها تعبّر عن الحبّ، والتي رأت أخريات يفعلنها. تبعث إشارات تدل على الخرق والبلاهة، تختلط بإشارات الإخلاص والوفاء، ولقاء ذلك تتلقى إشارات العجز. بما أنه مرغم، فهو لا يستطيع. وعلى سبيل اختلاق عذر يقول: ليس أنا من يقوم بذلك! تذكّري فقط! تبدأ إريكا تشد سحابه إلى الأسفل. ترفع قميصه والحرارة تستعر فيها وتحتدم، وتتصرف بشبق كما يفعل العشاق. أما كليمر، فلا يحدث معه شيء يمكن أن يثبت شيئاً. بعد وهلة، تبدأ إريكا تنقر بنعليها بخيبة أمل، وتذرع الغرفة. تقدم له عالماً عاطفياً مؤثّثاً جيداً كبديل. تعزو ذلك إلى إحساسه بالتوتر أو بسبب الإثارة المفرطة، وتقول له إن السعادة تغمرها كبرهان على الحبّ. لم يستطع كليمر، لأنه أرغم على القيام بذلك. تنبثق الضرورات من هذه المرأة في موجات مغناطيسية. إنها الضرورة بحد ذاتها. تقرفص إريكا، ككتلة لحمية كبيرة تفتقر إلى الرقة، الهلام يطوى عظامه بشكل سيّئ. تقبّل بطن الطالب بشكل دائري. الشاب يئن، كما لو كان إصرارها يطلق شيئاً في داخله. يتأوه: لا يمكنكِ أن تناليني بهذه الطريقة. لن تتمكني مني. إلا أنه كان مستعداً

وراغباً من الناحية النظرية، ويمكنه أن يجرّب أي شيء جديد في الحبّ في أي وقت. وفي عجزه، يلقي إريكا أخيراً ويمسّد رقبتها برفق بطرف يده. رأسها يغوص مطيعاً إلى الأمام، وتنسى ما يحيط بها، ولا تعود تدرك ما يجري حولها. كلّ ما يمكنها أن تراه الأرض. المرأة تنسى نفسها في الحبّ لأنه لا يوجد سوى القليل منه الذي يمكن أن تتذكره. يستمع كليمر إلى العالم الخارجي ويجفل. يدفع عضوه في فم المرأة الذي يشبه قفازاً قديماً. القفاز كبير جداً. يعود قضيبه يتدلّى باسترخاء بعد أن كاد ينتصب. لا شيء يحدث، ولا شيء يحدث في كليمر، بينما أخذ جوهر المعلّمة يتضاءل بعض الشيء في البعد. يدفع كليمر قضيبه مهتاجاً في فمها، لكنه يعوزه الدليل الذي يريد إثباته. قضيبه المرخي يطوف في فمها: قطعة من الفلين عديمة الشعور، لكنه يطبق بيده على شعرها بقوة، بأمل أن ينتعظ قضيبه. وبنصف أذن ينصت كليمر إلى الأصوات المنبعثة من الممر خشية أن تدخل عاملة التنظيف بغتة. لكنه يحاول أن يركّز كلّ اهتمامه على قضيبه، لعل الحياة تدب فيه. تأخذ المعلمة تلعق أسفل بطنه: بقرة وعجلها الحديث الولادة. وتعده بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه أمامهما متسع من الوقت، وأنه لم يعد ثمة شك في حب أحدهما للآخر. لا تضطرب.. لا تخشى شيئاً! تنطلق منها وعود بكلمات مبهمة، تثير حنق الشاب. يسمع الأمر الباطني كنبرة متوسطة. فألا تأمره المعلمة دائماً، رئيسته، بأن يستخدم أصابعه على لوحة المفاتيح وقدميه على الدواسات في بعض المعزوفات؟ إذ إن معرفتها بالموسيقى تضعها في منزلة أعلى منه. تنحلّ تحته. تستصغر نفسها أمام قضيبه، الذي يبقى صغيراً. كليمر يدقّ ويطرق داخل إريكا، لكن جهوده كلها تذهب أدراج الرياح. يتحدث إليها وفمها مليء. تُطيّب المرأة خاطره وتُلمح إلى المستقبل. ستكون

هناك متع أخرى في المستقبل! لا يستطيع أن يرى عينيها. تتوقف عن إصدار الأوامر. أصبحت مجرد شعر ورأس وعنق - عميق الأغوار. عشيق آلي لا يستجيب حتى للركلات. وكان كل ما يريد أن يفعله الطالب هو أن يشحذ أداته في هذا الإنسان الآلي. ولم يعد لأداته علاقة بباقي جسده، في حين أن الحب يغمر تلك المرأة على الدوام. يعتري المرأة دافع قوي في أن تنفق كل حبها وتقول له: أبقِ الفراطة معك. تقول إريكا وكليمر بنغمة واحدة: إنه لا يعمل الآن، لكنه بالتأكيد سيعمل في المرة القادمة. أما بالنسبة لإريكا فإن أعظم دليل على الحب هو الفشل. كليمر يستشيط غضباً لعجزه، لذلك يمسك شعر المرأة بقوة، ويشدّه بشكل مؤلم، لكي لا تعود إلى أسلوبها الغث المعتاد. حسناً إنها هنا. فلينتهز الفرصة. يشدّ شعرها بقوة. وحسب الاتفاق، يصرخ كل منهما شيئاً معرباً عن حبه.

لكن نجم الطالب يبدأ في الأفول. المتاهة لا تنفتح أمامه مهما بذل من جهد. لا يظهر أثر واحد من المتعة في وسط الأشجار والغابات غير المشذّبة. المرأة تتشدق وتتحدث عن غابات مليئة بأكثر الإنجازات جنوناً، لكنها الأشياء التي تعرفها لا تتعدى التوت البري والفطر. لا تزال تدعي أنها تستحقّ الجائزة لأنها انتظرت طويلاً. يعمل الطالب بجهد ودأب شديدين. الجائزة تلوح أمامها. الجائزة هي حبّ إريكا التي يحصل عليها الطالب الآن. الدودة البيضاء الصغيرة تنثني وتنكمش على نحو سيئ. تتطلّع إلى متعتها المقبلة على أنها ضرب من النزهة.

أما إريكا فتنزلق إلى الدفء، ساقية خزي الجسد الدافئ، حمّام يغطس فيه المرء بحذر لأن الماء تعكّره بعض الأوساخ. الأشياء تفور، تغلي، تتدفق. مويجات العار البيضاء المزبدة القذرة، جرذان الفشل الميتة، قصاصات من الورق، نفايات خشبية من القبح، فراش قديم

مبقع بلطخ من السائل المنوي. الأشياء ترتفع وترتفع. إلى الأعلى والأعلى. تتسلّق المرأة الرجل وهي تقوقئ حتى تصل إلى تاج رأسه الخرساني الذي لا يهدأ. وينطق رأسه جملاً رتيبة عن أكثر الروائح الكريهة نفاذاً. ويقول الطالب إن السبب هو معلّمة البيانو.

تشعر إريكا بالفجوة بين العالم المنزلي وبين العدم. يدّعي الطالب أن رائحة كريهة تفوح من إريكا. وهو على استعداد لأن يقسم بذلك. وإريكا على استعداد لأن تذهب إلى حتفها. الطالب مستعد لمغادرة هذه الغرفة التي أثبت فيها فشله. وإريكا تبحث عن ألم ينتهي بها بالموت. يغلق كليمر باب بنطاله ويريد أن يخرج. أما إريكا فهي تريد بعينين منكسرتين أن تراه يضغط على حنجرتها. وستحتفظ عيناها بصورته حتى وهي تتفسخ. يكفّ عن القول إنها نتنة. فهي لم تعد موجودة بالنسبة له. إنه يريد أن يغادر. وتريد إريكا أن تشعر بيده القوية القاتلة تهوي عليها، ويا للعار تجثم على جسدها وسادة عملاقة.

يسيران في الممر، جنباً إلى جنب. ثمة فجوة تفصل بينهما. يؤكد كليمر بلطف أنه من الجيد حقاً أن رائحتها الكريهة السابقة لم تعد نفاذة في هذه الفضاءات المفتوحة. أما في تلك الحجرة الصغيرة، فكانت الرائحة الكريهة لا تطاق! يمكنها أن تصدقه. ويوصيها بكلّ ودّ أن تغادر المدينة.

بعد لحظات، تصادف المعلّمة والطالب المدير في الممر. يحيّيه كليمر بتواضع كما ينبغي لطالب. بينا تتبادل إريكا التحيات معه كما يفعل الزملاء، لأن رئيسها لا يهتمّ بسمو مركزه. كما أن المدير يحيّي السيد كليمر بمودة لأنه سيكون العازف المنفرد في الحفلة الموسيقية الحيوانية القادمة. ويتمنى له حظاً طيباً. تجيب إريكا إنها لم تقرّر بعد من سيكون العازف المنفرد. فهذا الطالب بدأ يهوي إلى الأسفل، وهذا

شيء مؤكد. ولم تزل لم تقرّر إن كان سيكون هو العازف المنفرد أم عازفاً آخر. إنها لا تعرف حتى الآن، لكنها ستعلن ذلك بعد فترة وجيزة. يظل كليمر واقفاً هناك لا ينبس بكلمة. ينصت إلى كلام معلّمته. يطقطق المدير بلسانه على الأخطاء الفظيعة التي تصفها إريكا كوهوت التي لا يتوقف كليمر عن تكرارها. وتذكر إريكا حقائق غير سارة عن الطالب. تقول ذلك بصوت مرتفع لكي لا يتهمها بأنها تتكلم من وراء ظهره. لقد كان كسولاً في التدريب، ولديها البرهان على ذلك. وهي مضطرة للقول إن أداءه بدأ يتراجع، ويبدو أن حماسته بدأت تخفت. ولا يمكن أن يكافأ على هذا التصرّف! يجيب المدير إنها تعرف الطالب أكثر مما يعرفه هو، والمدير يعرف، وإلى اللقاء. ويقول للطالب أتمنى أن يكون أداؤك أفضل.

يدخل المدير إلى مكتبه.

يعيد كليمر على مسامع إريكا بأنها نتنة، وأنها يجب أن تغادر المدينة في الحال، وقال إنه يستطيع أن يتكلم عن أشياء أخرى عنها، لكنه لا يريد أن يلوّث فمه. من المؤسف جداً أنها نتنة، ولا يتعين عليه أن يصبح نتناً مثلها أيضاً! وإنه سيذهب على الفور ليغسل فمه، ويمكنه في واقع الأمر أن يحسّ برائحتها الكريهة في تجويف فمه. يستطيع أن يحسّ برائحة معلّمته الكريهة المقززة في تجويف معدته. لعلها لا تستطيع أن تدرك كم أن الأبخرة التي تفوح من جسدها مقززة، ومن الجيد أنها لا تستطيع أن تتصور أن رائحة كريهة تفوح منها كالجحيم.

يذهب كلّ منهما في اتجاه مختلف دون أن يتفقا على أساس متبادل، حتى دون أن يتفقا على مقام نغمات أساسي متبادل ماعدا رائحة إريكا كوهوت الكريهة المقززة.

* * *

تعمل إريكا كوهوت بهمّة وحذر. فقد أرادت أن تخرج من جلدها، لكنها لم تستطع. تشعر بالألم في أجزاء مختلفة من جسدها. إنها مشوشة ومضطربة. وكانت قد شاهدت على التلفزيون ذات مرة أنه باستطاعة المرء أن يحصّن الباب بأشياء أخرى غير الخزانة. إذ أظهر فيلم بوليسي كيف يمكنك أن تضع مؤخرة كرسي تحت أكرة الباب. أما هي فلا يتعين عليها أن تبذل كلّ هذا الجهد، لأن الأمّ تكون نائمة، فقد أصبحت تغط في سبات عميق أكثر مما كانت تنام في معظم الأحيان في الأسابيع القليلة الماضية. وفيما كانت تستلقي هناك، كان الكحول يتبخر عبر مساماتها وزوائدها اللحمية.

تمدّ إريكا يدها إلى الصندوق الذي تضع فيه كنوزها وتعبث بمحتوياته الكثيرة. فهناك أكوامٌ من الثروات التي لم يتعرّف عليها والتر كليمر حتى الآن، لأنه حطّم علاقتهما قبل أوانها بتشدّقه وهياجه القبيحين. أما بالنسبة لها فكانت مجرد البداية! فقد وصلت أخيراً إلى نقطة ما، تراجعت بعدها وتقوقعت في صدفتها. تستخرج إريكا مشابك غسيل، وبعد تردّد، تخرج مجموعة كاملة من الدبابيس من وعاء بلاستيكي.

وبعينين دامعتين، تضع إريكا مشابك الغسيل البلاستيكية الملونة الجشعة على جسدها، في الأماكن التي يمكن أن تصل إليها بسهولة، والتي ستصبح في ما بعد سوداء وزرقاء. تقرض إريكا لحمها وتقطعه وهي تبكي. تُخرج سطح جسدها من توازنه. تجعل جلدها يخفق. تخز شحوم جسدها بالدبابيس والإبر. تنظر إلى نفسها بذعر وتبحث عن مناطق خالية. فإذا لمعت بقعة فارغة في سجل جسدها، فستقرصه على الفور مخالب مشابك الغسيل الجشعة. تنتصب الفجوات المتوترة. تندهش المرأة مما تفعله، الشيء الذي قد يؤدي إلى نتائج رهيبة. تصرخ

وتبكي. إنها وحيدة. تخز الإبر والدبابيس ذات الرؤوس البلاستيكية الزاهية الألوان، التي يقع معظمها ولا يثبت في مكانه. لكن إريكا لا تجرؤ على أن تخز نفسها تحت أظافرها، لأنه مؤلم للغاية. وسرعان ما تظهر بقع صغيرة من الدم على مرج جلدها. تواصل المرأة البكاء. إنها وحيدة. بعد قليل تتوقّف ثم تقف أمام المرآة. تتقطع صورتها في دماغها بكلمات من الازدراء والسخرية. إنها صورة ملوّنة. ستكون حقاً صورة مرحة لو لم تكن الأسباب كئيبة للغاية. إريكا وحدها تماماً. الأمّ تغط في سبات عميق بسبب الكحول. تبكي وتنوح وحيدة. تُقرّب هذه الأشياء إلى جسمها. دموعها تطفح من عينيها وهي وحيدة تماماً.

وبعد فترة طويلة، تزيل يد إريكا الإبر ومشابك الغسيل من جسدها وتعيدها إلى مكانها في حاوياتها. الألم ينحسر، الدموع تجف.

تعود إريكا كوهوت إلى أمّها لتنهي وحدتها.

* * *

حلّ المساء ثانية. عجّت الطرق الفرعية بالسيارات التي راحت تتسابق في طريق عودتها إلى البيت بشكل جنوني. خبأ والتر كليمر أيضاً خيطاً دبقاً من النشاط المحموم. ولم يكن قد خطط لأيّ شيء مثير وممتع، ومع ذلك يواصل التحرك. لم يكن يرغب في أن يتعب نفسه كثيراً، لكن الوقت يحفزه على التحرّك. استقل حافلة الترامواي، ثم استقل المترو في رحلة طويلة معقّدة، شعر بأنها ستنتهي في حديقة المدينة العامة. لكن كان لا يزال أمامه وقت كي يقرّر في أيّ اتجاه سيمضي، وأي طريق سيسلك. يمشي مفعماً بالحيوية والنشاط، محاولاً تأخير البداية. كان يبغي قتل الوقت. كان على استعداد للمضي قدماً، وهذا شيء أكيد. فقد قرر أن ينتقم لنفسه على نحو لا يصدق من

الحيوانات العزلاء في الحديقة العامة. إذ توجد في الحديقة طيور الفلامينغو، وبيوض ضفادع غريبة أخرى، مخلوقات لم يشاهدها أحد من قبل. كان يجب أن تُمزّق هذه المخلوقات إرباً. والتر كليمر يحبّ الحيوانات، لكن لا حاجة إلى الكثير منها. لقد أهانته المرأة، ولذلك جرح مشاعرها. واحدة بواحدة والبادئ أظلم، إلا أنه يجب أن يضحي بمخلوق حيّ. يجب أن يموت أحد تلك الحيوانات. كان كليمر قد كوّن فكرة جيدة عن عادات تلك المخلوقات الغريبة الجاهلة من الصحف، وقرر أن يحاول إيذائها وقتلها.

استقل الشابّ مصعداً يفضي إلى العراء. كان الهدوء والتوتر يخيمان على الحديقة، والفندق أمامها منير وصاخب. إن عدم وجود عشاق في الحديقة لم يثبط من همة السيد كليمر، لأنه لم يأت إلى هنا ليتفرج، بل جاء ليقوم بعمل وحشي دون أن يراه أحد. تتحول دوافعه التي لم تُستغل بعد إلى شعور بالحقد، وكلّ ذلك بسبب تلك المرأة. يتجوّل كليمر، ويبحث عن طير، لكنه لا يجد ضالته. يمشي في الأماكن التي يمنع السير فيها، يسير على العشب، يشقّ طريقه في الغابات الغريبة لا يلوي على شيء. يتعمد أن يدوس أحواض الزهور المزروعة بعناية. كعبا حذائه يلويان ويفتلان بشائر الربيع. لقد عرض شيئاً على تلك المرأة البغيضة، لكنها لم تقبل عرضه، وعليه الآن أن يتعايش مع الشحنة التي لم يفرغها. ومع أن الحمل لم يكن ثقيلاً إلى هذه الدرجة، فإن العواقب ستكون مدمرة بالنسبة لحياة الحيوان. لم تتمكن دوافع كليمر من فتح ثقب في صدفتها. لقد حفرت تلك المرأة المتأنقة بضعة ردود موسيقية في عقله. سحبت أفضل ما فيه، ثم اقتلعتها ورمتها بعيداً! يعفس والتر كليمر زهور الثالوث تحت قدميه، لأنه أُحبط في محاولته التودد إلى تلك المرأة. لم يكن ذنبه أنه فشل.

وإذا واصلت إريكا مضيها في هذا الطريق، فإنها ستعاني أكثر بكثير مما كانت تحلم به. تخز كليمر أشواك عملاقة من إحدى الشجيرات. فروع مطاطية تثب في وجهه عندما يخترقها بقسوة لأنه اشتم رائحة الماء وراءها. إنه فريسة جريحة. الصياد الذي خرق جميع قواعد الروح الرياضية، تركها تذهب بعد جرحها. لم يتمكن الصيّاد الهاوي من إصابة فريسته في القلب. لذلك أصبح كليمر خطراً محتملاً على كلّ إنسان، نعم على كلّ إنسان!

عاشق قزم ينفث سماً، يتجوّل في هذا المشهد الليلي من الاسترخاء النهاري. يريد أن يصبّ جام غضبه على الحيوانات البريئة. يبحث عن حجارة يرميها بها، لكنه لا يعثر على شيء. يلتقط غصناً قصيراً كان قد سقط من إحدى الأشجار، لكن العالم لطيف ورقيق. كان قد عرض حبّه على المرأة، لكنها طلبت منه أن يقوم بأعمال متوحشة، لذلك يجب عليه أن يتمسكن حتى يتمكن، آملاً أن يعثر على سلاح أفضل من الخشب المتعفّن. وبما أنه لم يتمكن من السيطرة على محبوبته، يجب عليه الآن أن ينحني ليجمع أعواداً بلا كلل. هذا العود صغير جداً. طائر الفلامينغو سيسخر منه. إنه ليس هراوة، بل مجرد فرع صغير جاف. لا يستطيع كليمر، الذي لا خبرة له والذي يريد أن يجرّب شيئاً جديداً، أن يتصور إلى أين يمكن أن تذهب الطيور في الليل لتهرب من معذّبيها. ربما كانت لها حجراتها التي تأوي إليها! لا يكترث كليمر إن كان قد بزّه بعض المخرّبين الذين قتلوا العديد من الطيور. يشتمّ الآن رائحة الماء بقوة أكبر - عنصره المألوف. فهناك، حسب الدلائل، توجد الفريسة الوردية التي تتباطأ في مشيتها. أشياء مختلفة تصدر حفيفاً بسبب الريح. وبما أنه وصل إلى هذا الحد، فإن كليمر سيتدبر أمره ببجعة، مخلوق يمكن استبداله بسهولة أكبر. هذه

الفكرة تجعل كليمر يقتنع بمدى حاجته إلى التنفيس عن شدة غضبه وهياجه. فإذا كانت الطيور تسترخي بخمول في الماء، فإنه سيجذبها إليه. وإذا كانت تقبع على الضفة فلن يضطر لأن يبلل نفسه.

وبدلاً من سماع أصوات الطيور، لم تكن تُسمع سوى أصوات سيارات بعيدة. همهمة في سيل لا يتوقف. حتى هذا الوقت المتأخر؟ ضوضاء المدينة تلاحق الناس حتى هذا المكان، الذي يريدون أن يسترخوا ويستريحوا فيه، وتصل هذه الأماكن الحضرية الخضراء، رئتي فينا. أما كليمر، القابع في المنطقة الرمادية من غضبه الهائل، فقد كان يبحث عن شخص لا يعارضه بكلمة أخرى، شخص لا يفهمه. فقد يهرب الطير، لكنه لن يردّ على ما يقوله. يخلّف كليمر أثره الليلي فوق العشب. يشعر بالانسجام والوئام مع المتصيّدين الليليين الذين يجوبون المكان أيضاً. ينتاب كليمر شعور بأنه أرقى من الناس الليليين الآخرين، الذين يتسكعون، ويمسك أحدهم بيد إحدى السيدات. يشعر بأنه أرفع منهم مكانة لأن غضبه أحرّ من نار الحبّ. لقد هرب الشابّ مجتازاً كلّ هذه المسافة هرباً من النساء. تنبعث الصرخات من مصدر صغير من الضوضاء، تخلو من أية نغمة كالأصوات التي تصدر عن منقار طير أو عازف مبتدئ على آلة موسيقية. ها هو الطير! قريباً، سيُبلّغ عن ارتكاب عمل تخريبي، وقد يأخذ كليمر الصحيفة مباشرة من المطبعة ويريها لمحبوبته التي وضعت العراقيل أمامه: إنه سيحطّم الحياة. ويمكنه بعد ذلك أن يحطّم حياة محبوبته بالطريقة ذاتها. يمكنه أن يقطع خيوط الحياة. لقد أضاءت الآنسة كوهوت مشاعره. لقد أمطرها بحبّه لشهور طويلة - لكنها لم تكن تستحق ذلك! لقد صبّ حبّه وصبابته عليها من بوق السعادة الخارج من قلبه، لكنها أعادت ذلك المطر الجميل إلى بوقه، وسينبذها الآن في عملية إبادة شنيعة.

وطوال هذا الوقت، الوقت الذي يمضيه كليمر في تعقب طير محدد، تكون المرأة التي هجعت مبكراً جداً من هذا اليوم، تغط في سبات عميق في بيتها. ولا شك أنها تشقّ الآن طريقها في النوم فيما يشقّ كليمر طريقه عبر المروج الليلية في المدينة. كليمر يبحث لكنه لا يجد. يتبع نداءً مختلفاً، لكنه لا يستطيع أن يحدد موقع المتصل. يخامره الشك من المضي قدماً. لا يريد أن تصرعه عصا خشبية. لقد أخذت الآن حافلات الترامواي، التي أوصلته ووجهته منذ فترة وجيزة إلى حافة الحديقة العامة، اسماً مختلفاً: إنه يعيش حياةً خفية، لا يمكن سماعها. لا يستطيع كليمر أن يوجّه نفسه، لا يعرف إلى أين يذهب. لعله اتجه إلى مجاهل الغابات، حيث إما أن تأكل أو تؤكل. وبدلاً من أن يجد طعامه، يصبح كليمر نفسه فريسة! يبحث كليمر عن طائر الفلامينغو. ها هنا شخص يحمل حقيبة لعله يبحث عن عصفور مغرد. يندفع الرجل عبر الأحراج، ثم ينطلق نحو المروج المنبسطة. ينظر ذات اليمين وذات اليسار، ينتظر شيئاً تافهاً فقط، يتسكع مثله، ويسخر من ذلك سلفاً. إنه يعرف أن الشخص الذي يهيم على وجهه لا يفكّر في شيء إلا في الطعام وأسرته، أو في أشكال النباتات والحيوانات المحيطة في الخارج، التي تجعله يشعر بقلق شديد. خاصة بعد أن أخذت المحميات الطبيعية، التي لا يمكن الاستغناء عنها، تتناقص يوماً بعد يوم بسبب التلوث. سيوضح المتسكع سبب موت الطبيعة، وسيتأكد كليمر من أنّ جزءاً ضئيلاً من الطبيعة سيكون مثالاً جيداً في البداية. هذا هو تهديده في الظلام. تتعلّق إحدى يدَي كليمر بحقيبته، ويمسك هراوة بيده الأخرى. يستطيع أن يفهم لماذا ينتاب المتسكع القلق.

ومهما ابتعد، فلن يرى طيراً واحداً. لكنه في النهاية وعلى حين غرة، وعلى حافة الأمل المهجور، يظهر شيء: رجل وامرأة في مرحلة

متقدّمة من الشبق يشبك أحدهما يده بيد الآخر. لا يمكن تحديد المرحلة الدقيقة. ويكاد والتر كليمر أن يطأ الشاب والفتاة اللذين يشكّلان هجيناً، شكلاً يتغير باستمرار. يدوس بقدمه بشكل أخرق قطعة من الثياب، وتكاد قدمه الأخرى تتعثّر فوق لحم عاصف يملأ لحماً آخر في عملية استهلاك محمومة. وتخيم فوقهما شجرة ضخمة تئن، تنضوي تحت رعاية برنامج حماية البيئة، ولهذا فهي ليست معرضة للخطر. وتحت وطأة رغبته المحمومة للعثور على طير، لا يعرف كليمر إلى أين سيتجه. يُفرغ حقده على هذا اللحم، الذي يتفتّح فجأة على جانب الطريق، ساحقاً أزهاراً أخرى بوقاحة - خذي هذا! - في حوض زهور عام. من الممكن إلقاء الأزهار المسحوقة. لا يجد كليمر إلا عوداً رفيعاً ليؤدي به دوراً نشيطاً في الصراع الجسدي. وسنرى الآن إن كان هو الضارب أم المضروب. هنا، يمكن للشاب أن يُقحم نفسه في مبارزة الحبّ العالمية كطرف ثالث يثير الضحك. يتفوه كليمر ببعض الكلمات القذرة بصوت عالٍ. يصرخ من أعماق أعماقه. وقد شجعه على ذلك عدم استجابة الفتاة والشاب. أداة تتأرجح. وبسرعة يتوقف أحدهما فجأة ويهدم أشياء. أعيد النظام أمام كليمر. الشاب والفتاة يعملان بصمت وهدوء على نفسيهما وبهارجهما الخارجية. لقد خرجت بضعة أشياء من مكانها، لكن سرعان ما سيعود كلّ شيء إلى مكانه الصحيح. يهمي رذاذ خفيف. تُستعاد الظروف الأصلية. يوضّح كليمر نتائج بعض أنماط السلوك على نحو غير مقبول. يضرب العود بإيقاع على فخذه الأيمن. يشعر بأنه أصبح أكثر قوّة، لأن أحداً لم يعترضه.

خوف الشاب والفتاة الحيواني يثقل على كليمر، وهو أفضل من الخوف المنبعث من حيوان حقيقي. يستطيع أن يشتمّ استغاثة. إنهما ينتظرانه. ولهذا السبب تجذبهما الحديقة العامة في الليل. الفضاء

المفتوح يمتدّ شاسعاً. يشعر الرجل والمرأة بأنهما في بيتهما في هذا المجال المفتوح بعدم الردّ على صرخات كليمر السريعة والعنيفة. يتحدث كليمر عن «الخنازير» و«العاهرات». يواجه الحياة والشهوة فيما يستمع إلى موسيقى يبدو أن الدهر أكل عليها وشرب. موسيقياً، كان يعرف ما يتحدث عنه. لكنه يرى هنا ما كان يرفض دائماً أن يتحدّث عنه: وهو ابتذال الجسد. يظل الرجل والمرأة العاشقان قابعين تحت ظلّ الشجرة. من الواضح أنهما مستسلمان بتواضع لأي شيء قد يصيبهما: شجب أو ضربة سريعة. المطر ينهمر بغزارة. الضربة لا تقع. تتركّز أحاسيسهما على الملاذ والحماية: هل أوشكت على السقوط؟ يتردّد المهاجم. ويأمل الرجل والمرأة، دون أن يريا، أن يلجآ إلى غطاء يسترهما. يريدان أن ينهضا ويبتعدا بسرعة! كلاهما في عنفوان الشباب. يرى كليمر مراهقين يتمرّغان كالخنازير. يريد أن يلوّح بالعود الذي يحمله ويقذفه على ذلك الشيء الغريب. لكنه لا يزال يقرع بسلاحه على فخذه. لا يريد أن يخرج من هذه الليلة من دون فريسة. بوقوفه هنا وتحدثه مع الخوف، يحقّق كليمر شيئاً قد يدفعه إلى الذهاب إلى إريكا، النائمة الآن. يمكنه أن يجلب لها أيضاً نفحة من الهواء النقي من السهول البعيدة، التي تحتاج إليها.

يتأرجح كليمر بحرية في الفضاء: مفصلة باب زُيتت حديثاً. فإذا تأرجح إلى الأمام، فقد يتوقع العاشقان الألم. وإذا تأرجح إلى الخلف، يمكنه أن يفتح منفذاً للنجاة. الطفلان يجفلان ويبتعدان حتى يصطدم ظهراهما بشيء صلب، يحول دون هربهما. تكتنف روحاهما رغبة جامحة، لكن لحمهما لن يجد الطريق ما لم يهرعا إلى الجانب. وبغتة يروق الوضع لكليمر. خصمان في مواجهته. سهلا الانقياد، وجبانان أيضاً لا يرغبان في القتال. هل سينتهز كليمر الفرصة أو يدعها

تفلت من يده؟ إنه سيد الموقف الآن. يمكنه أن يبدي تعاطفاً أو يتصرف كالمنتقم لقيام شبان مفسدين بتعكير صفو الحديقة العامة. ويمكنه كذلك أن يبلغ السلطات. عليه أن يقرّر بسرعة، لأن عدم وجود أناس في المنطقة قد يغريهما بالهرب. ولن تكون صيحة «أوقف حرامي!» من كليمر مجدية، بل سيقف في وسط هذا المكان الطبيعي الجميل من دون جدوى، وستقهقر أرض غضبه، وستبتعد ضحيتاه. يلاحظ الشاب والشابة شيئاً من القلق في صوت الرجل. ربما كشفه بسرعة تردد كليمر، دون أن يدرك ذلك بنفسه. لكنها إشارة للطفلين! يبدو أنه غيّر رأيه من دون سبب. ينتهزان الفرصة. بما أنه ليس في الماء، يتساءل كليمر : ماذا يجب أن أفعل؟ يدور الطفلان حول جذع الشجرة وينطلقان بعيداً. لقد هربا بسبب وجود كليمر الهائل. يُسمع صوت نعالهما تلامس بخفوت أرض المرج. يلتمع شيء ممدد على الأرض. لقد نسيا سترة، أو معطفاً قصيراً؟ معطف طفل؟ كليمر لا يجري وراءهما. إنه يفضّل أن يطأ السترة. لا يبحث عن محفظة في جيوبها. لا يبحث عن بطاقة هوية. لا يبحث عن أشياء ثمينة. يدوس السترة بقدميه، ويشعر بالراحة: فيل مقيّد، لا يسمح له القيد الحديدي في ساقه بالتحرك سوى بضعة سنتيمترات، ولكنه رغم ذلك يعرف كيف يستغل ذلك استغلالاً تاماً. يطأ السترة بعنف. لكن ذلك زاد من حدّة غضبه، وأصبح الآن المرج بكامله عدوه اللدود. بعناد وبقلق داخلي، يدوس والتر كليمر الوسادة الناعمة بقدميه، بإيقاعه الغريب. يدوس السترة حتى يقطعها إرباً ببطء، حتى يبدأ يناله التعب.

بعد أن غادر الحديقة، أخذ والتر كليمر يسير على غير هدى في الشوارع، وبتكاسل. إن عدم وجود جهة محددة وطاقته الحيوية يجعلانه يسير بخفة بينما يغط الآخرون في النوم. منطاد من العنف

ينتفخ في أحشائه. لكن المنطاد لا يصطدم بأيّ جدار في جسده. تنتاب كليمر الحيرة، لكن الطريق الذي يسير فيه يشير إلى أنه يسير في اتجاه معيّن، نحو امرأة معيّنة. أمور عديدة تجعل كليمر يشعر بالعداء، لكنه لا يجد خصماً أمامه، إن هدفه ثمين للغاية: سيدة موهوبة خاصة جداً. يتردّد بين امرأتين أو ثلاث نساء، ثم يختار هذه. لن يضحّي بها من أجل معركة. لذلك يتحاشى العنف، مع أنه كان يراوغ إذا ما واجه الأمر مباشرة.

يهبط في مصعد إلى شارع ضيق يكاد يكون فارغاً. يشتري قطعة من الثلج تكاد تكون سائلة من عربة صغيرة. يقدم له البائع المتنكّر بقبعة قطعة الثلج بطريقة تخلو من الحبّ وبإهمال واضح. لا يدرك الرجل كيف أن سلوكه هذا قد يثير الشجار. ويستدل من قبعته أنه بحار أو طباخ أو كلاهما. يعلو وجهه إعياء أبدي. يمتص كليمر الثلج من الكأس بفمه القمعي بجرعتين سريعتين. يأتي قليل من الناس، ويغادر القليل منهم. لا يزال عدد قليل منهم جالسين في الحانة الزجاجية التي تقدم طعاماً جاهزاً. كان الثلج فاتراً وعديم الطعم. يعشش الإصرار في هدوء كليمر. جوهره يزداد صلابة شيئاً فشيئاً. تتشكل لديه رغبة في الهجوم. كلّ ما تهمه الآن النقطة الأخيرة من رحلته، وإذا كان له قول في المسألة، فسيصل إلى بغيته بعد قليل. ليس دون أن يبدأ معركة جيدة، لكنه لن يحارب. بل يغذّ كليمر السير في الشوارع قاصداً امرأة معينة. لعلها تنتظره. لا بد أنها تنتظره. أما الآن، فلم يعد متحفظاً في رغباته، متشدداً في طلباته. سيعود إليها. لديه شيء يريد أن يقوله لها، شيء جديد تماماً بالنسبة لها، ولديه الكثير ليقوله لها. لا ينشد كليمر إلا هذه المرأة، سيعود إليها بآراء ومفاهيم جديدة عن هدفهما المشترك. يبحث كليمر عن عين إعصاره العقلي، حيث يفترض وجود

فترة هدوء مطلقة. يتساءل بسرعة إن كان يجب عليه أن يتوقف في أحد المقاهي. يقول لنفسه أريد أن أمضي بضع دقائق مع الناس الحقيقيين. ليست هذه رغبة صغيرة لدى رجل يودّ أن يكون إنساناً أولاً وأخيراً، لكنه يكبح هذه الرغبة باستمرار. إنه لا يبحث عن مقهى. الخرق القذرة تخلّف آثاراً دبقة على الطاولات الألمنيوم، حيث تقبع في واجهات العرض أنواع الكاتو المتعددة الألوان ومختلف أنواع المعجنات، التي تعلوها القشطة المخفوقة. قطرات راكدة، بقع دهنية تعلو الألواح الخشبية لأكشاك بيع المقانق. لم تهبّ ريح الصباح بعد. سيشتمّ الرائحة مثل أيل جريح. يُكثّف الإيقاع. سيارة أجرة واحدة فقط تقف أمام موقف سيارات الأجرة، إلا أن أحداً يوقفها على الفور.

يصل كليمر إلى البناية التي تقطن فيها إريكا. يا لمتعة الوصول. من كان يخطر له ذلك! فالغضب يعتمل في نفس كليمر. لا يبذل الرجل أية محاولة ليعلن عن قدومه بقذف قطع من الحجارة، كما يفعل الفتية عندما يرمون الحجارة على نوافذ الفتيات. فقد كبر الطالب كليمر بين ليلة وضحاها. لم يكن يدرك السرعة التي تنضج فيها الفاكهة. لا يفعل شيئاً حتى يُسمح له بالدخول. ينظر إلى النوافذ المظلمة المختلفة، وبصمت يتمكن من معرفة الاتجاه الذي تقع فيه نافذتها. ينظر إلى نافذة معتمة معينة. لم يكن واثقاً إن كانت تلك نافذتها أم لا. ينتابه شعور بأن النافذة تعود جزئياً إلى إريكا وجزئياً إلى أمّها. يفترض أنها غرفة نوم الزوجية. للزوج والزوجة: إريكا والأمّ. يقطع كليمر بمحبة الخيط المشدود الممتد إلى إريكا ويربطه بشيء جديد، تؤدي فيه إريكا دوراً بارزاً، دور الوسيلة لبلوغ الغاية. وسيعمل كليمر في المستقبل على الموازنة بين الجد واللعب.

ففي وقت قريب سينهي دراسته، وعندها سيتاح له وقت أكبر

لممارسة هوايته الرطبة. إنه لن يرغب في أن يحصل على أيّ اهتمام من هذه المرأة. ولن يرغب في شيء لم يصل إلى درجة الكمال. فإما سيرعاها وإلا فلا، حسب ما سيراه مناسباً. يسيل خطّ من العرق على صدغه الأيمن، يسيل بسرعة. نَفَسُه يصدر صفيراً. فقد جرى أميالاً عديدة في هذا الطقس الدافئ. يمارس تمرين التنفّس الذي يمارسه الرياضيون. يلاحظ كليمر أنه يتحاشى التفكير، لكي يتجنّب التفكير في المستحيل. كلّ شيء يجري في عقله سريعاً وعابراً. الانطباعات تتفاوت. النهاية واضحة، وقد حدد السبيل.

يدلف كليمر إلى مدخل البناية، ويفك سحّاب بنطاله الجينز. يلجأ إلى الكهف الأمومي، يفكّر في الآنسة إريكا ويستمني. عيون المراقبين لا تراه. إنه يعي جسده برقة. إنه يمتلك إيقاع الشباب. يميل برأسه إلى الوراء، ويستمني كليمر متجهاً نحو نافذة مظلمة، لا يعرف إن كانت نافذتها أم لا. لا يشعر بالإثارة. تمتد النافذة، غير المضاءة، فوقه كمشهد طبيعي. إنه لا ينوي إنهاء ما يقوم به. إنه لا يريد أن يستعيد شيئاً ولا أن يدمر شيئاً. لا يشعر بالرغبة في الصعود إلى تلك المرأة، إلا أنه إذا فتح أحدهم الباب الأمامي، فسيهرع إليها مباشرة. لا تستطيع الخيول البرية أن توقفه! يدلك كليمر نفسه خلسة إلى حد أن أيّ شخص قد يراه، سيفتح الباب دون أن يرتاب به. يمكنه أن يقف هنا إلى الأبد، نشيط كعهده، ويمكنه أيضاً أن يحاول الدخول فوراً. الأمر كله بيده. سينتظر كليمر دون أن ينتظر قادماً متأخراً ليفتح له الباب، حتى لو ظل ينتظر طوال الليل. بل حتى لو تعين عليه أن ينتظر حتى الصباح، عندما يخرج أول شخص من البناية - يعيد كليمر قضيبه المنتعظ إلى مكانه وينتظر الباب حتى يفتح..

* * *

يقف والتر كليمر عند مدخل البناية، يتساءل إلى أي مدى سيمضي. تنتابه الآن رغبتان جامحتان وهما الجوع والعطش، كلاهما معاً. يستسلم لرغبته للمرأة بمداعبة نفسه. إنه يستمتع جسدياً، ويجب أن تستمتع هي جسدياً كذلك. فما معنى أن تلعب معه ألعاباً، ألعاباً بلا هدف. غلافها الجسدي الناعم يجب أن يرحب به! سيسحبها من سريرها الدافئ من جانب أمّها.

لا أحد يأتي. لا أحد يفتح الباب ويشرعه واسعاً. في هذا العالم المتغير الذي هبط فيه الليل، لا يعرف كليمر إلا العامل الثابت من مشاعره. وفي النهاية، يتوجه إلى كشك الهاتف. وما عدا بعض الهياج، يبقى في حالة هدوء وتهذيب عند مدخل البناية، بانتظار القادم إلى البيت في وقت متأخر. أما بالنسبة إلى العالم الخارجي، فقد قدّم عن نفسه صورة هادئة لا تعرف الغضب. أما في داخله، فكانت أحاسيسه تفور وتغلي. يجب ألا يراه الداخلون إلى البناية وهو في هذه الحالة، يجب ألا يرتابوا في أمره. الإثارة تعتمل في داخله. فبعد قليل ستترجل المرأة من فوق حصان الفن الشامخ، وتشاركه في نهر الحياة. ستصبح جزءاً من الضجيج والعجيج والعار. الفنّ ليس حصان طروادة، يقول كليمر بصوت يخلو من أية نبرة للمرأة القابعة في الطابق العلوي، التي لا تبحث عن السعادة إلا في الفنّ. هناك كشك للهاتف ليس بعيداً من هنا. يتوجه إليه على الفور. يلعن كليمر العابثين الذين مزّقوا دليل الهاتف واقتلعوه من مكانه. إذ يمكن أن تُهدر حياة الآن لأنك قد تكون بحاجة إلى رقم لا يمكنك أن تعثر عليه.

تنام إريكا كوهوت نوماً متقطعاً إلى جانب الأمّ، التي رغم أنها تظلمها في معاملتها في معظم الأحيان، فإنها تغط في سبات عميق. لكن إريكا كوهوت لا تستحقّ أن تنام هكذا، لأن ثمة شخصاً يحوم في

الأسفل بسببها. وبطموح جنسها المعهود تتمنّى، حتى في أحلامها، أن تكون النهاية سعيدة والمتعة مطلقة. تحلم برجل يفاجئها عنوة. أرجوك افعل كذا. فاليوم لم تكن ترغب في مشاهدة التلفزيون. ومع ذلك، كان بإمكانها أن ترى اليوم، من بين جميع الأيام، برنامجها الأثير لديها: تتهادى في الشوارع الأجنبية، التي تتصور نفسها فيها، بخير وسلام. مشاهد طبيعية أمريكية في معظمها، لا نهاية لها، لأن أمريكا لا تعرف حدوداً من الناحية العملية. وكم تشتهي الاهتمام والعطف المبالغ بهما، اللذين تحظى بهما الشخصيات التي تظهر في التلفزيون. وتفكّر إريكا بقلق في إمكانية أن تذهب في رحلة مع ذلك الرجل. لكن ماذا سيحلّ بالأمّ؟ إذ لا يمكن لأي شخص أن يخرج في الوقت المناسب. ويستجيب جسدها تلقائياً فينضح بالرطوبة، التي لا يمكنها أن تتحكم بها دائماً بإرادتها. تواصل الأمّ نومها، غافية بهدوء. يرنّ جرس الهاتف. من يمكن أن يكون في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ تجفل إريكا. إنها تعرف على الفور من يمكن أن يكون في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. يأتيها صوت داخلي. هذا الصوت يدعى ظلماً الحبّ. المرأة سعيدة بنصرها، وتأمل في أن تجرع كأس الحبّ. ستضعه بجانب مزهريتها، وتقدم له مكان الصدارة في شقتها الجديدة. لقد تحررت تماماً. تتلمّس طريقها إلى الهاتف عبر الغرفة المظلمة والممر. الهاتف يصرخ ويعوي. الحبّ هو السبب الوحيد الذي يجعلها تتخلى عن شروطها. تريد أن تتخلى عنها. يا للفرج. المحبة المتبادلة شيء استثنائي. ففي العادة، هناك شخص واحد فقط يحبّ، بينما الآخر يجري وراءه بأسرع ما يمكن أن تقوده قدماه. الحبّ يحتاج إلى شخصين، أحدهما يخابر الآخر. أليس هذا عظيماً! يا له من شيء رائع.

تركت المعلّمة فراغاً مجوفاً دافئاً في السرير، يبدأ يبرد ببطء. كما تركت أمّها التي لم تستيقظ بعد. يا لها من طفلة جاحدة، تلك التي تنسى رفيقة دربها المجرّبة والحقيقية منذ سنوات طويلة! الرجل على الهاتف يطلب منها أن تفتح له الباب الأمامي على الفور. تمسك إريكا السماعة بقوة. لم تكن تتوقّع وجوده في الجوار. في الواقع كانت تتوقّع منه أعذب الكلمات، التصريح عن الرغبات الليلية والاقتراب التام في وقت قريب جداً، ربما في الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد، في أحد المقاهي الصغيرة. تتوقّع إريكا خطة دقيقة من الرجل لبناء عشّ لهما. سيتحدثان عنها غداً وفي الأيام القليلة المقبلة! سيناقشان إن كانت علاقتهما ستظل سعيدة إلى الأبد، ثم سيقيمان العلاقة. الرجل يتمتّع وينتظر مكرهاً. كلّ شيء في المرأة يتأثر على نحو فظيع ينذر بالشر. تلك هي الحقيقة غير المقبولة: المرأة ومشاعرها. تقيم هذه المرأة على الفور بنى معقدة، تشبه عشّ الدبابير، لكي تشعر بالألفة والهدوء في سريرتها. وينتاب والتر كليمر الشعور عموماً بأنها ما إن تشرع في البناء، فلن يتمكن من التخلّص منها. يقف أمام الباب مرة أخرى، منتظراً أن يُفتح له، وهذا لمصلحة إريكا. إما الآن أو لا! تزن إريكا بدقة كلّ شيء حتى أدق التفاصيل، ثم تأتي بالمفاتيح. لا تزال الأمّ تغط في النوم. وفي نومها، لا يشغل بالها شيء، لأن لديها بيتها وابنتها في داخله. تجد أن الخطط غير ضرورية. الابنة تتوقّع مكافأة على انتظارها طوال هذه السنوات وانضباطها. إنها تستحق ذلك الآن. قليلات جداً هن النساء اللاتي ينتظرن الرجل المناسب. معظم النساء يأخذن أول وأسوأ رجل يصادفنه. أما إريكا فتختار آخر رجل يأتي إليها، وهو حقاً أفضل شيء. لا شيء يعلو عليه! تقول المرأة في نفسها - كما لو كانت قد أرغمت على ذلك - من حيث الأعداد والمتكافئات. تتصور أنها

تحصل الآن على مكافئة لإخلاصها في الخدمة في عالم الفنّ. وإذا كان بإمكان إرادة الذكر أن تبعدها حقاً عن أمّها المجرّبة والحقيقية، تكون قد نجحت في مسعاها. لا بأس بالنسبة لي. إذ سينال الطالب شهادته قريباً، وهي لديها وظيفة براتب محترم.

تقرّر عنه أن الفرق في العمر ليس بالأمر الهام.

تفتح إريكا باب البناية وتضع نفسها بثقة بين يدَي الرجل. تقول مازحة إنها رهن قوته. وتقسم إنها ستنسى كلّ ما يتعلق بأمر رسالتها الغبية، لكن ما حصل قد حصل. كان لديها ظرف طارئ، لكنها ستتداركه، يا عزيزي. وما حاجتنا إلى الرسائل؟ إذ إن أحدنا يعرف كلّ شيء يمكن معرفته عن الآخر. فكلانا يمكث في أفكار الآخر الأكثر عمقاً! وأفكارنا تمدّنا دائماً وتغذينا بعسلها. إريكا كوهوت، التي لن تذكّر الرجل بإخفاقه الجسدي، لأن جميع حواسها تقول: تفضل ادخل! أما والتر كليمر، الذي يفضّل أن يتصرّف وكأن جسده لم يسبق له أن أخفق في الدرجة الأولى، يلج البناية. لقد توفرت لديه الكثير من الأشياء، ويشعر بالإطراء لأنها اختارته. ثمة أشياء سيضطلع بها!

يقول لإريكا: لنوضح شيئاً واحداً. فليس ثمة أسوأ من امرأة تريد أن تعيد كتابة الخلق.

موضوع يصلح لمجلات الرسوم. إن كليمر مادة جيدة لرواية كاملة. إنه يمتّع نفسه لكنه لا يستهلك نفسه أبداً. بل بالعكس، فإنه يتمتّع ببرودته، تلك المكعّبات المجمدة في تجويفه الفموي. فالتملك بحرية يعني أن تكون قادراً على أن تغادر في أي وقت. لكن الملكية تظل في الخلف وتنتظر. وسرعان ما سيجتاز المرحلة التي تمثّلها هذه المرأة. يمكنه أن يقسم بذلك. فقد كانت قد رفضت المشاعر المتبادلة، وهو عرض كان صادقاً فيه. أما الآن فقد فات الأوان. لقد حان الوقت

لأن أفرض شروطي، اقترح كليمر. وأكد لها بشرفه أنه لن يسخر منه أحد مرة أخرى. يسألها مهدداً من تظن نفسها.

يدفع والتر كليمر المرأة إلى داخل الشقّة. يعقب ذلك تبادل للكلمات، لكنها لا تتحمّل ذلك. كانت تحبط الكلمات أحياناً. وخلال حديثهما تذمرت من دفعه لها إلى داخل شقّتها، وهو مجرد زائر. ترفض عندها عادة سيئة: الإلحاح المستمر المزعج. هناك أشياء كثيرة يجب أن أتعلمها، تقول بتواضع. بل حتى إنها تمسك الفريسة بمخالبها، التي لا تزال تنزف عند قدميها. تقول لنفسها إنها لا تريد أن تفسد كلّ شيء. إنها تأسف لأنها ارتكبت أخطاء كثيرة، ارتكبت معظمها بمفردها. الخطوة الأولى هي الأصعب دائماً: إريكا تثبت أهمية البداية الحقيقية. تستيقظ الأمّ الآن ببطء، بتردّد، بعد أن سمعت الكلمات القاسية المتبادلة. طموح الأمّ ينحصر في أن تحكم. من ذاك الذي يتكلم في منتصف الليل بصوت مرتفع كما لو كان يتحدث أثناء النهار، وفي شقتي أنا، ومع ابنتي؟ يرد الرجل بتعبير مبطن بالتهديد. تحضر المرأتان الطوب لتشنا هجوماً مضاداً على الرجل الوحيد. تنهال على وجه إريكا صفعة حتى قبل أن تعرف حقيقة ما يجري. هل رأيتِ هذا؟ ! نعم، لقد رأت إريكا ذلك. صفعها كليمر على وجهها، وبنجاح! مندهشة، تمسك إريكا خدها بيدها ولا تجيب شيئاً. عقد الفزع لسان الأمّ. فإذا كان على أحد أن يصفع إريكا، فهي الأمّ. وبعد عدة ثوان، وفيما كان كليمر يقف صامتاً، طلبت منه إريكا أن يغادر المنزل في الحال. تؤيّدها الأمّ وتدير ظهرها لهما لتظهر اشمئزازها من هذا المشهد برمّته. وبزهو الانتصار، يسأل كليمر الفتاة بهدوء: لم تتخيلي هذا أصلاً، أليس كذلك؟ تُدهش الأمّ لأن الرجل لم يختفِ فوراً وبدون أعذار. إنها لا تكترث لما يقولانه، تقول للهواء حولها. لا صوت يرتفع وسط تذمر

صاخب. صفعة ثانية تنهال على الآنسة إريكا. على الخدّ الآخر. ليس هذا لقاء حبّ من الجلد إلى الجلد. تنشج إريكا بصوت منخفض لكي لا يسمع الجيران. تشنّف الأمّ أذنيها. تضطر لأن تدرك أن ابنتها انحدرت إلى أسفل درك. الأمّ تقول بسخط إنه يتلف أملاك شخص آخر، أي ملكيتها! وتخلص الأمّ بقولها: اخرج من هنا حالاً. وبأسرع ما يمكن.

يمسك الرجل ابنة هذه الأمّ بقوة، كما لو كان يستولي على جهاز. لا تزال إريكا نصف مخدّرة من النوم. لا تفهم كيف يمكن أن يُكافئ الحبّ بهذه الدرجة من السوء - حبّها. إننا دائماً نتوقّع مكافآت على إنجازاتنا. ونعتقد أنه ليس من الضروري أن نكافئ الآخرين على إنجازاتهم. نتمنّى أن نحقق تلك الإنجازات بثمن أرخص. تتدخل الأمّ، تريد استدعاء الشرطة. لذلك تُدفع بقسوة إلى غرفتها، حيث ترتمي على الأرض. يقول لها كليمر موضحاً إنه يتكلّم مع ابنتها. لا تستسلم. كان لدى الأمّ حتى الآن الاختيار. يؤكد لها كليمر أنه أمامنا الليل بطوله، إذا دعا الأمر. لم تعد إريكا تتبرعم وتتفتّح. يسألها كليمر إن كان هذا ما كانت تتخيّله. تطلق صفارة إنذار وتقول لا. تجلس الأمّ بصعوبة، وتنذر الطالب بشيء مخيف، سيكون للأمّ فيه دور حاسم. وإذا تفاقم الأمر، فستطلب مساعدة أناس آخرين. هذا ما تقسم به القديسة المعمّرة. وسيأسف كثيراً لأنه يتصرف هكذا مع امرأة يجب أن تعامل برقة، امرأة ربما أصبحت أيضاً أمّاً ذات يوم. ويجب أن يفكّر في أمّه أيضاً! تشعر أمّ إريكا بالأسى على أمّه لأنها ولدته. وفي هذه الأثناء، تشقّ أمّ إريكا طريقها نحو الباب، لكنها تُدفع مرة أخرى بفظاظة. ولكي يدفعها، يضطر والتر كليمر أن يتجاهل إريكا قليلاً. ثم يقفل غرفة الأمّ، ويحبسها داخل حدودها الضيقة، التي يفترض أن تقفل

بالمفتاح على الفتاة عندما تجد الأمّ ضرورة لعقابها. وفي صدمتها الأولى، تظن الأمّ أنه أوصد عليها الباب! تخدش بأظافرها على الباب. تنشج وتتوعد. يزداد كليمر قوة أمام شراسة المقاومة. تشكل المرأة خطراً على الرياضي المنافس قبل بدء مباراة صعبة. تتشابك إريكا مع رغباته. إريكا تبكي: لم تكن هذه هي الصورة التي تخيلتها. تقول ما يقوله الناس بعد مشاهدتهم مسرحية هل هذا كلّ شيء؟ من ناحية، فإن ما يغمر إريكا هو لحمها، ومن الناحية الأخرى، يغمرها العنف الذي ظهر خارج الحبّ غير المتبادل.

تتوقّع إريكا أن يتأسف منها على الأقل، إن لم يكن أكثر. لكن لا. وتشعر بالسعادة لأن الأمّ لا تستطيع أن تتدخّل. وأخيراً، أصبح بوسع إريكا أن تتعامل بشكل خاص بالأشياء الخاصة. من يفكّر الآن في الأمّ أو في حبّ الأمّ، إلا الشخص الذي يريد أن ينجب طفلاً؟ يتحدث الرجل في كليمر. تحاول إريكا أن تلهب إرادته بعرض متعمد، ولو كان تافهاً. تتوسل إليه كي يشتعل اللهب حتى تستطيع أن تضيف حطبة أثخن من الرغبة. تتلقى صفعة أخرى على وجهها، رغم أنها تقول: أرجوك، لا تضربني على رأسي! تسمع شيئاً عن عمرها، الذي لا يقل عن خمس وثلاثين سنة، أأحبت ذلك أم كرهت. بدأت تخفت وتنطفئ ببطء بسبب نفوره الجنسي. وجه تلميذها يكفهرّ أكثر وأكثر. إنه مفتون. تتضح الحقيقة أمامه مثل يوم غائم في أواخر صيف. إنه لم يكن صادقاً مع نفسه، ولهذا السبب موّه هذه الكراهية الرائعة بالحبّ لفترة طويلة. وقد راقه هذا التمويه منذ زمن بعيد. لكنه بدأ ينزعه الآن.

المرأة الجاثية على الأرض ترى أنه توجد أشياء أخرى غير الأشياء التي تدعى الرغبات العاطفية. أما سلوكه فلا يمكن دعوته إلا حباً في منتصف الطريق. هذا ما سمعته إريكا كوهوت ذات مرّة. لكن يكفي،

يا عزيزي! لنبدأ شيئاً أفضل! إنها تريد أن ترى الألم وقد أزيل من الذخيرة الفنية لبوادر الحبّ. لكنها بدأت تشعر به الآن شخصياً، جسدياً، وتتوسل أن تعود إلى نسخة الحبّ الطبيعية. لنقترب من الآخر بالتفاهم. يتغلّب والتر كليمر على المرأة بعنف، رغم قولها إنها غيّرت رأيها. أرجوك لا تضربني. إني أتوق إلى المشاعر الودية. لكن إريكا تأخرت في تغيير رأيها. تقول إنها تحتاج كامرأة إلى الكثير من الدفء والمحبة. تضع يدها على فمها الذي أخذ ينزف من أحد طرفيه. إنه لأمر مثالي مستحيل، يجيب الرجل. ينتظر المرأة حتى تتراجع قليلاً، وسيبدأ عندها بمطاردتها. إن ما يدفعه إليها هو غريزة الصياد. غريزة رياضي الماء والمهندس، الغريزة التي تحذّره من خطر الأعماق والصخور. فإذا مدت المرأة يدها إليه، فسيولي الأدبار! ترجوه إريكا أن يريها جانبه الطيب، لكن كليمر بدأ يتعرّف لتوه على الحرية.

يوجّه والتر كليمر ضربة إلى بطن إريكا بقبضته اليمنى، لم تكن قوية ولا خفيفة. تتعثر وتقع قبل أن تستعيد توازنها وتنتصب واقفة. تتكوم إريكا على نفسها وتضع كلتا يديها على بطنها. إنها المعدة. لقد فعلها الرجل دون أن يبذل جهداً. إنه منسجم مع نفسه. لا بالعكس، فلم يكن بهذه الحدّة تجاه أحد من قبل. يسألها ساخراً: أين حبالها؟ وأين سلاسلها؟ ثم يضيف هازئاً إني أنفّذ طلباتك فقط يا سيدتي. ولا يمكن لكماماتك وأشرطتك أن تساعدك الآن، فمن يستطيع أن يحدث تأثير الكمامات والأربطة دون أن يستعملها. الأمّ التي كان المشروب لا يزال يسري في عروقها ويجعلها خدرة، تخبط بقبضتي يديها على الباب. لا تعرف ماذا يجري لها، لا تعرف ماذا يمكنها أن تفعل. وتشعر بالتوتر الشديد أيضاً لأنها لا تعرف ماذا يجري لابنتها. فبإمكان الأمّ أن ترى دون أن ترى. فقد أشرفت بنفسها على حرية طفلتها،

والآن يأتي شخص آخر يسيء استخدام تلك الحرية برعونة. تعد الأم نفسها بأن تضاعف من الآن وصاعداً، مراقبتها لها، راجية أن يترك لها الشاب قدراً هاماً لتشرف عليه. لقد لوت الطفلة أخيراً، وجعلت لها شكلاً، وها هو الآن شخص آخر يلويها ثانية. الأمّ تستشيط غضباً.

في هذه الأثناء، يضحك كليمر بشدة من اللحم الملوي: في عمرك، من الأفضل لك أن تقولي طابت ليلتك! إريكا تجهش بالبكاء، تذكر الأشياء التي تعرضت لها، وعانت منها أثناء الدروس. تقول متوسلة: ألا تتذكّر الفروق بين السوناتات؟ يسخر من الرجال الذين يتحمّلون أيّ شيء من النساء. إنه ليس من ذلك النوع من الرجال. لقد تجاوزت حدودها. أين سياطها وقيودها الآن؟ كليمر يخيّرها: إما أنتِ أو أنا. والحلّ الذي يقوله: أنا. إنه يسيء معاملة رأسها الذي تحميه بذراعيها. يوجّه لها لكمة قاسية: إن لم تكوني ضحيّة، فلا يمكنك أن تصبحي ضحية! يسألها ماذا سيحلّ برسالتها الرائعة. الجواب غير ضروري.

تتوقّع الأمّ، القابعة وراء باب غرفة نومها، حدوث الأسوأ لحديقة حيواناتها المؤلفة من شخص واحد. إريكا تبكي، تذكر الأشياء الجيدة التي فعلتها للطالب، جهودها التي لا تكلّ ولا تملّ في تدريبه لتطوير ذوقه الموسيقي وإتقان قدراته الموسيقية. تصرخ، تذكر إريكا مزايا حبّها - مهمة إضافية للرجل والطالب. تحاول السيطرة على الموقف. لا يمنعها إلا القوة السافرة. فالرجل أقوى. إريكا ترغي وتزبد: لا يمكنه أن يسيطر عليها إلا بالقوة والعنف. ولهذا تتلقى ضربتين أو ثلاث ضربات.

وفي كراهية كليمر، تنمو المرأة بحرية مثل شجرة. هذه الشجرة مشذّبة ومقلّمة. يد خدرة تصفع وجهاً. ووراء الباب، لا تعرف الأمّ ما

يجري، لكنها في حالة من الهياج الشديد وتبكي. تتمنّى أن تتمكن من القيام بإحدى رحلاتها التي لا تعد ولا تحصى إلى خزانة المشروبات نصف الفارغة. إنها لا تستطيع أن تطلب النجدة: فالهاتف في غرفة الاستقبال، بعيد المنال.

يسخر كليمر من عمر إريكا: امرأة في سنها يجب ألا تتوقّع شيئاً منه في ما يتعلق بالحبّ. لقد كان يتظاهر فقط، إذ لم يكن يهتم بها، بل كانت مجرد تجربة علمية له. وهكذا ينكر كليمر حاجاته الشريفة. وأين هي حبالك الشهيرة الآن؟ إنه يقطع الهواء كما بشفرة حلاقة. يقترح عليها أن تتطلع إلى الرجال ممن هم في عمرها أو ممن يكبرونها. يوجّه كليمر لها ضربة بلا هدف. لم يكن غضبه يهدف إلى إيقاع شرّ أو حيف. بل على العكس تماماً. كان غضبه يزداد شيئاً فشيئاً، إلى أن تملّكه تماماً، بعد أن وقع في الحبّ. وبعد تحقيق مفصّل، أظهرت إريكا حبّها لهذا الرجل، وها هي ضربة! ماذا يحدث؟

إذا كان عليه أن يقطع شوطاً في حبه وعواطفه، فيجب عليه أن يحطّم المرأة التي سخرت منه عندما كانت لها اليد الطولى! كانت تتوقّع أن يقيّدها، يكمم فمها، يغتصبها. لقد طلبت ذلك، وما تحصل عليه الآن مجرد مقبلات. يأمرها كليمر اصرخي، اصرخي. تبكي المرأة بصوت مرتفع. وتبكي أمّ المرأة أيضاً وراء الباب، وهي لا تعرف سبب بكائها.

تنزف إريكا قليلاً، تتكوّر مثل جنين، وتستمر عملية التدمير. إذ يرى الرجل في إريكا الكثير من النساء الأخريات اللاتي كان يريد أن يتخلص منهن. يقذف الكلمات في وجهها. إنه لا يزال في ريعان الصبا. ولا تزال حياتي أمامي. نعم، سيكون الأمر الآن عظيماً حقاً! وبعد أن أتخرّج من الجامعة، سآخذ عطلة طويلة في الخارج. يمدّ لها

الطعم، ثم يسحبه: سأذهب وحدي! لا يمكن لأحد أن يدّعي أنك شابة، أليس كذلك يا إريكا؟ فإن كان هو شاباً، فهي هرمة. وإذا كان رجلاً، فهي امرأة. يركلها والتر كليمر في أضلاعها وهي ممددة على الأرض. يوجه لها الضربات بعناية كبيرة لكي لا يتحطم شيء. فقد كان يتحكم بجسده دائماً على الأقل. يجتاز والتر كليمر إريكا، العتبة، ويخرج ليتنشق هواء الحرية. كانت هي السبب في كلّ ذلك لأنها حاولت أن تسيطر عليه وعلى رغباته. وهذا جزاؤها.

ينتابه إحساس مظلم، توجّس، حول هذه المرأة. ترفض كراهيته بصوت مرتفع، لكنها يجب أن تعاني منه جسدياً. تصرخ وتبدأ تستجديه بعبارات متماسكة. تسمعها الأمّ تصرخ فتصرخ معها بغضب. قد لا يترك الرجل لها شيئاً مهماً تسيطر فيه على الابنة. كما يتحرك في الأمّ خوف حيواني بأن ثمة شيئاً يحدث لطفلتها. تواصل توعّدها وركلها الباب. لكن هذا الباب لا يذعن كما كانت إرادة طفلتها تذعن منذ أمد بعيد. تعبّر الأمّ عن مخاوف لا يمكن سماعها من وراء الباب. تتحول إلى تهديدات مروّعة عن الدخول عنوة. وتذكّر ابنتها بالعواقب المتوقعة التي يسفر عنها حبّ الذكر، لكن الابنة لا تسمعها. تسترسل الفتاة في البكاء، وتتلقى ركلة في بطنها. تتدحرج تصرفات كليمر عبر رفض الأنثى بمتعة. تغمر كليمر البهجة لأنه يتجاهل رفضهما. فالرجل يريد أن يبدّد كلّ شيء كانت عليه إريكا - إلا أن ذلك لا يجدي نفعاً. لا تني إريكا تذكّره ماذا كانت بالنسبة له. أتوسل إليك، أرجوك.

وخلف الباب، يعتري الأم الخوف بسبب قيام طفلتها بالتذلل إليه، خوفاً من الرجل، وترتعش أوصالها. فضلاً عن أن جسدها قد يلحق به الأذى كذلك. الأمّ قلقة على جسدها. تتضرع إلى الله. لأن أيّ خسارة ستكون نهائية، والأمّ تخاف أن تفقد ابنتها. وعندها ستذهب أدراج

الرياح كلّ تلك السنوات الطويلة من التدريب الشاق. وستحل محل التدريب مآثر جديدة مع الرجل. ستعد الأمّ بعض الشاي عندما تتمكن من الخروج، ولعل أحداً يريد أن يحتسي بعض الشاي معها. تتمتم شيئاً عن الانتقام! عن إبلاغ السلطات! إريكا تبكي فوق هوّة الحبّ. الهوّة تدل على أن طلباتها المكتوبة أصابت الرجل بالصدمة باعتبارها طائشة للغاية. تقول لها إن إخفاقه كان مذلاً جداً. فقد كانت تخرج إلى الشارع وتظن أنها الأفضل. لكنها ما إن كانت تعرض نفسها على الآخرين، حتى تثبت أن حياتها كانت ضئيلة للغاية، وسرعان ما سيفوت الأوان.

تتمدّد إريكا على الأرض، العدّاء ينزلق تحتها. تقول له أرجوك لا. فرسالتها لا تستحقّ كلّ هذا العقاب. كليمر مطلق العنان، لكن إريكا غير مقيّدة. يضربها الرجل كيفما اتفق ويسألها: حسناً، أين هي رسالتك الآن؟ هل هذا كلّ ما تملكين. يتشدق بأنه لن يقيّدها، كما يمكنها أن ترى بنفسها. يسألها إن كان بوسع الرسالة أن تساعدها الآن. وفيما كان يوجّه لها ضربات خفيفة، كان يقول لها إن هذا ما كانت تطمح إليه. تعترض إريكا باكية بأن ليس هذا ما كانت تريده، بل كانت تصبو إلى شيء آخر. فيجيبها: حسناً يجب أن تعبّري عن نفسك بدقة أكبر في المرة القادمة. يركلها، يظهر لها المعادلة البسيطة: أنا أنا . وأنا لا أشعر بالخجل. فأنا نفسي مئة في المئة. يهدّد المرأة: يجب عليها أن تقبله كما هو. أنا كما أنا. يتحطم أنف إريكا، وكذلك أحد أضلاعها. تدفن وجهها بين يديها. يقول كليمر: صحيح، فوجهك ليس بهذه الدرجة من الروعة، أليس كذلك؟ فهناك وجوه أكثر جاذبية، يقول الاختصاصي، وينتظر المرأة أن تقول إنه توجد وجوه غير جذابة أكثر أيضاً. ينزلق ثوب نومها، فيخطر في بال كليمر أن يغتصبها. لكنه،

لكي يظهر لها ازدراءه لجاذبية الجسد الأنثوي يقول: يجب أن أشرب كوباً من الماء أولاً. يقول لإريكا إن انجذابه إليها لا يزيد على انجذاب الدبّ إلى جذع شجرة أجوف، لا يزال النحل يعشش فيه. تلفت إريكا انتباهه إلى الإنجازات الموسيقية، لا إلى جمالها. يمكنها الآن أن تنتظر دقيقتين. لقد حللت المشكلة بطريقتي الخاصة، طالب الهندسة راضٍ. الأمّ تلعن وتشتم. إريكا تفكّر في الهرب. إنها معتادة على أن تفكر، لا على أن تتصرّف. إنها مغلقة بإحكام على الدوام، ولم يسبق لها أن كوفئت في حياتها.

الماء يجري في المطبخ منذ فترة طويلة. فالرجل يحبّ أن يشرب ماء بارداً. ويدرك تمام الإدراك أن تصرفاته قد تؤدي إلى عواقب وخيمة. فهو الرجل، وهو على استعداد لتقبل العواقب. للماء طعم خفيف من التذمّر. عليها أن تعاني من العواقب أيضاً، يفكر بسعادة أكبر. من الواضح أن دروسه في البيانو قد انتهت، لذلك يستطيع أن يكرّس نفسه للرياضة حقاً. لا أحد يناسب أحداً هنا. ومع ذلك يجب عمل شيء. لا أحد يحاول أن يتوافق مع الآخر. كليمر يصغي ليسمع إن كانت المرأة تقبل أن تتحمّل جزءاً من اللوم على الأقل. إنك الملومة جزئياً على الأقل، يجب أن تعترفي، يقرّ كليمر للمرأة. لا يمكنك أن تثيري أحداً ثم تتوقفي عن ذلك على هواك. إذا بدا لك شخص أنه رائع فلا تستطيعين أن توصدي الباب دونه. يركل كليمر بشراسة باب الخزانة السحرية التي تضم محتويات غير معروفة. يُفتح الباب عنوة، ودون أن يتوقع ذلك يكتشف سلة قمامة بلاستيكية. الصدمة تجعل القمامة تتناثر. تتناثر مواد مختلفة على أرض المطبخ. وخاصة العظام. ثمة قطعة لحم محروقة في المقلاة. يضحك كليمر دون أن يقصد ذلك. في الخارج، ضحكته تزعج المرأة. تقترح أن

يتحدثا عن كلّ شيء، أرجوك. إنها تعترف علناً بجزء من اللوم. ما دام هو موجوداً هنا، فهناك أمل. أرجوك لا تذهب.

تريد أن تنهض، لكنها لا تستطيع. تقع. ومن وراء حاجزها الذي لم تقمه هي، تصرخ الأمّ تنادي ابنتها! ماذا يجري لك؟ الابنة تقول لها إن كلّ شيء، كل شيء على ما يرام. تتضرع الابنة إلى الرجل أن يدع أمها تخرج. تصرخ «ماما»، تزحف إريكا نحو الباب، وتصرخ الأمّ اسم إريكا بصوت أعلى من وراء الباب. وبالنبرة ذاتها، تطلق الأمّ اللعنات، كعادتها.

يتحصّن كليمر بالماء البارد. لقد جعله الماء البارد أبرد قليلاً. تكاد إريكا أن تصل إلى باب الأمّ، لكن الطالب يجرها بعيداً. تتوسل إليه ثانية: لا على رأسها أو يديها. يقول لها كليمر إنه لا يستطيع أن يخرج وهو في هذه الحالة، إذ سيخيف الناس الذين سيرونه. فهي من أوصلته إلى هذه الحال. كوني لطيفة معي قليلاً يا إريكا. أرجوك. يندفع نحوها مهتاجاً. يلعق وجهها ويطلب منها الحبّ. من يمكنه أن يعطيه الحبّ بسخاء أكثر، وبشروط أقل سوى امرأة عاشقة؟ وبطلبه الحبّ، يفتح نفسه عندما يفتح سحابه. يطلب الحبّ والتفاهم، يلج المرأة بقوة وبإصرار. يطلب حقّه في الحبّ بقوة، وهو حقّ مشروع لأيّ شخص، حتى لو كان من أسافل الناس. كليمر، أحد أسافل الناس وأحقرهم، يلج في أعماق إريكا. ينتظر أن يسمع أنات المتعة منها. لكن إريكا لا تحسّ شيئاً. لا شيء يأتيها. لا شيء يحدث. إما أن الأمر قد جاء متأخراً جداً، أو مبكّراً جداً. تعترف المرأة صراحة أنها كانت ضحيّة الاحتيال والخداع، لأنها لا تحسّ بشيء. الإفناء هو صميم هذا الحبّ. تأمل أن تحبّه، ويتمنّى كليمر أن تحبّه. يضرب كليمر وجه إريكا ضربات خفيفة لتنطلق منها أنة، تنهيدة. وفي واقع الحال، لم

يكن يبالي إن تنهدت أم لا. إريكا ترغب في الشهوة، لكنها لا تشتهي شيئاً ولا تحسّ شيئاً. تتوسل إلى الرجل أن يتوقف فوراً! يضربها بقوة أكبر، براحة كفّه، في وسط طلبات الحبّ المرهقة، تتحول تصرفاته إلى عنف، إلى تسلّق جبل شديد الانحدار. المرأة لا تستسلم مرحة، لكن الرجل يريدها أن تستسلم طوعاً. فهو ليس في حاجة لأن يرغم امرأة. يصرخ فيها حتى تتلقاه بمتعة! ينظر إلى وجهها الذي لا يبدو عليه أي تأثير، والذي لا يترك حضوره سوى طابع واحد: الألم. هل يعني هذا أنه يتعين عليّ أن أذهب؟ يسأل كليمر وهو يضربها. إنه يؤدي أفضل ما في شخصيته على هذه المرأة، كي يتمكن من التخلّص من شهوته أخيراً. المرة الأخيرة، كما يهدّدها. إريكا تنشج، تستجديه أن يتوقف، لأنها تتألم. وبدافع الكسل، لا يستطيع كليمر أن ينسحب من المرأة قبل أن ينهي ما يقوم به. يسألها: أتحبينني. يلعقها ويضربها بالتناوب. متورداً من الغضب يضع رأسه فوق رأسها. الأمّ تريد أن ينتهي كلّ ذلك. تخبط على الباب كمدفع رشاش. تتجاهل الجيران، تقرع بقوة وبسرعة. يزيد كليمر من سرعته. إنه يتحرك بسرعة كبيرة. لا يقذف فوق هدفه، بل يصيب في وسط الهدف. لقد فعلها البطل ثانية.

ينظف نفسه بسرعة بمنديل ورقي، ثم يرمي الكتلة الرطبة على الأرض بجانب إريكا. ينصحها بألا تخبر أحداً. من أجل مصلحتها. يعتذر عن سلوكه. يفسر سبب سلوكه بقوله إنه لم يتمالك نفسه. فأشياء كهذه قد تحدث للرجل. يعد إريكا التي تظل ممددة على الأرض وعداً مبهماً. إني في عجلة من أمري: يطلب الرجل المغفرة بطريقته. يجب أن أذهب الآن: يقدم الرجل حبه واحترامه للمرأة بطريقته. لو كانت معه وردة حمراء واحدة فقط، لكان قد قدمها إلى إريكا في الحال. يغادر قائلاً: «حسناً، إلى اللقاء». يتفحص المنضدة عند المدخل، يبحث عن

مفتاح الباب الخارجي. ليس شيئاً جيداً - امرأتان وحدهما تعيشان معاً. هذه هي نصيحته لتعيشا حياة أفضل. يجب أن تفكّر في الفجوة بين الأجيال بموضوعية أكبر! ويقترح كليمر على إريكا أن تخرج أكثر، إن لم يكن معه فوحدها. يعرض عليها أن يرافقها إلى أماكن يعرف أنه لن يصطحبها إليها أبداً. يعترف: حسناً، هذا كلّ ما في الأمر. وبدافع الفضول المطلق، يسألها إن كانت ستفعل هذا الشيء مرة أخرى مع رجل آخر. ويجيب نفسه الجواب المنطقيّ الوحيد: لا شكراً. يعود ويكرر لها النصيحة الثمينة: لا تبدأي شيئاً لا تستطيعين إكماله. ثم يضحك. يجب أن يضحك: أترين، هذا ما يحدث. ينصحها، كوني حذرة! يجب أن تضع تسجيلاً الآن لتريح أعصابها. إنه وداع طويل، يكرّره عدة مرات. يسأل إن كان هناك أيّ خطأ، ثم يجيب عن سؤاله: لا تخش شيئاً! عندما تتزوّجين، سيكون كلّ شيء على ما يرام. واعتماداً على الحكمة الشعبية، يتطلع كليمر إلى المستقبل. يجب أن يعود إلى البيت دون أن يقبّل أحداً، لكنه، من الناحية الأخرى، هل قبّل أحداً! إنه لا يغادر من دون مكافأة. لقد أخذ حقه. وقد حصلت المرأة بالتأكيد على ما كان مقدراً لها. إن ما تراه هو ما تحصل عليه. كان ذلك هو ردّ كليمر لإريكا بعد أن لم تتمكن من الاستجابة له جسدياً.

يهبط الدرج، يفتح الباب الخارجي، ويلقي المفتاح إلى الداخل، على الأرض. بقي السكان من دون حماية لأن الباب ظل مفتوحاً بينما واصل كليمر طريقه. يقرّر أنه سيحدق بصفاقة أو بغطرسة في وجه أيّ شخص يصادفه في طريقه. سيصبح اليوم أكثر استفزازاً، وسيقوم بحرق كلّ الجسور وراءه. يثب بخفة فوق القضيب المتوازي للثقة بالنفس: فلن تتحدث المرأتان حول ما حدث - لمصلحتهن. يقارن بين تكاليف ما يمكن أن تقولاه والفوائد، لكن باقتضاب شديد.

كانت الشوارع تخلو من أية سيارات، وإذا ما اعترض سبيله أحدهم، فستساعده ردود أفعال كليمر الشابة. ما عليك إلا أن تقفز إلى جانب الطريق بحزم. يستطيع كليمر المفعم بالشباب والسريع أن يواجه أي شخص! يقول: بوسعي هذه الليلة أن أمزّق الأشجار بيديّ العاريتين! تغمره السعادة لأنه بدأ يشعر بأنه أفضل بكثير من قبل. يتبوّل بقوة على جذع شجرة. ويدع الأفكار الإيجابية تجول في رأسه: هذا هو سرّ نجاحه الكامل. فكما ترى، يسير دماغه في اتجاه واحد! لا يريد كليمر أن يرفع أثقالاً ثقيلة، هذا هو قراره. يسير في وسط الشارع: متحدياً.

* * *

في اليوم التالي تصبح إريكا وحدها تغطيها الضمادات وكمّادات الرعاية الأمومية. كان من الممكن أن تكون إريكا قد بدأت يومها هذا مع الرجل. إنها تواجه النهار الآن دون أن تكون مستعدة له. لا يطلب أحد من السلطات إلقاء القبض على كليمر. لكن الطقس جميل. تلوذ الأمّ بصمت مطبق. وكانت بين الحين والآخر تلقي كرة بنيّة حسنة، لكنها لم تستطع إصابة الهدف في السلة التي علّقتها في مكان مرتفع، وكان كلّ ذلك بسبب ابنتها. وكانت تحرص منذ سنوات على أن تزيد رفع الطوق إلى أعلى وأعلى. حتى أصبحت بالكاد تراها.

تعلن الأمّ أنه يجب على ابنتها أن توسّع دائرة معارفها، أن تزور أماكن جديدة وترى وجوهاً جديدة. فقد آن الأوان في عمرها. تحسب الأمّ لطفلتها المعقودة اللسان وتقول: ليس من المفيد لكِ أن تمضي وقتكِ مع سيدة هرمة مثلي طوال الوقت، فأنتِ في عزّ شبابك وتفيضين حيوية. ولأن إريكا لا تعرف الناس جيداً، وهذا ما بدر منها بوضوح، فقد أخطأت الهدف للمرّة الثانية في هذه السنة. تبحث الأمّ عما يصلح

لإريكا. وتدرك إريكا أن هذه هي أيضاً الخطوة الأولى نحو معرفة الذات. هناك رجال آخرون، تحاول الأمّ التخفيف من حدة قلقها من المستقبل الغامض، تلبث إريكا صامتة، بلطف شديد. تخشى الأمّ أن تكون إريكا تفكّر الآن، وتعرب عن خوفها. فالشخص الذي لا يتكلّم قد يكون يفكّر. تطلب الأمّ أن تكشف إريكا عن أفكارها، بدلاً من أن تتركها تنهشها. فإذا فكّرت في أيّ شيء، يجب على إريكا أن تخبر الأمّ به، أن تعلمها بما تفكر. الأمّ تخاف من الصمت. هل تشعر ابنتها بالحقد؟ هل تجرؤ وترد على الكلام؟

تشرق الشمس فوق نفايات تكسوها الأتربة. اللون الأحمر يغشى واجهة البناية. وقد اكتست الأشجار بالأوراق الخضراء. إنها تقرّر أن تزيّن الطبيعة. بدأت النباتات تزهر. يتحرّك الناس بسهولة في كلّ هذا. فقاعات من الكلام تخرج من أفواههم.

أشياء كثيرة تؤلم إريكا. إنها تتحرك بحذر، بحذر شديد. ضماداتها ليست مريحة دائماً، لكنها وضعت بحبّ ومودّة. وقد يلهم الصباح إريكا أن تجد سبباً واحداً يجعلها تنغلق على نفسها بإحكام طوال هذه السنوات، حتى تخرج ذات يوم بقوة من وراء الجدران وتتفوق على الآخرين! لم ليس الآن؟ اليوم؟ ترتدي إريكا ثوباً قديماً قصيراً بطلت موضته. لم يكن الثوب قصيراً كما كان شائعاً آنئذ. كان الثوب شديد الضيق، ومفتوحاً من الظهر. لقد بطلت موضته تماماً. والأمّ لا تحبّ هذا الثوب أيضاً، لأنه قصير جداً وشديد الضيق ولا يتلاءم مع ذوقها. تكاد إريكا تتفجر في كلّ بقعة من جسدها.

تهيم إريكا على وجهها في الشوارع. تثير دهشة المارة. كان مجرّد حضورها يكفي. وزارة خارجية إريكا ترتدي ثوباً بطلت موضته، فتجعل بعض الرجال يلتفتون إلى الوراء ساخرين هازئين.

ولكي تدخل شيئاً من البهجة على نفسها، تقترح الأمّ أن تخرجا في نزهة - لكن لا يمكنك أن ترتدي هذا الثوب. لكن ابنتها لا تعيرها أذناً صاغية. وتخرج الأمّ بعض الخرائط السياحية من الدروج القديمة التي يكسوها الغبار، التي كان الأب يحتفظ بأغراضه فيها، تتبع أثر الأشياء فيها بإصبعها، باحثة عن اتجاهات، متعقبة قطع الطعام. وفي المطبخ، تدس الابنة خفية سكيناً حادة في حقيبة يدها. وكالعادة، فإن السكين لا ترى ولا تتذوق إلا الحيوانات النافقة. ولم تكن الابنة تعرف بعد إن كانت سترتكب جريمة أو أنها سترمي بنفسها عند قدمَي الرجل وتقبّلهما. وستقرّر لاحقاً إن كانت ستطعنه بها. أو أنها ستتوسل إليه بطريقة جادة أو عاطفية. لا تصغي لأمّها، التي تصف لها الطرق بحيوية.

تنتظر الابنة الرجل الذي يجب أن يأتي ويتوسل إليها. تجلس بهدوء عند النافذة تفكّر إن كان عليها أن تخرج أم تبقى في البيت. في البداية تفضل أن تبقى في البيت. ربما أذهب غداً، تقرّر. تنظر إلى الشارع، ثم تغادر. المحاضرات الصباحية ستبدأ قريباً في كلية الهندسة: القسم الذي يدرس فيه كليمر، الذي سألته عنه ذات مرّة. الحبيب يدلها على الطريق. الرغبة هي مستشارها الذي لا يفقه شيئاً.

تخرج إريكا كوهوت، تتجاوز الأمّ. تبحث الأمّ في الأسباب التي دعت إريكا إلى الخروج. فقد بدأت الأمّ تعرف منذ أمد بعيد، أن الزمن أشبه بنبات حقود يلتهم الحشرات، لكن ألا يزال الوقت مبكراً لأن يعرض المرء نفسه؟

وكانت الطفلة قد دأبت على الخروج في وقت متأخر بعض الشيء من النهار، ولذلك كان النهار يبدأ يتآكل في وقت متأخر كذلك.

تضع إريكا السكين الدافئ في حقيبتها، وتسير في الشوارع نحو

هدفها. تعرض مشهداً غريباً، بدا أن الناس يهربون منه. لا يتردّد الناس في التحديق فيها. يهمهمون ويدمدمون بملاحظاتهم وهم ينعطفون. لا يخجلون من التعبير عن رأيهم بهذه المرأة. ففي تنورتها الميني، تبدو إريكا بطولها الكامل وهي تدخل في منافسة شديدة مع الشباب. الشباب، الذي يمكن رؤيته في كل مكان، يسخر من المعلّمة علناً. الشباب يسخر من إريكا بسبب شكلها الخارجي. أما إريكا فكانت تسخر من الشباب لداخله الذي لا ينطوي على جوهر حقيقي. عين ذكورية تبعث إشارة إلى إريكا: يجب ألا ترتدي مثل هذه التنورة الشديدة القصر. فساقاها ليستا رائعتين إلى هذه الدرجة! تغذّ المرأة السير، ضاحكة. فتنورتها لا تلائم ساقيها، وساقاها لا تلائمان تنورتها، تماماً كما سيقول ناقد غير متحيز. ترتقي إريكا فوق نفسها وفوق الآخرين. تتساءل بقلق إن كان بإمكانها أن تتعامل مع الرجل. الشباب يهزأ حتى من الشباب في وسط المدينة. ترد إريكا على الاستهزاء بصوت مرتفع. فما يمكنهم أن يفعلوه، تستطيع هي أن تفعله على وجه أفضل. إنها تفعله منذ فترة أطول.

تجتاز إريكا الساحات المفتوحة أمام المتاحف. يحلّق الحمام في وجه تصميهما وعزمها! يحدّق السيّاح أولاً في الإمبراطورة ماريا تيريزا، ثم في إريكا، ثم يعودون إلى التحديق في الإمبراطورة. أجنحة تصفق. أجراس ساعات المتحف تدق. حافلات الترامواي في الرينغ تتّجه صوب إشارات المرور. أشعة الشمس تتلألأ وترفرف من خلال الغبار.

تبدأ الأمهات الشابات مسيرتهن اليومية وراء قضبان حديقة القلعة. أولى شاخصات «ممنوع» ملقاة على الممرات المكسوة بالحصى. ومن عليائهن، تقطر الأمهات سمّاً. وترى في كل مكان شخصين أو أكثر يتبادلان الحديث. يتجمع الزملاء، يدخل الأصدقاء في مناقشات حادة.

يسرع السائقون بنشاط وحيوية عبر معبر الأوبرا لأن المشاة بعيدون وخارج مرمى البصر، يبقون تحت الأرض حيث يجب أن يتحمّلوا وطأة أي ضرر يسبّبونه هم أنفسهم. فهناك لا يستطيعون إيجاد كبش فداء، وبمعنى آخر: السائقون. يدخل الناس المخازن بعد أن يقيّموها أولاً من الخارج. بضعة أشخاص يهيمون على وجوههم. عمارات المكاتب في الرينغ تبتلع شخصاً تلو الآخر، أشخاص يعملون في شركات الاستيراد والتصدير. وفي مقهى عايدة، تناقش الأمهات نشاطات بناتهن الجنسية، ويجدنهن غير ناضجات على نحو خطير. ويمتدحن التزام أبنائهن بالمدرسة والرياضة.

تمسك إريكا كوهوت طرف سكين حقيقي قابع في حقيبتها اليدوية. هل السكين ذاهب في رحلة أم أن إريكا ستأكل فطيرة متواضعة وتطلب مغفرة الذكر؟ لا تعرف حتى الآن. ستقرّر ما إن تصل. لا تزال الاحتمالات متوقفة على السكين. دعيه يرقص. المرأة تتوجّه نحو غاليري سيسيون للوحات الفنية. فنان مشهور يعرض لوحاته بعد أن لم يعد الفن كما كان. ومن هنا، تلوح كلية الهندسة، القطب النقيض للفنّ، من بعيد. وما على إريكا إلا أن تعبر الشارع ثم تجتاز حديقة ريسيل. تهبّ نسمات بين الحين والآخر. أصوات تعطش الشباب للمعرفة تلتقي هنا. العيون تتفحص إريكا التي تواجهها بحدة. بدأ الناس أخيراً ينظرون إليّ، تغمر إريكا الفرحة. فقد كانت تتفادى مثل هذه النظرات منذ سنوات وسنوات، كي تبقى خنثى. أما إذا استمر الشيء ودام، فإنه ينفجر في النهاية. وإريكا لا تواجه النظرات مجردة من السلاح - أيها السكين الصغير الغالي، أنت. أحدهم يضحك. لا، يضحك الجميع بصوت عالٍ هكذا. فمعظم الناس لا يضحكون. إنهم لا يضحكون لأنهم لا يرون سوى أنفسهم. إنهم لا يلاحظون إريكا.

مجموعات من الشبان والشابات تتجمد في الجدول المتدفق. يشكّلون الحرس الذي يسير في الطليعة، وفي المؤخرة. لدى الشباب الملتزم تجارب قوية. إنهم لا يتوقفون عن التحدث عنها. البعض يريد تجارب مع أنفسهم، والبعض الآخر مع الآخرين: كلّ حسب هواه ومزاجه.

وعلى واجهة كلية الهندسة، تحمل الأعمدة رؤوساً معدنية لعلماء الكلية المشهورين، الذين اخترعوا القنابل والنظم الدفاعية.

كنيسة كارلسكيرتش العملاقة تجثم مثل ضفدع وسط الأرض المقفرة الكئيبة. الماء يفور وتنبعث منه فقاعات، واثق من نفسه ومهذار. يسير المرء فوق الحجارة، إلا في حديقة ريسيل، التي صممت لأن تكون واحة خضراء. يمكنك أن تأخذ أيضاً قطار الأنفاق، إن أحببت.

إريكا كوهوت ترى والتر كليمر يقف بين مجموعة من الطلاب اللطيفين من مختلف مراحل المعرفة. يقهقون معاً. لكنهم لا يضحكون على إريكا، التي حتى لم يلاحظوها. يقول والتر كليمر بصوت مرتفع إنه لن يلعب الهوكي اليوم. فهو لم يأخذ قسطاً وافياً من الراحة بعد تلك الليلة التي كانت أطول من الليالي التي تلتها. ترى إريكا ثلاثة فتيان وفتاة واحدة، يبدو أنها تدرس كذلك في أحد فروع الهندسة، لذلك كانوا يشكّلون إبداعاً تقنياً. يضع والتر كليمر بود ومرح ذراعه حول كتفيها. الفتاة تضحك بصوت عالٍ وتدفن رأسها الأشقر للحظات قصيرة في عنق كليمر. لا بد أن رقبته أيضاً تحمل رأساً أشقر. الفتاة تضحك بقوة إلى درجة أنها لا تقوى على الوقوف، بينما تتواصل لغة جسدها. على الفتاة أن تعتمد علٰى كليمر. يوافقه الآخرون. والتر كليمر يضحك أيضاً وشعره يختلج. الشمس تعانقه. الضوء يحيط به. يواصل كليمر

الضحك بصوت مرتفع، ويشاركه الآخرون بملء رئاتهم. ما المضحك في كلّ ذلك؟ يسأل أحد القادمين الجدد ثم يشاركهم الضحك. يلتقط رأس الخيط. يهمهم له أحدهم شيئاً بمرح، فيعرف الآن لماذا كانوا يضحكون. يبزّ الآخرين بالضحك لأنه يجب عليه أن يعوّض عن الوقت الذي افتقده من الضحك.

تقف إريكا كوهوت هناك، تنظر، تراقب. إننا الآن في وضح النهار، وإريكا تراقب. وعندما تضحك المجموعة حتى الثمالة، تنعطف نحو كلية الهندسة. وفيما بدأ الطلاب يتحركون، كانوا لا يزالون يقهقهون تلك القهقهات النابعة من صميم القلب. يقاطعون أنفسهم بضحكاتهم.

النوافذ تتلألأ في الضوء. إنها لا تنفتح على هذه المرأة. لا تنفتح على أحد. لا يوجد ثمة شخص جيد. يودّ الكثير تقديم يد المساعدة، لكنهم لا يفعلون. تلوي المرأة عنقها بعيداً إلى الجانب وتكشّر عن أنيابها مثل حصان مريض. لا أحد يضع يداً عليها، لا أحد يأخذ منها شيئاً. تلقي نظرة سريعة من وراء كتفها. يجب أن تغرس السكين في قلبها وتلتوي هناك! ما تبقى من القوّة اللازمة يخفق. تحط عيناها على لا شيء، ومن دون ثورة غضب، أو حنق، أو حبّ، تطعن إريكا كوهوت في مكان بين الكتفين، فيتدفق الدم في الحال. الجرح غير مؤذ، لكن يجب ألا يدخل إليه وسخ وقيح. لا يقف العالم، غير المجروح، من دون حراك. لا بد أن الشبان اختفوا داخل البناية منذ وقت طويل. مبنى يلتصق بجانب المبنى. يعاد السكين إلى مكانه في حقيبة اليد. فجوة تفغر وتتثائب في كتف إريكا. يتمزق ذلك النسيج الطري من دون مقاومة. لقد ولج الفولاذ، وخرجت إريكا. تضع يداً على الجرح. لا أحد يتبعها. يهرع العديد من الناس نحوها، يتجمعون

حولها كما يتجمع الماء حول هيكل سفينة محطمة. لا تشعر بأيّ من الآلام الفظيعة المتوقعة في أية ثانية. نافذة سيارة تتألق.

ظهر إريكا حيث ينفتح السحّاب قليلاً، دافئ. أصبح ظهرها دافئاً بفعل الشمس الساطعة بقوة. إريكا تمشي وتمشي. ظهرها يصبح دافئاً في الشمس. الدم يتسرب منها. ينظر الناس من الكتف إلى الوجه. البعض يستدير. لكن ليس الجميع. تعرف إريكا الاتجاه الذي يجب أن تسلكه. تعود إلى البيت، تغذّ خطاها شيئاً فشيئاً.

هذا الكتاب

تتهم يلينيك المجتمع النمساوي بالنفاق، وتنتقد المجتمع البرجوازي الذي تعيش فيه وتقول إن الحياة فيه كالعيش في الأدغال، فإما أن تكون الفريسة أو الصياد. كما ترفض النظرة الدونية للمرأة واعتبارها سلعة ودمية للجنس.

ويرى هوراسه أنجدل، السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية، أنها «كاتبة سهلة الفهم، صعبة اللغة، وتحتاج قراءتها إلى جهد خاص تستحقه مواضيع إبداعها الهامة».

وقالت الأكاديمية السويدية إنها منحت جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٤ لألفريدة يلينيك «تقديراً لما تكتظ به روايات ومسرحيات هذه الأديبة من فيض موسيقي من الأصوات والأصوات المضادة التي تكشف بشغف لغوي استثنائي عبثية المسلّمات الاجتماعية والصور النمطية والسلطة الاستبدادية لتلك المسلّمات وما لها من نفوذ طاغ على حياة المجتمع».

طوى للنشر والإعلام
منشورات
2013